

حَدِيثُ الْقُرْآنِ عَنِ الْقُرْآنِ

مَحَمَّدُ الرَّائِي

مكتبة العبيكان

٢٢٩

الراوي، محمد بن عبد الرحمن .

٨١٤ ر

حديث القرآن عن القرآن/ محمد بن عبد الرحمن الراوي . - ط ١ .

الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٤هـ / ١٤٩٤م .

... ٢٤٤ سم .

ردمك ٥ - ٦٥ - ٢٠ - ٩٩٦٠

١ . القرآن - مباحث عامة .

أ - العنوان

رقم الإيداع ١٧٠٨ / ١٤

ردمك ٥ - ٦٥ - ٢٠ - ٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ / ١٩٩٤م

حقوق الطبع محفوظة

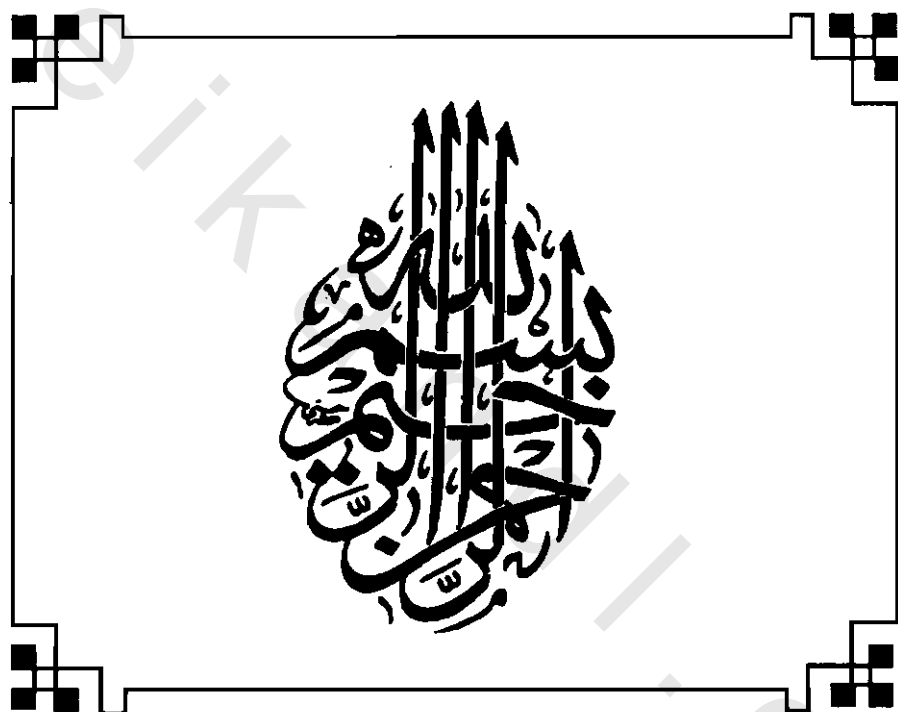
الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩



obeikandi.com

المقدمة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ

وبعد

لقد أنزل القرآن وحُفِظَ بحفظ الله لِيُتَدَبَّرَ وليُعملَ به .

وحديث القرآن عن القرآن فيه بيان لهديته ومقاصده ، ودعوة إلى حسن تدبره والعمل به ، فهو حق يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم . ولم يكن حديث القرآن عن القرآن وقفاً على سورة بعينها . وإن سُمِّيت سورةٌ منه باسم من أسمائه ، هي سورة «الفرقان» التي بُدِئت بقوله سبحانه ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾ لقد جاء الحديث عن القرآن متضمناً في كثير من آياته .

وبدئت سوراً كثيرةً بالحديث عنه تنويهاً به وتعظيماً لشأنه . من ذلك :

- الم ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ . . (البقرة : ١ ، ٢)
- الم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ : نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴿٢﴾ (آل عمران : ١ - ٣)
- ﴿١﴾ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ (الأعراف : ١ ، ٢)
- ﴿الرَّتِّلِكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿١﴾ (يونس : ١)
- ﴿الرَّتِّلِكَ أَهْكَمْتَ ءَايَتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتَ مِنْ لَّدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ ﴿١﴾ (هود : ١)
- ﴿الرَّتِّلِكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ (يوسف : ١ ، ٢)
- ﴿الرَّتِّلِكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١﴾ (الرعد : ١)

- ﴿الرَّكِيبُ﴾ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴿إبراهيم: ١﴾
- ﴿الرَّتْلُ﴾ آيَةُ الْكِتَابِ وَقُرْآنِ مُبِينٍ ﴿١﴾ ﴿الحجر: ١﴾
- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَعَلَّ يَجْعَلَ لَهُ عِوَجًا﴾ ﴿الكهف: ١﴾
- ﴿طه﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿١﴾ إِلَّا نَذْكُرُهُ لِمَنْ يَخْشَى ﴿٢﴾ ﴿طه: ١، ٢﴾
- ﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿النور: ١﴾
- ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ﴿الفرقان: ١﴾
- ﴿طس﴾ تِلْكَ آيَةُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ ﴿الشعراء: ١، ٢﴾
- ﴿طس﴾ تِلْكَ آيَةُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴿النمل: ١، ٢﴾
- ﴿طس﴾ تِلْكَ آيَةُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ تَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢﴾ ﴿القصص: ١، ٢﴾
- ﴿الر﴾ تِلْكَ آيَةُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ﴿٢﴾ ﴿لقمان: ١-٣﴾
- ﴿الر﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ ﴿السجدة: ١، ٢﴾
- ﴿يس﴾ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣﴾ تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٤﴾ ﴿يس: ١-٥﴾
- ﴿ص﴾ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ ﴿ص: ١﴾
- ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ ﴿الزمر: ١، ٢﴾
- ﴿حَم﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١﴾ ﴿غافر: ١، ٢﴾
- ﴿حَم﴾ تَنْزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ كُنْتُ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ ﴿فصلت: ١-٣﴾
- ﴿حَم﴾ عَسَى ﴿١﴾ كَذَلِكَ يُوحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴿الشورى: ١-٣﴾

- ﴿حَمْدٌ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَإِنَّهُ فِي أُولَى الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلَى حَكِيمٌ ۝﴾ (الزخرف: ١ - ٤)
- ﴿حَمْدٌ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ ۝ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝﴾ (الدخان: ١ - ٣)
- ﴿حَمْدٌ ۝ نَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝﴾ (الجاثية: ١ ، ٢)
- ﴿حَمْدٌ ۝ نَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝﴾ (الأحقاف: ١ ، ٢)
- ﴿قَبَّ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝﴾ (ق: ١)
- ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ إِن ۝﴾ (الرحمن: ١ ، ٢)
- ﴿قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَتَأْتِيهِمْ وَلَن يُفْشِرَكَ بَرْنًا أَحَدًا ۝﴾ (الجن: ١ ، ٢)
- ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّادِي الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ قَرَأْ أَوْ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾ (العلق: ١ - ٥)
- ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝﴾ (سورة القدر: ١)
- ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝ فِيهَا كُتِبَ قِسْمَةٌ ۝﴾ (البينة: ١ - ٣)
-
- وقد يأتي الحديث عن القرآن في أواخر السور كما جاء في أولها. من ذلك:
- ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝﴾ (الأعراف: ٢٠٤)
- ﴿وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصِرْ حَتَّىٰ يَخُوكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ۝﴾ .. (يونس: ١٠٩)
- ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝﴾ (يوسف: ١١١)
- ﴿هَذَا بَلَّغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرُوا ۝ الْأَلْبَابِ ۝﴾ (إبراهيم: ٥٢)
- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ ۚ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ۝﴾ (الكهف: ١١٠)

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أُعْبَدَ رَبِّكَ هَذِهِ الْبَلَدَةُ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا هَتَدَى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ (٩٢) وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٩٣) (النمل : ٩١ - ٩٣)

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا مِثْلُ مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ ﴾ (٩٤) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٩٥) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (٩٦) (الروم : ٥٨ - ٦٠)

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ (٩٧) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٩٨) وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ (٩٩) (ص : ٨٦ - ٨٨)

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ (١٠٠) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١٠١) إِلَّا أَنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُخْبِطٌ ﴾ (١٠٢) (فصلت : ٥٢ - ٥٤)

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١٠٣) صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ (١٠٤) (الشورى : ٥٢ ، ٥٣)

﴿ فَإِنَّمَا يَسْتَرْهٖ بِلسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (١٠٥) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴾ (١٠٦) (الدخان : ٥٨ ، ٥٩) ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدَ ﴾ (١٠٧) (ق : ٤٥)

﴿ آمِنْ هَذَا الْحَدِيثَ تَعْجَبُونَ ﴾ (١٠٨) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ (١٠٩) وَأَنْتُمْ سَعِيدُونَ ﴾ (١١٠) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾ (١١١) (النجم : ٥٩ - ٦٢)

﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾ (١١٢) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (١١٣) (الواقعة : ٩٥ ، ٩٦) ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ (١١٤) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (١١٥) (القلم : ٥١ ، ٥٢)

- ﴿وَأَنَّهُ لَنذَكِّرُهُ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٥٨) ﴿وَأَنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مَّكَذِبِينَ﴾ (٥٩) ﴿وَأَنَّهُ لَحَسْبُهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٥٠) ﴿وَأَنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ (٥١) ﴿سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٥٢) (الحاقة : ٤٨ - ٥٢)
- ﴿كَذَٰلِكَ أَنَّهُ نَذَكَّرُهُ﴾ (٥٩) ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾ (٥٥) ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ الْقُوَى وَأَهْلُ الْغَفِرَةِ﴾ (٦٠) (المدثر : ٥٤ - ٥٦)
- ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (٦١) ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٦٢) ﴿يُدْخِلْ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٦٣) (الإنسان : ٢٩ - ٣١)
- ﴿فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٠) (المرسلات : ٥٠)
- ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٦٧) ﴿لَمَن شَاءَ مِنكُم أَن يَسْتَقِيمَ﴾ (٦٨) ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦٩) (التكوير : ٢٧ - ٢٩)
- ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ (٦١) ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ (٦٢) (البروج : ٢١ ، ٢٢)
- ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (٦٨) ﴿صُحُفٍ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ (٦٩) (الأعلى : ١٨ ، ١٩)
- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَبَّأُهُمُ اصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ (٦٩) ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ (٧٠) (البلد : ١٩ ، ٢٠)



وقد يأتي الحديث عن القرآن مُقسماً به أو مقسماً عليه :

- جاء مقسماً به في قوله : ﴿يَسَّ﴾ (١) ﴿وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾ (٢) (يس : ١ ، ٢)
- وقوله : ﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ (١) (ص : ١)
- وقوله : ﴿قَّ وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ (١) (ق : ١)
- وجاء مقسماً عليه في قوله ﴿فَلَا أَفْسِدُ بِمَوْضِعِ الْجُومِ﴾ (٧٥) ﴿وَأَنَّهُ لَفَسَدٌ لَّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (٧٦) ﴿لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ (٧٧) ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ (٧٨) ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٧٩) ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٨٠) (الواقعة : ٧٥ - ٨٠)
- وفي قوله ﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْخَشْسِ﴾ (١٥) ﴿الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ (١٦) ﴿وَالْبَلِّ إِذَا عَسَسَ﴾ (١٧) ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ (١٨) ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (١٩) (التكوير : ١٥ - ١٩)

● وفي قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الرَّجْعِ ۝ وَالْأَرْضَ ذَاتَ الصَّعِيقِ ۝ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَضْلٍ ۝ وَمَا هُوَ إِلَّا نَزْلٌ﴾
 (الطارق: ١١ - ١٤)



وقد يأتي الحديث عنه مُقْسَمًا به ومُقْسَمًا عليه .

كما جاء في سورتي الزخرف والدخان :

﴿حَمِّمَ الْكِتَابَ الْمُحِيزِينَ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الزخرف : ١ - ٣)

﴿حَمِّمَ الْكِتَابَ الْمُحِيزِينَ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ (الدخان : ١ - ٣)

ففي سورة الزخرف أقسم بالقرآن الموضح لما اشتمل عليه من العقائد والأحكام ؛
 إعلاما برفعة قدره وعلو شأنه أنه سبحانه أنزل الكتاب قرآنا عربيا لكي يستطيعوا تدبر
 معانيه والعمل بما جاء فيه . وفي سورة الدخان أقسم كذلك بالكتاب المبين على أنه
 سبحانه أنزل القرآن في ليلة وفيرة الخير كثيرة البركة لأن من شأنه سبحانه أن ينذر الناس
 قبل أن يأتيهم العذاب .



هذا التنوع وهذا التفصيل في حديث القرآن عن القرآن له دلالة في تدبر كل آية من
 آياته .

فإن الصفات التي وُصف بها القرآن - وإن بدا أنها تكررت - لا يمكن النظر في دلالتها
 بعيدًا عن موضعها في الآيات التي وردت فيها . فإن لكل صفة معانيها في ذاتها ، ولها
 نورها عندما تأتي في آية من آيات القرآن .

فإنها تريك ما لم تكن تراه . وتعلم بها ما لم تكن تعلم .

فمثلا كلمة «مبارك» جاءت صفة لهذا الكتاب في أربع آيات من القرآن الكريم :

في آيتين في سورة الأنعام .

وآية في سورة الأنبياء .

وآية في سورة ص .

ففي سورة الأنعام جاء قوله تعالى ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ
 أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾
 ﴿١٣﴾

(الأنعام: ٩٢). وقوله ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٥).

وفي سورة الأنبياء جاء قوله تعالى ﴿وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكٍ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ (الأنبياء: ٥٠).

وفي سورة ص: جاء قوله تعالى ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا فِيهِ وَلِذِكْرِ أُولَى الْأَلْبَابِ﴾ (ص: ٢٩).

الكتاب مبارك بجميع معاني البركة، مبارك في ذاته ومبارك على غيره. مبارك في حكمه وأحكامه وفي جميع مقاصده وأهدافه.

ولكن . . ما موقف الناس من بركة القرآن؟ وما الذي يترتب على إخبار الناس بذلك؟ وما النتائج التي تترتب على العمل به أو الإعراض عنه؟

وما الذي يفيد إسناده إنزاله إلى نون العظمة في الآيات كلها ﴿أنزلناه﴾ سواء في عزته أو في مؤاخذه من ينكره أو يعرض عنه؟

ولم جاء بقوله ﴿ذكر مبارك﴾ في سورة الأنبياء؟ وجاء في سورة الأنعام وص بقوله ﴿كتاب أنزلناه مبارك﴾؟ ولم أشار إليه في آيتي الأنعام بقوله ﴿وهذا كتاب﴾ ولم يُشِرْ إليه في آية ص: وقال ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك﴾.

وماذا يعني مجيء كلمة ﴿مبارك﴾ مرفوعة في الآيات كلها؟

وما السبيل إلى تراحم الناس فيما بينهم ورجاء الرحمة من خالقهم؟

وما صفات الذين يؤمنون به وسمات الذين ينكرونه ويعرضون عنه؟

ولم خَصَّ أولي الأبواب بالتذكر دون غيرهم؟ وماذا يعني تخصيصهم بهذا الوصف ﴿أولي الأبواب﴾ في هذا المقام بالنسبة لغيرهم؟

وما الذي يستفاد من قوله ﴿مصدق لما بين يديه﴾ في دعوة أهل الكتاب؟

وما دلالة قوله ﴿ولتنذر أم القرى ومن حولها﴾ في عموم الرسالة وعالميتها؟

البركة: زيادة ونماء وسعادة: فلم يَنْعَمْ ببركة هذا الكتاب ناسٌ ويخسر آخرون؟

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٨٢).

(الإسراء: ٨٢).

هذه التساؤلات لا تجيب عنها كلمة ﴿مبارك﴾ بعيدة عن وصف القرآن بها، وإنما تجيب عنها الآيات التي تضمنتها، وتستبين بها مجالات البركة وآثارها ونتائجها.

إن وصف القرآن بالمبارك ليس كوصف غيره بهذه الصفة.

فإن وصف القرآن بالمبارك قد أعطى البركة دوامها وثباتها وشمولها.

وقد وُصف الماء بأنه مبارك ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا﴾.

والماء مرتبط بحياة الإنسان في دنياه وقد يأتيه غداً أو غرقاً. فإذا بارح الإنسان دنياه لم تكن له حاجة إلى بركة الماء وهو في قبره.

بينما حاجة الإنسان إلى بركة القرآن لا تنقطع بموته أو بعثه أو حسابه وجزائه.

في حديث القرآن عن القرآن يُستفاد من دلالة صفاته عند الوقوف عليها منزلةً في آياته. وتدبّرُ الآيات في مواردها غير تدبر الصفات التي ترد فيها بمفردها. والقرآن الكريم لا يمكن تجريد صفاته عن آياته.

فكلمة ﴿هدى﴾ — وهي من صفات القرآن — من أكثر الكلمات وروداً في القرآن. ومعناها في اللغة: البيان.

والحديث عن كلمة ﴿الهدى﴾ بعيداً عن موقعها في الآيات لا يُحقق الإفادة بها كما تتحقق في صلتها بالآيات، فالآيات هي التي تُبين من يكون القرآن لهم هدىً ومن يكون عليهم عمى، وهي التي تجعلنا نقف على هداية القرآن في وقائع وأحداث، وعقائد وفرائض ومعاملات، وحدود وحقوق وواجبات.

لا بد من معرفة هداية القرآن في كل شأن وهو يهدي للتي هي أقوم. والقرآن في آياته لا تنفضي عجائبه، ولا يتوقف مدّه، ولا يطفأ نوره، ولا ينفد عطاؤه.

لذا قد رأيته وأنا أتابع حديث القرآن عن القرآن — ألتمس ذلك من القرآن كله، أقتبس منه، واستشهد به، وأسترشد بهدايته، وأستبصر بنوره. فما من شأن إلا وللقرآن فيه كلمة، ولا عملٍ إلا وللقرآن فيه تبصرة وموعظة. تراه في كل شيء روحاً ونوراً وحياة لا تفتقده في عسر أو يسر أو شدة أو رخاء.

بل تراه - وأنت تؤمن به - مؤنسًا لك مُسرِّيًا عنك . يمدك بطاقة لا تنفد من الثقة في الله وحسن التوكل عليه .

وترى نفسك - في طوفان الحياة الغامر - في حاجة إلى الاستمسك به طلبًا للنجاة . في حاجة إلى نوره لتدفع عن نفسك ظلمات الشبهات والشهوات والأهواء .

وتراه في جميع الأحوال عزيزًا لا يقترب من ساحته باطل . ولا يميل بهديته عن الرشد مستبد ظالم .

ترى عزته في سلطان كلمته وبالغ حكمته ، ونفاذ وعده ووعيده .

ترى ذلك في أحداث واقعة وأمم ماضية وسنن نافذة باقية .

وعندما تقرأ من إخبار الله عنه ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ * تعلم - وهو يتلى عليك - أنه ليس أعزل من قوة تحقق وعده ووعيده فإن له نورًا ونارًا فمن أبى النور فالنار موعده .

إن حديث القرآن - وأنت في صحبته - يجعلك تراه أمامك نورًا تبصر به الأشياء على حقيقتها . يُحدّد لك المعالم ويبصرك بما يجب أن تكون عليه ويهديك صراطًا مستقيمًا . ولا يدعُكَ في أيّ موطن كنت دون هداية وتبصرة .

ويا له من تقدير لشأنه ، وتعظيم لقدره ومكانته أن تراه يأتي أو يؤتى به يوم القيامة ليشفع فيمن صاحبه في دنياه وعمل به .

فقد روى مسلمٌ في صحيحه عن أبي أمامة الباهلي - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : اقرءوا القرآن ، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه اقرءوا الزهراوين : البقرة ، وسورة آل عمران ، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو غيايتان . أو كأنهما فرقان طير صواف تحاجان عن أصحابهما . اقرءوا سورة البقرة ، فإن أخذها بركة وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة . قال معاوية بن سلام : بلغني أن البطلة السحرة . رواه مسلم .

وعن النواس بن سمعان - رضي الله عنه قال - : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : «يؤتى بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تقدمه سورة البقرة وآل عمران تحاجان عن صاحبهما» رواه مسلم .

ذاك ما يجده مَنْ صاحب القرآن وعمل به .

وأما من كرهه وأعرض عنه فذاك مصيره .

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (٧٦) لَا يَغْتَرُّ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَتَادُوا بِمَلِكِكُمْ لِيَقْضِيَ عَلَيْكُمْ بَرَكًا قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَذِبُونَ ﴿٧٨﴾﴾ (الزخرف : ٧٤ - ٧٨) .

والقرآن الكريم يُتلى على الناس في دنياهم قبل أن يصلوا إلى آخرهم لكي يُسارعوا إلى أتباعه والعمل به . ولا يكونوا من أولئك الذين يُقال لهم وهم في عذاب جهنم خالدون ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ .

﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ غَيْرِ هُدًى وَرَحْمَةٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٤) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِي نَسُوهُ مِنْ قَبْلٍ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدِّ فَعْمَلٌ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ (الأعراف : ٥٢ ، ٥٣) .

إعذار وإنذار يقدمه للناس حديث القرآن عن القرآن .

فطوبى لمن استبصر به واهتدى بهداه وويل لمن أعرض عند ذكره واتبع هواه .



ولقد تابعت حديث القرآن عن القرآن في كتاب الله عز وجل وأفدت منه .

ودعوت الله أن يعينني على أن أقدمه للناس .

رجاء أن نعتصم جميعا بحبل ولا نتفرق وأن نهتدي في جميع شئوننا بهداه .

وقد أذيع في حلقات من إذاعة القرآن الكريم بالرياض .

وقد وجد من المسؤولين عن هذه الإذاعة والعاملين فيها عناية طيبة ، سواء في تسجيله أو في اختيار الوقت الملائم لإذاعته وإفادة الناس به ، والمعاونة الصادقة على طبعه ونشره . وهذه الإذاعة قد حقق الله بها نفعاً وخيراً كثيراً .

جزى الله القائمين عليها والعاملين بها والسامعين لها خيراً ، وجعلنا جميعاً من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

هذا وقد رغب كثيرٌ من الإخوة الفضلاء الذين استمعوا إلى حلقات حديث القرآن من إذاعة القرآن بالرياض أن تجمع هذه الحلقات وأن تطبع في كتاب .
فجمعتها بعون الله وتوفيقه .

وجعلت مضمون ما أذيع مسطرا في هذا الكتاب بالعنوان نفسه (حديث القرآن عن القرآن) .

وأحببت أن تقوم مكتبة العبيكان بطبعه ونشره لما عرف عنها من عناية وتوفيق .
فاستجاب الإخوة الكرام القائمون عليها - وفقهم الله ورعاهم وسدد خطاهم وبارك فيهم - وعملوا على طبعه دون إبطاء أو تأخير .
وها هو ذا بين يديك أخي القارئ .

أمل أن يكون مدعاة لك لصحبة القرآن وتدبره والعمل به .
﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۚ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ ﴿٩٨﴾ .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .
وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
الرياض

الإثنين ٦ من شهر شعبان ١٤١٤ هـ

١٧ من يناير ١٩٩٤ م

محمد الراوي

obeikandi.com

حديث القرآن عن القرآن في آيات من:

- ١ - سورة البقرة
- ٢ - سورة آل عمران
- ٣ - سورة النساء
- ٤ - سورة المائدة
- ٥ - سورة الأنعام

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن حديث القرآن عن القرآن فيه بيان لهديته ومقاصده ودعوة إلى حسن تدبره والاعتصام به، وهو حق يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم.



ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى من سورة البقرة. ﴿الْم ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴿١﴾. وفي البدء بهذه الأحرف «الْم» إعلامٌ للمخاطبين بأن هذا القرآن الكريم منتظم من جنس ما تنظمون منه كلامكم من الحروف المعهودة للناطقين بهذه اللغة لم يخرج عنها أو يزد عليها. ومن غير المستطاع لإنس أو جن أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

وفي ذلك ما فيه من توجيه القلوب إليه وهي ترى تفرده، مع أن الحروف التي انتظم منها هي الأحرف التي يعرفها الناس وينطقون بها.

ولكن رفعة شأنه وبعد مكانته لا تجعل للخلق مطمعا في الإتيان بمثله أو بسورة من مثله. ولذا جاءت الإشارة إليه بقوله ﴿ذلك الكتاب﴾ للدلالة على بعد المشار إليه. فإن ما في الإشارة من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان بعلو مكانته وكونه في الغاية القاصية من الفضل والشرف. وكذلك القرآن المجيد بعيد في شرفه ومكانته قريب في تبصرته وهديته. ﴿ذلك الكتاب﴾ إشارة دالة على التعظيم.

والكتاب في الأصل مصدر. وقد يراد به المكتوب. وأصل هذه المادة الدلالة على الجمع ومنه كتيبة الجيش. والكتاب عُرُفا ضم بعض حروف الهجاء إلى بعض.

(١) سورة البقرة : ١ ، ٢

وتسمية القرآن بالكتاب هكذا بالتعريف فيه أيضا تنويه بمكانته وأنه الجدير بأن يُخَصَّ بإطلاق هذا الاسم عليه من بين الكتب المنزلة؛ لأنه المهيمن الحافظ لمقاصدها وهدايتها الشاهد المؤتمن على ما جاء فيها، وبه ينقطع كل ادعاء على الكتب المنزلة قبله ويبطل كل باطل ينسب زورا إليها ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (٢).

فلا سبيل مع هذا الكتاب لتَقُولِ على الله أو ادعاء على رسله. ونور الحق الذي جاء به ساطع يبطل كل باطل ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿١٥﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿١٦﴾﴾ (٣) وقد حفظه الله وأبقاه.

وفي حفظ الله له مخاطبة للخلق بكلمة الحق التي بعث بها الأنبياء جميعا وجاء خاتمهم ﷺ ليلبغها للناس أجمعين ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَتَمِثُّوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَأَتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ (٤).

فقد نُزِّلَ الكتاب المحفوظ بحفظ الله على النبي الأمي خاتم النبيين بلاغا للعالمين فليس بعد هذا الكتاب كتاب ولا بعد الرسول المنزل عليه رسول. ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَلَ الْفُرْقَانُ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (٥).
﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

(٢) سورة المائدة : ٤٨ .

(٣) سورة فصلت : ٤١ ، ٤٢ .

(٤) سورة الأعراف : ١٥٨ .

(٥) سورة الفرقان : ١ .

فإن قيل قد وجد الريب من كثير من الناس في القرآن، وقوله ﴿لَا رِيبَ فِيهِ﴾ ينفي ذلك .

فالجواب أن المنفي كونه متعلقاً للريب ومَحلاً له . بمعنى أن معه من الأدلة ما لو تأمله المنصف المحقق لم يَرْتَب فيه ، ولا اعتبار بريب يكون من مراتب لم ينظر حق النظر ومعرض لم يرد أن يتدبر .

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي رشاد وبيان . وتخصيص الهدى بالمتقين يدعونا إلى وقفة متأنية نرى فيها لماذا خصهم مع أن هداية القرآن عامة شاملة وقد جاءت الهداية مطلقة في قوله تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ ؟ فلماذا خَصَّ وعَمَّ وأطلق وقيد؟ لماذا خَصَّ في موضع وعَمَّ في آخر؟

إن القرآن من حيث هو نور وهدى للناس أجمعين . ومن حيث الانتفاع به والفوز بهدائته لا يكون إلا لمن اتبعه وأخضع هواه لما جاء به ﴿فَأِمَّا يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَنِ هَدَىٰ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۚ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ ۚ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ۚ﴾ قال كذلك أنتك ما ابتنا أنفسنا وكذلك اليوم نسئ ۚ وكذلك نجزي من أشرف ولم يؤمن بآيات ربك ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴿٦٧﴾ (٦) .

فتخصيص الهدى بالمتقين لما أنهم المقتبسون من أنواره المنتفعون بهدائته ، وإن كانت هدايته شاملة لكل ناظر من مؤمن أو كافر ولكن لا يظفر بنتائجه إلا من اتبعه واهتدى بهداه بامثال أوامره واجتناب نواهيه .

والآثار التي تترتب على التقوى في حياة الناس لا تخفى .

فإن من اتقى كف شره عن غيره وقدم خيره . وردته تقواه عن ظلمه لنفسه في الإعراض عن الذكر أو الإساءة لغيره .

(٦) سورة طه . ١٢٣ - ١٢٧ .

وأما في الآخرة فالدار دارهم ونعم دار المتقين ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ ﴾ الَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ﴿٧﴾.

ومن رحمة الله بالخلق أن جعل للتقوى شرعة ومنهاجا .

ومنهاج المتقين قرآن وسنة . وأهل التقوى في جميع أحوالهم متبعون لا مبتدعون ، يخضعون أنفسهم للحق ولا يتبعون الأهواء . فإن اتباع الهوى جهل وضلال واتباع الهدى هدى ونور ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٣٨﴾ إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٩﴾ هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤٠﴾ ﴿٨﴾.

إن موقف الناس من الحق الذي أنزل هو الذي يحدد مصائرهم .

والقرآن الكريم يبين الجزاء ويذكر النتائج ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ فلا يدع الناس يتيهون دون تحديد للمعالم والصفات ، بل يبين صفات الناجحين المفلحين ليتبع الناس سبيلهم ويذكر صفات الهالكين الخاسرين ليجتنب الناس سبيلهم ، ويفيض في ذلك إفاضة بالغة حتى لا تبقى لأحد من الناس حجة أو معذرة .

القرآن هدى للمتقين لأنهم المنتفعون بنوره . فمن هم المتقون الذين خصهم القرآن بهدايته وشملهم الرحمن برحمته؟

نقرأ في القرآن المجيد تحديداً لصفاتهم وبيانا لأعمالهم .

(٧) النحل : ٣٠ - ٣١ .

(٨) الجاثية : ١٨ - ٢٠ .

وإذا تدبرنا آثار هذه الأعمال وتلك الصفات رأيناها أمنا لدنيا الناس وسلاما لحياتهم وتراحما فيما بينهم والراحمون يرحمهم الرحمن ، ومن لا يرحم لا يرحم .

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴿٩﴾ .
هؤلاء هم الذين انتفعوا بهداية القرآن فعلموا وعملوا وبروا وصدقوا وآمنوا برسل الله جميعا ولم يفرقوا وأيقنوا بقاء الله فسارعوا إلى الخيرات وكفوا عن السيئات . أرايت أخي المسلم أن هداية القرآن رحمة للناس في دنياهم وأخراهم .

فمن اهتدى بالقرآن استقام وأصلح وأفلح . ومن أعرض عنه ضل وشقي وأفسد وندم على التفريط فيه يوم لا ينفع الندم . وفي القرآن إنذار لهؤلاء وبشرى لأولئك ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴿١٠﴾ .



ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى من سورة البقرة ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢٣) فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (٢٤) ﴿١١﴾ .

ولعلنا نستحضر ما ذكرناه من قبل من حديث القرآن عن القرآن في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْكِتَابُ الَّذِي هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) ﴿٢﴾ .

(٩) سورة البقرة : ٢ - ٤ .

(١٠) سورة الإسراء : ٩ ، ١٠ .

(١١) البقرة : ٢٣ - ٢٤ .

قوله ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ كَوْنُ الْقُرْآنِ مُتَعَلِّقًا لِلرَّيْبِ وَمَحَلًّا لَهُ . فَالرَّيْبُ يَتَعَلَّقُ
بِالنَّفُوسِ لِعَلَلٍ فِيهَا أَوْ بِشَيْءٍ مَا لِأَنَّهُ مَحَلٌّ لِلشَّكِّ وَالرَّيْبِ .

وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ - وَقَدْ نَفَى الرَّيْبَ عَنْهُ - لَيْسَ مَحَلًّا لِلشَّكِّ لِأَنَّهُ الْحَقُّ .
وَلِلْحَقِّ حُجَّتُهُ وَسُلْطَانُهُ وَلِلرَّيْبِ عِلَلُهُ وَأَوْهَامُهُ وَظُنُونُهُ وَهُوَ مُدْحَضٌ بِالْحَقِّ زَاهِقٌ
ذَاهِبٌ . وَالْكِتَابُ الَّذِي يَخَاطَبُ الْعَالَمِينَ بِأَنَّهُ إِنْذَارٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ يُضَيِّفُ
إِلَى إِعْجَازِهِ فِي ذَاتِهِ إِعْجَازًا فِي مَخَاطَبَةِ الْجَاهِلِينَ الْمَعَانِدِينَ - فِي كُلِّ زَمَانٍ
وَمَكَانٍ - أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ مَعَ حُرْصِهِمْ عَلَى إِزْهَاقِهِ وَإِطْفَاءِ نُورِهِ بَلْ وَتَدْمِيرِ
أَهْلِهِ .

وَتَرَاهُمْ فِي كُلِّ زَمَانٍ - مَعَ بَغْيِهِمْ وَتَسْلُطِهِمْ عَلَى أَهْلِهِ - عَاجِزِينَ صَاحِرِينَ
أَمَامَ بِلَاجَتِهِ وَعِزَّتِهِ وَسُلْطَانِهِ .

وَتَرَاهُ يَنْتَصِرُ عَلَى النَّفُوسِ الْبَاغِيَةِ . وَأَهْلُهُ مُسْتَضْعَفُونَ .

وَكَثِيرًا مَا رَأَيْنَا الْقُرْآنَ فِي عِزَّتِهِ يُخَضِّعُ الْأَعْدَاءَ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَنْفِذُونَ أَمْرَهُ
وَيَقُومُونَ بِحَقِّهِ .

وَمَنْ تَدَبَّرَ تَارِيخَ أُمَّتِنَا الْإِسْلَامِيَّةَ عَرَفَ مَا لِلْقُرْآنِ مِنْ أَثَرٍ وَتَأْثِيرٍ وَمَا لَهُ مِنْ
حُجَّةٍ وَهَدًى وَسُلْطَانٍ . إِنْ تَارِيخُ هَذِهِ الْأُمَّةِ - بَيْنَ مَدٍّ وَجَزَرٍ - يَتَّصِلُ بِهِ وَلَا يَنْفَكُ
عَنْهُ .

فَهِيَ فِي مَدٍّ حِينَ تَقْبَلُ عَلَيْهِ وَتَسْتَنِيرُ بِهِ وَتَعْتَصِمُ وَلَا تَتَفَرَّقُ .

وَهِيَ فِي جَزَرٍ حِينَ تُشْغَلُ عَنْهُ وَتَعْرُضُ عَنْ ذِكْرِهِ . وَهُوَ فِي مَنَعَتِهِ وَعِزَّتِهِ يَظَلُّ
يَذْكُرُ وَيُنْذِرُ وَيُبَشِّرُ وَيَهْدِي فِي كُلِّ شَأْنٍ لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ . يَظَلُّ يُوْجِهُ نِدَاءَهُ إِلَى
الْقُلُوبِ لِتَخْشَى وَتَخْشَعُ وَإِلَى مَنْ شُغِلَ عَنْهُ أَنْ يَتُوبَ إِلَيْهِ وَأَنْ يَتَّبِعَ هِدَايَتَهُ حَتَّى
لَا تَتَفَرَّقَ بِهِمُ السَّبِيلُ أَوْ يَنْتَهِيَ بِهِمُ الْإِعْرَاضُ وَالْبَعْدُ إِلَى الضَّلَالِ وَسُوءِ الْمَصِيرِ .
وَهَذَا التَّذْكِيرُ مِنْ جَانِبِ الْقُرْآنِ يَخَاطَبُ بِهِ مَنْ نَزَلَ فِيهِمْ . وَتَخَاطَبُ بِهِ الْأَجْيَالُ

من بعدُ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وكأنه نزل لساعته ، وحمله جبريل إلى النبي ﷺ لوقته لا يختلف مع اختلاف الزمان ولا يتباين مع تباين الأجيال . ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ . يُخاطب به كل معاند مكابر في أي زمان كما خوطب به الأولون من المكذبين الجاحدين وهم جميعا في العجز سواء وهم جميعا مدعوون لاتباعه والاهتداء بهداه . ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٢٤) . واتقاء النار يكون بالاعتصام به والاحتراز من جحوده والإعراض عنه . كأنه قيل فإذا عجزتم عن الإتيان بمثله - كما هو واقع ومقرر - فاحترزوا من إنكار كونه منزلا من عند الله سبحانه فإن ذلك يدفعكم إلى الإعراض عنه والصد عن سبيله . ومن أعرض عنه أو كذب بآياته فالنار موعده .

والخطاب على هذا النحو خطاب عزيز واثق لا يهين ولا يضعف ولا يأتيه أو يقترب من ساحته باطل .

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٧) ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۚ وَادْعُوا مِنْ أَسْطَظْعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٨) (١٢) .

ذاك حديث القرآن عن القرآن في بيان إعجازه وتحدي المعاندين الجاحدين في كل زمان أو مكان أن يأتوا بسورة مثله . تراه في بيانه يصدع بالحق وينطق بالصدق ويعلن في عزة وثقة أنه تنزيل رب العالمين . ليعتصم الناس جميعا به ويهتدوا بهداه ويجدوا أنفسهم في ساحته في أمن وتراحم

(١٢) يونس : ٣٧ ، ٣٨ .

وتعاون وتآزر وبر وسلام ﴿ فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ﴾ ٧٥ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّئَلَّا
تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ٧٧ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ٧٨ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا
الْمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ (١٣).



ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ قُلْنَا
أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا
هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ٣٨ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴾ ٣٩ ﴿ (١٤) .

والقرآن الكريم قد أنزله الله هدى للناس . وهو بهذا ليس بمعزل عن قوة
تحقق وعده ووعيده . إنه الحق من ربك وللحق نور ونار فمن أبى النور فالنار
موعده . وذاك بيان وبلاغ من الله بذكر النتائج والعواقب لمن تبع هدى الله ومن
جحد وأعرض ﴿ فَمَنِ تَّبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ٣٨ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ٣٩ .

إن في اتباع هدى الله أمن وأمان . أمن لا خوف معه ولا حزن . ﴿ فَمَنِ تَّبِعَ
هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ والخوف غم يلحق الإنسان من توقع
أمر في المستقبل . والحزن غم يلحقه من فوات أمر في الماضي . والمتبعون
هدى الله مبشرون بذلك عندما يفرح الناس ويخافون . وذاك وعد الله لهم - ولن
يخلف الله وعده - ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ
الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ
نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ
وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴾ ٣١ تَزْلُمُنَّ رِجْمًا ﴿ (١٥) .

(١٣) سورة الواقعة ٧٥ - ٨٠ .

(١٤) سورة البقرة : ٣٧ ، ٣٩ .

(١٥) سورة فصلت : ٣٠ - ٣٢ .

ذاك ما يكون لمن اتبع آيات الله فأمن واستقام وأما من أعرض وكذب وكفر وأصر على كفره وجحوده - من بعدما تبين له الهدى - فتلك عاقبته وذاك مصيره ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٣١).

وفي إسناد الآيات إلى نون العظمة في قوله ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ دلالة لا تغيب على أن هدى الله ليس بمعزل عن قوة تحقق الوعد والوعيد وأن المعرضين عن هدى الله مؤاخذون وترى نون العظمة هذه في تنزيل الذكر وحفظه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاطِقُونَ﴾ (١٦) وفي مؤاخذة المكذبين بآياته المعرضين عن ذكره ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهْلِكُمْ قَلِيلًا﴾ (١١) ﴿إِن لَّدَيْنَا أَنْكَالٌ وَحِمَامٌ﴾ (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٣) (١٧).

ومن عرف أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب أيقن أن حديث القرآن عن وعد الله ووعيده لمن اتبع هدى الله ولمن كذب بآياته سيأتي تأويله وعندئذ لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا. ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِن شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٥٣) (١٨).

٤

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنته قوله تعالى في مواجهة بني إسرائيل أولئك الذين واجهوا الدعوة الإسلامية في المدينة مواجهة نكرة وقاوموها مقاومة خفية وظاهرة - ﴿وَأَمِنُوا بِمَا آنَزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرِينَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتِقُونَ﴾ (٤١) (١٩).

(١٦) سورة الحجر : ٩ .

(١٧) المزمّل : ١١ - ١٣ .

(١٨) الأعراف : ٥٢ ، ٥٣ .

(١٩) البقرة : ٤١ .

لقد كان المنتظر أن يكون اليهود في المدينة هم أول من يؤمن بالرسالة ويؤمن للرسول ﷺ والقرآن يصدق ما جاء في التوراة، وهم يتوقعون رسالة الرسول ﷺ وعندهم أوصافه في البشارات التي تتضمنها التوراة. وهم كانوا يستفتحون على العرب المشركين ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٨٩).

إن الله يأمرهم أن يؤمنوا بما أنزل من القرآن لأن الإيمان به إيمانٌ بما معهم والكفر به كفر بما معهم من التوراة. بل بالكتب وبالرسل جميعا وهم دعاة إلى دين واحد. وقد أخذ الله عليهم الميثاق أن يؤمن بعضهم ببعض وأن ينصر بعضهم بعضا وقد قال الرسول ﷺ: «لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي». ﴿وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ﴾.

إن من الواجب أن يكونوا أول من آمن به لا أول من كفر. لأنهم أهل النظر في معجزاته والعلم بشأنه وقد كانوا من قبل يستفتحون به على الذين كفروا ويبشرون ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾. أي لا تستبدلوا بآياتي التي في كتابكم من نعت محمد ﷺ ثمنا قليلا والدنيا كلها ثمن قليل. لقد كان كعب بن الأشرف ورؤساء اليهود وعلمائهم يصيبون المآكل من سفلتهم وجهالهم وكانوا يأخذون منهم في كل سنة شيئا معلوما من زرعهم وثمارهم ونقودهم، فخافوا أنهم إن بينوا صفة الرسول محمد ﷺ وتبعوه تفوتهم تلك الفوائد، فغيروا نعتَه بالكتابة فكتبوا في التوراة بدل أوصافه أضدادها. وكانوا إذا سئلوا عن أوصافه كتموها ولم يذكروها. وقد أشار القرآن الكريم إلى التعبير بالكتابة بقوله ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وقوله ﴿وَلَا تَلْبَسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ وأشار إلى الكتمان بقوله ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. وقد جمعوا بين الفعلين التغير والكتمان. وهم يعلمون أنهم ينكرون الحق ويؤثرون الباطل. وقد فصل القرآن ذلك في مواطن كثيرة.

هذا ما كان من رؤساء اليهود وعلمائهم و«لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن بي اليهود»* كما جاء فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ .

ونحن حين نقرأ حديث القرآن عنهم وتندبر ما جاء في شأنهم نعرف حقيقتهم وما يريدون فما كان اليهود يجهلون بعثة النبي ﷺ أو يمتارون في معرفته ، وهم يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة .

لقد تواترت الأخبارُ باقتراب زمانه ، وغدا الناس يرقبون مبعثه ، كما يرقب من أظلم عليه الطريق مطلع الفجر وانطواء الليل ليمضي إلى قصده ويصل إلى مأمنه على نور وبصيرة ولا يلتبس الفجر على من كان ذا بصرٍ وبصيرة ، ولا يختلط إشراق الشمس بظلام الليل ولا يستوي الهدى والضلال . كما لا تستوي الظلمات والنور .

إن القوم قد عرفوا ولكنهم جحدوا . وهدوا ولكنهم استحبوا العمى على الهدى . وجاءتهم الآيات البينات فضلوا وأضلوا من بعد ما جاءهم البينات .

ولكن لا يخلو زمان من أهل إنصاف وعدل . فمن اليهود ناس عرفوا فلزموا وهدوا فأسلموا ، وحفظوا ما في التوراة فشهدوا بما علموا . ووجدوا في الرسول ﷺ مصداق ما حفظوا ﴿ أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ (٢٠) .

ولقد تناقل الربانيون والأخبار والقسيسون والرهبان ما وجدوه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل ، وبلغوه من أنبيائهم وكانوا عليه شهداء .

وظلّت البشرى بمبعثه ﷺ تنتقل من جيل إلى جيل ومن قبيل إلى قبيل . والنبأ العظيم يتردد بين الناس ، والزمن يقترب حتى رأينا شاباً كسلمان الفارسي

(*) مختصر صحيح البخاري : التجريد الصحيح لأحاديث الجامع الصحيح للزيدي : باب إتيان اليهود النبي ﷺ حين قدم المدينة .
(٢٠) القصص : ٥٤ .

يَدْعُ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ رَغْدِ الْعَيْشِ وَيَنْتَقِلُ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ، وَمِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَيَلَاقِي مَا يَلَاقِي طَلَبًا لِلْحَقِّ الَّذِي دَخَلَ زَمَانَهُ وَاقْتَرَبَ فَجْرُهُ وَهُوَ يَحْفَظُ مِنَ الرُّهْبَانِ الَّذِينَ انْتَقَلَ بَيْنَهُمْ وَعَاشَ مَعَهُمْ وَكَانَ فِي خِدْمَتِهِمْ . وَيَحْفَظُ عَنْهُمْ مَوْطِنَ هَجْرَتِهِ ﷺ وَصِفَاتِ خُلُقِهِ وَخُلُقِهِ وَيَحْدُثُ حِينَ أَسْلَمَ بِكُلِّ مَا جَرَى مَعَهُ .

فَالْأَمْرُ لَمْ يَكُنْ خَافِيًا ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ عِلْمًا بِهِ هُمُ عُلَمَاءُ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الرِّبَانِيِّينَ وَالْأَحْبَارِ وَالْقَسِيسِينَ وَالرُّهْبَانِ الَّذِي كَانُوا يَبْشُرُونَ بِاقْتِرَابِ زَمَانِهِ وَيَسْتَفْتِحُونَ . فَلَمَّا بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ أَنْكَرَ عُلَمَاؤُهُمْ مَا عَرَفُوا وَكُتِمُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ذَاكَ حَدِيثُ الْقُرْآنِ عَنْهُمْ وَفِيهِ عِبَرٌ وَعِظَاتٌ لِمَنْ اتَّعَظَ وَاعْتَبَرَ .

وَسَيُظَلُّ حَدِيثُ الْقُرْآنِ عَنِ الْقُرْآنِ وَبَيَانُ مَوْقِفِ النَّاسِ مِنْهُ حُجَّةٌ عَلَى مَنْ كَذَبَ وَأَعْرَضَ وَهَدَايَةٌ لِمَنْ اهْتَدَى وَصَدَّقَ . مُخَاطَبًا بِذَلِكَ الْأَجْيَالِ كُلِّهَا إِلَى أَنْ يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ .



وَمِنْ حَدِيثِ الْقُرْآنِ عَنِ الْقُرْآنِ مَا تَضَمَّنَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى - بَيَانًا لِمَنْ عَادَاهُ وَكُتِمَ مَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ - ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٢١) .

(٢١) سورة البقرة: ٨٩ .

﴿ولما جاءهم﴾ أي جاء اليهود المعاصرين النبي ﷺ كتابٌ من عند الله هو القرآن . ﴿مصدق لما معهم﴾ كذبوا وكانوا من قبل مجيئه يستفتحون بمن أنزل عليه ذلك الكتاب فلما جاءهم ذلكم النبي الذي عرفوه ويجدونهُ مكتوباً عندهم في التوراة كفروا به وصدوا عنه . يستفتحون به قبل مجيئه وعند مجيئه يكفرون .

وذلك أنهم كانوا إذا حزبهم أمرٌ ودهمهم عدو يقولون : اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد صفته في التوراة فكانوا يُنصرون . وكانوا يقولون لأعدائهم من المشركين قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عادٍ وإرم .

فلما جاء الرسول ﷺ تنكروا لما علموا ونبذ فريق منهم كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٢).

نبذوا كتابهم الذي كانوا قد قبلوه من قبل وزعموا تمسكهم به ، نبذوا التوراة لموافقة القرآن لها كأنهم لا يعلمون أنه كتاب الله ولا يداخلهم شك فيما جاء فيه . ولكنه العناد والكفر والحسد من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق .

وهم بما علموا كانوا أولى الناس بالإيمان به والدعوة إلى اتباعه ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ فِي الدُّنْيَا خَزِئْ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٣)

(٢٢) سورة البقرة : ١٠١ .

(٢٣) سورة المائدة : ٤١ .

ومنكر الحق في حاضرٍ كمنكره في ماضٍ لأن الحق من عند الله واحد لا اختلاف فيه وبه أرسل الله المرسلين وأمرهم أن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه .

فمن كذب واحداً منهم فقد كذب جميع المرسلين وحق عليه ما حق على المكذبين الضالين . إنهم جميعاً دعاة إلى دين واحد أقاموه كما أمرهم الله ولم يتفرقوا فيه .

والفرقة بين الخلق في أمر الدين حملتها الأهواء ولم تكن في رسالة الأنبياء . وقد يعرف إنسان الحق ولا يستجيب له فحسب . وقد يعلم آخر أنه الحق ثم لا يكتفي بالإعراض عنه بل يعمل على تشكيك الناس فيه وصدّهم عنه وحملهم على محاربته والكيد له . وعمل اليهود من هذا اللون المفرط المغالي في الكيد والصد والعداوة والإفساد وقد قال الله فيهم ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ (٢٤) . وقال مخاطباً أهل الكتاب من النصارى محذراً لهم من اتباع أهوائهم ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ (٧٧) (٢٥) .

إن وصف الكتاب المنزل على محمد ﷺ بأنه من عند الله وأنه مصدق لما معهم فيه ما فيه من إدانة للقوم وتسجيل لمواقفهم ودعوة للأجيال من بعد أن تثوب وأن تزن الأمور بميزان الحق لا بموازين الأهواء . وأن تعلم علم اليقين أن كل إنسان مؤاخذ عند الله بعمله . وأن الحق الذي أنزله الله وحفظه هداية للخلق وحنة عليهم . ولا أضّر من إعراض عن الحق من بعد علم به . واتباع للهوى من بعد ما تبين الهدى . وكتمان للحق من بعد عهد وميثاق . إن الحق

(٢٤) سورة المائدة : ٦٤ .

(٢٥) سورة المائدة : ٧٧ .

الذي جاء به موسى من عبادة الله وعدم الإشراك به هو الذي جاء به خاتم الرسل ﷺ وهو الحق من ربهم . فمن كفر بهذا كفر بذاك . ولا بقاء لادعاء أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم لأن ما جاء به محمد ﷺ هو الحق مصدقا لما معهم . فالكفر بما جاء به كفر بما معهم وهم يعرفون ذلك ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ .

وسیظل نداء القرآن الكريم يبصر كل جيل ويحذر من سوء العاقبة والمصير . والكل عائد إلى الله ومحاسب بين يديه ومن رغب عن الحق حوسب عليه . ولا حجة بعد بيان ولا عذر بعد إعدار وإنذار ﴿ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْقُوْا عَنْ كَثِيْرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُوْرٌ وَكِتَابٌ مُّبِيْنٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِيْهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوْرِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيْمٍ ﴾ (٢٦).

٦

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوْا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوْا تُوْمِنُوْنَ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُوْنَ بِمَا وَرَآءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُوْنَ أَنْبِيَآءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ ﴾ (٩١) ﴿ (٢٧) .

والآية بما اشتملت عليه تبين أمرين : الأول : ما للقرآن من صفات وأنه من عند الله وهو الحق مصدقا لما معهم . الثاني : موقف اليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ من القرآن والرسول ﷺ .

أما عن القرآن فإن القوم يوقنون أنه من عند الله وهو يتلى عليهم « مصدقا لما معهم » ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوْا فِيْهِ اخْتِلَافًا كَثِيْرًا ﴾ ويعرفون الرسول

(٢٦) سورة المائدة : ١٥ ، ١٦ .

(٢٧) سورة البقرة : ٩١ .

بصفاته وأخلاقه كما يعرفون أبناءهم وهم يجدونه مكتوبا فيهم . ومن أجل ذلك كانوا أولى الناس بتصديقه ومناصرتة والدعوة إلى الإيمان به وفاء لكتابهم وتصديقا لنبيهم وتكريما لأنفسهم ﴿وهو الحق مصدقا لها معهم﴾ .

إن إعراض هؤلاء عن الحق وجحودهم به لا يرجع إلى خفاء في أدلته أو التباس في حقيقته . وحاشا أن تخفى دلائل الحق أو يلتبس نوره . ولكن إعراضهم يرجع إلى علل في نفوسهم لا عن جهل بحقيقته .

إن كفرهم بما أنزل الله على محمد ﷺ كان مبنيًا على الحسد أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده . ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَخْبَرْتَ بِهِ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (٢٨).

وهذا الحسد لم يقف بهم عند النكران والجحود فحسب وإنما دعاهم إلى محاولة رد المسلمين عن دينهم وتشكيكهم فيه ، كما أغراهم بالطغيان والبغي لما رأوا ثباتهم عليه وتمسكهم به ﴿وَدَكْثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ (٢٩).

﴿وليزیدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا﴾ .

فلم يبق لهم وقد كفروا بالحق لما جاءهم - إيمانٌ بحق . بل قادهم الهوى إلى جحود ما معهم وساقهم أن يكتبوا بأيديهم ما يكتبون وينسبون إلى الله ما يكتبون .

(٢٨) سورة البقرة : ٩٠ .

(٢٩) سورة البقرة : ١٠٩ .

﴿ قَوْلِ الَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ يَأْتِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشَارُوا بِهِ سَمْعًا قَلِيلًا قَوْلِ لَهُمْ مِمَّا كُتِبَتْ آيَاتُهُمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (٣٠).

ونسوا أن الله الذي فضلهم من قبل وآتاهم الكتاب والحكم والنبوة ورزقهم من الطيبات قد أمرهم أن يكونوا أوفياء للعهد أمناء ، وألا يتنكروا لما فضلهم الله به ويرون عزهم في غير ما أعزهم الله به من شرف النبوة والكتاب ، فإن من اعتر بغير ما أعزه الله به أذله الله .

إن الوفاء لرسالة الأنبياء والقيام بحقها - كما أمر الله - أصل في تكريم الإنسان وإعرازه . والرسل جميعا ما جاءوا إلا بالحق . وبالحق تكون القيم ويعرف الفضل . والحق من عند الله فمن جحدته فقد كفر بنعمه . ومن فرق بين من أرسلهم الله بدين واحد وقال نؤمن ببعض ونكفر ببعض لم يبق له إيمان بأحد من رسل الله .

إن منشأ كل فُرْقَةٍ وفساد في نكران الحق بعد بيانه والإيمان ببعض الرسل دون بعض والإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض بدافع الأهواء لا بسند من حجة أو برهان . فإن ذلك يفقد الإنسان العدل في شئونه كلها . ويبعده عن الإنصاف في القول والعمل . كما يفقد الاعتدال في مواجهة سراء الحياة وضرائها ويوقعه في مرج واضطراب لا يسلم من عواقبه إلا بالعود إلى الحق والفرار إليه وإخضاع الهوى له وانسراح الصدر به .

وسيطل نداء القرآن لأهل الكتاب بل للناس جميعا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها سيطل - في عزته - يذكر ويبصر ويدعو إلى الحق ويهدي للتي هي

(٣٠) سورة البقرة : ٧٩ .

أقوم . وهو يسوق العبرَ والعِظَات ويدعو إلى كلمة سواء يقام بها العدل وينصف الحق ويشيع البر ويدفع الفساد والظلم والشر وهذا نداؤه لأهل الكتاب بل للناس جميعا ﴿ قُلْ يَأْهَلُ الْكِتَابِ تَمَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٦١) (٣١).

﴿ قُلْ يَأْهَلُ النَّاسِ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١٥٨) (٣٢).

ذاك هو النداء الذي يبصر الناس بما جاء به الأنبياء . وبالإستجابة له يصاب الأمن ويقام السلم وتحفظ الحياة . ويتحقق في الناس ما وصى الله به الأنبياء ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣٣).

٧

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنته قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (٩٨) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴾ (٩٩) (٣٤).

وسواء كان سبب نزول هذه الآيات مناظرة جرت بين اليهود ورسول الله ﷺ في أمر نبوته أو بينهم وبين عمرين الخطاب رضي الله عنه في أمر النبي ﷺ .

(٣١) سورة آل عمران : ٦٤ .

(٣٢) سورة الأعراف : ١٥٨ .

(٣٣) سورة العنكبوت : ٦٩ .

(٣٤) سورة البقرة : ٩٧ - ٩٩ .

فإن في الآيات بيانا لأمر يجب أن تدبرها وأن ندرك منها هداية القرآن ومقاصده وأن نعتصم به في كل شأن. من ذلك موقف اليهود من رسل الله بعامة ومن الرسول الخاتم ﷺ بخاصة. ومن المعلوم أن عداوة رسول من رسل الله هي عداوة الله وللرسل جميعا - ولا إيمان مع التفرقة بينهم أو تعمد الإساءة لأحد منهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَيْلًا ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ۝﴾ (٣٥).

وكذلك كان اليهود ولا يزالون يرون أنفسهم ولا يرون غيرهم ويكفرون بما أنزل الله مصدقا لما معهم بغيا منهم وحسدا من عند أنفسهم.

لقد سمعوا أن جبريل ينزل بالوحي من عند الله على رسوله ﷺ. فزعموا أن جبريل عدوهم لأنه ينزل بالهلاك والدمار والعذاب. وأن هذا هو الذي يمنعهم من الإيمان بمحمد ﷺ ولو كان الذي ينزل إليه بالوحي هو ميكائيل لآمنوا. فميكائيل يتنزل بالرخاء والمطر وهو ملك الرحمة، وجبريل عندهم هو ملك العذاب. هكذا يزعمون.

وهم يعلمون أن الله لم يبعث نبيا قط إلا وجبريل عليه السلام وليه. وجبريل عليه السلام لم يكن بشرا يعمل معهم أو ضدهم ولم يكن يتنزل إلا بأمر ربه ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَبَاكِينٌ أَيْدِينَا وَمَا خَلَقْنَا مَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝﴾ (٣٦). ﴿قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله﴾.

ولكن القوم - وهم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله - ينكرون ما يعرفون ولا يرون الفضل إلا لهم والنبوة إلا فيهم. ولو كان ما جاءهم كتاب من

(٣٥) سورة النساء: ١٥٠، ١٥١.

(٣٦) سورة مريم: ٦٤.

عند الله مصدق لما معهم . ذكر عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فيما روي عنه قال : كنت أشهد اليهود يوم مدارسهم فأعجب من التوراة كيف تصدق القرآن ومن القرآن كيف يصدق التوراة ، فبينما أنا عندهم ذات يوم قالوا : يا ابن الخطاب ما من أصحابك أحد أحب إلينا منك . قلت : ولم ذلك ؟ قالوا : لأنك تغشانا وتأتينا . فقلت : إني آتيكم فأعجب من القرآن كيف يصدق التوراة ومن التوراة كيف تصدق الإنجيل . ومّر رسول الله ﷺ فقالوا يا ابن الخطاب ذاك صاحبكم فالحق به . قال : فقلت لهم عند ذلك نشدتكم بالله الذي لا إله إلا هو وما استرعاكم من حقّه وما استودعكم من كتاب . هل تعلمون أنه رسول الله ؟ قال : فسكتوا فقال لهم عالمهم وكبيرهم إنه قد غلظ عليكم فأجيبوه .

قالوا : فأنت عالمنا وكبيرنا فأجبه أنت .

قال : أما إذ نشدتنا بما نشدتنا فإننا نعلم أنه رسول الله .

قلت ويحكم إذاً هلكتم . قالوا : إنا لم نهلك . قلت . كيف ذلك وأنتم تعلمون أنه رسول الله ولا تتبعونه ولا تصدقونه ؟

قالوا إن لنا عدوّاً من الملائكة وسلماً من الملائكة . وإنه قرن بنبوته عدوّنا من الملائكة . قلت : ومن عدوكم ومن سلمكم ؟

قالوا عدوّنا جبريل ، وسلمنا ميكائيل . قالوا إن جبريل ملك الفضاظة والغلظة والإعسار والتشديد والعذاب ونحو هذا ، وإن ميكائيل ملك الرحمة والرفاة والتخفيف ونحو هذا . قال : قلت وما منزلتهما عند ربهما ؟ قالوا : أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره . قال فقلت فوالله الذي لا إله إلا هو إنهما

والذي بينهما لعدو لمن عاداهما وسلم لمن سالمهما وما ينبغي لجبرائيل أن يسالم عدو ميكائيل وما ينبغي لميكائيل أن يسالم عدو جبرائيل قال : ثم قمت فاتبعت النبي ﷺ فلحقته وهو خارج من خوخة لبني فلان .

فقال : يا ابن الخطاب ألا أقرئك آيات نزلن قبل . فقرأ علي ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ حتى قرأ الآيات : قال : قلت بأبي وأمي أنت يا رسول الله والذي بعثك بالحق لقد جئت وأنا أريد أن أخبرك وأنا أسمع اللطيف الخبير قد سبقني إليك بالخبر (*) .

ذاك ما كان فلنتدبر ما أنزل من القرآن ولنعرف مقاصده ولنتبع هدايته . وفي حديث القرآن عن القرآن بيان لهدايته ومقاصده ودعوة إلى حسن تدبره والاعتصام به وهو حق يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

ومنه نعلم أن اليهود لا يكونون إلا حيث تهوى نفوسهم لا حيث يأمر ربهم هكذا كانوا مع الرسل ومع خاتمهم ﷺ إلا من رحم الله منهم ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ (٣٧) .

إن من اتخذ إلهه هواه يأتي بما يفضح ويخجل ولا يستحي من قول أو فعل . إن النتيجة الحتمية لقول هؤلاء أنهم لا يؤمنون بأحد من الرسل ، لأنهم جميعا قد جاءهم الروح الأمين بأمر من رب العالمين . فلم يبق لمن عاداه صلة بدين أو إيمان برسول .

٨

ومع حديث القرآن عن القرآن في قوله تعالى ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

(*) جامع البيان لابن جرير الطبري .

(٣٧) سورة البقرة : ٨٧ .

ومن قبل وقفنا معا عند هذه الآية . وعرفنا ما كان من اليهود من مفارقتهم رسول الله ﷺ لأن وليه جبريل عليه السلام وقولهم لو كان وليه سواء من الملائكة تابعناه وصدقناه .

وقلنا إن من اتخذ إلهه هواه يأتي بما يفضح ويُخجل من قول أو فعل .
وأنه يهود الذين ناظرهم رسول الله ﷺ - وهم يقولون - إن جبريل عدونا وهو وليك فلا تتبعك . يأتون بما يسجل عليهم الكفر والفسوق ويحرمهم من الهداية والتوفيق .

لقد حرموا الهداية والتوفيق بجحودهم الحق وكراهيتهم له .
والقرآن الكريم هدى وبشرى للمؤمنين . وهؤلاء بما قالوا وفعلوا لم يكونوا آمناء فيما أوّتمنوا عليه . ولا إيمان لمن لا أمانة له . ومن فقد الإيمان فلا بشرى له . ومن أضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله ؟

إن القرآن الكريم هدى وبشرى للقلوب التي تفتح للحق وتستجيب له . لا لمن ختم الله على قلبه وسمعه . القرآن هدى للمتقين . وهدى لقوم يؤمنون . وهدى لقوم يوقنون . وشفاء ورحمة للمؤمنين . وبنو إسرائيل بما صنعوا لم يكونوا يؤمنون أو يتقون أو يوقنون .

وعلة العلل فيهم أن جحودهم ناشئ عن حقد وحسد لا عن جهل بما جاء من الحق . ولا شيء أضر بحياة الناس من جحود الحق والإساءة إلى أهله مع وضوح الآيات وتكرار البينات وتوافر أسباب اليقين من كتاب يصدق كتابا ، ورسول يصدق رسولا . ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا

الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾.

إن جحود الحق مع بيانه إثباتٌ للباطل . ومن أثر الباطل دُمر به وزهق معه .
فما بالك بمن صدَّ عن الحق وعادى أهله .

والقرآن حق وله نوره وتلك بشره . وله ناره وذاك إنذاره ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ ﴿١﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٩﴾ . تلك بشره لمن آمن واتبع وذاك إنذاره لمن كذب أو أعرض وهو بهذا يكون هدى للناس أجمعين . ولا عذر لأحد من بعد ما تبين له الهدى ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ﴿١١٥﴾ ﴿٤٠﴾ .

ذاك حديث القرآن عن القرآن في بيان حقيقته رآثاره . إنه من عند الله بلاغا للناس أجمعين ونذيرا للعالمين يهدي للتي هي أقدم وينذر ويبشر . يبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عن ربهم . وفي بشره لهم حث للناس أن يتبعوا سبيلهم . وفي إنذاره تحذير للناس أن يتبعوا غير سبيل المؤمنين ومن يتبع غير سبيل المؤمنين يولِّه الله ما تولى ويُصلِّه جهنم وساءت مصيرا .

وفي جميع ذلك لا ترى فيه إلا الحق ولا تسمع إلا الصدق ولا تجد تناقضا بين الخبر والواقع أو اختلافا بين ما يخبر عنه وما يدعو إليه ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ

(٣٨) سورة البقرة : ٩٩ - ١٠١ .

(٣٩) الإسراء : ٩ ، ١٠ .

(٤٠) سورة النساء : ١١٥ .

اللَّهُ لَوْ جَدُّوْا فِيهِ أَخِيْلًا كَثِيْرًا ﴿٤١﴾ وَلَئِنَّهُ لَكُنْتُ عَزِيْزٌ ﴿٤٢﴾ لَا يَأْنِيْهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيْلُ مَنْ حَكِيْمٍ حَمِيْدٍ ﴿٤٣﴾ ﴿٤١﴾ .

٩

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة البقرة من دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١٢٩﴾ ﴿٤٤﴾ .

وقد استجاب الله دعاء إبراهيم عليه السلام فبعث فيهم رسولا منهم . بعثه برسالة عامة إلى العرب والناس أجمعين . وجعل معجزته هذا القرآن الذي تُتلى آياته ولا تنقضي عجائبه ولا يخلُق من كثرة الرد . وقد حفظه الله ليتلى على الناس في كل زمان ومكان تُبلَّغ به رسالته ويعرف هديه . ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ والمراد القرآن فهو آيات الله المنزلة على نبيه ﷺ المتعبد بتلاوته المتحدي بأقصر سورة منه .

لقد استجاب الله دعاء إبراهيم وكانت الاستجابة هي بعثة هذا الرسول الكريم ﷺ بَعَثَ رَسُولٍ مِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُطَهِّرُهُمُ مِنَ الْأَرْجَاسِ وَالْأَدْنَسِ . فكانت الأمة الإسلامية بهذه الاستجابة هي الوارثة لإمامة إبراهيم الداعية إلى ما دعا إليه جميع المرسلين وهم جميعا دعاة إلى دين واحد هو الإسلام الذي فُطر الخلق عليه وأرسل جميع الرسل دعاة إليه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيْ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿٤٣﴾ .

وهذا الكتاب الذي يتلى على الناس شاهد حق بما بعثوا به وما دعوا إليه وهو محفوظ بحفظ الله عزيز بعزته ، لا تُهْزَمُ حجته ولا يطفأ نوره ولا تخفى

(٤١) سورة فصلت : ٤١ ، ٤٢ .

(٤٢) سورة البقرة : ١٢٩ .

(٤٣) سورة الأنبياء : ٢٥ .

دلالتة به أخرج الله الناس من الظلمات إلى النور، وعلم الناس ما لم يكونوا يعلمون. وبه قد حفظت كلمة الحق وعُرف ميزان العدل وتحددت قيم الأشياء وعلت قيمة الإنسان حين انتسب إليه وشرف به واستجاب لندائه. علّت قيمة الإنسان وتعلو كلما أخذ نفسه بكلمة الحق التي جاء بها القرآن، فلم يخضع لنزعة جنس أو لون ولم يستجب لدافع هوى أو إغراء منفعة. نعم تعلو قيمة الإنسان حين ينصر الحق — والحق من ربك — وبه يرفع الله أقوامًا ويضع آخرين. تعلو قيمة الإنسان حيث ينصر الحق دون نظرٍ لقريب أو بعيد أو عدو أو صديق. فيغدو بالحق صاحب رسالة وإنسان مبدأ وعقيدة ينصر المظلوم ولو كان من غير جنسه ويأخذ على يد الظالم ولو كان من أهله وذوي قرابته. يقوم بالقسط ويأمر بالعدل ولو على نفسه.

وهذا ما تنطق به الآيات التي تتلى والتي أمر الرسول ﷺ بتلاوتها ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾. ﴿وَأْمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (٤٤).

وسيطّل القرآن الكريم يتلى وينذر ويهدي للتي هي أقوم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وستكون العزة لمن آمن وعمل بمقتضاه ولن يضل من استمسك به واهتدى بهداه. ومن رحمة الله بالخلق أن جعل لهم أسوة في رسول منهم يرون فيه القرآن قولاً وعملاً ويشاهدونه في حياتهم بياناً وخلقاً. ولا فصل بين بيان ومبين، لا فصل بين قرآن وسنة، فالأخذ بالسنة الصحيحة عمل بالقرآن. والعمل بالقرآن يقتضي حسن الاتباع لرسول الله الذي بين بقوله وفعله وإقراره ما نزل إليه من ربه.

(٤٤) سورة النمل: ٩١، ٩٢.

وقد كان دعاء إبراهيم جامعاً إذ دعا ربّه فاستجاب له ﴿رَبَّنَا وَأَنْبِئْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ . فتلا الرسول الآيات وعلم الكتاب وبيّن وبصّر وربّى وطهر . وقد كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ (٤٥) .

حديث عن الزمان الذي أنزل فيه وعن هدايته ومقاصده .

وفي الحديث عن الزمن تشريف لشهر رمضان وتعظيم إذ اختص من بين الشهور بإنزال القرآن فيه ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ .

والشهر فيه قولان لأهل اللغة أشهرهما أنه اسم لمدة الزمان الذي يكون مبدؤها الهلال ظاهراً إلى أن يستتر . سمي بذلك لشهرته في حاجة الناس إليه في العبادات والمعاملات وغيرها . الثاني : اسم للهلال نفسه .

ورمضان علم لهذا الشهر المخصوص . وقد قيل في تسميته برمضان لأنه وافق مجيئه في الرمضاء وهي شدة الحر فسمي به . وقيل لأنه يَرْمَضُ الذنوب أي يحرقها ويمحوها . وأما القرآن فهو في الأصل مصدر قرأت ثم صار علماً لما بين الدفتين . وقد نزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا وكان

(٤٥) سورة البقرة : ١٨٥ .

ذلك في شهر رمضان في ليلة القدر منه . كما قال الله عز وجل ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ (٤٦) وقال ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ (٤٧) .

ثم نزل بعده مفردا بحسب الوقائع على رسول الله ﷺ . هكذا روي من غير وجه عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وقوله ﴿ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ .

حديث عن هداية القرآن وما يحققه في حياة الناس .

لقد أنزله الله هدى لقلوب العباد ممن آمن به وصدقوه وأحسن اتباعه .

﴿ هدى للناس وبينات ﴾ أي دلائل واضحات وحججاً جلية لمن فهمها وتدبرها دالة على صحة ما جاء به من الهدى المنافي للضلال والرشد المخالف للغي ، ومفرقا بين الحق والباطل والحلال والحرام .

وما من شأن من شؤون الخلق إلا وللقرآن فيه إرشاد وبيان وتبصرة وذكرى . ويخطئ من يظن أن هداية القرآن عرض يأبونها أو يعرضون عنها فيتركون دون حساب وجزاء .

يخطئ من يظن أن القرآن - وهو الحق من ربهم - يعرض عنه من يعرض فلا يؤاخذ بذنب أو يحاسب على إعراض وترك . إنه الهدى والحق . وللهدى وللحق نور ونار فمن أبى النور فالنار موعده .

(٤٦) سورة الدخان : ٣

(٤٧) سورة القدر : ١ .

إن الكارهين للحق مأخوذون به . والمعرضون عنه ماكنون في ناره ﴿ إِنَّ
 الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ (٧٤) لَا يُفَعَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسِئُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ
 وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَىٰ أَيْمَنُكَ لِيَقْضَ عَلَيْكَ قَوْلُكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكْنُوتُونَ ﴿٧٧﴾
 لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٧٨﴾ (٤٨) .

إن القرآن الكريم - وهو يهدي في كل شأن للتي هي أقوم - به تتحدد مصائر
 الناس وتتميز صفوفهم . فمن اتبع هداه اهتدى ونجا ، ومن أعرض عنه ضل
 وخسر . وسيظل يدعو الناس إلى اتباعه ما بقيت الحياة ثم هو - يوم القيامة -
 شافع شاهد تسأل كل آية فيه عن فريضتها . ومن تدبر عرف النتائج ومن
 استبصر أدرك العواقب ، ومن أبى النور والهداية في يومه ندم على ما فرط في
 غده . كما قال أبو الدرداء رضي الله عنه «أخاف أن يقال لي يوم القيامة علمت
 أم جهلت ؟ فأقول : علمت . فلا تبقى آية في كتاب الله أمرة أو زاجرة إلا
 وتسألني فريضتها . تسألني الأمرة هل ائتمرت ؟ وتسألني الزاجرة هل ازدرجت ؟
 فأعوذ بالله من علم لا ينفع ومن دعاء لا يسمع» .

اللهم ارحمنا بالقرآن واجعله لنا إماماً ونوراً وهدى ورحمة واجعله لنا حجة
 يا رب العالمين .

١١

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ
 نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٤٩) .

والإشارة في قوله ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ ﴾ إلى قصة أولئك الذين خرجوا من ديارهم
 وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ، وقصة طالوت وجالوت
 وما وقع فيها من عبر وعظات . وبيان سنة الله في دفعه الناس بعضهم ببعض .

(٤٨) سورة الزحرف : ٧٤ - ٧٨ .

(٤٩) سورة البقرة : ٢٥٢ .

ونصر من يستحق النصر وإن قلّ عدده، وخذلان من يستحق الخذلان وإن كثر جنده. وكل ذلك بإذن الله وفضله ﴿وَلَمَّا بَرَرُوا لِحَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَسْكِنْتَ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٥١). ﴿تَلُوها عليك بالحق﴾ أي باليقين الثابت الذي لا يعتريه شك ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ بحيث تخبر بهذا القصص من غير أن تعرفه بقراءة كتب ولا استماع أخبار فدلّ ذلك على رسالتك ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي بشهادة إخبارك عن الأمم من غير مطالعة كتاب أو اجتماع يخبرك بذلك. ولا أدلّ على رسالة الرسول ﷺ من هذا القرآن الحكيم: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبِطِلُونَ﴾ (٥١). والمناسبة بين قوله ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ وقوله ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ بيّنة واضحة. فإن الآيات دالة على صدقه وأنه مرسل من ربه.

ومثله ما جاء في قوله تعالى ﴿يَسَّ﴾ (١) وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) فَإِنَّ الْمَقْسَمَ بِهِ ﴿وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾ دليل على صدق المقسم عليه كافٍ في الدلالة على نبوته وأنه مرسل من ربه ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٣). ووصف القرآن بالحكيم في القسم على رسالة من أرسل ليعلّم الناس الكتاب والحكمة فيه اتساق بين المقسم به والمقسم عليه.

(٥٠) سورة البقرة : ٢٥٠ - ٢٥٢.

(٥١) العنكبوت : ٤٨.

(٥٢) يس : ١ - ٤.

(٥٣) العنكبوت : ٥١.

إن هذا الكتاب الذي نزل بالحق يشهد بنفسه على نفسه بأنه خطاب رب العالمين للناس أجمعين ويتحدى الجن والإنس أن يأتوا بمثله أو بسورة منه . ويقطع بأنهم لن يأتوا بمثله وإن اجتمعوا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . لأنه من عند الله الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت . وما كان من عند الله فهو الحق بلا شك أو امتراء . ﴿الحق من ربك فلا تكن من الممترين﴾ .

وهذه الحقيقة تحدد لطالب الحق مصدر المعرفة والتمسك بما هو حق . وبالحق يعرف الباطل لأنه ضده . وبه لا بغيره يكون الإصلاح ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ (٥٤) .

والناس مأمورون بأن يصلحوا في الأرض ولا يفسدوا . منهيون عن الإفساد في الأرض بعد إصلاحها . فلا بد من منهج وشرعة تتبع يكون مصدرها الحق لا الهوى . والله هو الحق ، وقوله الحق ، وقد أنزل الكتاب بالحق .

فإذا أراد الناس صلاحا لدنياهم وفلاحا في آخرهم فلا سبيل لذلك إلا باتباع ما نزل من الحق ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق﴾ .

وهذا ما أمر الرسول ﷺ أن يعمل به وأن يبلغه الناس ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٥) .

﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمُ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَاحِجَةً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (٥٦) .

(٥٢) المؤمنون : ٧١ .

(٥٥) الجاثية : ١٨ .

(٥٦) الشورى : ١٥ .

وسيطل القرآن الكريم في ثباته وعزته - وهو الحق - يدعو إلى اتباع الرسول ﷺ وهو حق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولا يطفأ نوره ولا يتوقف مده . وفي الحديث عنه ﷺ وعن الكتاب المنزل عليه في آية واحدة بلا تفرقة تبصرة وذكرى للمؤمنين ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٢٥٢) .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة آل عمران : ﴿ أَلَمْ يَأْتِ الْفَلَاحَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ (١) نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٦) (٥٧) .

آيات فيها بيان عمّن نزل الكتاب ، ومن نزل عليه . وعن وصف هذا الكتاب وما يهدي إليه . فالمنزل هو الله لا إله إلا هو الحي القيوم . ولكل صفة من هذه الصفات دلالتها في الأخذ بما جاء في هذا الكتاب والاعتصام به وحسن اتباعه ولها دلالتها كذلك في الجزاء ، جزاء من صدق وآمن ومن كذب وأعرض ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ (٣١) * والله لا يخفى عليه شيء من أمر هؤلاء وأولئك ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (٥) * وفي قوله ﴿ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ بيان للمنزل عليه وهو الرسول ﷺ . وفي هذا القول ما فيه من إشادة بالكتاب وأنه الجدير بهذا الوصف دون سواه ، ومن تكريم لمن نزل عليه بتوجيه الخطاب إليه ﴿ نَزَلَ عَلَيْكَ ﴾ ، ومن بيان لمكانة المنزل وحقيقته وأنه منزل بالحق . فهو حق في ذاته وفيما يدعو

إليه . فليس للباطل إليه سبيل فهو مصون بحفظ الله في الأرض وفي السماء
﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ (٥٨) ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ
نَزَّلَهُ﴾ (٥٩).

﴿نزل عليك الكتاب بالحق﴾ بيان لحقيقة هذا الكتاب ومن نزله ومن نزل
عليه .

وقد سبق بقوله ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ ولا شيء أدعى للتمسك
بالكتاب المنزل من معرفة هذه الحقيقة ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ . نزل
عليك الكتاب . إنها تحقق في نفس المتدبر المهابة والخشية وحسن الإقبال
عليه والاعتصام به . ومن عرف أن كتابا يأتيه من عظيم له شأن أحسن استقباله
وعمل بمقتضاه - والله المثل الأعلى - والكتاب - الذي يدعى الناس جميعا إلى
الاستمسك به وحسن اتباعه وعدم الإعراض عنه - من الله الذي لا إله إلا هو
الحي القيوم . والرسول رسوله . وفي الكتاب دلالة على هذه الحقيقة لا
تخفى . وفي الرسول كذلك وهو الأسوة والقدوة في بيان هذه الحقيقة . والله
شاهد له وكفى بالله شهيدا . وأقوى الدلالات ما يجده الإنسان في نفسه وهو
يتلو كتاب ربه ، يجد هذه الخاصية الفريدة التي لا توجد إلا في هذا الكتاب
﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا يَنْفَعُ مَنَّهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ
جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ
اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾ (٦٠) . خصوصية دالة على أنه من الله الذي لا
إله إلا هو الحي القيوم . وجدير به وتلك نسبته أن يكون كذلك في تأثيره وفيما
يخبر به أو يدعو إليه .

(٥٨) سورة النحل : ١٠٢ .

(٥٩) الإسراء : ١٠٥ .

(٦٠) الزمر : ٢٣ .

﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾. نزل عليك الكتاب بالحق ﴿إن حديث القرآن عن القرآن في هذا المقام بما اشتمل عليه يدعو إلى عبادة الله وعدم الإشراك به وحسن التوكل عليه .

فإن هذا الكتاب منزل من الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم . فهو المتفرد بصفة الألوهية وهو الحي الذي يتوكل عليه ولا يتوكل على غيره . فإن الإنس والجن يموتون والله حي لا يموت ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾ وهو القيوم الذي به تقوم كل حياة وبه يقوم كل وجود فلا قيام لحياة في هذا الكون ولا وجود له إلا به سبحانه .

إن هذه الصفات وهي تذكر في الحديث عن القرآن تهيب النفس لاستقبال ما يتلى وتثير الخشية وتدعو إلى صدق الإخلاص وحسن التقبل . لأن الذي نزل القرآن يستحق أن يُعبد وأن يطاع ويتقى ، وهو أحق أن يُخشى . ومنهج عبادته وتقواه ما نُزل في هذا الكتاب على رسوله ﷺ وقد كان خلقه القرآن . فمن رام صلاحًا وفلاحًا في عاجله وآجله فعليه أن يتبع هذا المنهج في صدق وإخلاص واقتداء وحسن اتباع ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿١٥٣﴾ ﴿٦١﴾ .

١٣

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿الْعَمَّ ۝ (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝ (٢) نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ۝ (٤)﴾ (٣-٢) .

وقد تحدثنا عن هذه الآيات من قبل . وقلنا إنها حديث عمن نزل الكتاب ومن نُزل عليه وعن وصف هذا الكتاب وما يدعو إليه . وفي ذلك ما يثير الخشية ويدعو إلى صدق الإخلاص وحسن التقبل لأن الذي نزل الكتاب هو

(٦١) سورة الأنعام : ١٥٣ .

الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم . كما أنه نزل التوراة والإنجيل من قبل . وهذا الكتاب الذي نزله الله عليك بالحق ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ من التوراة والإنجيل . وكلها تستهدف غاية واحدة ﴿هدى للناس﴾ وهذا الكتاب ﴿فرقان﴾ بين الحق الذي تضمنته الكتب المنزلة والانحرافات والشبهات التي لحقت بها بفعل الأهواء والشهوات .

فلا وجه للتكذيب أو الإعراض من أهل الكتاب . والقرآن مصدق لما بين يديه من الكتاب وقد نزل من أرسل الرسل وأنزل الكتب الله لا إله إلا هو الحي القيوم . وفي قوله ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ دلالة على هيمنته ومكانته ، وأنه الشاهد على ما جاء فيها ، المؤتمن على حقيقتها ودفع الشبه عنها ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ . فلم يبق بعد نزوله سبيل لادعاء على رسل الله أو تقول عليهم . وهذا الكتاب فرقان واضح مبين ، يفرق بين الحق والباطل ، والحلال والحرام ، والظلمات والنور ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ وتلك مهمة الكتاب المهيمن والرسول الخاتم . مهمة الكتاب بيان ما كان عليه الرسل جميعاً وأنهم بعثوا بدين واحد هو الإسلام ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٦٣) . ومهمة الرسول الخاتم أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه وأن يخاطب الناس جميعاً في يقين وثقة كما أمر ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَتَمَنُّوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يُمُنُّ بِاللَّهِ وَكَلامِهِ . وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (٦٤) . فمن أبى إلا الإعراض والجحود من أهل الكتاب أو من غيرهم فهذا هو الوعيد ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو نِقَامٍ﴾ (٦٥) .

(٦٣) سورة آل عمران : ٨٥ .

(٦٤) سورة الأعراف : ١٥٨ .

(٦٥) سورة آل عمران : ٤ .

وفي صدد الوعيد بالعذاب الشديد يؤكد لهم علم الله الذي لا يند عنه شيء
فلا خفاء عليه ولا إفلات منه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي
السَّمَاءِ ﴾ (٦٦).

فلا يمكن ستر النوايا عليه . ولا إخفاء الكيد عنه . ولا يمكن كذلك التفلت
من الجزاء والتهرب منه . ﴿ يَوْمَ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ
الْمُبِينُ ﴾ (٢٥) ﴿ (٦٧) .

وفي ذلك بلاغ للناس جميعا ليعرفوا حقيقة الرسالة والرسول وليتقوا الله في
أنفسهم وفيما ينسبونهم إلى الأنبياء . فإن حفظ «الفرقان والذكر» حفظ للرسالة .
وفي هيئته صون للأمانة التي بعث بها الرسل وصدقوا جميعا في تبليغها
والتمسك بها وفي حفظ «الذكر» شهادة على أولئك الذين يريدون أن يفرقوا بين
الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض .

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ
وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ (٦٨).

ذاك هو الإيمان الذي يدعو إليه هذا الكتاب والذي دعا إليه الرسل جميعا .
والكل مسئول عما بلغ به وما دعه ، إليه ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ
وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٦) ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَنْهُمْ بَعْلَهُمْ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ (٧) ﴿ (٦٩) .

وذاك ما يوحى به حديث القرآن عن القرآن في هذه الآيات ﴿ أَلَمْ نَكُنْ لَهُ الْإِلَهَ إِلَّا
هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ ﴿ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ
مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ
عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ (٤) ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (٥) ﴿ .

(٦٦) آل عمران : ٥ .

(٦٧) سورة النور : ٢٥ .

(٦٨) سورة البقرة : ٢٨٥ .

(٦٩) سورة الأعراف : ٦ - ٧ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾﴾ (٧٠).

عن القرآن وعن من أنزله ومن أنزل عليه . والضمير في قوله «هو» يعود إلى الله عز وجل وقد ذُكر من قبل في آيات . وقد جاء الضمير في قوله ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ بعد هذه الآيات ليُعلم أن من أنزله تلك صفاته فهو الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم ، وهو عزيز ذو انتقام ، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء . وهو ﴿الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ .

فقوله بعد ذلك ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ فيه بيان لمنزلة الكتاب ومكانته ببيان من أنزله ، وفيه تشريف وتكريم لمن نُزل عليه .

فالمنزَّل هو الله وقد عرفت صفاته وشوهدت آياته .
والمنزَّل عليه رسولٌ من الله فهو جدير بأن يطاع وأن يتبع . فإن طاعته طاعةُ الله الذي أرسله ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ . ولا نجاة إلا بصدق الإخلاص لله واتباع رسوله ﷺ .

والكتاب في قوله ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ هو القرآن فإنه الجدير بهذا الوصف على الإطلاق دون سواه . وقد حفظ بحفظ الله ليبقى منهج الهداية محفوظا للأجيال كلها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وبه حفظت الرسالة وختمت وعرفت الحقيقة - كما جاءت من عند الله - مع جميع الأنبياء .
حفظ الكتاب المهيمن فحفظت الهداية كاملة لجميع الخلق .

(٧٠) سورة آل عمران : ٧ .

وإذا عرف الناس مصدر الهداية ومنهجها وحفظ الله الذكر وبيانه هدى للناس إلى يوم الدين فلا عذر لمخالف ولا حجة لمعرض بعد إذار وإنذار ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ ﴿١﴾ وتقرير الجزاء - كما جاء في هذا الكتاب - لمن أحسن أو أساء فيه دلالة على أن الحق الذي أنزل وحفظ بحفظ الله لا يمكن أن يهزم أو يضيع ومن تدبر العواقب أيقن يقينا لا شك فيه أن الحق لا يمكن أن يهزم أبدا. والأمور بعواقبها. والعاقبة نصر للحق ودمار لمخالفه، وتكريم للعاملين به وهلاك للكارهين ﴿والله عزيز ذو انتقام﴾.

وإذا تدبرنا ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ دعانا ذلك إلى الاعتصام بالكتاب والتمسك بالسنة. ذلك أن الله هو الذي أنزل الكتاب، وخاطب به رسوله بقوله ﴿أنزل عليك الكتاب﴾ فالمنزل عليه رسول مصطفى من الله يجب أن يطاع، وطاعته طاعة الله ومعصيته معصية الله ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٦٣﴾ (٧١).

وقد جاء الحديث عن هذا الكتاب في قوله ﴿مَنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ وهو يفيد أن منه محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات. ولا تعارض بين هذا وبين ما جاء في القرآن، مما يدل على أنه كله محكم؛ إذ قال الله عز وجل ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ ﴿٧٢﴾ وما جاء فيه مما يدل على أنه كله متشابه إذ قال الله عز وجل ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانًى﴾ ﴿٧٣﴾. لا تعارض بين هذه الإطلاقات لأن معنى إحكامه أنه متقن رصين، لا يتطرق إليه خلل لفظي ولا معنوي كأنه ببيان مشيد محكم يتحدى الزمن ولا ينتابه تصدع ولا وهن.

(٧١) سورة النور : ٦٣ .

(٧٢) سورة هود : ١ .

(٧٣) سورة الزمر : ٢٣ .

ومعنى كونه متشابهاً أنه يشبه بعضه بعضاً في إحكامه وحسنه وبلوغه حد الإعجاز في ألفاظه ومعانيه ، حتى إنك لا تستطيع أن تفاضل بين كلماته وآياته في هذا الحسن والإحكام والإعجاز.

وأما أن بعضه محكم وبعض متشابه فمعناه أن من القرآن الكريم ما اتضحت دلالاته على مراد الله عز وجل منه . ومنه ما خفيت دلالاته على هذا المراد . فالأول هو المحكم ، والثاني هو المتشابه على خلاف بين العلماء في ذلك . بيد أن الذي اتفقوا عليه ولا يمكن أن يختلفوا فيه ، هو أنه لا تنافي بين كون القرآن ، كله محكما أي متقنا وبين كونه كله متشابهاً أي يشبه بعضه بعضاً في هذا الإتقان والإحكام وبين كونه منقسماً إلى ما اتضحت دلالاته على مراد الله تعالى وما خفيت دلالاته . فالقرآن كله محكم أي متقن ، لأن الله قد صاغه صياغة تمنع أن يتطرق إليه خلل أو فساد في اللفظ أو المعنى . والقرآن كله متشابه لأنه يماثل بعضه بعضاً في هذا الإحكام . والقرآن منه محكم واضح المعنى المراد وضوحاً يمنع عنه الخفاء ومنه متشابه تخفى دلالاته . ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ﴾ أي إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة ﴿ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ ﴾ أي الإضلال لأتباعهم إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن وهو حجة عليهم لا لهم . ﴿ وَأَبِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ أي تحريفه على ما يرون . وقد جاء في صحيح البخاري ومسلم عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ . . ﴾ إلى قوله ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ قالت : قال رسول الله ﷺ : « فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم » .

أخي المسلم : لا تكن من أولئك الذين يتكلمون في أمرٍ بلا علم . أو يتبعون التأويل بلا حجة أو دليل ، أو يتبعون ما تشابهه ويعرضون عن

المحكمات - وهن أم الكتاب ، فإن الله قد جعل لك ما به تستيقن . آيات محكمات هن أم الكتاب - وامتحنك بأخر متشابهات وهذاك بفضلته ورحمته إلى الحق ياذنه . فادع الله بصدق ويقين ألا تقع فيما وقع فيه أولئك الذين في قلوبهم زيغ ، فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله . وقل آمنت به كل من عند ربي ، وسله مخلصاً مع الراسخين المتقين ﴿ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (٧٤) .

ولا تجعل فكرك أسيراً لهواك بإقحامه فيما لا مجال له فيه وما لا يعلم تأويله إلا الله واحذر الظن والتخمين وكن مع الحجة والبينة والبرهان فبها يطلب العلم ويكون اليقين . فإن الراسخين في العلم لا يقولون قولاً بلا علم يستند إلى برهان وحجة . وما استأثر الله بعلمه يجب أن يوقن به وألا يلجأ إلى تأويله بل يقول المؤمن ما يقوله الراسخون في العلم ﴿ أَمْ نُنِيبُ ۚ كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا ﴾ . ومن هذا القبيل ما أخفاه الله على الناس من معرفة الساعة ، فإن الحكمة في ذلك لا تخفى على ذي عقل ورشد . فإن الله قد أخفى ذلك عن الناس رحمة بهم ، كما أخفى عنهم آجالهم . فسبحانه من إله حكيم . فما استأثر الله بعلمه وأخبر به وقال ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ فيه من حكمة الامتحان والاختبار ما لا يخفى ، وبه يتميز الناس ويتفاوتون في درجات الإيمان واليقين ﴿ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٧٥) .

وقد قضى الله أن يُمتحن الناس ، وقد أحكم لهم ما به يكون الثبات على الحق واليقين ، وامتحنهم بالمتشابه الذي ذكره واستأثر بعلمه ؛ ليميز الصادقين الراسخين من الكاذبين المذبذبين .

(٧٤) سورة آل عمران : ٨ .

(٧٥) سورة العنكبوت : ٣ .

وإذا تجاوزنا هذا النوع من المتشابه - وهو ما استأثر الله بعلمه - إلى غيره مما يعلمه خواص العلماء وما يعرفه الإنسان عن طريق الدرس والبحث . فإن الحكمة فيه لا تخفى سواء في رفع درجات الناس وتنافسهم على معالي الأمور وتحصيل كثير من العلوم ، أو حث الناس على البحث والدرس وطلب المعرفة فيما صعب عليهم واستعمال عقولهم فيما طولبوا بتدبره والتفكر فيه . وفي ذلك فليتنافس المتنافسون . ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بِعَدَائِكُمْ كُفْرِينَ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (٧٦).

ولنا عند دلالة هذه الآيات من سورة آل عمران وقفات :

الأولى : دلالة هذا النداء ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ وما يقتضيه من حسن استجابة وعمل بمقتضاه . فإن من مقتضيات الإيمان حسن الاستجابة لله ونلرسول فيما يدعى إليه أهل الإيمان من فعل أو ترك . فإن في الاستجابة حياة أي حياة . وفي الإعراض فتنة لا تخص الظالمين وحدهم ، بل تعم ، مصداقا لقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهُ يَشْهَرُونَ وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٧٧).

(٧٦) سورة آل عمران : ١٠٠ - ١٠٣ .

(٧٧) سورة الأنفال : ٢٤ ، ٢٥ .

إن أمة الإسلام في مجموعها جسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر، وهذه الأمة لا يحفظ كيانها إلا حسن استجابتها لله وللرسول في كل شأن من شئونها، وقيامها بما أوجب الله عليها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمصارعة إلى الخيرات . فإن هي قصرت أو أعرضت حوسبت وعوقبت ، فإن سنن الله لا تجامل ولا تحابي ولا تتحول ولا تبدل .

وقد جعل الله حياتها بوصفها أمة مرهونة بحسن استجابتها لنداء ربها وعملها بمقتضى إيمانها . فإن هي استجابت لنداء الإيمان حفظت نفسها وأدت رسالتها وظفرت بعزتها ونصر ربها . وإن تراخت نالها ما ينال غيرها دون تعلق بالأمانى أو ركون إلى المغفرة .

وهذا النداء ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ له دلالة في وحدة المؤمنين وتربطهم وتعاونهم في تحقيق مقتضيات الإيمان ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٧٨) . وهذا وعد الله لهم بحسن المثوبة والجزاء والله لا يخلف وعده ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٧٩) .

إن أي تراخ في تحقيق مقتضيات الإيمان أو استخفاف بها أو إعراض عنها يودي بالأمة ويوقعها في الاضطراب والإحباط ، فإن هي تمادت أخذت بذنبها ويستخلف الله قوما آخرين لينظر ما يعملون .

(٧٨) سورة التوبة : ٧١ .

(٧٩) التوبة : ٧٢ .

ومن الفهم الخاطئ ، بل من الخطيئة أن يُتصور أن كلَّ إنسان في محيط الأمة الإسلامية من حقه أن يفعل ما يشاء دون التزام بمعالم أو حدود . فإن ذلك قد يُودي بالأمة كلها ما لم يؤخذ على يد المفسد أو الضال . فقد شبه الرسول ﷺ أمرنا نحن المسلمين حيث كنّا كالراكبين في سفينة واحدة ليس من حق أحد فيها أن يقول هذا نصيبي أفعل فيه ما أشاء ؛ فقد قال ﷺ فيما رواه البخاري عن النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - : «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وأن أخذوا على أيديهم نجوا ونَجَوْا جميعاً» . وما الخرق الذي أشير إليه إلا الذنوب والآثام والمعاصي التي يُترك أصحابها دون رادع من منكرٍ لها أو مؤاخِذٍ عليها . وقد روى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان أن النبي ﷺ قال : «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ثم لتدعنه فلا يستجاب لكم» .

تلك مقتضيات الإيمان وما يوحى به هذا النداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان» وفي رواية «وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل» .

الوقف الثانية : عند قوله ﴿إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرْدُّوكُمْ﴾ وقد جاء التكليف أو التحذير في هذه الآية في أسلوب الشرط والجزاء لتعرف النتائج وتذكر العواقب . ﴿إِنْ تُطِيعُوا﴾ . يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وتلك هي الغاية عند القوم ومن يتوهم غير ذلك فقد ضل سواء السبيل .

ولئن كان للآية سبب خاص فإن العبرة فيها بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

والسبب حين يذكر يعين على حسن فهم وتدبر ويشير إلى أصل الداء والخطر .

ومما جاء في سبب نزول هذه الآية أن شاس بن قيس اليهودي - وكان عظيم الكفر - قد مرّ بنفر من الأوس والخزرج - وهم في مجلس يتحدثون فغاظه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذات بَينهم في الإسلام ، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية ، وقال : قد اجتمع ملأ بني قبيلة بهذه البلاد . والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار . فبعث رجلاً معه وأمره أن يجلس بينهم ويذكر لهم ما كان من حروبهم يوم بعاث - وكان يوم بُعاث يوماً اقتتل فيه الأوس والخزرج قبل مبعثه ﷺ - ففعل فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القوم ، وغضب بعضهم على بعض ، وطلبوا أسلحتهم وتواعدوا إلى الحرة وخرجوا إليها ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه ، من المهاجرين حتى جاءهم ، فقال : يا معشر المسلمين أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وقطع عنكم إضر الجاهلية وألف بينكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً ؟ الله الله . فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا واعتنق بعضهم بعضاً ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين . قال جابر : فما رأيت يوماً أقبح أولاً وأحسن آخرًا من ذلك اليوم فأنزل الله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ . ذاك ما ذكر من سبب وهو يعين على حسن فهم وتدبر .

فكيف خرج المسلمون آنذاك من فتنة عدوهم وسلموا من كيده . إن ذلك ما بينته الآيات في أسلوب أخاذ ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ﴾ ففي الآيات دعوة إلى الاعتصام بالكتاب والتمسك بالسنة

﴿تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله﴾ فإن في ذلك عصمة من التفرق والتنازع والمطاوعة للهوى والباطل .

إن لأهل الباطل وسائلهم في صرف الناس عن الحق وإبعادهم عنه .

ومن الناس ناسٌ تستخفهم وسائل أهل الشر وتسهل مطاوعتهم للباطل وتستحوذ عليهم الشياطين فيردُّ أحدهم إلى الكفر بعد إيمان ويشاق الرسول بعد بيان .

ومن أهل الكتاب ناسٌ تخصصوا في ترويض المسلمين وردّهم عن دينهم وإفساد ذات بينهم . ولا سلامة من وسائل هؤلاء إلا بصدق اعتصام وحسن اتباع . والكتاب يتلى علينا والسنة قائمة فينا ويكون الأمر بالغ العجب إذا رأيت من يشكو الظمأ والماء محمولاً على ظهره أو يقع في الحيرة ومعه التبصرة ، أو يُردُّ على عقبه بعد إذ هداه الله ﴿وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله﴾ إن الغاية التي يسعى العدو نحوها ، والنتيجة التي يودُّها أن يردَّ المسلمون عن دينهم وأن يعودوا كافرين . ومن توهم غير ذلك أيقظته الفواجع والنكبات . وجميع ما يرى غير ذلك إن هو إلا مقدمات في العمل على إضعاف المسلمين وتمزيق صفوفهم للوصول إلى هذه الغاية وتلك النتيجة ﴿يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ .

﴿وَدَكْثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ (٨٠) .

وقد تساءلنا من قبل ما السبيل إلى حماية الأمة الإسلامية من ذلك؟ بل ما السبيل إلى تأثيرها في غيرها لا في تأثرها به ومطاوعتها له؟

(٨٠) سورة البقرة : ١٠٩ .

إن ذلك لا يكون إلا بإيجاد الإنسان الصحيح في عقيدته وسلوكه وجميع أمره .

فإن الإنسان الصحيح تصح به الأمور الفاسدة . والإنسان الفاسد تفسد به الأمور الصالحة . والمنهج في إعداد الإنسان الصحيح كتاب وسنة . كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وسنة صحيحة تتم بها الأسوة وتصح القدوة .

ومع الأخذ بالكتاب والسنة تصعب المطاوعة للباطل ويستعصي على العدو أن يميل بالمسلمين حيث يريد .

وذلك لا يقع إلا عندما تضعف صلة المسلمين بكتاب ربهم وسنة نبيهم . والكتاب ما أنزل إلا ليعمل به ويُتَّبَع لتتحقق هدايته وينعم الناس بفضل الله ورحمته . ولا تفرقة في الاتباع بين قرآن وسنة . فإن التفرقة بين الكتاب والسنة ردٌّ عن الدين كله ، وتحقيق لمآرب أعداء الله الذين يسعون إلى ذلك بشتى الوسائل ﴿ وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ﴾ . وآيات الله - وهي تتلى - تبين للناس ما يجب أن يكونوا عليه في كل شأن وتهدي للتي هي أقوم . وسنة الرسول ﷺ تُري الناس خُلُق القرآن في واقع حيث تكون الأسوة والقدوة بمعرفة وبصيرة ولا يكون للأهواء سبيل في تفسير أو ظن أو تخمين ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٨١) .

ويكون الأمر بالغ العجب إذا وقعت المطاوعة من المسلمين لأعدائهم وحققوا فيهم ما يريدون من فرقة وتنازع والقرآن يتلى عليهم ورسول الله فيهم . أي كيف يوجد منكم الكفر مع وجود هذين النورين ؟ فإذا كان تدبير الأعداء داءً يعمل على فرقتكم وإشاعة البغضاء بينكم ، بل على إخراجكم من دينكم

(٨١) سورة النحل : ٤٤ .

وإرجاعكم إلى ظلمات جاهليتكم فإن معكم الدواء الذي يحفظكم ويعينكم على رد الكيد ودفع الشر وإحراز الفوز والنصر، وهو من عند الله، وما عند الله لا يطلب إلا بطاعته، وفي بيان القرآن ما يغنيكم ويصركم بما يجب أن تكونوا عليه ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَد بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخْفَىٰ صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هَاتَانِ أَوْلَاءٌ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا الْقَوْمُ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا يَغِيظُكُمُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ إِذَآ أَصْدُرُوا أَن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُوءُهُمْ وَإِن تَصِبْكُم سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ (٨٢).

هكذا يبين لنا القرآن الكريم ما يجب أن يكون ﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا﴾ وتحقيق ذلك باتباع المنهج دون غلو أو تفريط والمنهج مسطور ومحفوظ ومن حاد عنه ضل ومن ابتغى العز في غيره ذل ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾ .

الوقفه الثالثة : عند قوله ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾ .

فإن من رحمة الله بخلقه أن هداهم إلى معرفته وجعل هدايته عصمة لهم من الضلال وسوء المصير وأمرهم أن يعتصموا بكتاب الله وأن يتمسكوا به فهو حبل الله المتين وصراطه المستقيم . والنور المبين . عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾ أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة . وبين لهم ما به تجتمع كلمتهم ويأتلف جمعهم . تجتمع كلمتهم ويستقيم سعيهم وتقوى مودتهم بالاعتصام بكتاب ربهم والعمل بما جاء به في أنفسهم وفي روابطهم وفي علاقتهم بغيرهم وفي كل شأن من شئونهم . ونهاهم عن التفرق وحذرهم منه فإن التفرق دمارٌ لأهله ومدعاة للفشل وذهاب الريح .

(٨٢) سورة آل عمران : ١١٨ - ١٢٠ .

والله عز وجل - وقد أرسل الرسل وأنزل الكتاب - لم يترك الناس لكي يجعلوا من أهوائهم شرعا يتبع أو منهجا تجتمع عليه كلمتهم فإن الأهواء تفرق ولا تجمع، وتفسد ولا تصلح، ولكل شخص هواه. ولكل حزب مآربه ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن﴾ فلا بد لجمع الكلمة من شرع منزه عن الأهواء، يحفظ الحق لجميع الخلق، ويقيم العدل بلا تفرقة. من أجل ذلك أنزل الله هذا الكتاب وتكفل بحفظه رحمة بخلقه وهداية لهم. أنزله على خاتم الرسل ﷺ وقد كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه، فالأسوة به استمسك بالكتاب والسنة. ومخالفته إعراض عن الذكر وانحراف عن الصراط المستقيم ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٣).

وبذا يكون المنهج قد تحدد علما وعملا ولم يترك لهوى الناس.

وتجربة التاريخ أمام أعيننا - نحن المسلمين - ترينا أن كلمتنا لم تجتمع إلا به. ووجدتنا لم تصن إلا باتباعه. ولقد بين الرسول ﷺ أن أمر هذه الأمة في كل زمان ومكان لا يصلح إلا بما صلح به أولها فقال ﷺ «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا كتاب الله وسنتي».

ذاك ما ائلفت به القلوب، وتأخت النفوس، وعزت حين اعتزت به، ولم تر عزها في غيره، وهذا ما يذكرنا به الله لنسلك الطريق القويم، ونحذر السبل التي تفرقنا عن سبيله، وتجعلنا شيعا وأحزابا، يعادي بعضنا بعضا، ويضرب بعضنا وجوه بعض. ولا بقاء لأمة مع الفرقة ولا صلاح لجمع مع التنازع ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا

وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٨٤﴾ ، هذا التذكير ليس لمن نزل القرآن فيهم فحسب ، بل هو لهم ولنا ولمن جاء بعدنا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ونحن مطالبون بشكر هذه النعمة ولو كانت لأسلافنا من قبل . فكل نعمة أنعمها الله على أسلافنا من قبل لنصر دينه وإعلاء كلمته هي نعمة لنا نطالب بشكرها ؛ إذ لولا ذلك لما وصلت إلينا ونعمنا بها . وذكرها في القرآن ذكر لنا وتبصرة وشرف عظيم لا يدانيه شرف ، فمن أبى القرآن أو أعرض عن الذكر عاش في دنياه مهينا بلا شرف ، وسئل بين يدي الله عما فرط وضع ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ ﴿٨٥﴾ .

وقد بين لنا القرآن الكريم كيف نحافظ على جمع الكلمة ونعتصم بحبل الله جميعا ولا نتفرق كما أمر الله ، وحفظ البيان لتكون الأجيال كلها على بصيرة من أمرها فلا تضل أو تضل .

فإن أبى ناس إلا أن يسلكوا سبل الباطل — والله يدعوهم إلى الحق — فإن الله بما يعملون بصير ، والحق الذي أنزله الله وحفظه لا يضيع ، فإن للحق نورا ونارا فمن أبى النور فالنار موعده . ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿٨٦﴾ .

﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ ﴿٨٧﴾ . إن مصدر قوة هذه الأمة — وهي من الله — تتوقف على الاستجابة في التمسك بأسباب القوة كما أمر الله لتسلم من

(٨٤) سورة آل عمران : ١٠٣ .

(٨٥) سورة الزخرف : ٤٤ .

(٨٦) سورة محمد : ٣٨ .

(٨٧) سورة الأنعام : ١٣٣ .

تدبير العدو وكيدته وتحقيق مآربه وغايته . هو يريد أن يرد المسلمين بعد إيمانهم كافرين . فليكونوا في جميع أحوالهم مؤمنين صادقين موحدّين موحدّين . وليحذروا أسباب الفرقة والتنازع والتشاحن والتخاصم . فإنها تحقق للعدو ما يطمع فيه دون مشقة أو تكاليف ، ولا يجوز لهم بحال أن يتركوا للعدو العبث بمقدراتهم - وهم يتخاصمون وأن يتداعى عليهم كما تداعى الأكلة على قصعتها - والأمر في بدايته ونهايته يتصل بالمسلمين أنفسهم لا بعدوهم ، فإن من سنن الله ألاّ يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وذنوبهم أخطر عليهم من عدوهم . وما يأتيهم من شر هو من أنفسهم لا من كيد عدوهم . فليسألوا الله العون على أنفسهم كما يسألونه النصر على عدوهم .

فليحذروا أن يقع الشرط منهم ، فإنه فعلهم ، فيأتي الجزاء مدراً لدنياهم مُخسراً لأحراهم . الشرط ﴿إِنْ تَطِيعُوا﴾ وهو مسند إليهم لا إلى غيرهم وهم الفاعلون . والجزاء ﴿يُرَدُّوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ . تلك هي غاية العدو . وفي سبيله يتخذ جميع الوسائل لإضعاف المسلمين وتمزيقهم للوصول إلى هذه النتيجة ﴿يُرَدُّوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ . وبإله من جزاء يحمل من العار والمذلة وسوء العاقبة ما ينفر منه كل حر تقي كريم .

والقرآن الكريم الذي أمر أهل الإيمان أن يعتصموا به ولا يتفرقوا قد بيّن كل شيء . وما فُرط فيه من شيء . بيّن للمسلمين كيف يعتصمون ويحافظون ويستمسكون ويتوحدون ولا يتفرقون . فقال الله جل شأنه في هذا الكتاب العزيز ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٤) (٨٨) . ذاك ما بينه القرآن ودعا إليه وحذر من مخالفته أو الإعراض عنه .

(٨٨) سورة آل عمران : ١٠٤ .

وهذا ما يصون وحدة الأمة ويحفظها من الفرقة والاختلاف .

دعوة إلى الخير وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر تقوم به أمة راشدة تعتصم بحبل الله ولا تتفرق أمة تدرك العواقب - فتؤدي ما فرض الله عليها - ولا تأسرها الأهواء والרגائب .

فإن من فرط فيما أمر به وضع ما فرض عليه لقي ما لقيت الأمم التي تفرقت واختلفت من قبل ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠٥) ﴿٨٩﴾ . إن الأمة لا تفلح إلا إذا ساد الخير فيها ، وكان المعروف معروفا والمنكر منكرا . وهذا واجب الأمة في المقام الأول أن ترعى هذا الحق ، وأن تصونه ، وأن يبذل في سبيله كل مرتخص وغال ، وألا تدع للشهوات والنزوات سبيلا للفساد والإفساد .

وإذا لم تفعل الأمة ذلك تكون قد رضيت لنفسها الفرقة المذلة والاختلاف المشين الذي يحقق للأعداء غايتهم وينفذ كيدهم وينتهي بهم إلى أسوأ مصير ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (١٠٦) ﴿٩٠﴾ عذاب وتبكيك وتأنيب على ما وقع من فرقة واختلاف من بعد ما جاءهم البينات .

وجدير بمن عرف هذا المنصير على هذا النحو ألا يكون في سعيه إمعة يطيع أهل الشر في شرهم دون مبالاة بعاقبة أو مصير .

ولنذكر ما بدئت به الآيات وما تضمنه النداء في قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا قَرِيبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ﴾ (١٠٠) ﴿٩١﴾ .

(٨٩) سورة آل عمران : ١٠٥ .

(٩٠) سورة آل عمران : ١٠٦ .

(٩١) سورة آل عمران : ١٠٠ .

فذاك المصير الذي نهانا الله أن نقع فيه في قوله ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا
وَاخْتَلَفُوا...﴾ هو مصير أهل الكتاب الذين نهى الله أن يطيعهم أهل الإيمان
أو يطاعوهم فيما يودون ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ
وُجُوهٌ﴾ .

فهل من متعظ ومعتبر يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه فيرد أمة الإسلام إلى
الاعتصام بحبل الله والقيام بما فرض الله من دعوة الخير والأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر - كما أمر الله ليتحقق لها ما ترجوه من فوز وفلاح ﴿وَأُولَئِكَ
هُمْ الْمُقْلِحُونَ﴾ .

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٩٢).

١٦

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة آل عمران
﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ (٩٣) .
والمخاطب هو الرسول ﷺ وفي مخاطبته تنويه بشأنه وذكر لمكانته
ورسالته والمشار إليه بقوله ﴿تِلْكَ﴾ ما سبق من الآيات وما تقرر فيها من
حقائق ومصائر ومنها ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا
وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ
وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ
بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ
تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ (٩٤) .

(٩٢) سورة العنكبوت : ٦٩ .

(٩٣) سورة آل عمران : ١٠٨ .

(٩٤) سورة آل عمران : ١٠٤ - ١٠٨ .

تلك آيات الله وبياناته لعباده نتلوها عليك بالحق . فما تقرره من مبادئٍ وقيمٍ حقٍّ وما تعرضه من مصائرٍ حقٍّ ، وهي آيات حق من الله الحق .

ومن أدرك ذلك وآمن به تمسك بالحق وعمل به ، ولم تصرفه منفعة عاجلة أو رغبة طارئة عن الاستمسك بالحق والثبات عليه والرضا بنتائجه . فإن الجزاء واقع لا محالة .

فمن تمسك بالحق وجدّه ، ومن آثر الباطل أخذ بالحق . والجزاء في الحالين حق . فالجنة حق والنار حق ﴿وما الله يريد ظلماً للعالمين﴾ .

إن ترتيب الجزاء على العمل إحقاق للحق الذي لا تستقيم شئون الناس إلا به .

ومن تدبر العواقب أيقن أن الحق لا يهزم أبداً لأنه من الله ، والله هو الحق ، وقوله الحق ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٩٥) .

إن من له ما في السموات وما في الأرض لا يستطيع أحد أن ينفذ من ملكه أو يفلت من حكمه ، ومن إليه ترجع الأمور لا إلى غيره يحاسب على الحق الذي بصر به ودعا إليه وأقام الحجة على الخلق بآياته وبياناته ، وهو قادر على ذلك ﴿وَمَا كَانَتْ أَلْفُ عِجْرٍ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ (٩٦) .

فالأمر جد لا هزل فيه ، وحق لا يقترب من ساحته باطل ولا يتسرب إليه . إن من نزل هذه الآيات لا يعجزه من شيء في الأرض ولا في السموات . وبالحق أنزل القرآن ، وبالحق نزل ، وبالحق ومن أجل الحق تقوم الساعة ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْشَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٩٧)

(٩٥) سورة آل عمران : ١٠٩ .

(٩٦) سورة فاطر : ٤٤ .

(٩٧) سورة الجاثية : ٢٧ .

فالحق ليس ضياعاً أو خذلاناً لمن تمسك به . فما الساعة في قيامها وأهوالها إلا إحقاق للحق وإحضار لميزانه . ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (٩٨) . ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِدِينَفَرُّوْكَ ﴾ (٩٩) ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ (١٠٠) ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ (١٠١) .

إن الإيمان بالحق والعمل به أمن لدنيا الناس ، وفوز لهم في آخرهم . ولا أمن ولا استقرار لمن كذب بالحق أو أعرض عنه .

وإذا تنكر الناس للحق وأُخْسِرَ ميزانه بين الخلق فلا تسل عن الاضطراب والهرج والمرج في كل شيء في داخل النفس وخارجها . في الكلمة التي تقال وفي العمل الذي يُراد وفي كل شأن من الشؤون مرج واضطراب شقاء يقع بمن كذب بالحق في دنياه وفي الآخرة عذاب أيّ عذاب .

إن الآيات التي تتلى على الناس بالحق فيها دعوة لهم إلى اتباع الحق ويأتي الجزاء لمن اتبع الحق وأعرض عنه من الله عدلاً وإنصافاً وإحقاقاً للحق وإبطالاً للباطل ﴿ وَمَا اللَّهُ يَرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ النَّارِ ﴾ (٩٧) ﴿ أَمْ جَعَلُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ جَعَلُوا الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ (٩٨) ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرُوا أَلَّا يَكُنِ الْآلِثِينَ ﴾ (٩٩) .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة آل عمران : ﴿ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾ . وسواء كانت الإشارة في قوله :

(٩٨) سورة الأنبياء : ٤٧ .

(٩٩) سورة الروم : ١٤ - ١٦ .

(١٠٠) سورة ص : ٢٧ - ٢٩ .

﴿هذا بيان للناس﴾ إلى القرآن أو إلى ما يسبق هذه الآية من آيات ، فإن المشار إليه جدير أن يتدبر وأن تُعلم هدايته ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ .

والبيان في قوله ﴿هذا بيان﴾ هو الدلالة التي تفيد إزالة الشبهة بعد أن كانت حاصلة . والهدى : بيان طريق الرشد المأمور بسلوكه دون طريق الغي .

والموعظة : هي الكلام الذي يفيد الزجر عما لا ينبغي في طريق الدين .
فالحاصل أن البيان جنسٌ تحته نوعان : أحدهما الكلام الهادي إلى ما ينبغي في الدين وهو الهدى . والثاني : الكلام الزاجر عما لا ينبغي في الدين وهو الموعظة .

هذا ما أجمله العلماء في تفسير البيان والهدى والموعظة . وهو إجمال يحتاج إلى تفصيل وحسن تدبر لآيات الله .

فمن المعلوم أن الناس جميعا يمرون بالحياة الدنيا ولا يقيمون .
والأجل الذي كتب لهم إن هو إلا فترة امتحان يُرى فيها أيحسنون أم يسيئون؟ فترة عمل وجد وإخلاص وكّد ﴿من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها﴾ .

ومن رحمة الله بالخلق أن بين لهم نتيجة عملهم وبصّرهم بما يجب أن يكونوا عليه ليفلحوا في يومهم ويفوزوا في غدهم . فأرسل الرسل مبشرين ومنذرين . وأنزل معهم الكتاب والميزان وجعل الجزاء لمن أحسن أو أساء وفاء لأعمالهم وإنصافا للحق الذي دعوا إليه وأمروا به . ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوٰٓا بِمَا عَمِلُوْا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوْا بِالْحَسَنٰٓى﴾ (١٠١) .

ومن تدبر إحسان المحسن وإساءة المسيء وجد أثر ذلك في الدنيا عدلاً وبراً أو فساداً وظلماً. يحسن من يحسن في الدنيا ويسيء من يسيء، فينعم الناس بإصلاح من يحسن. ويساءون بإساءة من يسيء. وحكمة الخلق تأبى أن يستوي عند الله محسن ومسيء أو متقٍ وفاجر وحكمة الخلق تقتضي أن يعود الناس إلى خالقهم وأن يجدوا ما عملوه في دنياهم حاضراً أمام أعينهم في حساب وجزاء لا مناص منه ولا مفر. وإلا كان الخلق عبثاً وباطلاً ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (١٠٢).

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥) فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ (١٠٣).
 ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٢٨١) (١٠٤).

وهذا البيان للناس دلالة لهم على ما يجب أن يكونوا عليه. وقد حفظ الله الذكر للأجيال كلها ليكون بيانه هدى لهم وتبصرة ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ (١٠٥).

وليس بعد البيان للناس عذر لمعتذر أو حجة لمنكر أو جاحد. وفي البيان الذي سبق هذه الآية صفات يجب أن تتبع وهي صفات المتقين الذين يرجون رحمة الله وينالون مغفرته ورضوانه وهي صفات لها أثرها في تركية النفس

(١٠٢) سورة ص : ٢٧ .

(١٠٣) سورة المؤمنون : ١١٥ - ١١٦ .

(١٠٤) سورة البقرة : ٢٨١ .

(١٠٥) سورة الأنفال : ٤٢ .

وروابط المجتمع . فالمتقي بتقواه ليس بمعزل عن شئون الحياة وأحوال الناس بل هو عامل على إصلاحها . يكف شره عن غيره ويقدم خيره . فعلى الذين يؤثرون الحياة الدنيا أن يعرفوا سبيل الأمن والسلام فيها .

فإنها لا تأمن إلا بإيمان المؤمن ولا تسلم إلا بتقواه . ويخطئ من ينشد الإصلاح بعيدا عن صلاح الفرد وهو الأصل في تكوين المجتمع .

إن صلاح الإنسان فيه إصلاح لشئون الحياة واستقامتها . فالإنسان الصالح تصلح به الأمور الفاسدة . والإنسان الفاسد تفسد به الأمور الصالحة .

ومن هنا كانت العناية بتربية الإنسان وإعداده هي السبيل لإعداد أمة ناهضة تنشد معالي الأمور وتبعد عن سفاسفها .

ولتدبر بيان القرآن في صفات المتقين لنرى ما تؤديه هذه الصفات في حياة الفرد وروابط المجتمع وما تجنيه الإنسانية من ثمار الخير والبر حين تتنافس على المكارم لا على المغانم .

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْفَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾

(١٣٦) سورة آل عمران : ١٣٣ - ١٣٧ .

تلك هي الآيات التي سبقت قوله تعالى ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ
لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٨).

وفيها صفات أهل التقى التي يُسارع بها أهلها إلى مغفرة من ربهم وجنة عرضها السموات والأرض . وفي ذلك فليتنافس المتنافسون . أما أهل التكذيب والجحود فلن ينتظروا إلا سنة الله في عاقبة المكذبين ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً . ومن ذلك فليحذر المخالفون المكذبون ، وليسارعوا بالتوبة ﴿مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ (٤٣) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾ (١٠٧) . إن صفات أهل التقى رحمة بالناس في دنياهم والراحمون يرحمهم الرحمن ﴿ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾ فإنهم ﴿الذين ينفقون في السراء والضراء﴾ وتلك صفة لها دلالتها في إشاعة الخير بين الناس وتحقيق المودة ﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس﴾ .

ولا تسل عن برٍّ من يكف عن إمضاء غيظه مع القدرة عليه فإن من ملك زمام نفسه وكظم غيظه ولم يدَّعه ينفذ إلى غيره كان أقدر على تحقيق السلم في حياة الناس عن غيره . والعافين عمن ظلمهم أي التاركين عقوبتهم أولئك يبرون بغيرهم ويبتغون بما صنعوا وجه ربهم ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ .

إن أهل التقى مُنْفِقُونَ ، كاظمون غيظهم ، عافون عن الناس ، محسنون ، تائبون ، ذاكرون لله ، مستغفرون . وتلك صفات يعود أثرها على الناس سلماً وأمناً ووُدّاً وخيراً وصلاًحاً وبرّاً . إنهم بصفاتهم رحماء عاملون في تحقيق الخير

(١٠٧) سورة الروم : ٤٣ - ٤٥ .

وإشاعة البر ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ .

﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ وَلَا تَهْنُؤُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٨).

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ، وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (١٠٩).

والحديث عن القرآن في هذه الآية يأتي في سياق منّة الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا منهم .

﴿لقد مَنَّ الله على المؤمنين﴾ يعني أحسن إليهم وتفضل عليهم . والمنّة النعمة العظيمة ولا تكون في الحقيقة إلا لله عز وجل . وخص المؤمنين بهذه النعمة مع أن بعثة الرسول ﷺ رحمة للعالمين ؛ لبيان أنهم المتفجعون برسالته المقتدون بهدايته .

ورسالته رحمة للعالمين لا تخصّ جنسا دون جنس ولا قبيلة دون قبيلة ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ، وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥٨) (١١٠)، فمن اتبع هدى الله الذي جاء به اهتدى ونجا، ومن أعرض خسر وهلك .

(١٠٨) سورة آل عمران : ١٣٨ ، ١٣٩ .

(١٠٩) سورة آل عمران : ١٦٤ .

(١١٠) سورة الأعراف : ١٥٨ .

والمنة على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا منهم، هدايتهم للحق الذي جاء به، وإيمانهم بما نزل عليه، وفوزهم بالعاقبة التي لا تكون إلا لمن اتبع وأمن. ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ (١١١). وفي قوله ﴿يتلو عليهم آياته﴾ أضاف الآيات إلى ضمير الجلالة، وفي إضافتها تشريف لها أي تشريف ودعوة إلى حسن تدبرها والاستمسك بها؛ لأنها آيات الله عز وجل.

والرسول ﷺ مأمور بتلاوتها وتبليغها كما أمره الله ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبِّي هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١١٠) وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِىٰ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (١١٢).

﴿ويزكهم﴾ معناه: يطهرهم من دنس الكفر والمعاصي ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ والكتاب: القرآن. والحكمة: السنة المتعلمة من لسانه ﷺ. ذاك معناها حين تقترن بالكتاب. وقال مجاهد ومالك: «إن الحكمة معرفة الحق والعمل به والإصابة في القول والعمل. وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن والفقه في شرائع الإسلام وحقائق الإيمان».

تلك منة الله على المؤمنين في إرسال الرسول وإنزال الكتاب وهي منة تستوجب الشكر وتدعو إلى تقدير النعمة واتباع ما جاء من الحق. نعمة أي نعمة في كتاب وسنة، يُعَصَم من تمسك بهما من الزيغ والضلال وينجو من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٠٩) (١١٣).

(١١١) سورة محمد: ٢.

(١١٢) سورة النمل: ٩١-٩٢.

(١١٣) سورة الأنعام: ١٥٣.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة النساء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آوَوْا الْكَذِبَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهَآ فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (١١٤).

وفي مناداة الذين آوتوا الكتاب وأمرهم بالإيمان بما نزل من القرآن حديث عن القرآن من وجهين . الأول : أنه منزل من الله . والثاني : أنه مصدق لما معهم .

واستعمال نون العظمة في قوله ﴿آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا﴾ يشعر بالقدره على مؤاخذه من أعرض وكذب . وكثيرا ما نرى نون العظمة في جانب التنزيل في كثير من الآيات . من ذلك قوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (١١٥) . وقوله ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ لِنَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ﴾ (١١٦) . وقوله ﴿وَأَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ (١١٧) . وفي ذلك ما فيه من إرشاد إلى حسن الاتباع والتحذير من الجحود أو الإعراض .

وفي قوله ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ تسجيل على القوم بأنهم إن كذبوا بما نزل من القرآن فقد كفروا بما معهم من الحق . ولم يعودوا مؤمنين . لأن من كذب من جاء مصدقا لما معه فقد كذب بما معه وعرض نفسه للمؤاخذه بين يدي الله الذي أرسل الرسل بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط . والذي أنزل الكتاب وأرسل الرسل هو الله الذي يعود الخلق إليه ويحاسبون بين يديه . ولن يفلت أحد أو يفر من بعث وجزاء ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (١١٨) .

(١١٤) سورة النساء : ٤٧ .

(١١٥) سورة الحجر : ٩ .

(١١٦) سورة النساء : ١٠٥ .

(١١٧) سورة المائدة : ٤٨ .

(١١٨) سورة المجادلة : ٦ .

وموقف الناس من الحق الذي جاءهم من ربهم هو الذي يحدد مصيرهم .
ولن يستوي عند الله متقي وفاجرٌ، ولن يستوي مؤمن وكافر .

لا يستوي هؤلاء وأولئك في أعمالهم في الدنيا ولا في جزائهم في الآخرة
﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ
فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ (١١٩) .

فما جاء به الرسل وما أنزل من الحق ليس ضياعاً لا يُسأل الخلق عنه . بل
يُسأل الرسل ومن أرسل إليهم — والله عالم بهم ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ
إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ فَلَنَقْضُنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ
الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ
الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ . ولذا وجب أن يؤخذ
التهديد والوعيد مأخذ الجد وأن يُعدَّ الزاد ليوم لا ريب فيه .

ألا وإن الوعيد الشديد الوارد على أبلغ وجه وآكده في هذه الآية ﴿يَتَأْتِيهَا
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلُ أَن نُّظْمِسَ وُجُوهًا
فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ هذا الوعيد داع
للمسارعة إلى صدق الإيمان والجد في الانتهاء عن المخالفة والإعراض . وفي
تنكير الوجوه ﴿نظمس وجوها﴾ المفيد للتكثير تهويل للخطب ، وفي إبهامها
لطف بالمخاطبين وحسن استدعاء لهم إلى الإيمان ، والله قدير والله غفور
رحيم . والقرآن وهو يتلى على الناس جميعاً يبصرهم بما يجب أن يكونوا عليه
ويحذرهم من التكذيب أو الإعراض عنه . وإذا خوطب قومٌ بالتحذير والوعيد

(١١٩) سورة الروم : ١٤ - ١٦ .

(١٢٠) سورة الأعراف : ٦ - ٩ .

فليحذر جميع الخلق أن يصيبهم ما يصيب المعرضين المخالفين ؛ فإن أهل الكتاب قد أمروا بالإيمان وجاءهم الوعيد على المخالفة والإعراض .

والعذاب صنوف وألوان ، والوعيد حق لكل من خالف أو أعرض أن يؤخذ بذنبه أو يهلك بمعصيته ﴿فَأَمَّا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٢١﴾ و"من" الشرطية هذه من صيغ العموم فالوعد والوعيد عام لكل من اتبع أو أعرض . وحديث القرآن عن المعرضين وما يلقونه من سوء عاقبة ومصير فيه نذير للعالمين وتحذير للناس أجمعين .

فإن نداء أهل الكتاب لا يعني مخاطبتهم وحدهم . وإنما يعني البيان للناس والتبصرة والذكرى لكل عبد منيب .

والقرآن يتلى على الناس جميعا ﴿فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَأَنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ ﴿١٢١﴾ .

٢٠

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة النساء ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا نُصْجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَنَّهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ﴿١٢٢﴾ .

ففي حديث القرآن في هذه الآية بيان لموقف فريق من الناس منه وذكر للجزاء المترتب على الكفر به ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ ﴿يَوْمَ يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ ﴿١٢٣﴾ .

ومن رحمة الله بالخلق أن يخبرهم بالجزاء قبل وقوعه وأن يبصرهم بما يجب أن يكونوا عليه . «ليهلك من هلك عن بينه ويحيى من حي عن بينة» . وآيات

(١٢١) سورة النمل : ٩٢ .

(١٢٢) سورة النساء : ٥٦ .

(١٢٣) سورة النور : ٢٥ .

الله تتلى على الناس صباح مساء، والقرآن محفوظ بحفظ الله ما بقيت الأرض والسماء. ليجد كل جيل تبصرته وهدايته. والقرآن يهدي للتي هي أقوم في جميع شئون الحياة. والله على كل شيء شهيد. والكل مسئول عما دُعي إليه أوُتمن عليه. ولا عذر بعد بيان ولا حجة بعد إعدار وإنذار. وتلك عاقبة من كفر ومن آمن. فليتدبر من شاء هذه العاقبة وليختر لنفسه ما يشاء ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (١٢٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا نُفِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا أُخْرَىٰ لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿١٢٥﴾.

ومن تدبر حكمة الثواب والعقاب وأدرك النتائج والعواقب علم أن حديث القرآن لدنيا الناس صلاح وإصلاح. فالذين يصلحهم الله في الآخرة نارا لم تر الدنيا منهم إلا فسادا وإفسادا والذين يدخلهم الله جنات قد آمنوا وعملوا الصالحات.

فالإيمان بالآخرة وما فيها من حسابٍ وجزاءٍ داعٍ إلى عمل الخير في الدنيا والكف عن الشر والإفساد فيها. فليس الإيمان بمعزل عن شئون الحياة، بل هو مصلح لها بارًّا بها.

إن إرادة الآخرة والسعي لها تمكين لمكارم الأخلاق وفضائل الأعمال في الدنيا.

إن من أحسنت إلى كلب فسقته ابتغاء مرضاة ربها شكر الله لها فغفر لها، ومن أساءت إلى هرة حبستها فلم تطعمها ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض

(١٢٤) سورة ق : ٤٥ .

(١٢٥) سورة النساء : ٥٦-٥٧ .

دخلت النار. دلالة ذلك أن الله يطلب منا أن نحسن في الدنيا ولا نسيء وأن يرحم بعضنا بعضاً حتى نُرحم والراحمون يرحمهم الرحمن . ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء . ومن لا يرحم لا يُرحم .

ألا وإن الكفر بآيات الله كفر بما تضمنته من الإيمان بالآخرة وما فيها من حساب وجزاء ومن كفر بالآخرة أفسد في الدنيا وأساء . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن أصلح في سعيه وأحسن وأولئك كان سعيهم مشكوراً .

إن إرادة الدنيا دون سواها تدمير في الدنيا وخسران في الآخرة . لأن إثارة الدنيا يوقع أهلها في التنافس المسعور عليها دون مبالاة بظلم أو غدر . ولسان حال هؤلاء يقول مرحباً بالظلم إن حقق لذة بل مرحباً بالغدر إن أحرز غنيمة . بل واحسرتاه عند هؤلاء إن فات مطلوبهم منها أو بُعد المرغوب . وعندئذ يكون التنافس على المغانم لا على المكارم ، والصراع على سلب أقوات الجياع دون وازع . كل يريد دنياه ولو هلك الناس من حوله . إن ظمأ اللهو بالتكاثر لا يطفئه مزيد من التكاثر وإنما يطفئه يقين صادق باليوم الآخر . وباليقين يتحقق التعادل والاعتدال الذي تنهزم معه الأثرة ويتحقق الإيثار . ويكون ذلك عندما يوقن الناس أنهم يمرون بالحياة الدنيا ولا يقيمون فيعملون لآخرتهم ما يصلح أمر دنياهم ويحقق الأمن والسلام فيها .

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿١٢٦﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ .

أرأيت أخي المسلم أن الجزاء على كفر أو إيمان دعوة لاستقامة الإنسان لينعم الناس فيما بينهم بالتعارف والتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان .

ويخطئ من يظن أن إهمال الآخرة وما فيها من حساب وجزاء يحقق التفوق والسبق في الدنيا. إنه سبق - إن وقع - مفتون مدمر لأهله إن لم يُصن بإيمان و يقين ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ﴾ (١١) ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ (١٢) ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٣) ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (١٤) (١٢٧).

فلن يفلت أحد من جزاء أو يفرّ من عاقبة ومصير.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (١٥) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (١٦) (١٢٨).

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٧) (١٢٩).

٢١

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة النساء.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (١٣٠). والرد إلى الله ردُّ إلى كتابه، والردُّ إلى الرسول ﷺ ردُّ إليه في حياته وإلى سنته بعد وفاته. ذاك هو السبيل لاستقامة الحياة وتراحم الأحياء وقيام الناس بالقسط على شريعة ومنهاج. وذاك هو الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال؟ وإذا أراد الناس الخير لأنفسهم في عاجل أمرهم وآجله فما لهم من سبيل سوى الرضا بالحق والتسليم له والعمل به. وليس من بعد ذلك إلا اتباع الهوى من بعد ما تبين الهدى. والرد إلى الله والرسول ردُّ إلى الحق وبعد عن الهوى والضلال. وعدم الرضا بالرد إلى الله والرسول إثارة للباطل واتباع له، بل وقوع فيما لا تحمد عقباه من ضياع واضطراب وشقاء وخسران. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى

(١٢٧) سورة الزخرف : ٤١ - ٤٤ .

(١٢٨) سورة الزلزلة : ٧ - ٨ .

(١٢٩) سورة المائدة : ١٠٥ .

(١٣٠) سورة النساء : ٥٩ .

الَّذِينَ يَرْغَبُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى
الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا
قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ
صُدُودًا ﴿١٣١﴾ وهؤلاء لن يفلتوا من حساب وعقاب . ومن أبى الطاعة لله في
دنياه لقي ما يلقيه في دنياه وآخرته . وما أرسل الرسول إلا ليطاع ، وطاعته طاعة
الله والله يعلم ما تبديه النفوس وما تخفيه الصدور فلا بد من الصدق في الطاعة
وإخلاص النية لله في الرد إلى الله وإلى الرسول والسمع والطاعة لما جاء في
الكتاب والسنة . فذاك دليل الإيمان ولا إيمان لمن صدّ عن ذلك أو أبى ﴿فَلَا
وَرَبَّكَ لَا يُوْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي
أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ﴿٦٥﴾ (١٣٢).

إن القرآن الكريم قد أنزل ليكون منهج حياة وهدى للناس ، على رسول من
البشر لتحسن القدوة والأسوة . ويرى القرآن عملاً وخلقا ومنهجاً وسلوكاً في
رسول الله ﷺ . وقد سئلت أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - عن خلق
رسول الله ﷺ فقالت : « كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه » . ولا
فلاح للناس ولا نجاة لهم إلا باتباع الصراط المستقيم الذي أنزل من أجله
القرآن ، وأرسل الرسول ، به تسمو النفوس بتجردها للحق ، وخضوعها للعدل .
وتنمو الروابط بتغليب أمر الله على هوى النفس وتحيا النفوس بحسن
استجابتها لله وللرسول . وتتحرر الإرادة من أسر الأهواء والشهوات . إن الحكم
بما أنزل الله والرد إلى الله والرسول برهان إيمان ويقين ، وإن الإعراض عن
حكم الله في أي شأن من الشئون ينبئ عن مرض في القلوب وفساد في النفوس
ولا نجاة من ظلم وظلام وسوء عاقبة ومصير إلا بالإذعان لحكم الله وإعلان
السمع والطاعة لما نزل من الحق . بهذا يتحقق الفوز والفلاح وبغيره تدمر
الإنسانية ما عمّرت وتسوق الفناء بمعاصيها وآثامها إلى ما شئدت من بناء .

(١٣١) سورة النساء : ٦٠ - ٦١ .

(١٣٢) سورة النساء : ٦٥ .

أخي المسلم : إن آيات الله — وهي تتلى عليك — لا تخاطبك بأحداث ماضية لا صلة لها بحاضرك ومستقبلك ، وإنما تخاطبك بسنن باقية لا تبدل ولا تتحول ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجْدِلُ سُنَّتَ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجْدِلُ سُنَّتَ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ (١٣٣) .

فإذا رأيت الناس في مرج واضطراب وفتن وشقاء فاعلم أنهم قد بعدوا عما يجب أن يكون من اتباع الحق وطريق مستقيم ، ولم يرضوا بحكم الله ورسوله فتحكمت فيهم الشياطين . وماذا يكون من الإعراض عما قضى الله ورسوله إلا الضلال والخسران والضياع . وماذا يُجنى من ثمار ذلك إلا الظلم والفساد . ولا فلاح ولا فوز إلا بالسمع والطاعة والرضا بما قضى الله ورسوله ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٥١) وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿ (١٣٤) .

٢٢

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة النساء : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ﴾ (١٠٥) (١٣٥) .

والكتاب هو القرآن . والله هو الذي أنزل الكتاب بالحق ليتحاكم الناس في كل شأن بما قضى الله ورسوله . وذلك هو مقتضى الإيمان ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ (٣٦) (١٣٦) .

(١٣٣) سورة فاطر : ٤٣ .

(١٣٤) سورة النور : ٥١ - ٥٢ .

(١٣٥) سورة النساء : ١٠٥ .

(١٣٦) سورة الأحزاب : ٣٦ .

والآية وإن كان لها سبب خاص فإن العبرة فيها بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

فالحكم بين الناس جميعا بما أرى الله رسوله لا بما يرى الناس . لأن ما يراه الناس غير معصوم من هوى . والله هو الحق لا يحكم بين الناس إلا بالحق ، والحق لا يتبع أهواء الناس ﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ (١٣٧).

والنبي ﷺ - وهو يحكم بين الناس بما أراه الله - معصوم بعصمة ربه ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (١٣٨) فإذا بعد الناس عن الحكم بما أنزل الله - وهو الحق - تقاذفتهم الأهواء ، واقتادهم الباطل ، وعمت الفوضى وكثر الفساد وضيعت الأمانة وتطاوت الخيانة . والحكم بين الناس بالحق ، وهو يقام بمقتضى الإيمان وبدافع من يتنزه عن المؤثرات التي تميل بالناس من حبهم لأنفسهم ، أو ميلهم لذوي قرباهم ، أو انعطافهم لصديق وجفائهم من عدو .

الحكم بالحق يتنزه عن المؤثرات التي تميل بالناس عما يقتضيه الحق وتوحي به دلائله ومعالمه والله جل وعلا يأمر المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط غير متبعين لهوى أنفسهم أو أهواء غيرهم ومن تخلص من هوى نفسه كان قادرا - بعون الله - على التخلص من هوى غيره . ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّٰهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ نَعَرَضُوا فإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (١٣٩) ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلّٰهِ

(١٣٧) سورة المؤمنون : ٧١ .

(١٣٨) سورة النجم : ٣ - ٤ .

(١٣٩) سورة النساء : ١٣٥ .

شَهِدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ۭٓ أَلَّا تَعْدِلُوا ۖ أَعْدِلُوا هُوَ
أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾

والتحذير من الميل أو اتباع الهوى في تحقيق العدل وإقامة الحق لا يلقى
على الناس موعظة بلا حساب أو جزاء . لا . بل لا بد من حساب عليه وجزاء
لمن أحسن أو أساء . والآيتان كما ترى تُخْتَمَان بقوله ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرًا ﴾ وقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

وفيهما من الدلالة على العلم والإحاطة ما يجعل المؤمن يخشى حتى من
وسوسة نفسه ومن نيته وعزيمة قلبه . فإن من تولى عن حكم الحق أو أعرض
عنه مأخوذ بنيته محاط بخطيئته ﴿ وَأَنۢ أَحْكَمَ بَيْنَهُمۡ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهۡوََاءَهُمۡ
وَاحۡذَرۡهُمۡ أَنۢ يَفۡتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوۡا۟ فَاعۡلَمۡ أَنۡهٗ يُرِيدُ اللَّهُ أَنۢ
يُصِيبَهُمۡ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾ ﴿١٤١﴾ .

إن الله قد أنزل الكتاب ليحكم به بين الخلق ، وذلك من مقتضيات الحق أن
يكون حكما بين الناس ولا يكون غيره . ومصالح الناس لا تستقيم بل لا
تتحقق إلا بحكم الحق والعدل . والحاكم بما أنزل الله — وهو الحق — متبع
يحكم بشرع الله لا بهواه . واجتهاد المجتهد لتطبيق حكم الله هو اتباع للحق
يجعل الله له به فرقانا ونورا ومغفرة وأجرا ويهديه إلى سواء السبيل .

فمقصد الشرع هو إقامة الحق والعدل بين الناس . والكتاب وهو حق هدى
للناس إلى الحق . والرسول ﷺ هادٍ إليه . والناس لا يتراحمون إلا بإقامة الحق
والعدل . ولا تراحم بظلم وجور وإنما الرحمة في إحقاق الحق وإقامة العدل
بين الناس جميعا بلا تفرقة ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ
بِمَا أَرَادَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَٰفِيَيْنِ خَصِيمًا ﴾ ﴿١٤٢﴾ .

(١٤٠) سورة المائدة : ٨ .

(١٤١) سورة المائدة : ٤٩ .

(١٤٢) سورة النساء : ١٠٥ .

وقد ذكرت من قبل أن هذه الآية وإن كان لها سبب خاص فإن العبرة فيها بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . أي إن الحكم بين الناس بما أنزل الله وبما أوحى إلى نبيّه عامٌ لا يخص ناساً دون آخرين وإنما هو حكم رب العالمين للناس أجمعين . ولكن السبب قد يعطي دلالة خاصة وهي أن الحكم بالحق أعزُّ من الصلات بين الناس ، صلات القرابة والصحبة .

فمهما كانت العداوة بينك وبين غيرك فأنت مطالب بتنفيذ حكم الله - وهو الحق - لصالح عدوك إن كان الحقُّ له ، وأن تنصفه وإن عاداك وأبغضك ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوْا أَعْدِلُوْا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (١٤٣) .
إنه الحق الذي لا مجاملة فيه ولا محاباة .

وإذا عرفنا أن هذه الآيات ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيْمًا﴾ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوْرًا رَّحِيْمًا وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُوْنَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَآفًا أَيْمًا﴾ (١٤٤) .

إذا عرفنا أنها أنزلت حين أنزلت لتنصف رجلاً يهودياً اتهم ظلماً في سرقة - هو منها بريء - كادت التهمة أن تلتصق به لوجود المسروق عنده .

نزلت الآيات لتبرئته وتدين الذين تأمروا على اتهامه وهم أهل بيت من الأنصار . إذا عرفنا ذلك أدركنا أن الحق أعزُّ من أن يخضع للأهواء أو يستدرج أو يستمال لصالح من ظلم أو خان لأي سبب أو أي اعتبار .

نزلت الآيات لتكون تبصرة للمؤمنين في كل زمان ومكان لكي يرتفعوا إلى المستوى الذي يقتضيه الإيمان . وأن يكونوا قوامين لله شهداء بالقسط وأن لا تحملهم العداوات مهما كانت ضراوتها على مجاوزة العدل أو مجافاة الحق .

(١٤٣) سورة المائدة : ٨ .

(١٤٤) الآيات من سورة النساء : من الآية : ١٠٥ إلى الآية ١١٤ تقرأ بتدبر .

حُكْمٌ صدر لصالح اليهودي وإدانة الأنصاري الذي تأمر عليه في الوقت الذي كان اليهود فيه لا يدعون سَهْمًا مسموما يملكونه إلا أطلقوه في حرب الإسلام وأهله ، لكنّ الوحي الذي عَلَّمُوهُ وحكموا به جعلهم جنْدًا للحق في كل حال دون اعتبار لأي شيء سواه ؛ لأن الحقَّ أكبر وأعلى وأغلى وأبقى شيء في الوجود ، فلا اعتبار عندهم لشيء سواه ، وهم بالحق ولن يكونوا بغيره . والنفوس المؤمنة حين تؤمر به تطيع وترتفع بإيمانها وصدقها عن الخلود إلى الأرض ، فتقيم العدل وتحكم بالحق دون تفرقة بين قريب وبعيد أو عدو وصديق ومن أجل ذلك أرسل الله الرسل وأنزل معهم الكتاب والميزان ، فقام الرسل بما أمروا به دون ميل أو استدراج وجعلوا حكم الله نافذا لا تقبل من شفاعاة ولا يحول دون إمضائه أن يكون على شريف أو وضيع «وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها» يذكر الرسول ﷺ أقرب الناس منه وأحبهم إليه ليعلم الناس أن ميزان الحق والعدل لا يفرق بين قريب أو بعيد فالناس جميعا أمام العدل الذي شرعه الله سواء . والحق دائما أحق أن يتبع . وحكم العدل حري أن يُمضى وأن يقبل دون شعور بحرج . إنه حكم الله رب العالمين ، ولا يقبل في حكم الله أن يساء إلى بريء لوضاعته أو عداوته ، وأن يترك ظالم خائن لشرفه ومكانته دون تطبيق حكم الله عليه . فإن ذلك مجلبة للفساد ومدعاة للدمار والهلاك «إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها» كما جاء في الحديث المتفق عليه عن عائشة رضي الله عنها .

إن الحكم بما أنزل الله هو الحكم بالحق والراضون به هم طلاب حق وعدل ، والمعرضون عنه - من بعد ما تبين لهم - هم أرباب شقاق ونفاق وعبيد هدى ومنفعة . وأسرى شكوك وريب .

هؤلاء لا يرضون بالحق إلا إذا كان لهم أما إذا كان عليهم فهم عنه معرضون وله منكرون ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (١٨)

وَأَن يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿١٤٥﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ أَرَادُوا أَن يَخَافُوا أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٤٥﴾

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ لَتَحْكُمَ بِهِنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَاكَ اللَّهُ ﴾

وسواء كان المراد بقوله ﴿بما أراك الله﴾ بالذي علمه أو بما يؤدي إليه اجتهاده فإن الحكم في الحالين حكم بما أنزل الله فإن الرسول ﷺ معصوم بعصمة ربه من الهوى الذي يُضِلُّ عن سبيل الله . وما يكون من اجتهاده من غيره فيما لم يرد فيه نص قاطع - محكوم بضوابط وقواعد - فلا ينشئ المجتهد حكماً من عند نفسه دون نظر في سند أو دليل وإنما يعتمد في اجتهاده على معرفته بشرع الله وإدراكه لعلل الأحكام ومقاصد الشرع وحصوله على شروط الاجتهاد . فما يكون عليه المجتهد من صفات تحول بينه وبين الركون إلى الهوى أو التعمد أن يحيد عن الحق . وتعينه على أن يتحرى العدل مجتنباً ما استطاع المؤثرات التي تميل به ولذا فإن التربية الإيمانية أصل أصيل في إعداد النفوس التي تقوم بالقسط وتحكم بالعدل . إن إنزال الكتاب بالحق داع إلى الحكم به وعدم مجاورته والحيدة عنه ﴿ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ (١٤٦).

فمقتضى نزوله بالحق أن يُتَّبَعَ وأن تحذر الفتنة عن شيء منه . فإن الفتنة عن بعض ما أنزل الله مفضية إلى الفساد والفسوق ﴿ وَأَحْذَرَهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّهُ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾ (١٤٧).

(١٤٥) سورة النور : ٤٨ - ٥٠ .

(١٤٦) سورة المائدة : ٤٨ .

(١٤٧) سورة المائدة : ٤٩ .

إن كثيرا من الناس يقودهم هواهم إلى الخروج عن حكم الله طمعا في العاجلة ورغبة عن الآخرة مع أنهم تاركون لما طمعوا فيه ، مقبلون إلى ما رغبوا عنه ، محاسبون على الحق الذي خالفوه ، مأخوذون بالباطل الذي اتبعوه . ومن رغب عن الحق لم تسلم له منافعه . ولن تبقى له مطامعه ، ومن أثر الباطل خسر دنياه وآخرته وعاش في الدنيا ظمآن يحسب السراب ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه . الحق هو الذي يجده الطالب ولا يجد غيره . فهو الحياة وهو المرجع والمصير . فمن استهان به أو أعرض عنه أو أثر سواه في سلوكه أو معاملة أو اعتقاد حوسب بالحق على اتباع الباطل . ووجد الحق ولم يجد شيئا سواه . لأن ما سواه ذاهب هالك . وما عداه باطل وضلال يقود إلى الدمار والهلاك والعذاب والخسران ﴿وَنَدَّأُوذُنَا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ (١٤٨) يقول الإمام ابن كثير في تفسيره القرآن العظيم : «وهذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله . وقد توعد تبارك وتعالى من ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد . أخي المسلم ، إن لليوم الآخر شأننا أي شأن في استقامة النفس وخضوعها للحق وإيثارها ما يبقى على ما يفنى . وإن نسيانه والغفلة عنه وترك العمل به يبعد عن الحق ويوقع في الضلال . ومصالح الناس لا تستقيم إلا بالعدل وروابطهم لا تحسن إلا بإقامة الحق .

إن الحكم بالحق اتساق مع فطرة الكون وحقيقة الوجود في حسن الاستجابة لله والتسبيح بحمده ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ

(١٤٨) سورة ص : ٢٦ .

لَا تَفْقَهُونَ تَسْيِيحَهُمْ ﴿١٤٩﴾. والحكم بالحق ليس نافلة يخير الإنسان بين فعلها وتركها. بل هو فريضة محكمة لا يعذر تاركها ولا يسلم من ريبة أو جحود. وأهل الإيمان أوفياء للحق ولا يخلو منهم زمن وإن قلَّ عددهم وكثر عدوهم ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿١٨١﴾ ﴿١٥٠﴾.

٢٣

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ ﴿١٨١﴾ ﴿١٥١﴾.

والكتاب الذي نزل على رسوله ﷺ هو القرآن نزل على عبده ورسوله محمد ﷺ ليكون للعالمين نذيرًا. والكتاب الذي أنزل من قبل على الرسل بمعنى الكتب فـ«أل» فيه للجنس والكتب المنزلة يصدق بعضها بعضا. وقد جاء خاتمها مهيمنا عليها محفوظا بحفظ الله لتظل كلمة الحق على ألسنة الرسل جميعا مصونة من التليس والافتراء والكذب.

جاء القرآن الكريم ليعلم الناس حقيقة الرسالة ويصدع بالحق الذي جاء به الرسل وأنزلت به الكتب. ويرد كل باطل ألبس عليهم وكل ضلال نسب إليهم. فلم يعد هناك سبيل لكتمان ما جاء به الرسل والكتاب المحفوظ مهيمن وأمين وشاهد. ولا مهرب للمفرقين بين الرسل من حساب وجزاء. والقرآن يتلى عليهم ويبين حقيقة ما جاءوا به من الدين وأنه واحد. ولا حجة بعد بيان، ولا معذرة بعد تبليغ وإنذار ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾ ﴿١٥٢﴾.

(١٤٩) سورة الإسراء : ٤٤ .

(١٥٠) سورة الاعراف : ١٨١ .

(١٥١) سورة النساء : ١٣٦ .

(١٥٢) سورة النساء : ١٥٠ - ١٥١ .

إن التفرقة بينهم وهم يدعون إلى دين واحد - كفر بهم جميعا وتكذيب أحدهم تكذيب لهم جميعا . وعداوة أحدهم عداوة للحق الذي بعثوا به .
والحق واحد لا يتعدد . وهو ما دعوا إليه جميعا ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (١٥٣) إن رسالات الرسل جميعا منبعها واحد وأصلها واحد .

وهذه الحقيقة ذات تأثير بالغ في سلوك الفرد وروابط المجتمع .

وشتان ما بين من يؤمن بالرسل جميعا والكتب جميعا ولا يفرق . وبين من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض ﴿ ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسوله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً ﴾ شتان ما بينهما في الصفات والسلوك والأخلاق . شتان ما بين من يوحد ولا يفرق وبين من يفرق ويرى ذلك ديناً يدين به . ﴿ وَمَا نَفَرَقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَفِعَالِيَّتِهِمْ ﴾ (١٥٤) .

إن رسول الله ﷺ كرم الأنبياء جميعا وآمن بهم وطلب الإيمان بهم جميعا وعدد الإيمان بهم أصلاً في رسالته والتفريق بينهم إنكاراً لدعوته . وذاك هو إيمانه وتلك دعوته ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ (١٥٥) .

وكان من فضل الله على الناس أن يضمن لهذا الكتاب الذي ضم الاعتراف بالأنبياء جميعا الحفظ والبقاء وهو يسجل الصفحات البيضاء لهم جميعا ويضعهم في موضعهم إذ يرد ما افترت الأهواء عليهم .

(١٥٣) سورة الأنبياء : ٢٥ .

(١٥٤) سورة الشورى : ١٤ .

(١٥٥) سورة البقرة : ٢٨٥ .

وهو بهذا يقول للإنسانية جميعاً تلك هي الحقيقة الماضية على يد الداعين إليها من رسل الله وأنبيائه . وتلك هي الحقيقة محفوظة باقية في كتاب عزيز ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (١٥٦).

وذاك هو النداء في هذا الكتاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (١٥٧).

أخي المسلم ، ومع إنزال الكتاب وحفظه وهدايته وتبصرته لا عذر لمن فرط في جنب الله أو أساء الظن بالله . والكتاب الكريم يخبرنا في ثقة وحق عن مصير هؤلاء وأولئك وعاقبة من أحسن أو أساء ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِيهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (١٥٨) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (١٥٩) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا (١٦٠) (١٥٨).

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة النساء ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٥٩).

والبرهان : الحجَّةُ الفاصلة البينة . وبرهن عليه : أقام الحجَّة .

(١٥٦) سورة فصلت : ٤٢ .

(١٥٧) سورة النساء : ١٣٦ .

(١٥٨) سورة النساء : ١٢٣ - ١٢٦ .

(١٥٩) سورة النساء : ١٧٤ - ١٧٥ .

والظاهر في نفسه المظهر لغيره يُسمَّى نورًا .

والنور من صفات الله عز وجل . قال الله تعالى ﴿الله نور السموات والأرض﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ (١٧٤) وهو القرآن الكريم سَمَاءُ نورًا ، لأنه يُهْتَدَى به من ظلمات الضلال والباطل . وهذا القرآن يحمل برهانه للناس من رب العالمين . وهو نور كاشف للظلمات والشبهات . فمن اهتدى به فاز ونجا ومن أبى وأعرض شَقِيَ وخسر ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ تنكشف به حقائق الأشياء ويُفَرَّق بين الحق والباطل في داخل النفس وواقع الحياة . حيث تجد النفس من هذا النور ما ينير حياتها وللقرآن أثره البالغ في لين القلوب وسكون النفوس وزيادة الإيمان واستقامة السلوك ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٢٣) ﴿(١٦٠)﴾ .

وللقرآن أثره في روابط الناس وصلاتهم . فهو هدى ونور مبين .

والنور المبين تتحدد به المعالم ويُعرف الطريق ويهتدى به للوصول إلى الغاية والمصير بلا تعسر أو التباس ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكَ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿(١٦١)﴾ .

(١٦٠) سورة الزمر : ٢٣ .

(١٦١) سورة المائدة : ١٥ - ١٦ .

إن هذا الكتاب الذي جعله الله نوراً كما جعل الشمس ضياء قد حفظه ليكون الناس على بينة من أمرهم ولا حياة بلا نور ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾. ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٦٢).

إن للحق نوره وبرهانه . وإن له نفعا وبقاء .

﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَغَدَبٌ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ (١٦٣).

وأنعم بنور لا يكشف لك دُرُوبَ دنيائك فحسب ، بل يبين لك ما أنت صائر إليه ومنته عنده . ولا يدع مرحلة من مراحل السير بغير كشف وبيان .

ومن تدبر القرآن عرف نفسه من أين جاء ؟ وإلى أين يصير؟ والقرآن يذكره بالبداية والنهاية ، ويبيصره بما يجب أن يكون عليه للفوز بالعاقبة وحسن المصير ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (١٢) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ (١٣) ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (١٤) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ (١٥) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ (١٦) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَفْلِينَ﴾ (١٧) (١٦٤).

(١٦٢) سورة الأنعام : ١٢٢ .

(١٦٣) سورة الرعد : ١٧ .

(١٦٤) سورة المؤمنون : ١٢ - ١٧ .

هكذا في ثقة ويسر تقدم الحقائق للناس ويقام البرهان ويتضح المسير في غير لبس أو غموض . الناس يمرون بالحياة ولا يقيمون . «والله لتموتن كما تنامون . ولتبعثن كما تستيقظون . ولتحاسبن على ما تعملون» . حقائق لها تأثيرها البالغ في تربية الإنسان وتبصرته وإعداده للفوز برحمة الله ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِۦٓ فَسَيَدْخُلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمُ إِلَیْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ (١٧٥) ﴿١٦٥﴾ .

أخي المسلم ، إن رحلة الحياة الدنيا عميقة الدلالة . يظفر السعيد بدلائلها وينعم بتبصرتها . ويفتن الشقي بزینتها ويؤخذ بزهرتها . ومن رحمة الله بالخلق أن تكون دلائل الحق فيهم وفيما خلق لهم من شيء ، وأن يجيئهم الحق من ربهم بإرسال الرسول وإنزال الكتاب ليكون العلم بالحق فطريا لا تكلف فيه . تقرأ آيات الله فيما أنزل وتجدد صدقها في نفسك وفي الآفاق من حولك . والحق نور تقوم به الحياة . وحبل واصل من السماء ، يعتصم به الأحياء ، ويرتفعون عن الخلود إلى الأرض واتباع الأهواء . ومن آمن بالله اهتدى بهداه ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللّٰهِ يَهْدِ اللّٰهُ لَهُۥٓ وَأَلّٰهُ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلَیْهِ﴾ (١١) ﴿١٦٦﴾ .

(١٦٥) سورة النساء : ١٧٥ .

(١٦٦) سورة التغابن : ١١ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة المائدة ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٦٧).

نور وكتاب مبين، وصفان لما جاء به الرسول ﷺ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ذاك هو السبيل لمن ينشد السلام في أي زمان أو مكان. السلام بمعناه الواسع الممتد في حياة الفرد والمجتمع والعالم بأسره. سلام البيت والأسرة. وسلام المجتمع والأمة، بل سلام البشر والإنسانية جميعا في العاجلة والآخرة.

السلام القائم على الحق والعدل. الذي تنتصر فيه الفضائل وينعم الناس بالأمن والتراحم. ولا أمن مع ظلم وجور، ولا سلام يرجى مع كفر وجحود. فإن الأمن والسلام يرتبطان بصفات النفس ويتصلان بالقيم والأخلاق. ولا بد للقيم من منهج يهتدي الناس به، وللاخلاق من أسوة تكون أمام الناس في كل شأن. وقد اختار الله الأسوة وأنزل الكتاب. ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿٥٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ (١٦٨). ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾. وليس من يرجو اليوم الآخر بمعزل عن شئون الحياة. بل هو مصلح فيها محقق لما ترجوه من خير وما تشده من بر.

(١٦٧) سورة المائدة: ١٥، ١٦.

(١٦٨) سورة المائدة: ١٥، ١٦.

(١٦٩) سورة الأحزاب: ٢١.

إن العدل والحق . والأمانة والصدق والوفاء والبر والرحمة والحب . صفات لا بد منها لتحقيق الأمن الصادق والسلام الآمن . وهي صفات من يرجو الله واليوم الآخر فيتأسى برسول الله ﷺ ويتخلق بما تخلق به وقد كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه . ذاك هو النور الذي تُرى به الأمور على حقيقتها دون غبش أو التباس . ويعرف الإنسان ما له وما عليه دون تعدُّ أو انتقاص . وبغير هذا النور يتخبط الناس في الظلمات وتُساء المعاملة ولا تصان الحرمات .

والإنسانية - وقد غدت بوسائل العصر وكأنها في بيت واحد - تحتاج في سلامها العالمي إلى دين عالمي يكون العالم أمام عدله سواء . لا يفرق بين جنس وجنس أو لون ولون . كما لا يفرق في عدله بين عدوٍّ وصديق وقريب وبعيد وشريف ووضيع .

دين يحترم قيمة الإنسان ويقدر كرامته ويحوطه بسياج اليقين ويطبعه على البر والرحمة ، دين يبدد بنوره ظلام الخوف ويحقق أسباب السلام وقيم دعائم الثقة .

يقيم العدل في ذات الإنسان أولاً بين مطالب جسده وفضائل روحه ليتحقق العدل في الخارج وتقوم عليه حراسة ذاتية من قبل الإنسان وضميره .

دين يبقى على الإنسان مكرماً في الأرض وخليفة لمالك الملك وأميناً على شرائع الحق والعدل وقد ارتضى الله لنا هذا الدين وأتم لنا به النعمة وحفظ لنا النور والكتاب المبين . ولا إنقاذ للبشرية كلها إلا بما حفظ الله ولا هداية لها إلا بهداه .

دين يدعو إلى الإيمان بالرسول جميعاً ولا يفرق ويدعو إلى كلمة سواء تنصف المظلوم حيث كان وتأخذ على يد الظالم من أي جنس كان . هو دين

السلام والإسلام وبه أرسل الله الرسل جميعا وأنزل الكتاب وحفظ ما أنزله على رسله في كتاب عزيز لا يقترب الباطل من ساحته .

دين رب العالمين للناس أجمعين ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (١٧٠).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٧١) ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٧٢).

والمسلمون جميعا مسئولون بين يدي الله عن إدراك هذه الحقيقة والعمل بها ودعوة الناس إليها ﴿وَلِئِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (١٧٣) فعليهم أن يدركوا أن دينهم يدعو إلى السلام . وللسلام أسسه ومقوماته ، وله قواعده وغاياته .

واتباع الكتاب والافتداء بالرسول هو سبيل السلام فليستمسكوا بما أمروا به من ربهم وما دعوا إليه وليعلموا أن دوافع الماديين ترتبط بمنافعهم لا بمرضاة ربهم . فلا يستخفهم من يزهو بدنياه ولا يوقن بأخراه . وليجعلوا من نور هذا الكتاب المبين هدى لهم في كل شأن وليعتصموا به حيث كانوا . فإنه حجة لهم أو عليهم . وليخاطبوا الناس به وليأخذوا بالأسباب في نصرته والدعوة إليه . فإنه الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ وليكونوا على علم بعصرهم وزمنهم حتى يأخذوا بالأسباب على بصيرة وليخلصوا النية في جميع أعمالهم ؛ فإن إعلاء كلمة الله عز لمن ابتغاه ، وقد أعزهم الله بالإسلام فمن ابتغى العز في غيره أذله الله .

(١٧٠) سورة الفرقان : ١ .

(١٧١) سورة الأنبياء : ١٠٧ .

(١٧٢) سورة الأعراف : ١٥٨ .

(١٧٣) سورة الزخرف : ٤٤ .

وذاك هو الطريق إلى السلام لهم ولغيرهم ، وهذا ما جاء من ربهم الذي له القوة جميعا والعزة جميعا ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٧٤).

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنته هذه الآيات من سورة المائدة ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَاءِ آتَانَكُمْ فَاسْتَفِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَن يَقُولُوا لَكَ عَنِ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ (١٨٥).

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ والكتاب هو القرآن الكريم وهذه الآية لها دلالتها فيما تؤديه كل كلمة بذاتها أو متعاونة مع أخواتها في بيان شأن القرآن الكريم في ذاته ، وبالنسبة لما بين يديه من الكتب ، وما يجب من عمل به ، واتباع له ، وتسليم بحكمه .

وتدبر أخي المسلم دلالة الكلمات في هذه الآية من حديث القرآن عن القرآن .

﴿وَأَنزَلْنَا﴾ والمنزل هو الله تعالى . وكفى بذلك دلالة على الحق وما يجب من حرص عليه وتمسك به وقد اتصل الفعل «أنزل» بنون العظمة «نا» في

(١٧٤) سورة المائدة : ١٥ ، ١٦ .

(١٧٥) سورة المائدة : ٤٨ ، ٤٩ .

الحديث عن الكتاب المحفوظ المعجز المهيمن ، كما نرى ذلك في الحديث عن تنزيل الذكر وحفظه في قوله تعالى من سورة الحجر ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ .

«إليك» : هكذا بكاف الخطاب دون ذكر اسمه ﷺ ، فيه ما فيه من تكريم لنبه وتنويه بعلو مكانته واختصاصه بانتهاء التنزيل إليه دون سواء ﷺ ، وجل من أنزله واصطفى من أنزل عليه و﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ .

«الكتاب» : دون وصف له لأنه الجدير بأن يُسمى وحده الكتاب «فهو الفرد الكامل الحقيق بأن يسمى كتابا على الإطلاق لحيازته جميع الأوصاف الكمالية لجنس الكتاب السماوي وتفوقه على بقية أفرادهِ وهو القرآن الكريم فاللأم فيه للعهد .

«بالحق» وكل ما سبق قبل هذه الكلمة يدل عليها . فالمنزل هو الله . والمنزل عليه هو رسول الله ﷺ . والمنزل هو ذلك الكتاب . والنازل به هو الروح الأمين . فأى دلالة على الحق وصونه وحفظه أوفى وأكمل من ذلك ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (١٧٦) . وقوله : ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ مع ما فيه من دلالة على تصديق الكتب المنزلة قبله فإن كلمة «لما بين يديه» تكاد تجعلك تنطق بهيمته قبل أن تسمع :

«ومهيمننا عليه» وأنه حاكم عليها ومؤتمن وحافظ وشهيد .

والقرآن الكريم أمين على الكتب المتقدمة قبله يعرض ما فيها من الحق ويرد ما ينسب إليها من باطل .

﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله﴾ والمقصود الحكم بين أهل الكتاب بما بين الله في هذا الكتاب ولكن لم يأت القول على هذا النحو الذي ذكرت ، وإنما جاء بما يدعو إلى وجوب الخضوع والرضا والتسليم حيث قال ﴿بما أنزل الله﴾

(١٧٦) سورة النحل : ١٠٢ .

فلا مجال للمراوغة أو التفلت والإعراض . فإن الحكم بما أنزل الله ليس منسوباً إلى غيره فمن عارضه أو أباه فقد عارض الله ومن أعرض عنه فقد أعرض عن الحق ﴿فَمَا ذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ ولا مفر من عَوْدٍ إلى الله وحساب بين يديه ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ (١٨) .

إن الحكم بما أنزل الله واجب الطاعة والرسول ﷺ يبلغ ما أنزل إليه من ربه ، فطاعته طاعة لله ومعصيته معصية لله ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٧) ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً﴾ (١٧٨) .

والرسول ﷺ مأمور أن يتبع الحق الذي أنزل إليه منهي عن مجاوزته أو الانحراف عنه ﴿ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق﴾ . إن الحكم بما أنزل الله يتنافى مع اتباع الأهواء ، لأنه الحق ، واتباع الأهواء ضلال وباطل تفسد به أحوال الناس . والحق ثابت مستقيم ، لا تجوز مجاوزته أو الميل عنه ، فلا تترجح أو تنحرف عما جاءك من الحق - وهو القرآن - متبعاً أهواءهم كما قال الله عز وجل : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨) ﴿إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٩) هَذَا بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (١٧٩) .

إن إنزال الكتاب بالحق داعٍ إلى حسن اتباعه والاستمسك به .

ومما يعين الناس على اتباع الحق في كل شأن من شئونهم تطبيق ما جاء من الحق في الاعتقاد والتربية وإقامة الفرائض التعبدية والفضائل والأخلاق .

(١٧٧) سورة النور : ٦٣ .

(١٧٨) سورة الأحزاب : ٣٦ .

(١٧٩) سورة الجاثية : ١٨ - ٢٠ .

فإن الإنسان هو محور الإصلاح وهو المخاطب بالتطبيق فلا بد من صلاحه واستقامته ، والمسلمون مطالبون دائماً أن يعالجوا الأحداث المتجددة بفطرة الدين مستعينين بقواعده وأصوله . فإن من الخطأ بل من الخطيئة أن تثار قضايا الدين بعيداً عن الواقع أو يعالج الواقع بغير فطرة الدين .

إن الناس إذا لم يُسعفهم البيان الحق في الأحداث المتجددة والقضايا المتلاحقة تخطفهم أندية الباطل وأبعدتهم عن أصول دينهم بتدليل شئون دنياهم .

ولأن يخطئ المسلمون في الاجتهاد السليم الصحيح خير لهم من التبعية والمطاوعة لغيرهم .

ولأن يعيشوا بأجر الخطأ في الاجتهاد خير من العيش بوزر القصد في المطاوعة ، مطاوعة من يردهم عن دينهم ويبعدهم عن أصوله . ﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٨٠) إن الأمر ميسور لمن تحرّى العدل ورغب فيه . وطلب الحق واجتهد في الحرص عليه والتمسك به .
والدين هو الحق والعدل في كل ما جاء به ودعا إليه .

وهذه الكلية من أمر الدين تحث المسلمين على مواجهة الأحداث المتجددة في ثقة وبنية فمقصد الدين هو إقامة العدل بين جميع الخلق .

فليثق المسلمون في أنفسهم مع ثقتهم في دينهم وليُعَالِجُوا - في غير حرج - قضايا عصرهم بفطرة دينهم ، وليخوضوا معركة الحياة وفي طريقهم نوران : كتابٌ وسنة . فمهما اتسعت الحياة وتعددت أحداثها فإن معهم من الثابت في أمر دينهم ما ينير طريق المتغير في حياتهم . معهم من القواعد والأصول ما يتسع لجزئيات الأحداث واختلافها باختلاف الزمان أو المكان وما يجعل شريعتهم صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان .

(١٨٠) سورة آل عمران : ١٠١ .

وبذلك تكون صلتهم بالحق الذي أنزله الله دائمة ومتجددة، راشدة ومثمرة، ويستمدُّ كلُّ جديد في دنياهم أسباب حياته من شمس دينهم ونور كتابهم، فلا تنفصل قضايا عصرهم عن الحق الذي أنزله الله وأمر أن يُحكم به.

بل تتصل به اتصال النبت المتجدد بأسباب الحياة واتصال الحياة بمصدرها فلا تُحكم إلا بما أراها الله.

وبذلك تحقق الأمة الإسلامية ما أمر الله به وحذّر من مخالفته أو الميل عنه ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ (١٨١).

وهل تسلم دنيانا من سيطرة الأهواء وغلبة الأعداء إلا باتباع هدى الله؟ وهل تتحرر نفوسنا من المؤثرات التي تميل بها عن الحق وتبعدها عن الصراط المستقيم إلا بصدق الإخلاص لله وحسن التوجه إليه ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٨٢) ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٨٣).

٢٧

﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّا بَرِيدُ اللَّهِ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنْ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ (١٨٤).

إن الحكم بما أنزل الله - وهو الحق - ليس نافلة في حياة الناس، بل هو الواجب الذي لا يُعفى أحدٌ من السؤال عنه والتمسك به.

(١٨١) سورة المائدة : ٤٨ .

(١٨٢) سورة العنكبوت : ٦٩ .

(١٨٣) سورة التغاين : ١١ .

(١٨٤) سورة المائدة : ٤٩ .

إن ما أنزل الله من الحق لا تستقيم الحياة إلا به ولا يتحقق بدونه سلام ولا أمن . وواجب على المؤمنين في كل زمان ومكان أن يعرفوا سنن الله في خلقه وأن يدركوا أنها سنن لا تجامل ولا تحابي ولا تبدل ولا تتحول . فلكل عمل جزاؤه ، ولكل سعي عاقبته ومن مقتضيات الإيمان تحكيم شرع الله والتسليم به وإيثاره على كل ما سواه .

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٦٥) (١٨٥) .

فليحذر أهل الإيمان في كل زمان ومكان ما يبعدهم عن شريعة الله والحكم بما أنزل . فليحذروا المؤثرات التي تميل بهم عن الحق وتصرفهم عنه وتبعدهم عن استحباب الهدى والرشاد فالحسد والبغي والظلم والكبر والعناد . واتباع الهوى ، والغلو . والاستهزاء بدين الله والقول على الله بغير حق ، واتباع الشيطان . وكراهة الحق . وإرضاء الناس في سخط الله ، واتباع الظن ، والجهل وعدم العلم ، والنفاق ، وتكذيب الحق من أول وهلة دون تدبر أو نظر ، والغرور بالحياة الدنيا ، وسوء الظن بالله وطول الأمد وقسوة القلب ، واتخاذ أعداء الله أولياء توهمهما لتحقيق منفعة أو دفع مضرة . واتباع الباطل والركون إلى أهله . .

كل ذلك وغيره من الشرور والمفاسد والعلل التي تصرف الناس عن الحق وتبعدهم عن استحباب الهدى والرشاد .

وهذه المؤثرات التي تميل بالناس عن الحق — وإن تعددت أو تداخلت فإنها جميعاً ظلمٌ للنفس وظلمات يوم القيامة ﴿ وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ إنها ذنوبٌ وآثام تدمر أصحابها وتسوقهم إلى أسوأ مصير .

(١٨٥) سورة النساء : ٦٥ .

وكم من نداء للعباد أن يفيثوا إلى رشدهم وأن يتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم من قبل إن يأتيهم الموت . كم من نداء يحذرهم من التكذيب بالحق والإعراض عنه .

وما أنزل الله من الحق هو لمصلحتهم في دنياهم وآخرتهم والله غني عن العالمين . وآيات الله تتلى عليهم وتدعوهم إلى الإجابة إليه والإسلام له واتباع ما أنزل من قبل أن يأتي الموت أو يقع العذاب ﴿وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾ ﴿٥٤﴾ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَءٍ أَيَّتِي فَكَذَّبَتْ بِهَا وَاسْتَكْبَرَتْ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ (١٨٦) .

إن من أنزل الحق سيحاسب عليه والخلق جميعا عائدون إليه ومحاسبون بين يديه . وسيكون شاهد الإنسان عليه من نفسه وإدانته بعمله . ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمُ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ﴿١٨٧﴾ فطوبى لمن استمسك بالحق ولم يمت إلا عليه . وطوبى لمن رضي بحكمه واتبع هداه ولم يفرط في جنب الله . طوبى لمن آمن ولم يلبس إيمانه بظلم ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة المائدة ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مَعَافِرُ فَوَاقِحِ الْحَقِّ

(١٨٦) سورة الزمر : ٥٤ - ٥٩ .

(١٨٧) سورة النور : ٢٤ - ٢٥ .

يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ
الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَنْبِئْهُمْ اللَّهُ بِمَا قَالُوا أَجَنَّبْتَ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ (١٨٨).

القرآن حق . وللحق سلطان على النفوس ، وهو يهدي إلى الحق وإلى
طريق مستقيم . نعم ، للحق سلطانه وتأثيره في النفوس وانتصاره فيها .

وانتصار الحق في النفوس تراه في صور متعددة : تراه في صبر مجاهد ،
وفي توبة تائب ، وفي سخاء جواد ، وعفة فقير .

تراه في خضوع النفس لدوافعه وانقيادها لأوامره ، وفي وجل القلب لحديثه
ويقينته بوعدته ووعيدته .

وانتصار الحق في النفوس يحقق لها فوزاً وفلاحاً . وتلك ميزة لا تكون إلا
للحق ومنفعة لا تقوم إلا به . تخضع له النفوس فتعز . وتستجيب لأوامره
فتسمو . وتعتمد به فتبرأ من الآثام وتسلم من النقائص . وتلجأ إلى غيره فلا
تأس إلا باللجوء إليه .

إنه الحق . والحق خير كله . وبر وصدق وعدل ورحمة .

يذنب المذنب فيتوب فلا يعيره بذنبه ويُعرض من يعرض عنه ثم يتوب فيبرُّ
به ويكرمه .

تتحول به النفس من ضلال إلى هدى ، ومن فجور إلى تقى . ومن ظلام
إلى نور ، ومن خوف إلى أمن ، ومن خسران إلى فوز ، ومن جهل إلى علم ،
ومن سفاهة إلى حلم ، ومن ابتغاء غير الله إلى الإخلاص لله ، ومن الخلود إلى
الأرض إلى رجاء من في السماء ، ومن الإساءة إلى الخلق إلى الإحسان إليهم
والبرُّ بهم ، ومن الظلم للنفس والغير إلى العدل مع النفس ومع الغير ، ومن

(١٨٨) سورة المائدة : ٨٣ - ٨٥ .

نصرة القريب مهما ظلم إلى الأخذ على يده إذا ظلم ، ومن وأد البنات إلى تكريمهن وحسن تربيتهن ، ومن الخصومة والتباغض إلى الأخوة والتراحم ، ومن التناكر والتقاطع إلى التعارف والتعاون .

ذاك هو الحق وتلك بعض آثاره وانتصاره في النفس وإشاره . ﴿ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ ، فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١٨٩) . إيمانٌ بالحق نشأ عن علم ومعرفة وَجِلَتْ له القلوب وفازت بهدايته — هداية الله — واستقامت على صراطه المستقيم .

ومن آمن بالحق أبصر نتائجه وأدرك عواقبه . ومن لم يؤمن أيقظته طلائعه وصبحته قوارعه .

والمؤمن يتعهد قلبه بذكر الله وما نزل من الحق كما تُتَّعَدُّ جنة بُوَابِلٍ أو طَلٍّ فتؤتي أكلها وثمارها كل حين بإذن ربها .

وإحياء النفوس بالحق لا يتوقف ، وعطاؤه لا ينقطع ، بل يتجدد تجدد الماء في السماء فيصيب الله به من يشاء ، ويصرفه عمن يشاء وهو من قبل ومن بعد .

لا تنبت الأرض بغيره ولا تحيا بسواه . والماء هو الماء في ماض وحاضر . والحق هو الحق في سابق ولاحق . من آمن به اليوم وجد نفسه مع السابقين من المؤمنين يحسُّ بإحساسهم ويشعر بشعورهم ولا يجد فارق زمن بينه وبينهم ، بل يقول في ثقة ، ذاك هو الحق الذي آمن به السابقون وجاء به النبيون . كما قال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ حين جاءه الوحي . هذا الناموس الذي أنزله الله على موسى ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك . قال : أومخرجي هم ؟ قال : نعم . ما جاء رجل بمثل ما جئت به إلا عودي . وكما قال من آمن

(١٨٩) سورة الحج : ٥٤ .

من أهل الكتاب حين تُلِي عليهم ما أنزل على الرسول ﷺ ﴿قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ (١٩٠).

وذاك تأثيره في نفوسهم وأثره في أقوالهم وأعمالهم ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٨٢) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ (١٩١).

وهذا ثوابهم وجزاؤهم عند ربهم ﴿فَأَنبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٩٢) إن للحق خصائصه وآثاره وله نبتة وثمراته التي لا تستند إلى غيره ولا تكون لسواه، ومن رأى النخل باسقات لها طلع نضيد لم يغب عنه أن في التربة ماء وأن الحياة لا تكون بدونه.

وأهل العلم والإيمان في كل زمان ومكان يعرفون ما للحق من حياة ولا تخفى عليهم آثاره وثمراته، والحق في نفوس هؤلاء ينتصر على ما سواه، ويرون بنوره ما هم مقبلون عليه وصائرون إليه. يرون أخراهم في دنياهم ويعملون لها ويشفقون منها.

ينتصر الحق في النفوس فيطوِّعها لعمل الخير ويجعلها تنظر ما قدمت لغد. فلا ترى غير الحق أصلاً للحياة وسبباً للنجاة. ولا تماري في وقائع الحق وآياته. وهي تؤمن أن الساعة آتية لا ريب فيها - وهي حق - فتعمل لها وتشفق منها.

إن الذين آمنوا بالحق ينتصر الحق في نفوسهم فلا تلهيهم العاجلة عن الآخرة ولا تشغلهم الرغائب عن العواقب. بل يمشون في الأرض يبتغون من فضل الله وهم يحذرون الآخرة ويرجون رحمة ربهم ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ (٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

(١٩٠) سورة القصص : ٥٣ .

(١٩١) سورة المائدة : ٨٣ - ٨٤ .

(١٩٢) سورة المائدة : ٨٥ .

بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ۚ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ
فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ (١٩٣).

والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق وأنهم تكون بالحق للفصل
بين من اتبع الحق ومن اتبع الباطل ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ﴾ (١٩٤).

ذاك ما يحققه إيمانهم بالحق يخلصهم من الركوب لديابهم ولا يجعل لها
سلطانا عليهم . بل تكون بسبب الحق الذي آمنوا به خادمة لغاياتهم خاضعة
لمقاصدهم ، يريدون بها الآخرة فيصلحون ولا يفسدون ، ولا يريدونها في ذاتها
يفسدون ولا يصلحون . . وإشفاقهم من الساعة نصرٌ للحق وإعلاء للصدق
وإشاعة للبر وإمساك عن الشر .

وتلك - وربِّي - دعائم السلم لمن طلب السلم وأسباب الأمن لمن ابتغى
الأمن .

وليس انتصار الحق في النفوس وإيثاره في معركة طارئة من معارك الحياة
فحسب . بل هو انتصار يقود إلى ملازمة واتباع . اتباع للحق في كل شأن
وطاعة له في كل أمر ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ
وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ ۚ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ
وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴿٢٠﴾ (١٩٥).

وليست هذه الملازمة في الاتباع ترتبط بمعنى يقف عند حدود الحياة الدنيا
ولا يزيد ، بل هو اتباع يتجاوز حدود الحياة الدنيا إلى غيرها وينشد ما
وراءها .

وشتان ما بين اتباع واتباع . بين اتباع الباطل في بطلانه واتباع الحق في ثباته
وبقائه . شتان ما بين النتائج في الحالين . وشتان ما بين الفريقين ﴿وَالْعَصْرِ﴾ (١).

(١٩٣) سورة الشورى : ١٧ - ١٨ .

(١٩٤) سورة الروم : ١٤ .

(١٩٥) سورة محمد : ٢ ، ٣ .

إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ (١٩٦).

تواص بالحق يدل على إثارة وتواص بالصبر يدل على دوامه ، وتآزر يدل على الإصرار على الثبات حتى الممات . وقد يتواصى الذين يتبعون الباطل فيما بينهم لحظة من نهار . وتراهم فيما بينهم وعند تبدل الأحوال أشد الناس نكراناً لباطلهم . وما يبدو غير ذلك إن هو إلا ركون لزهرة حياة في إملاء واستدراج ينتهي بدمار وخسران .

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْخَسِرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ (١٩٧).

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها إنك نعم المولى ونعم النصير.

٢٩

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَحْدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (١٩٨).

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت لما قال كفار مكة للنبي ﷺ أرنا من يشهد أنك رسول الله فإننا لا نرى أحداً نصدقه . ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أنه ليس لك عندهم ذكر.

(١٩٦) سورة العصر .

(١٩٧) سورة الجاثية : ٢٧ .

(١٩٨) سورة الأنعام : ١٩ .

وقد جاء بعد هذه الآية قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٩٩). وقد روي أن النبي ﷺ لما قدم المدينة وأسلم عبد الله بن سلام وهو من هو بين اليهود شرفاً وعلماً ، فهو حبرهم وابن حبرهم وعالمهم وابن عالمهم . فلما أسلم قال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إن الله قد أنزل على نبيه بمكة ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ فكيف هذه المعرفة؟

قال عبد الله بن سلام : يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني ولأنا أشدُّ معرفة بمحمد مني بابني .

فقال عمر : كيف ذلك : قال : أشهد أنه رسول الله حقاً ولا أدري ما تصنع النساء .

وَأَعْجَبًا أَنْ تُطَلَّبَ الشَّهَادَةُ عَلَى نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ مِنْ كِفَارِ مَكَّةَ وَالْقُرْآنَ يَتْلَى عَلَيْهِمْ . وفي القرآن شهادة من الله له ، وما كان يتلو من قبله من كتاب ﴿ وَمَا كُنْتُ نَسْأَلُكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُّهُ بِمِيمِنِكَ إِذَا لَا رَتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْتَنِي فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٠﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٢٠٠).

﴿ قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحى إلى هذا القرآن لأُنذركم به ومن بلغ ﴾ والقرآن الذي أوحى الله به إلى نبيه قد حفظه ليكون بلاغا

(١٩٩) سورة الأنعام : ٢٠ .

(٢٠٠) سورة العنكبوت : ٤٨ - ٥٢ .

للناس ونذيرا للعالمين فهو للأجيال كلها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (٢٠١) . ﴿قُلْ يَتَايَأُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (٢٠٢) .

رسالة عامة شاملة ينذر كتابها ويبشر وهو يتلى على الناس ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (٢٠٣) .

وقد بلغ الرسول ﷺ ما أنزل إليه من ربه وبشر وأنذر كما أمر ولم يعد لأحد عذر بعد بلاغ ولا حجة بعد إعدار وإنذار ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (٢٠٤) .

إن هذا القرآن بيان للناس وإنذار لهم قبل يوم الحساب . وهو كتاب مقروء محفوظ تبلى به الأجيال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ولا يقترب الباطل من ساحته . وبه يعرف ما ينسب إلى الحق وما يخالفه وتكشف أوثان الباطل وأصنامهم ، وأولياء الشيطان وأعوانه . وتبقى به مضاييح النور على الصراط المستقيم مشرقة مضيئة هادية فلا يلبس الحق بالباطل ولا تلتبس على الناس السبل . إنه صراط واحد مستقيم يقف القرآن الكريم داعيا وهاديا إليه . وما عداه سبل يتخبط أهلها في الظلمات وتفضي بهم إلى فرقة ضالة وعذاب مهين ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ ۚ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٢٠٥) .

(٢٠١) سورة الفرقان : ١ .

(٢٠٢) سورة الأعراف : ١٥٨ .

(٢٠٣) سورة النمل : ٩٢ .

(٢٠٤) سورة النساء : ١١٥ .

(٢٠٥) سورة الأنعام : ١٥٣ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (٦٦) لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٍّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٢٠٦﴾.

والضمير في قوله ﴿وكذب به﴾ راجع إلى القرآن الكريم ويحتمل أن يعود على الوعيد الذي تضمنته هذه الآية من قبل ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ﴾ (٦٥) ﴿٢٠٧﴾.

﴿وهو الحق﴾ يعود إلى القرآن الكريم أو ما تضمنه من وعيد.

والرسول ﷺ مبلغ عن ربه . ينذرهم عاقبة تكذيبهم ولا يملك هدايتهم أو إجبارهم على الإيمان ، كما لا يملك حفظهم أو دفع العذاب عنهم ﴿قل لست عليكم بوكيل﴾.

ولا حجة لهم وقد أرسل إليهم ، ولا عذر لهم وقد جاءهم الحق من ربهم . ولا مفر من العذاب لمن كذب بالحق وأعرض عنه . ﴿لكل نبي مستقر وسوف تعلمون﴾ وعيد لمن كفر.

لكل خبر أخبر الله تعالى به من وعيد أو وعيد مستقر في الدنيا أو في الآخرة .

ويخطئ من يستبطن العاقبة أو يستبعد الجزاء .

فإن السنين الطوال إذا مضت غدت في حس الإنسان دقائق وثنائي . ﴿قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ (١١٢) ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِ الْعَادِينَ﴾ (١١٣)

(٢٠٦) سورة الأنعام : ٦٦ ، ٦٧ .

(٢٠٧) سورة الأنعام : ٦٥ .

قُلْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٦﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٧﴾ فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكَ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٨﴾ (٢٠٨).

﴿يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ (٢٠٩). ﴿كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَرَبِّبُنَا إِلَّا عِشَّةٌ أَوْشَعَهَا﴾ (٢١٠) وعندئذ تُوفَّى كل نفس ما عملت ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ (٢١١).

إن التكذيب بما نزل من الحق مُفْضٍ إلى عقاب قد يُعَجِّلُ وقد يُؤَجِّلُ إلى حين ولكن المكذبين لن يفلتوا منه بحال . ولن يجدوا مؤثلاً لفرار . ولن يكونوا أكثر أو أشد قوة ممن كذب من قبلهم . فقد أخذهم الله بذنبهم وجعل أخذهم عبرة لمن بعدهم . والأرض هي الأرض ، تحكي لكل جيل ما جرى عليها وما وقع فيها .

وفى آثار من كذبوا صمّت رهيب ترتجف منه القلوب وتخضع النفوس . ومن لم يعتبر بما يرى من بوار فليس له من جزاء إلا النار ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ (٢١٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١٣﴾ (٢١٢).

(٢٠٨) سورة المؤمنون : ١١٢ - ١١٦ .

(٢٠٩) سورة الروم : ٥٥ .

(٢١٠) سورة النازعات : ٤٦ .

(٢١١) سورة النبأ : ٤٠ .

(٢١٢) سورة غافر : ٢١ ، ٢٢ .

تلك سنة الله فيمن كذب بما نزل من الحق ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ (٢١٣).

إن القرآن الكريم حق وهو يدعو الناس جميعا إلى اتباع الحق .

وللحق سلطانه وحجته ولو نظر الجاحدون في أنفسهم لرأوا سلطانه فيهم . فكيف ينكرونه وما من شيء من أمرهم في خلقهم ومعاشهم ، وحياتهم وموتهم ، وليلهم ونهارهم ، إلا وللحق فيه دليل وله بيان وحجة وسلطان؟! فإذا دعوا إلى عبادة الله وحده - وهذا حق - كان لهم من الأدلة على صدق الدعوة إلى الحق ما يدعوهم إلى حسن الطاعة والاستجابة ويبعدهم عن الفسوق والعصيان .

وإذا دُعوا إلى الإيمان بالبعث - وهو حق - وفيه ما فيه من صلاح دنياهم - كان لهم من الأدلة في الآفاق وفي الأنفس ما يدعوهم إلى اليقين بأنه حق . ومن لا يدين دين الحق - فللحق معه موقف محدد منضبط بضوابط الحق . والحق من الله ولا دخل لأهواء الناس فيه .

والحساب بين يدي الله الذي يعلم حق الناس وباطلهم وسرهم وعلانيتهم ﴿يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ (٢١٤).

إن الناس مأمورون باتباع الحق ومحاسبون عليه . والحساب لا يدع شيئا ولا يفلت من ميزانه شيء ﴿وَنُضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (٢١٥).

(٢١٣) سورة : محمد ١٠ .

(٢١٤) سورة النور : ٢٥ .

(٢١٥) سورة الأنبياء : ٤٧ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى من سورة الأنعام ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (٢١٦).

إن كلمة «مبارك» يوصف بها الماء كما يوصف بها هذا الكتاب . ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ (٢١٧).

وكلنا يدرك إلى أي حد تنتهي بركة الماء وإلى أي مدى تمتد بركة هذا الكتاب المنزل على رسول الله ﷺ، وكيف يأتي يوم القيامة شفيحاً لأصحابه . فبركته - بحمد الله - ثابتة وممتدة .

وإذا كانت الأرض الطيبة تقبل الماء فتنبت الكلاً والعشب الكثير، فإن النفوس الطيبة - بفضل ربها - تتقبل وحي الله وتؤمن بآياته، فتنبت العمل الطيب، وتثمر الخلق الحسن . تتحرك بإيمانها وتنبعث بيقينها ويؤازر بعضها بعضاً تعبدًا لله وطاعةً لأمره ﴿كَزَرَاعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلِظَ فَاسْتَوَى عَلَى سَوَاهٍ﴾ وكثيرا ما نجد الحديث عن القرآن الكريم يتجاوز مع الحديث عن الماء في كتاب الله عز وجل . وهذا التجاور يلفت نظر المتدبر إلى ما بينهما من مناسبة .

والرسول ﷺ يبين ذلك بقوله «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً» كما جاء في الحديث المتفق عليه عن أبي موسى رضي الله عنه .

إن إيمان الإنسان بهذا واستجابته لما دعاه إليه يحقق له الحياة . كما أن تقبل الأرض للماء يحييها من بعد موت ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (٢١٨).

(٢١٦) سورة الأنعام : ٩٢ .

(٢١٧) سورة ق : ٩ .

(٢١٨) سورة الحج : ٥ .

ألا وإن أثر الماء في تحقيق الحياة محدود بأجل .

ولكن آثار القرآن تمتد مع الإنسان ولا تتخلف عنه في موت أو بعث أو حساب أو جزاء . « اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه » كما جاء فيما رواه مسلم عن أبي أمامة - رضي الله عنه - وعن النواس بن سمعان - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يؤتى بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تقدّمه سورة البقرة وآل عمران تحاجّان عن صاحبهما » . وروى أبوداود والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال : يقال لصاحب القرآن : « اقرأ وارتي ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها » .

تلك هي بركة القرآن لمن اهتدى به ، تمتد ولا تنقطع . وتدوم مع الإنسان في موت وبعث وحساب وجزاء . نورٌ لصاحبه وحرزٌ من النار . رفعة وارتقاء في درج الجنة بقدر ما حفظ وعمل . اقرأ وارتي . أي في درج الجنة بقدر ما حفظت من آي القرآن فأنعم به من صاحبٍ وأكرم به من محفوظ وحافظ . ومن محبوب يُدخل صاحبه الجنة بفضل الله ورحمته ، ومن وفي لا يتخلى عن صاحبه عندما يفرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه ، كتاب مبارك لا تنقطع بركته ولا يتوقف عطاؤه ولا ينطفئ نوره ولا يضيع صاحبه فاحفظ أخي المسلم كتاب ربك وحافظ عليه واجعل لسانك رطبا به فإنه أفضل ذكرٍ تذكّر به ربك . واحذر هجره أو الإعراض عنه . فإن في كل حرف منه أجراً أي أجر . « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الهم حرف ولكن ألفٌ حرفٌ ، ولامٌ حرفٌ ، وميمٌ حرفٌ » كما جاء فيما رواه الترمذي عن ابن مسعود - رضي الله عنه - وقال حديث حسن صحيح . ولا تجعل قلبك محروماً بتركه « فإن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب » وكن متبّعاً لهداه فإن من اتبعه قاده إلى الجنة .

ومن أعرض عنه شقي في دنياه وأخراه .

اللهم ارحمنا بالقرآن واجعله لنا إماماً ونوراً وهدى ورحمة .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾. وكذلك نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٢١٩﴾.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ والبصائر جمع بصيرة وهو النور الذي تبصر به النفس. كما أن البصر هو النور الذي تبصر به العين. والمراد بالبصائر الأدلة والحجج. ويراد بها هنا آيات القرآن الكريم.

وفي قوله ﴿مَنْ رَبِّكُمْ﴾ حث وتحذير. حثُّ على صدق التمسك وحسن الاتباع. وتحذير من المخالفة والإعراض. فإن هذه البصائر من ربكم الذي خلقكم ورباكم بنعمه، وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض بفضله ورحمته.

وفي وصف البصائر بالمجبيء تَفْخِيمٌ لسانها وجعلها بمنزلة الغائب المتوقع مجيئه. ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾. أي من تعقل البصائر وعرفها وأذعن لها فَتَنَعَ ذلك لنفسه لأنه ينجو بهذا الإبصار من النار ﴿ومن عمي فعليها﴾ أي عمي عن البصائر ولم يتعقلها ولم يذعن لها فضرر ذلك عائد عليه؛ لأنه يتعرض لغضب الله في الدنيا والآخرة. وللبصائر نتائجها وللعمى عن البصائر عواقبه.

ولما كان هذا وارداً على لسان الرسول ﷺ وقد أمر بتلاوته وتبليغه قال : ﴿مَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أي قل لهم هذا وذاك، قل لهم مبلّغا عن ربك ما أنزل إليك : ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾.

(٢١٩) سورة الأنعام : ١٠٤ - ١٠٦.

وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٢٢٠﴾ أي برفيق أحصي عليكم أعمالكم وإنما أنا رسول
أبلغكم رسالة ربّي وهو الحفيظ عليكم .

﴿وَكَذَلِكَ نُنْصِرُكَ الْآيَاتِ﴾ أي مثل ذلك التصريف البديع نصرّفها في الوعد
والوعيد والوعظ والتنبيه لتقوم الحجّة وتنقطع المعذرة .

ومع تصريف الآيات وبيانها ترى من الناس من يجادل في آيات الله بغير
علم ويحاول أن يجد تعليلًا لهواه بنسبة هذه البصائر لغير الحق .

﴿وَلِيَقُولُوا أَدْرَسْتَ﴾ هذا يا محمد مع أهل الكتاب وتعلّمته منهم وهم يوقنون
أنه ما تلا من قبل من كتاب ولا خطه بيمينه ﷺ .

وما كان أحد من قبل من أهل الكتاب ولا من غيرهم يعلم شيئًا على هذا
المستوى من التنزيل المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ،
ولكنه العمى والجهل يقود صاحبه إلى التخبط والجحود .

﴿وَمَا كُنْتَ تَسْأَلُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَأَرْتَابَ
الْمُبْطِلُونَ﴾ بل هو آية بينت في صدور الذين أوتوا العلم وما يحكد
بشائنتنا إلا الظالمون ﴿٢٢٠﴾ .

إن هذا القرآن يقوم في حياة الناس مقام الشمس في عالم الكون لا يخفى
نوره ولا ينقطع مدّه ولا يذهب أثره . ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾ والبصائر قائمة لا
تغيب . ومن عمي عن البصائر فلعلّة فيه لا في النور والهدى ﴿أَفَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا
أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَنْذَرُكَ أَتَوَلَّوْا الْآلِبَابَ﴾ ﴿٢٢١﴾ .
ومع الضياء والنور ترى ناسًا يابون إلا أن يكونوا في القبور .

(٢٢٠) سورة العنكبوت : ٤٨ ، ٤٩ .

(٢٢١) سورة الرعد : ١٩ .

ومن أصحاب القبور أولئك الذين يقولون للرسول الكريم ﷺ - وهم يعلمون نشأته - «درست» أي أعانك عليه قوم آخرون وليس من عند ربك . ويقول أمثالهم على مر السنين ما يقولون . وشمس القرآن فوق رؤوسهم لا تغيب ، إن بارحت رؤوسهم أنارت عند آخرين ، والناس قديما وحديثا أمام حجج الحق وبيانه فريقان : فريق مبصر يعلم أنه الحق ، وفريق أعمى يجادل في الحق بغير علم .

وعلى دعاة الحق حيث كانوا أن يقتدوا بنبيهم فيما أمر به ، وأن يستمسكوا بالحق دون أن يعبأوا بالذين لا يوقنون .

﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٢٢٢) .
 ذاك هو السبيل ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ فإنه الحق الذي يريد أهل الباطل أن يصرفوا الداعين عنه وأن يردوا المتمسكين به ، وأن يشغلوهم عنه بغير من القول وأن يبعدهم بشتى الوسائل والأساليب . والسبيل لرد الكيد والصد هو صدق الاتباع والتمسك بما أنزل الله على رسوله ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (٢٢٣) ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ (٢٢٤) .

وبذا يكون تحقيق النصر ودفع الكيد . إذ لا سبيل لنصر الحق إلا التمسك به والعمل بمقتضاه والصبر والتقوى كما أمر الله .

ومن تدبر النتائج وعرف العواقب أيقن يقينا لا شك فيه أن الحق لا يهزم أبدا ؛ لأن العاقبة له لا لغيره .

وسيعلم الناس جميعا ذلك ويوقنون به ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (٢٢٥) .

(٢٢٢) سورة الأنعام : ١٠٦ .

(٢٢٣) سورة آل عمران : ١٢٠ .

(٢٢٤) سورة الروم : ٦٠ .

(٢٢٥) سورة الشعراء : ٢٢٧ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتَغَىٰ حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (١١٥) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴿٢٢٦﴾. إن الميل عن الحكم بما أنزل الله قصدا وعمدا دلالة على انحراف القصد وسوء المصير.

والإعراض عنه دلالة على ريب النفوس ومرض القلوب. وسوء ظن بالله وبالرسول. ﴿وَيَقُولُونَ ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ فِرْقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فِرْقٌ مِنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴿٢٢٧﴾.

إن القرآن الكريم قد أنزل ليحكم به ويرجع إليه وهو يهدي في كل شأن للتي هي أقوم ولا يأبى حكمه إلا أولئك الذين ييغونها عوجا. ولن تستقيم حياة الناس إلا بالرضا بحكم الله والتسليم له.

وقد أمر الله الرسول ﷺ بأن يقول لأولئك الذين يميلون إلى زخارف الشياطين ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتَغَىٰ حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ معناه: قل لهم: أأميل إلى زخارف الشياطين فأبتغى غير الله حكما؟

وفي توجيه هذا القول ما فيه من إنكار على أولئك الذين تميل قلوبهم لغير ما أنزل الله مما تمليه الشياطين وتزينه فتصرفهم عن الرضا بحكم الله والتسليم له.

(٢٢٦) سورة الأنعام: ١١٤، ١١٥.

(٢٢٧) سورة النور: ٤٧ - ٥٠.

إن الحكم بغير ما أنزل الله مجافاةً للحق وبعد عن الصراط المستقيم .
 والله قد أنزل الكتاب بالحق وحفظه من التبديل والتحريف ليكون هداية
 للأجيال كلها ورحمةً للعالمين . فمن ابتغى الهدى في غيره أضله الله .
 إنه القول الفصل والحكم العدل في كل شأن من شئون الخلق .
 والذين آتيناهم الكتاب من علماء اليهود والنصارى يعلمون أن القرآن منزل
 من ربك بالحق . وفي تقرير أن القرآن منزل من ربك بالحق فيه ما فيه من
 دعوة لجميع الخلق لاتباع الحق . والحق جدير أن يتبع . وأن تحذر مخالفته
 أو الإعراض عنه . فإن للحق نوراً وناراً فمن أبى النور فالنار موعده .
 ومن علم أنه الحق مدانٌ ومستول .

والكارهون للحق أو المبغضون له مأخوذون به خالدون في ناره .
 ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ (٧٤) ﴿ وَعَلَىٰ خُلُودِهِمْ فِيهَا
 كِرَاهِيَتُهُمْ لِلْحَقِّ الَّذِي جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ ﴿ لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ
 لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ (٢٢٩) .

فهم بسبب كراهيتهم للحق مجرمون . وهم من أجل ذلك في عذاب جهنم
 خالدون . ذاك هو المصير لمن كره الحق أو أعرض عنه وهو يعلم أنه الحق .
 والله هو الحق وقوله الحق وقد أنزل الكتاب بالحق .

ولا نجاة إلا لمحق ولا فوز إلا لمن كان على الحق الذي أنزل الله به الكتاب
 وأرسل الرسل وما هلك هالك إلا وقد جاءه الحق من قبل وبلغ به وحذر من
 مخالفته ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (٢٣٠) .

(٢٢٨) سورة الزخرف : ٧٤ .

(٢٢٩) سورة الزخرف : ٧٨ .

(٢٣٠) سورة الإسراء : ١٥ .

فإذا جاءت العاقبة كان الحساب بعد بيان وإعذار وابتلاء وامتحان . ﴿إِنَّا
أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (٢٣١).

وإن الله الذي أرسل الرسل وأنزل الكتاب هو الذي يجمع الخلائق ويقضي
بينهم وهو الذي خلقهم وهو الذي أحياهم ثم يميتهم ثم يحييهم ثم يجمعهم
إلى يوم القيامة لا ريب فيه .

وفي يوم الجمع : القول للحق . والباطل مدان . والقضاء بين جميع الخلق
ولا شفاعة إلا لمن شهد بالحق .

وإذا تأملنا في أمر الفريقين - من أهل الجنة وأهل السعير، وتدبرنا حالهم
لم نجد إلا الحق سببا فيما وصلوا إليه . وصاروا إليه . إن كانوا محققين فبالحق
أدخلوا في رحمة ربهم . والجنة حق . وإن كانوا مبطلين فمن أجل الحق الذي
كرهوه وأنكروه - آوتهم النار - وهي حق .

وما ظنوه بعيدا وجدوه قريبا . وما لم يكونوا به مستيقنين وحدوه يقينا وذاك ما
جاء به الكتاب مفصلا إعذارا وإنذارا .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ
اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾ (٢٣٢).

٣٤

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿وَهَذَا
كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكًا فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٢٣٣).

(٢٣١) سورة فاطر : ٢٤ .

(٢٣٢) سورة محمد : ٣ .

(٢٣٣) سورة الأنعام : ١٥٥ .

والإشارة في قوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ﴾ إلى القرآن الكريم . و«أنزلناه» صفة لـ«كتاب» و«مبارك» صفة أخرى له . والوصفان يرشدان إلى صدق اليقين وحسن الاتباع فالله هو الذي أنزله ، وبالحق أنزله . فهو جدير أن يُسْتَمْسَكَ به وأن يتبع . وهو مبارك ثابت البركة لا ينقطع مدّه ولا يزول نفعه ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وإنه لكتاب مبارك حقاً إذ تناطُ به رحمةُ الله لمن أحسن الاتباع واتقى ربّه فأخلص وأحسن .

مبارك في ذاته ومبارك في آثاره ونتائجه . وكفاه شهادةُ الله له بأنه «مبارك» ففيه من التعظيم لشأنه والإشادة بذكره ما فيه .

فهو جامع لكل أسباب الهداية الثابتة الدائمة النامية . فاتبعوا ما هداكم إليه واتقوا ما نهاكم عنه وحذركم إياه ، لتكون رحمة الله تعالى مرجوة لكم في دنياكم وآخرتكم فإن أكبر سبب لنيل رحمة الله اتباع هذا الكتاب علماً وعملاً . فما من خير إلّا ودعا إليه ورغب فيه وما من شر إلّا ونهى عنه وحذر منه . فهو مبارك في ذاته وفي آثاره ونتائجه بما يفيض به من الخيرات وما يحققه من طمأنينة نفس واستقامة سعي وهدى للتي هي أقوم .

ومن تدبر آثاره في عالم النفس وعالم الحس رأى المكانة التي سما إليها الإنسان حين استمسك به واسترشد بهدايته . حيث نهاه أن يسجد لشمس أو قمر وأمره أن يسجد لله الذي خلقه وعلمّه أن الأشياء مع عظمها وكبرها خلقت من أجله وسخرت له . وأنه خلق لعبادة ربّه فلا يسجد لغيره ولا يذل لسواه .

فسمت بذلك مكانة الإنسان وتحددت منزلته وغايته ، وغداً به صاحب رسالة ومبدأ . ارتفع به عن جاذبية التعصب لجنس أو لون . وجعله ينظر إلى الحياة من أفق أعلى . ويرى أرضه شيئاً في ملك الله وليست كل شيء ، فتحرر من الخلود إليها والإفساد فيها . مشى في مناكب الأرض ينشد رزق ربه وهو يوقن بالعود إليه والحساب بين يديه . فلم يفتن بعطاء ، ولم يقنط بمصائب أو

بلاء . والقرآن الكريم يوجه سعيه ويطمئن قلبه ويحفظ نفسه من الدمار بإيثار الحياة الدنيا أو الركون إليها . دعاه إلى الأخذ بالأسباب والعمل لدنياه دون غفلة عن أخره فما ضيعت دنيا ولا تركت الأخرى .

فكانت بركة القرآن تعميراً لدنيا الناس وحفظاً لأخراهم .

وقد حدد للمجتمع كله طريق أمنه وسلمه . ودعا إلى تعارفه وحذر من تناكره . وجعل الفرائض التي أمر بها عوناً له على تقديم خيره وكفّ شرّه .

ومن الحدود التي شرعها حماية للإنسان من ظلم نفسه أو ظلم غيره .

ومن العقيدة التي نادى بها طلباً لأخراهم في صالح العمل في دنياه .

فما ضيعت دنيا ولا أهملت أخرى . بل نعمت دنيا الناس بما في سعي الآخرة من عمل بر وتقديم خير . وطابت الآخرة بما يكون في الدنيا من إخلاص قصد واستقامة سعي .

فكانت بركة القرآن وهدايته عدلاً للإنسان في ذات نفسه بين مطالب جسده وفضائل روحه . عدلاً بينه وبين غيره . عدلاً في حق دنياه وحق آخريته .

فوجد به الإنسان الصحيح الذي يتحقق به الأمن ويصان السلم .

والإنسان الصحيح تصح به الأمور الفاسدة والإنسان الفاسد تفسد به الأمور الصالحة . ومن أجل الإنسان نزل القرآن نوراً وهدى للناس ليتراحموا فيما بينهم وليتعارفوا ولا يتناكروا . نزل ليتبع ويعمل به ﴿ فاتبعوه واطقوا لعلكم ترحمون ﴾ .

obeikandi.com

حديث القرآن عن القرآن في آيات من:

- ١ - سورة الأعراف
- ٢ - سورة الأنفال
- ٣ - سورة يونس
- ٤ - سورة هود
- ٥ - سورة يوسف
- ٦ - سورة الرعد
- ٧ - سورة إبراهيم
- ٨ - سورة الحجر
- ٩ - سورة النحل
- ١٠ - سورة الإسراء
- ١١ - سورة الكهف

obeikandi.com

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى من سورة الأعراف ﴿التَّصْنِيفُ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ، وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۚ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٣٤).

والمخاطب بقوله ﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ هو الرسول ﷺ. والكتاب المنزل هو القرآن الكريم.

وفي قوله ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ تنبيه لما يلاقه الداعي إلى الحق من صدٍّ وتكذيب وكيد. وهو يصدع بالحق ويجابه عقائد وعادات ويعارض انحرافات وأباطيل. فالخرج في طريقه كثير؛ لأن الحق لا يجامل ولا يحابي، ولا يُستخفُّ أهل اليقين ولا يستدرجون. فهم على ثبات وصدق فيما يؤمنون به ويدعون إليه.

﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ، وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المؤمنون لهم الذكرى. وغير المؤمنين لهم الإنذار. وللحق نورٌ ونارٌ فمن أبى النور فالنار موعده ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾

دعوة إلى الناس كافة أن يتبعوا القرآن ولا يتخذوا من دون الله أولياء يطيعونهم في معصية الله فإن ذلك مفضٍ إلى دمارٍ وهلاك.

﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ۚ فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝٥ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقْضُنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ۝٧ وَالْوَزْنُ

يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ (٢٣٥).

إن مصارع المكذبين الغابرين فيها تذكير وإنذار وتحذير ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ كثيرة تلك القرى التي أهلكت بمعاصيها وأخذت بذنوبها ودمرت بتكذيبها. ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ (٢٣٦). إن سنن الله نافذة في الأولين والآخرين لا تبدل ولا تتحول ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٢٣٧). وليس أمام الخلق من سبيل لنجاة إلا بصدق الاتباع لما نزل من الحق ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾.

وفي إنذار الناس بما حصل للأمم الماضية بسبب إعراضهم عن الحق ما يكفي للعبرة والموعظة. والسعيد من اتعظ بغيره. وتدبر ما وقع ولم يكن من الغافلين.

﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾.

أهلكوا في ساعة بياتٍ أو قيلولة حيث الاسترخاء والأمان فكان أخذهم أشدّ ترويعاً وأعنف وقعاً وأدعى للتذكر والاعتبار دون إرجاء أو إبطاء.

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْفَى اللَّهُ بِهِمْ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٥) ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُوبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (١٦) ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى

(٢٣٥) سورة الأعراف: ٤ - ٩.

(٢٣٦) سورة محمد: ١٠.

(٢٣٧) سورة العنكبوت: ٤٠.

تَخَوُّفًا إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَّوُفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾ (٢٣٨). إن لكل شيء عاقبة . وعاقبة
المكذبين دمار وخسران .

وتراهم - والدمار لاحق بهم - يعترفون بذنوبهم وآثامهم ويبدون الأسف
والندم حيث لا ينفع ندم ولا تقبل توبة أو معذرة . فإن الندم قد فات موعده
والتوبة لا تقبل إذا حضر الموت أو وقع العذاب . ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا
ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ (٨٤) فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ
لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَا لِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ (٢٣٩) .
الأمر إذن جد خطير . فلتتدبر ما أنزل إلينا من ربنا ولنستمسك به ولنحذر
مخالفته أو الإعراض عنه .

فإن القرآن قد أنزل وحفظ ليعمل به .
فمن اتبعه قاده إلى الجنة ومن أعرض عنه ساقه إلى النار .
فليس أعزل من قوة تحقق وعده ووعيده وهو تنزيل رب العالمين إنه الحق .
وللحق نورٌ ونار فمن أبى النور فالنار موعده .

﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ (١٢٢) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ
مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٢٣﴾ (٢٤٠) .

نحن مأمورون باتباعه ﴿ أَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ فلنحذر مخالفته أو
الإعراض عنه . فإن الإصرار على الإعراض عنه دليل شرك وخسران واتخاذ
الشياطين أولياء .

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ فتشركون وتضلون .

(٢٣٨) سورة النحل : ٤٥ - ٤٧ .

(٢٣٩) سورة غافر : ٨٤ - ٨٥ .

(٢٤٠) سورة طه : ١٢٣ ، ١٢٤ .

ولا عذر بعد بيان، ولا حجة بعد تذكير وإنذار ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٦﴾ فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ مَا كُنَّا غَايِبِينَ ﴿٧﴾ (٢٤١).

٣٦

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى من سورة الأعراف ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عَلَيْهِمْ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿٥٣﴾ (٢٤١).

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ﴾ قرآن فصلناه بإيضاح الحق من الباطل وبيننا فيه كل شيء عالمين بتفصيله. أو فصلناه مشتملاً على علم أي علم ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وخص المؤمنين بالذكر لأنهم المتفعون بهدايته الفائزون برضا الله ورحمته.

إنهم آمنوا به واتبعوه واهتدوا بهداه ففازوا وسعدوا وكان لهم نوراً في دنياهم وأخراهم وتلك عاقبة من اتبع القرآن واهتدى بهداه.

أما أولئك الذين كذبوه وأعرضوا عنه فإنهم - وهم يصرون - سيؤمنون به ويعلمون أنه الحق ولكن بعد فوات الأوان، حيث لا ينفعهم اعتراف ولا إيمان ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ يقولون ذلك يوم القيامة حين يرون العاقبة في صدق ما أخبر به ودعا إليه.

(٢٤١) سورة الأعراف: ٦، ٧.

(٢٤٢) سورة الأعراف: ٥٢، ٥٣.

لقد تركوا الإيمان من قبل ، وندموا حيث لا ينفع الندم وقالوا معترفين نادمين ﴿ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَيْنَا بِالْحَقِّ ﴾ أي تبين لنا صدق الرسل فيما أخبرونا به في الدنيا . فيعترفون بذلك لمشاهدتهم ومعابيتهم العذاب الذي أخبروا به ، وحذروا منه . وها هم يلتمسون كل سبيل لكي يعودوا إلى ما تركوه وفرطوا فيه ، معلنين إيمانهم به واعترافهم بأنه الحق ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَاتَّخَذُوا مَكَانًا قَرِيبًا ۝٥١ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝٥٢ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝٥٣ وَجِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ۝٥٤ ﴾ (٢٤٣) .

لقد فات أوان الامتحان والاختبار ومضي وقت العمل وانقضى الأجل وجاء الحساب والجزاء . وفاز من صدق وآمن وعمل صالحا . وخسر من كذب وأعرض وكره ما جاء من الحق . وترى هؤلاء في حسرتهم ينشدون الشفعاء ويطلبون أن يعودوا ليحصلوا ما فرطوا فيه فلا يجابون إلا بتوبيخ وتقريع ﴿ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝٥٢ ﴾ .

ذاك هو الحق في انتصاره .

إن من تدبر العاقبة أيقن أن الحق لا يهزم أبداً وأن الباطل زاهق لا محالة . وترى الناس جميعا مؤمنين وكافرين يعلنون ولاءهم للحق وقد رأوا بأعينهم عاقبة ما أخبرهم به ودعاهم إليه أو حذرهم منه .

أما أهل الإيمان فإنهم يقولون ﴿ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَيْنَا بِالْحَقِّ ﴾ حمداً وشكراً . وأما أهل الكفر فيقولون ﴿ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَيْنَا بِالْحَقِّ ﴾ أسفاً وندماً على تفريطهم . وشتان ما بين قول هؤلاء وأولئك .

هؤلاء يقولونها أسفا وندما على التفريط في الإيمان بالحق وقد خسروا أنفسهم ، وأولئك يقولونها حمداً وشكراً وهم يدخلون رحمة ربهم وقد عملوا بما آمنوا به من قبل . لقد رأى الخلق جميعاً تأويل ما جاء به القرآن وتحقق الجزاء وفاز من فاز وخسر من خسر وحقَّ الحق وبطل الباطل .

والقرآن الكريم - وهو الحق - يرينا عاقبة هؤلاء وأولئك مَنْ صَدَقَ وآمن ومن كَذَبَ وأعرض ؛ ليختار الناس لأنفسهم على بينة سبيل النجاة ، أو سبيل الدمار والهلاك .

﴿ وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاصِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (٢٤٤) .

٣٧

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنته هذه الآيات من سورة الأعراف ﴿ وَاصْتَبْنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالِعَدَابِي أَصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢٤٥) .

لقد تضمنت هذه الآيات حديثاً عن القرآن من حيث وصفه وآثاره ونتائجه .

﴿ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فالإيمان بالقرآن والعمل بمقتضاه في اتباع لا ابتداء فيه تطلب

(٢٤٤) سورة الكهف : ٤٩ .

(٢٤٥) سورة الأعراف : ١٥٦ ، ١٥٧ .

به رحمة الله وترجى . ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٢٤٦).

وقد وعد الله - ووعدته الحق - أن يتغمد برحمته أولئك الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي أرسله الله رحمةً للعالمين ونزل عليه الفرقان ليكون للعالمين نذيرًا.

فالإيمان برسالته إيمانٌ برسُل الله جميعا وصفته ﷺ معلومة لأهل الكتاب، حملتها التوراة وحملها الإنجيل ﴿ يَحْدُوثُهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾. وهو رحمة الله للخلق جميعا . ولا تكتب الرحمة في الآخرة إلا لمن اتبعه وآمن به .

ومن كفر به - بعد بعثته - ليس له نصيب في رحمة الآخرة التي تعم المؤمنين من سائر الأمم ممن آمن برسُل الله من قبل وآمن به بعد بعثته بلا تفرقة بين رسول ورسول .

﴿ لا نفرق بين أحدٍ من رسله ﴾ .

وإعلام الخلق بذلك رحمةٌ بهم وإعذار.

وقد تضمنت الآيات في الحديث عن القرآن الذي أنزل على النبي الأمي تضمنت وصفه بـ «النور» ﴿وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ اتبعوا النور الذي أنزل معه أي القرآن وقد عبّر عنه بالنور المنبئ عن كونه ظاهراً بنفسه مظهراً لغيره . أي اتبعوا القرآن المنزل عليه مع اتباعه ﷺ بالعمل بسنته وبما أمر به أو نهى عنه . أو اتبعوا القرآن كما اتبعه هو ﷺ مصاحبين له في اتباعه .

وقد كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه ﷺ .

(٢٤٦) سورة الأنعام: ١٥٥ .

إنه النور. وبالنور تتميز الأشياء وتدرك المعالم ويهتدي الناس . والقرآن يهدي به الله إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ (٢٤٧).

ولا حياة بلا روح ولا سعي إلى الغاية بلا نور ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾ (٢٤٨) وهذا أمر الله لنبيه ونداؤه للخلق جميعاً أن يتبعوه وأن يهتدوا بهداه .

نداءُ أمر الرسول ﷺ بتبليغه - وقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة - ﴿قُلْ يَتَّيْبَهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَتَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ، وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (٢٤٩).

والذين آمنوا به واتبعوا النور الذي أنزل معه مطالبون في كل زمان ومكان أن يقدروا لهذا الأمر قدره . وأمة الإسلام مسئولة عما آمنت به وشرفت بالانتساب إليه . فإنها أمة أقام فيها التنزيل مقام الشمس في فلك السماء . أضاء جوانب الحياة كلها .

فعرفت به نفسها وفهمت رسالتها وخاض بها تجربة حياتها فعرفته سبيل عزّها ومجدها وطريق نصرها وفوزها . فأحيت به ليلها وطهرت سعيها فأحلت ما أحل وحرمت ما حرم .

(٢٤٧) سورة الشورى : ٥٢ ، ٥٣ .

(٢٤٨) سورة النور : ٤٠ .

(٢٤٩) سورة الأعراف : ١٥٨ .

وامتد ملكها بنوره وعرفت به بين الأمم .

وظل في مكانته وسيظل عزيزا ، لا يقترب من ساحة باطل ، أو يأتي إلى حرفٍ من حروفه عدوٌ غادر . قد يقصد أرضه أو يهزم أهله فينال منهم - إن هم فرطوا - ولا يستطيع أن ينال منه أو يقترب من حماه . ومن حفظه الله لا يضيّعه الناس .

المسلمون مطالبون في كل عصر أن يستمسكوا به فهو عزُّهم وشرفهم وأن يعتصموا به ولا يتفرقوا وأن يتبعوه وأن يبلغوه وأن يحذروا مخالفته أو الإعراض عنه فإنهم به ولن يكونوا بغيره ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تُسألون ﴾ .

٣٨

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿ (٢٥٠) .

والذين كذبوا بآياتنا ﴿ القرآن ﴾ سنستدرجهم : أي نقلهم درجة بعد أخرى من علو إلى أسفل أو من أسفل إلى علو .

ومعناه : نقلهم وتقريبهم إلى العقوبة بواسطة النعم التي اغترؤا بها .

نستدرجهم إلى الهلاك قليلا قليلا أي نُقَرِّبهم منه بامهالهم وإدراج النعم عليهم حتى يأت بهم وهم غافلون .

ولذا قيل : إذا رأيت الله أنعم على عبده وهو مقيم على معصيته فاعلم أنه مُسْتَدْرَج .

﴿ من حيث لا يعلمون ﴾ أي من حيث لا يعلمون أنه استدراج . فكلما جدّدوا معصية زيدوا نعمة ونسوا الشكر .

(٢٥٠) سورة الأعراف : ١٨٢ - ١٨٣ .

وذلك أن الله تعالى يفتح عليهم من النعم ما يُغبطون به ويركنون إليه ، ثم يأخذهم على غِرَّةٍ أغفل ما يكونون .

تلك عاقبة من كذب بالحق وجحد ما أنزل الله من كتاب .

والله وحده هو الذي يستدرج هؤلاء ويُملِي لهم .

الله الذي لم يخافوه وهم يُخالفون رسولَه ، ويحاربون من يهدون بالحق وبه يعدلون . هو وحده الذي يستدرجهم ويأخذهم ويُملِيهم ولا يُهمِلهم .

الله الذي ينسون قوته ويذكرون قوتهم ، يملِي لهم في العصيان والطغيان استدراجاً لهم في طريق الهلكة ، وإمعاناً في الكيد لهم والتدبير . ومن الذي يكيدهم ؟ إنه الجبار ذو القوة المتين . ولكنهم غافلون .

والعاقبة للمتقين الذين يهدون بالحق وبه يعدلون .

﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبْ هَذَا الْحَدِيثَ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ
إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٢٥١﴾ .

إن الله - سبحانه - يحذرهم نفسه ليدركوا أنفسهم قبل فوات الأوان . وليعلموا أن الأمان الظاهر الذي يدعه لهم هو استدراجٌ إلى أسوأ مصير . وأنه تدبير من الله ليحملوا أوزارهم كاملة ويأتوا إلى الموقف الرهيب مُثْقَلِينَ بالذنوب .

ولو تدبَّرَ الإنسان ذلك في دنياه - وهو في سعة من أمره - لم يُشْغَلْ بالرغائب عن العواقب ولم يُفْتَنَ بالزينة عن القيمة .

إن كشف الاستدراج والتدبير عَدْلٌ من الله ورحمة .

والله - سبحانه - يقدِّم لأعدائه المكذبين بآياته عدله ورحمته في هذا التحذير وذلك التدبير . وهم وما يختارون لأنفسهم .

(٢٥٠) سورة القلم : ٤٤ - ٤٥ .

إنه - سبحانه - يُمهّل ولا يُهمّل ، ويُملّي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ،
 وذلك ما وقع للمكذّبين بالحق من قبل ، وما جرى للمستهزئين بالرسول .
 ﴿ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثَمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۚ ﴾ (٢٥٢) .

فترك أهل الباطل فترة ليس نسياناً لهم أو غفلة عنهم .

والإملاء للظالمين ليس تكريماً لهم - كما يظنون - أو إهانةً لغيرهم - كما يتوهمون - وإنما هو الاستدراج إلى العذاب من حيث لا يشعرون .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ۚ ﴾ (٢٥٣) ومن يتدبر القرآن يرى ما وقع من قبل مع أقوام وأقوام . ويرى ما يقع مع أمثالهم في كل زمان ومكان ﴿ وما كان الله ليزلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۚ ﴾ (٢٥٤) .

والأرض قد سُكنت من بعد هؤلاء وأولئك ، وبقيت آثارهم خاوية خالية تدل عليهم ، وتسوق العبرة لمن بعدهم .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٢٥٥) .

(٢٥٢) سورة الرعد : ٣٢ .

(٢٥٣) سورة إبراهيم : ٤٢ .

(٢٥٤) سورة الحج : ٤٢ - ٤٤ .

(٢٥٥) سورة غافر : ٨٢ .

وكم في الأرض من عبر وعظات . وكم فيها من دور قد خلت ، وأقوام قد ذهبت ، وقرى ظالمة قد أخذت ودمرت ، فما بكت عليهم السماء والأرض . ولا رُئِيَ منهم بعد هلاكهم حراك ، ولا سُمِعَ لهم صوت ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ (٩٨) (٢٥٦) .
 فطوبى لمن اعتبر . وهدى بالحق وبه عدل .

٣٩

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَإِيرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٠٣) (٢٥٧) .

لقد كان المشركون لا يكفون عن طلب الخوارق من رسول الله ﷺ جاهلين حقيقة الرسالة وطبيعة الرسول ، وأنه يتلقى من الله ما يعطيه ، ولا يقدم بين يدي الله ، ولا يقترح عليه ، ولا يأتي بشيء من عند نفسه .

ولكن أهل الشرك — في عمى وجهالة — يطلبون الآيات وما هم بمؤمنين بها ولو جاءتهم كل آية . ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (١٧) (٢٥٨) . ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ﴾ مما اقترحوا قالوا: هلاً أنشأتها من قبل نفسك . ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ وليس لي أن آتي من عند نفسي بشيء .

إنهم لم يقترحوا الآيات ويطلبوها رغبة في الإيمان ، وإنما طلبوها إمعانا في الجحود والنكران .

ولو كان الأمر أمر إيمان لكفاهم القرآن .

(٢٥٦) سورة مريم : ٩٨ .

(٢٥٧) سورة الأعراف : ٢٠٣ .

(٢٥٨) سورة يونس : ٩٦ - ٩٧ .

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٥٩) إن هؤلاء لن يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴿وَلَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمُنَقَّ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِلْيُؤْمِنِ إِلَّا أُنَاسًا يَشَاءُ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ (٢٦٠) ﴿وَلَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (٢٦١) وقد أمر الرسول ﷺ أن يجيبهم بقوله ﴿قُلْ إِنَّمَا آتَيْتُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ ليعرفوا حقيقة الرسالة والرسول وأنه مبلغ عن ربه، لا يملك إلا ما يوحى إليه، ولا يأتي إلا بما أمره الله به.

كذلك أمر الرسول ﷺ أن يقول لهم وهو يشير إلى القرآن الكريم ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿فَآيَاتِ اللَّهِ يَطْلُبُونَ وَأَمَامَهُمْ هَٰذَا الَّذِي يَغْفُلُونَ عَنْهُ﴾ ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.

إن الخوارق المادية لا تصلح إلا لمن رآها أو عاش في عصرها.

والقرآن الكريم هو كتاب - من عند الله - للزمن كله وللأجيال كلها.

إنه كتاب الدعوة الإسلامية للناس جميعاً في كل زمان ومكان.

وأية خارقة مادية لا تبلغ من الإعجاز ما يبلغه القرآن في أي زمان وفي أي مكان. ولكن الجاحدين - في ظلمهم لأنفسهم - يأبون أن يخضعوا لما تستيقنه نفوسهم ظلماً وعلواً. ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَنْبِئُ بِشَرٍّ مِنْ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدِلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٥) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٦) (٢٦٢).

(٢٥٩) سورة العنكبوت : ٥١.

(٢٦٠) سورة الأنعام : ١١١.

(٢٦١) سورة الأنعام : ٧.

(٢٦٢) سورة يونس : ١٥ - ١٦.

إن الذين طلبوا الآيات لم يطلبوها لخفاء الأدلة والحجج على صدق الداعي وما نزل من الحق . وإنما طلبوها إمعانا في المكابرة والجحود .

والنفوس إذا جحدت والبصائر إذا عميت لم تسمع ولم تبصر هدى الحق وبيانه ﴿مَدَنَلَمْ إِنَّهُ لِحَزْنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّأَتِ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ (٢٦٣) والقرآن هو القرآن للمؤمنين هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى . ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْءَانٌ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (٢٦٤) إنه القرآن ، يقول عنه العليم الخبير ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إنه بصائر تكشف وتنير ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها . فطوبى لمن اتبع هداه واستمسك به ، وويل لمن تعمد مخالفته أو الإعراض عنه . اللهم ارحمنا بالقرآن واجعله لنا إماما ونورا وهدى ورحمة .

٤٠

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٢٦٥) . وقد جاءت هذه الآية بعد قوله ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ والمناسبة بيّنة واضحة . لما ذكر - سبحانه - أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة ، أمر - سبحانه - بالإنصات عند تلاوته ؛ إعظاماً له واحتراماً ، لا كما كان يتعمده المشركون من كفار مكة في قولهم ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوَا فِيهِ﴾ .

ولكن يتأكد ذلك في الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة . كما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال : قال

(٢٦٣) سورة الأنعام : ٣٣ .

(٢٦٤) سورة فصلت : ٤٤ .

(٢٦٥) سورة الأعراف : ٢٠٤ .

رسول الله ﷺ: «إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا كَبَّرَ فكَبِّروا، وإذا قرأ فأنصتوا». وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة - رضي الله عنه - «أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاةٍ جهر فيها بالقراءة فقال: هل قرأ أحدٌ منكم معي أنفاً؟ قال رجل: نعم يا رسول الله قال: إني أقول ما لى أنازع القرآن. قال: فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه بالقراءة من الصلاة حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ».

وقد اختلف العلماء في الحال التى أمر الله بالاستماع لقارئ القرآن والإنصات له.

لأن قوله سبحانه ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ أمر. وظاهر الأمر الوجوب فمقتضاه أن يكون الاستماع والسكوت واجبين.

فمن العلماء من يرى أن فحوى هذه الآية على العموم، ففي أي وقت وفي أي موضع قرئ القرآن يجب على كل أحد الاستماع له والسكوت.

ومنهم من يرى أنها نزلت في تحريم الكلام في الصلاة، فقد روي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنهم كانوا يتكلمون في الصلاة بحوائجهم فأمروا بالسكوت والاستماع لقراءة القرآن.

والأخذ بعموم اللفظ في قوله ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ أولى من قصره على حال دون حال. وإن تأكد ووجب في الصلاة فإن ذلك أرجى في طلب الرحمة. روى الإمام أحمد عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة. ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة».

إن تدبر القرآن يستلزم حُسن الإصغاء له والعمل به.

وقد أنزل الله القرآن وحَفِظَهُ لِيَتَذَكَّرَ بِهِ.

فمن الواجب أن تسلم مجالس القرآن من الصخب أو الاشتغال بغيره، وأن ينقاد الناس لأوامر القرآن ونواهيه، وأن يتلقوه كما تلقاه الصحابة الكرام - رضي

الله عنهم — وأن يحققوا ما دلت عليه الآيات من الإيمان والعلم والعمل ، وأن يتخلقوا بأخلاقه وآدابه ، فإنه خطاب من الله موجّه إلى الناس ، وهم مطالبون بتدبره ومعرفة معانيه والعمل بما جاء فيه .

فليستمعوا له وليُنصِتُوا عند قراءته ؛ رجاء أن ينالوا رضوان الله ورحمته . إنه الحق ، وبيان الحق للناس رحمة بهم ؛ حتى لا تقودهم الأهواء بعيداً عن ساحته . وبالقرآن وبيان يعرف ما ينتسب للحق وما يخالفه . إنه هدى للناس في دنياهم ، ونورٌ في آخرهم ، وهو حجة لهم أو عليهم . حجة لهم إن هم أقبلوا عليه وعملوا به . وحجة عليهم إن هم أعرضوا عنه ولم يتبعوا هداه . وبه يرفع الله أقواماً ويضع آخرين .

٤١

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الأنفال ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (٢٦٦) .

ففي الآية بيان لتأثير القرآن في قلوب الناس وسلوكهم .

فإن قلوب المؤمنين تستقبل القرآن ، كما تستقبل الأرض الطيبة ما ينزل عليها من الغيث ، فتتهز وتربو وتنبت وتثمر .

إن للقرآن تأثيره في النفوس وهو يوجهها ويهديها إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، وترى أثر ذلك في حسن الاستجابة لله وللرسول ، وفي الرضا عن الله في جميع الأحوال ، وفي حسن التوكل على الله والاستعانة به سبحانه ، وفي الأخذ بالأسباب دون ركون إليها .

(٢٦٦) سورة الأنفال : ٢ .

إن القرآن الكريم يتعهد قلوب المؤمنين ويبيّضها بما يجب أن يكون، فتتشط النفس لعمل البر وفعل الخير. وتسعى في الأرض واثقة مطمئنة بذكر الله، معتدلة في السراء والضراء، لا تأسى على ما فات، ولا تفرح بما أوتيت، بل تصبر في الضراء، وتشكر في السراء، وتعلم أن ما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فلا يطغى المؤمن بعطاء ولا يقنط بمصابٍ أو بلاء.

وتُرى زيادة الإيمان مع تلاوة القرآن في طيب النفس وسرورها بعمل الخير، وانسراحها بتوفيقها للتعاون على البر، والكف عن الشر «وإذا سرتك حسنتك وساءتك سيئتك فأنت مؤمن».

إن القرآن الكريم قد حول نفوسا من حال إلى حال، ووجه طاقات المؤمنين إلى التسابق على البر، والتنافس على الخير، وقد فازوا وأفلحوا حين اعتصموا به ولم يتفرقوا، واستمعوا إليه وعاشوه قولاً وعملاً، فأناروا به قلوبهم، وأحيوا به ليلهم، وواجهوا به عدوهم مستمسكين به متخلقين.

كانوا كما وصفهم سعد بن أبي وقاص لعمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - وهو يقود المجاهدين في أشد المعارك وأقساها، يقول وهو يصف حالهم: «كانوا يُدَوُّون بالقرآن إذا جنَّ الليل كَدَوِيَّ النحل لا يفضل من ذهب منهم من بقي إلا بفضل الشهادة».

هكذا كأن القرآن في حياتهم يقيمون حدوده، ويتبعون هدايته وينشدون غايته في إعلاء كلمة الله وابتغاء مرضاته، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا، بل صبروا وصابروا، فأفلحوا في دنياهم، وسعدوا ببقاء الله في آخرهم ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ (٢٦٧).

(٢٦٧) سورة الأنفال : ٢ - ٤.

تلك صفات المؤمنين حقا وهذا جزاؤهم ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يزيدهم ما يتلى عليهم من آيات الله إيمانا مع إيمانهم .
﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٢٦٨).

والقرآن هو القرآن، تستقبله نفوس آمنت بربها وأخلصت له، كما تستقبل الأرض الطيبة ما يصيبها من غيث فتثمر خيرا وبراً. وتأباه نفوس فيزيدها رجسا إلى رجسها ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٢٦٩).

إن الإيمان الصادق يتجاوب مع آيات الله، ويُفيد بما فيها من تبصرة وذكرى .

أما أهل الكفر والنفاق - وهم لا يستعملون حواسهم إلا لجلب منفعة أو طلب متاع - فإنهم يولون مستكبرين إذا تليت عليهم آيات الله. ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بَعْدَ آيِ الْإِيمَانِ﴾ (٢٧٠).

ولا يرون في آيات الله في الآفاق - والقرآن يخاطبهم بها - لا يرون فيها ما خُلِقَتْ له وما دلت عليه من دعوة إلى الحق وإيمان به وإفادة بالتبصرة والذكرى . ولا تتجه حواسهم إلا إلى ما تتجه إليه حواس الأنعام من شهوة ومتاع .

وأولئك إن سمعوا القرآن لا يسمعون سماع تدبر وخشية . وهم إن قالوا سمعنا فهم لا يسمعون . وقد نهى الله المؤمنين أن يكونوا مثلهم ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (٢٧١).

(٢٦٨) سورة التوبة : ١٢٤ - ١٢٥ .

(٢٦٩) سورة الإسراء : ٨٢ .

(٢٧٠) سورة لقمان : ٧ .

(٢٧١) سورة الأنفال : ٢١ .

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَآلَ النَّمْلِ ۖ إِنَّهُمْ أَصْلٌ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (٢٧٢).

إن الآيات المنزلّة تتسق مع آيات الله في الآفاق وفي الأنفس في مخاطبة الإنسان وتبصرته، ولكنّ من الناس ناسًا يَعْقِلُونَ عما جُعِلَت الآيات له، وأنزلت من أجله، ولا يرون إلّا أن يكونوا شركاء للأنعام في متاع ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسْتَمِعُونَ وَآيَا كَلَامًا كُلَّ الْأَنْعَامِ وَالنَّارُ مَشْوَىٰ لَهُمْ﴾ (٢٧٣).

٤٢

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة يونس ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (٢٧٤) والإشارة بقوله ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ إلى الآيات المذكورة في سورة يونس، فهي آيات من الكتاب الحكيم وهو القرآن.

والحكيم : المنظوم نَظْمًا مُتَقَنًّا لا يعتريه خلل من أي وجه من الوجوه. والمحكم معناه الممتنع من الفساد فيكون المعنى لا تُغَيِّرُهُ الدهور والمراد براءته من الكذب والتناقض.

وهو حاكم على شئون الخلق. فهو حكيمٌ في ذاته حاكم على غيره. ومن تدبر عِلْمَ وأيقن.

وفي السورة حديث عن آيات الله في الآفاق وفي الأنفس. في السماء وفي الأرض وفي الشمس والقمر والليل والنهار، وفي قصص الرسل ومصارع المكذبين بدعوتهم. آيات وآيات من وحي الله تدل بنورها على آياته في الآفاق وفي الأنفس وتتسق معها في مخاطبة الإنسان وتبصرته.

وأي حكمة أجل وأعظم من ذلك في مخاطبة البشر بما يناسب طبائعهم ويتصل بهم؟ ﴿إِنْ رَجَعْتُ إِلَى اللَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ

(٢٧٢) سورة الأعراف : ١٧٩.

(٢٧٣) سورة محمد : ١٢.

(٢٧٤) سورة يونس : ١.

عَلَى الْعَرْشِ يَدْبِرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ
 أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧٥﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ سَدَّ وَهُوَ الْخَلْقُ ثُمَّ يُعِيدُهُ
 لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ
 وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٢٧٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا
 وَقَدَّرَ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ
 يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٧٧﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسِرُّ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٧٨﴾. إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَعَلَ
 الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ . مَا
 خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا لِحِكْمَةٍ وَلِفَائِدَةٍ عَظِيمَةٍ ﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ فَلَمْ
 يَخْلُقْ ذَلِكَ عَبَثًا وَلَا بَاطِلًا . وَإِنَّمَا خَلَقَهُ مُتَلَبِّسًا بِالْحَقِّ وَالْحِكْمَةِ .

ولا يكون ذلك إلا بتقرير البعث والجزاء .

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ
 حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ﴿٢٧٦﴾ .

وإذا كنا نرى الشمس - وقد جعلها الله ضياءً - نَعْمُ الخلق جميعًا ، وتُسَخَّرُ
 لهم جميعًا ، ولهم فيها من المنافع ما فيها - فإن دلالتها في إحكام شروقها
 وغروبها أبعد مدى من أن تكون لمنفعة عاجلة .

إنها تُشْرِقُ عليهم مذكرةً ومبصرةً وتغيب عنهم فلا تغيبُ عبرتها وعظمتها ، بل
 نراها في جميع أحوالها ، تنطق بالحق وتدعو إليه وتبصر به ، وهي آية من آيات
 الله تدل على قدرته وحكمته وفضله ورحمته .

وكذلك القمر جعله الله نورًا وقَدَّرَ منازل لتعلموا عدد السنين والحساب .
 وفيه من الفوائد والمنافع ما لا تخفى دلالتُه ولا تغيب حكمته .

(٢٧٥) سورة يونس : ٣-٦ .

(٢٧٦) سورة يونس : ٤ .

﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ فلم يخلقه عبثاً ، وإنما خلقه لحكمة ومصلحة . وهو آية من آيات الله ، تدل على قدرته وحكمته وفضله ورحمته .

آيات مسخرة تُقدِّمُ النفع للناس وتدعوهم إلى عبادة مَنْ خلقها وسخرها ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (٢٧٧) .

إن هذه الحكمة البالغة في تسخير الشمس والقمر وخضوعهما لأمر الله في غير تخلف أو سبق لها من الدلالة ما لا يخفى على ذي علم وإيمان . ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (٢٨) وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٢٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (٢٧٨) .

كل ذلك بالحق ومن أجل الحق خلقا ودلالة وحكمة وغاية .

ومن رأى ذلك عبثاً وباطلاً أو رآه مصادفةً بلا تدبير ولا تقدير لقي من الجزاء الحق ما يدين به للحق . ﴿ يَوْمَ يَذْرِوُنَهُمْ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ (٢٧٩) .

أخي المسلم : رأيت كيف تتسق آيات الله المنزلة مع آيات الله في الآفاق وفي الأنفس في مخاطبة الإنسان بلا تناقض أو اختلاف ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ .

٤٣

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة يونس ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَأَنْتَ بِفِرْعَوْنٍ غَيْرِ

(٢٧٧) سورة فصلت : ٣٧ .

(٢٧٨) سورة يس : ٣٨ - ٤٠ .

(٢٧٩) سورة النور : ٢٥ .

هَذَا أَوْ بَدَلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ
إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٨٠﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ
وَلَا أَدْرَبْتُكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٢٨١﴾ فَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
الْمُجْرِمُونَ ﴿٢٨٢﴾ ﴿٢٨٣﴾ إِنْ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ وَحْيٍ مِنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

والرسول ﷺ مُتَّبِعٌ مُتَّبَعٌ . قد أمر أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه دون حرج من
صدّ المكذبين أو كيدهم .

﴿تَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ
يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ﴿٢٨١﴾ ﴿كُتِبَ أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ
لِنَذِيرِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٨٢﴾ .

إنه الحق . والحق لا يتبع أهواء الناس . والذين لا يرجون لقاء الله يتبعون
أهواءهم . واتباع الهوى - بغير هدى من الله - مُضِلٌّ مُفْسِدٌ يقود صاحبه إلى
سوء المصير ويبعده عن العدل في القول واتباع الصراط المستقيم .

﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ
يَغْيِرْ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٢٨٣﴾ .

إن من ينشد الحق ويتدبر القرآن لا يخطر له أن يطلب سواه .

أما الذين تأسروهم أهواؤهم فيتبعون الباطل ولا يرجون لقاء ربهم . فإن
قلوبهم تشمئز من ذكر الله - وهذا شأن كل كفور جحود وأفاك أئيم .

﴿وَإِذَا تَلَّ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ نَا أَتَتْ
بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ﴾ .

(٢٨٠) سورة يونس : ١٥ - ١٧ .

(٢٨١) سورة المائدة : ٦٧ .

(٢٨٢) سورة الأعراف : ٢ .

(٢٨٣) سورة القصص : ٥٠ .

سبحان الله ، أي شيء يريدون؟ وبأي شيء يؤمنون؟!

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٦) وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتُ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةٌ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢٨٤).

لقد قال الكفار لمن يتلو عليهم القرآن وهو الرسول ﷺ: «أنت بقرآن غير هذا أو بدله» قالوا ذلك لما سمعوا ما غاظهم فيما تلاه عليهم من القرآن من ذم عبادة الأوثان والوعد الشديد لمن عبدها.

وقد أمر الرسول ﷺ أن يقول في جوابهم ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي﴾ أي ما ينبغي لي ولا يحل ﴿أَنْ أَبَدِلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي﴾.

ثم أمره أن يؤكد ما أجاب به عليهم بقوله ﴿إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَى﴾ من عند الله - سبحانه - من غير تبديل ولا تحويل ولا تحريف.

ثم أمره سبحانه أن يقول لهم تكميلاً للجواب عليهم ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْهِمْ وَلَا أَذْرَبْتُمْ بِهِ. فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ إن كفار مكة قد شاهدوا رسول الله قبل مبعثه ، وعلموا أحواله وأنه كان أمياً لم يطالع كتاباً ولا تعلم من أحد مدة عمره قبل الوحي ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي زماناً طويلاً من قبل إنزال القرآن ، وهم يعرفونه بالأمانة والصدق .

فكل من له عقل سليم وفهم ثاقب يعلم أن هذا القرآن من عند الله ، أوحاه الله إلى نبيه ولم يأت به من عنده نفسه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

أي لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً أو ممن كذب بآياته بعد بيانها .
فإن ذلك أعظم جرماً على الله وأكثر استشرافاً إلى عذابه ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْقَلِحْ
الْمُجْرِمُونَ﴾ أي لا يظفرون ببيعتهم ولا يفلحون .

وفي الآية ما فيها من ردع وزجر لأولئك المكذبين الذين يكذبون بآيات الله
ويتبعون أهواءهم حيث كانوا .

والإخبار بما يصير إليه هؤلاء له فائدته في الدعوة إلى التمسك بالحق
بمعرفة و يقين ، والتحذير من اتباع سُبُل هؤلاء في اتباع الظن والقول بغير علم
وقد جاءهم من ربهم الهدى .

فمن الناس من اهتدى بهدى الله ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآثَرَهُمْ
تَقْوَاهُمْ﴾ (٢٨٥) ومنهم من جاءهم هدى الله فاستحبوا العمى على الهدى
فأخذوا بما كانوا يكسبون .

وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

٤٤

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في سورة يونس من قوله تعالى ﴿وَمَا
كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ
الْكِتَابِ لَارِيبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٧) ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ
وَأَدْعُوا مَنْ أَسْتَفْعَتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٨) ﴿زَعَمَ أَهْلُ الْكُفْرِ
وَالْجُحُودِ أَنَّ مُحَمَّدًا ٱلرَّسُولُ أَتَىٰ بِهِذَا الْقُرْآنُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ عَلَىٰ سَبِيلِ الْاِفْتِعَالِ
وَالْاِخْتِلَاقِ . فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَىٰ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ وَحْيٌ أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنَّهُ مَبْرَأٌ عَنِ
الْاِفْتِرَاءِ وَالْكَذِبِ ، وَأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ . ثُمَّ ذَكَرَ مَا يُوَكِّدُ
ذَلِكَ بِقَوْلِهِ ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَارِيبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾ .

(٢٨٥) سورة محمد : ١٧ .

(٢٨٦) سورة يونس : ٣٧ - ٣٨ .

وفي قوله ﴿تصديق الذي بين يديه﴾ من الكتب المنزلة على الأنبياء برهاناً على نقي جواز الافتراء .

فما كان من شأنه أصلاً أن يُفترى والنبى ﷺ الذي نسبوا إليه أنه جاء به من عند نفسه لم يطلع على الكتب المنزلة من قبل ولم يتعلم ما جاء فيها ولا سأل عنه ، ولا اتصل بمن كان له علم به ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِمِثْنِكَ إِذَا لَا رَتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ . فتصديق القرآن للكتب المنزلة قبله وهيمته عليها معجزة مستقلة تحدّد مَصْدَرَهُ وأنه لا ريب فيه من رب العالمين .

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَبْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ أي إن كان الأمر كما تزعمون من أن محمداً افتراه فأتوا أنتم على جهة الافتراء بسورة مثله وأنتم على معرفة بلغة العرب وفصاحة الألسن وبلاغة الكلام ، وادعوا من استطعتم دعاءه والاستعانة به . ادعو من سوى الله من خلقه من شئتم إن كنتم صادقين في دعواكم أن هذا القرآن مفترى من دون الله .

فإنهم لما نسبوا الافتراء إلى واحدٍ منهم في البشرية والعربية قال لهم : هذا الذي نسبتموه إلى وأنا واحدٌ منكم ليس عليكم إلا أن تأتوا وأنتم الجمع بسورة مماثلة لسورة من سوره . واستعينوا بمن شئتم من أهل العربية على كثرتهم أو من غيرهم من الإنس أو من الجن ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ وأمنوا بما نزل من الحق .

إن هذا القرآن منزل من عند الله هداية للناس ونذيراً للعالمين .

ومن تدبر أيقن يقينا لا شك فيه أن الجن والإنس لو اجتمعت على أن تأتي بمثله ما استطاعت أن تأتي بمثله في نظمه أو فيما اشتمل عليه من أخبار الغيب وما سيحدث من الأمور المستقبلية قبل وقوعها فإن ذلك لا يكون إلا من العليم الخبير الذي أحاط بكل شيء علماً ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٢٨٧) .

(٢٨٧) سورة النساء : ٨٢ .

إن المسارعة إلى تكذيب القرآن - وهو الحق من ربهم - قبل تدبره والعلم بما جاء به سفةٌ يُودي بصاحبه إلى سوء العاقبة والمصير ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٨٨).

ومع كثرة العاملين على محاربته وإبادة أهله تراه يفرض سلطانه بالحجة والبينة ويُنلّي على العالمين في عزّة وثقة دون أن يقترب من ساحته باطل، أو يأتي على حرف من حروفه حاقد غادر. ولن تستطيع قوة مهما بلغت أن تقترب من حصنه، أو تنال من عزّته؛ ذلك لأن الله قد حفظه؛ ومن حفظه الله لا يضيعه الناس.

وسيطل بإعجازه يصدع بالحق وينطق بالصدق ينذر ويبشر ويهدي للتي هي أقوم، سيطل يوجه ندائه للقلوب لتخشع وإلى من شغل عنه ليعود إلى حماه ويتبع صراطه المستقيم ﴿صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ (٢٨٩).

٤٥

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة يونس ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧) قُلْ يُفَضِّلُ اللَّهُ وَرَحْمَتَهُ فِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٢٩٠).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ نداء عام للناس جميعا وخطابٌ لهم.

(٢٨٨) سورة يونس : ٣٩ .

(٢٨٩) سورة الشورى : ٥٣ .

(٢٩٠) سورة يونس : ٥٧ - ٥٨ .

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ والموعظة : القرآن الكريم . وتلك صفته وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويعدُّ ويوعِد .

وقوله ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ له دلالة في حث الناس على حسن الاستجابة والقبول .

﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ لم يأت بها محمد ﷺ من عند نفسه بل هي موعظة من ربكم الذي خلقكم ورباكم بنعمه ووسعكم برحمته .

﴿وَشَفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ شفاء من الجهل والغفلة والعتو عن النظر في آيات الله مما يباعد الإنسان عن الإيمان واليقين .

والقرآن الكريم قد جعله الله موعظة للناس جميعا، وهو كذلك في ذاته وفيما يدعو إليه . وجعله هدى ورحمة للمؤمنين ؛ لأنهم المتبعون له ، المتفعون بهدايته .

﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شَفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٢٩١) . فهو حجة ورحمة لمن اتبعه وآمن به .

وهو حجة وخسار على من كذب به وأعرض عنه .

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (٢٩٢) .

إن الناس في دنياهم قد يخطئون ويسئون فيما يختارونه لأنفسهم ، ويرونه خيرا . قد يؤخذون بزينة الحياة الدنيا وحطامها وينسون ما هم مقبلون عليه وصائرون إليه .

(٢٩١) سورة الإسراء : ٨٢ .

(٢٩٢) سورة النساء : ١١٥ .

والقرآن الكريم هو الموعظة من ربكم يحدد للناس قيم الأشياء ويدعوهم إلى ما هو خير وأبقى. ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَرْوَجُ مُطَهَّرَةً وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ الصَّكِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِيتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ (٢٩٣). هكذا يعظ القرآن الناس ويبين لهم ما هو خير وأبقى. هو لا يحرمهم من دنياهم، ولا يحرم عليهم زينتها.

وإنما يُعرفهم حقيقتها ويبصرهم بعاقبتها ليتحقق الاعتدال والتوازن في سلوك الإنسان فلا يؤخذ بالزينة وينسى القيمة ولا يركن إلى العاجلة ويذر الآخرة، بل يبتغي فيما آتاه الله الدار الآخرة ولا ينسى نصيبه من الدنيا.

وهذا الاعتدال والتوازن هو السبيل لأمن الدنيا وسلامها وتحقيق المودة والتعاون فيها على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

ومن فقد التوازن في نفسه أساء وأفسد وضلّ وأضل.

ومن آثر الحياة الدنيا طغى وابتغى التكاثر دون حدود أو ضوابط.

ومن خاف مقام ربه كف شره عن غيره وقدم خيره.

وجاءت العاقبة تكريماً لمن أحسن وجزاء وفاقاً لمن أساء.

﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾﴾ (٢٩٤).

(٢٩٣) سورة آل عمران : ١٤ - ١٧ .

(٢٩٤) سورة النازعات : ٣٧ - ٤١ .

ومن تدبر ما أمر بتدبره أيقن أن الخير في العاقبة فعمل لها واستمسك بأسبابها .

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٢٩٥).

أي بهذا القرآن الذي جاءهم بالهدى ودين الحق فليفرحوا فإنه أولى ما يفرحون به ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الزاهية .

لما قدم خراج العراق إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج عمر ومولى له ، فجعل عمر يعدّ الإبل فإذا هي أكثر من ذلك .
فجعل عمر يقول : الحمد لله .

ويقول مولاه : هذا والله من فضل الله ورحمته .

فقال عمر له : كذبت . ليس هذا .

هو الذي يقول الله تعالى ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ ... الآية ﴾ وهذا مما يجمعون .

يبين له عمر دلالة الآية وأنها تعني ما جاء من الهدى ودين الحق لا ما يكون في أيدي الناس من متاع فذلك مما يجمعون .

ذاك فقه الصحابة في النظر إلى الأشياء وتحديد قيمتها . لقد أنار القرآن حياتهم وجعلهم يؤثرون ما يبقى على ما يفنى ، فاختاروا ما رضى الله لهم . رضى الله عنهم ورضوا عنه .

٤٦

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة يونس ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (٢٩٦).

(٢٩٥) سورة يونس : ٥٨ .

(٢٩٦) سورة يونس : ٦١ .

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ الخطاب للرسول ﷺ والمراد هو وغيره .

﴿في شأن﴾ من جميع الشئون . والشأن : الأمر بمعنى القصد . والمراد وصف إحاطة علم الله تعالى بكل شيء .

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ وفي الآية مؤانسة لأهل الحق الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم ، وفيها تحذير لأهل الباطل أن لا شيء من أمرهم صغر أو كبر يخفى على الله . فهم مأخوذون بذنوبهم ومأخوذون على أعمالهم . ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ وتُفِيضُونَ : تنهضون بجد . يقال أفاض الرجل في سيره وفي حديثه : إذا اندفع فيه ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ يعزب : معناه : يغيب حتى يخفى .

حتى قالوا للبعيد : عازب . وقيل للغائب عن أهله : عازب .
حتى قالوه لمن لا زوجة له .

لا يغيب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين .

وللآية دلالتها وفائدتها في استقامة النفس وصدق إخلاصها لله وخشيتها منه ، ولها أثرها في تربية الإنسان ، وهو يخشى الله ويرجو اليوم الآخر . ويوقن أن الله قد أحاط بكل شيء علما . فما غاب عن أعين الناس لا يخفى على علم الله .

إن العبد إذا استحضر ذلك في نفسه اتقى ربه حيث كان ، وآثر رضاه ورغب فيما عنده وأحسن عمله ابتغاء وجهه وقدم خيره وكف شره عن غيره .

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُتَّقُونَ﴾ (٥٧) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَأْتِيَتْ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٨) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَرِيهِمْ لَا يَشْرِكُونَ﴾ (٥٩) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَاَوْ قُلُوبَهُمْ وَجَلَّةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (٦٠) ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَاقُونَ﴾ (٦١) (٢٩٧).

(٢٩٧) سورة المؤمنون : ٥٧ - ٦١ .

أخي المسلم: تدبر هذه الآية واستحضر مقاصدها ودلالاتها واجعل جميع أمرك طاعة لربك ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ الآية. لقد عمّت هذه الآية وخصّت. خصّت القرآن الكريم بالذكر مع أنه داخل فيما عمّت؛ للتنبيه على عظم شأنه، وأنه السبيل لصلاح كل أمرٍ وهو يهدي للتي هي أقوم. وأن الملائكة تحف أولئك المجتمعين على تلاوته ومدارسته، والله سبحانه يذكّرهم فيمن عنده. «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده».

هكذا شأن القرآن الذي خصّته الآية بالذكر تنزل السكينة له، وتحضره الملائكة ويذكر أهله في الملاء الأعلى، ويأتي يوم القيامة شفيحاً لأصحابه. «يؤتى بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا، تقدّمه سورة البقرة وآل عمران تحاجان عن صاحبهما».

فاعمل به أخي المسلم في كل شأن من شئونك. واجعله ميزان قصدك وعملك لتقوم بالقسط كما أمر ربك. إن الله قد أنزل القرآن وحفظه ليُتدبر وليُعمل به. فمن اتبعه قاده إلى الجنة، ومن أعرض عنه شقي في دنياه وخسر في آخره. إنه فضل الله ورحمته فلا تُشغل عنه بما تجمع من حطام دنياك وزينة حياتك، فإنه معك في دنياك وآخرتك. لا يتخلى عنك في ساعة موتك وانفرادك بعملك. إنه وفي لا يتخلى عن صاحبه في دنياه وعمل به. كل حرف فيه تقرأه أو تستمع إليه تلقاه هناك حسنات مضاعفات في كل حرف عشر حسنات، والله يضاعف لمن يشاء والله ذو الفضل العظيم.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة يونس ﴿قُلْ يَتَايَأُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (١٠٨) وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (١٠٩) (٢٩٨).

﴿قُلْ يَتَايَأُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ نداء وخطاب للناس كافة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، والحق المراد هنا هو القرآن الذي نزل الله على عبده ورسوله محمد ﷺ ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ أي اتبع الحق واستمسك به فإنما يهتدي لنفسه؛ لأنه يطلب لها رحمة الله التي وعد الله بها من اتبع هداه ويدفع عنها عذابه. ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ أي حاد عن الطريق المستقيم وأعرض عن هذا الذكر فإنما يضل على نفسه. وقد أمر الرسول ﷺ أن يُخَبِّرَ النَّاسَ أَنَّ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَرِيَّةَ فِيهِ، فَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهِ وَاتَّبَعَهُ فَإِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُ ذَلِكَ الْإِتِّبَاعَ عَلَىٰ نَفْسِهِ.

ومن ضل عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه. ﴿هُوَ مَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي وما أنا موكل عليكم حتى تكونوا مؤمنين وإنما أنا نذير مبين، أبلغكم ما أرسلت به وأمرت بتبليغه.

ثم أمره سبحانه أن يتبع ما أوحاه إليه من الأوامر والنواهي التي يشرعها له ولأمته. وأمره بالصبر على أذى الكفار، وما يلاقيه من مشاق التبليغ وما يعانيه من الصد والكيد من أعداء الله. وجعل هذا الصبر ممتداً إلى غاية ﴿وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (١٠٩) أي يحكم الله بينه وبينهم في الدنيا بالنصر له عليهم وفي الآخرة بعذابهم. وهذا وعد من الله لنبيه.

وقد صبر النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين حتى تحقق وعد الله بنصر الحق وإزهاق الباطل وحكم الله بما قدره وقضاه .

وفي مخاطبة الرسول ﷺ وأمره بذلك توجيهٌ لدعاة الحق حيث كانوا أن يقتدوا وأن يُحسنوا الاتباع وأن يصبروا على ما يلاقونه صادقين محتسبين حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .

فإن حكمته قد اقتضت أن يُتلى أهل الحق حتى تتبين معادنها وتُعرف حقيقتهم وتتميز صفوفهم - والله عالم بهم .

ولا بد لمن رغب في الفوز والنجاة أن يعتصم بالصبر وحسن الاتباع ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ .

فتلك سنة الله ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ (٢٩٩) ﴿أَلَمْ أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنُوا وَهُمْ لَا يُفْقَهُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (٣٠٠) .

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (٣٠١) .

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ؕ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (٣٠٢) .

وسبيل أهل الإيمان لطلب النصر والرجاء فيه أخذهم بالأسباب التي أجملتها هذه الآية ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ﴾ .

(٢٩٩) سورة محمد : ٣١ .

(٣٠٠) سورة العنكبوت : ١ - ٣ .

(٣٠١) سورة آل عمران : ١٤٢ .

(٣٠٢) سورة البقرة : ٢١٤ .

وحسن الاتباع لما نزل من الحق يتطلب عملاً صادقاً خالصاً في مجالات شتى لإقامة الحق ودفع الفساد والظلم .

يقتضي أن تتضافر الجهود وتخضع كافة الإمكانيات لإعلاء كلمة الله في إخلاص وصدق وحب ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (٣٠٣) .

إن العلم بالحق والعمل به لا تتحدد به العاقبة فحسب بل يتحدد به مسار الإنسان من بدئه إلى منتهاه .

ولم تكن عقبى الدار لمن اتبعوا الحق من ربهم إلا خاتمة مسارٍ في طريق مستقيم متميز بمعالمه وصفاته أهله .

وحيثما قرأت القرآن لا تخطئك هذه المعالم ولا تستبهم عليك هذه الصفات .

ولا ترى في هذا الصراط المستقيم ضيقاً ولا حرجاً . ولا ترى في أهله سوءاً ولا عوجاً . بل ترى فيه وفيمن اتبعه نوراً وهدى وصلاً وتراحماً وتقى .

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٥٣) (٣٠٤) .

٤٨

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة هود ﴿الرَّكَتَبُ أَحْكَمُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ (١) لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنْ أَسْتَغْفِرُ أَرْبُكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُمِيعَكُمْ مِّنْعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى

(٣٠٣) سورة الحجرات : ١٥ .

(٣٠٤) سورة الأنعام : ١٥٣ .

وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣٠٥﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٠٦﴾ .

﴿كِتَابُ أَحْكَمْتَ أَيْنَهُ ثُمَّ فَضَّلْتَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ .

حديث عن القرآن الكريم - وقد وُصِفَ بإحكام آياته وتفصيلها الدالين على علو رتبته في ذاته . ثم وصف بقوله ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ . وهذه الصفة دالة على علو شأنه من حيث كونه من عند حكيم خبير وهو الله عز وجل .

والوصفان دالان على ما للكتاب من شأن في إحكامه وتفصيله . أحكمها حكيمٌ وفصلها خبير ، عالمٌ بمواقع الأمور وهو يحكم الكتاب عن حكمةٍ ويُفصله عن خبرةٍ .

وماذا تضمنت آياتُ هذا الكتاب ؟

تضمنت أصول العقيدة التي أرسل بها الرسل جميعاً وأنزلت الكتب .

لقد أنزل هذا الكتاب ليُخاطب العالمين برسالة الرسل جميعاً - ممثلة في أصول العقيدة - بلا تفرقة .

يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له . والإيمان برسله . ويدعوهم إلى الاستغفار والتوبة ليصلحوا في الأرض - كما أمر الله - ولا يفسدوا . ويقرر الجزاء المترتب على الأعمال خيِّرها وشرِّها في الدنيا والآخرة ، وأن المرجع إلى الله لا إلى غيره ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

فما تدعون إليه وتؤمرون به أو تنهون عنه في هذا الكتاب ليس وعظاً مجرداً من مؤاخذه وجزاء .

(٣٠٥) سورة هود : ١ - ٤ .

إنه الحق وللحق جزاؤه وحسابه ﴿يَوْمَذِيُوفِيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ (٣٠٦) والقرآن الكريم يُذكر الناس كثيرا بلقاء ربهم ويدعو إلى تدبر الأدلة التي تقود إلى صدق الإيمان به واليقين بلقائه .

ومن أجل ذلك أرسل الله الرسل وأنزل الكتاب وفصل الآيات ليجد المتدبر عوناً على تثبيت يقينه ولا تبقى هناك حجة لمُنكر أو مرتاب .

وما أسرع ما تَمْضِي الأيام وتنقضي الآجال ، ويأتي اللقاء ، ويقع الجزاء ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (٤٥) وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ فَاَلَيْسَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ (٣٠٧) .

الناس عائدون إلى الله لا محالة . . راجعون إليه ومحاسبون بين يديه . وهذا ما تخبرنا به آياته .

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٤٨) (٣٠٨) .

والوعد الحق هنا وعدُّ برجوع الخلق إليه ووعد الله حق .

ومن قَدَرٍ على البدء قادر على الإعادة ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٤٧) (٣٠٩) .

(٣٠٦) سورة النور : ٢٥ .

(٣٠٧) سورة يونس : ٤٥ - ٤٦ .

(٣٠٨) سورة يونس : ٤ .

(٣٠٩) سورة الروم : ٢٧ .

أخي المسلم : إن تفصيل الآيات مع أحكامها لك ومن أجلك . لتحسن ولا تسيء ، وتستقيم كما أمرك الله . وهي تذكرك بيوم الرجوع إلى الله من قبل أن يقع ، لتنظر كل نفس ما قدمت لغد ، ولا تركز إلى زوال . فإن متاع الدنيا قليل والأجل فيها محدود وقصير ، ومن طلب البقاء فيها فقد طلب المحال .

﴿وَأَتَقُوا يَوْمَ تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٣١٠)

٤٩

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله في سورة هود ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشِئْتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣١١).

هذه الآية من خواتيم سورة «هود» التي قال الرسول ﷺ فيها «شيتني هود وأخواتها» .

وقد قصَّ الله فيها على نبيه من أنباء الرسل - نوح ، وهود ، وصالح ، وإبراهيم ، ولوط ، وشعيب ، وموسى - ما قصَّ .

وما جاء من قصص في القرآن الكريم هو الحق الذي لا مزية فيه ، ومنه تُعرف سنن الله في خلقه . ويُدرك كلُّ داعٍ إلى الله في أيِّ عصر ما يحقُّ بمن كذب بالرسول . فقصص القرآن ليس حديثاً عن أحداثٍ ماضية وكفى ، بل هي تبصرة بسنن باقية . ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً . فكم من حضارات قامت في الأرض ثم بادت ؛ لأن أهلها كفروا بآيات الله وعَصَوْا رسله ، فأحاطت بهم خطاياهم وأهلكهم الله بذنوبهم .

(٣١٠) سورة البقرة : ٢٨١ .

(٣١١) سورة هود : ١٢٠ .

﴿ كَذَابٍ أَلْفِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۖ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ (٣١٢).

فالقصاص القرآني - وهو الحق - آية للخلق . فيه عبر وعظات وذكرى تنفع المؤمنين وهو يخاطب الأجيال بما هو ماضٍ في الخلق من سنن يجب أن تعلم وتُحذر.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْتَلُهَا ﴿٣١٣﴾ ﴾ ، والقرآن الكريم حين يذكر لنا قصص الأنبياء يبين لنا ما وقع بالمكذبين من أقوامهم لتحذر الأجيال - من بعد - أن تفعل فعلهم أو تسلك سبلهم . ويرينا آثارهم قائمة بدونهم أو مدمرة بذنوبهم . وكل ذلك فيه من العبر والعظات ما فيه .

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقِصْنَاهُ عَلَيْكَ لِمَنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا تَتَلَبَّسُوا ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخَذْنَا الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلَيْسَ شَدِيدًا ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (٣١٤) .

﴿ وَكَأَلَّا نَقُصَّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُسِيتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ ﴾ أي في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء وكيف أنجاهم الله والمؤمنين بهم وأهلك الكافرين جاءك فيها قصص حق ونبا حق ، وموعظة يرتدع بها الكافرون ، وذكرى يتذكر بها المؤمنون .

(٣١٢) سورة الأنفال : ٥٢ - ٥٣ .

(٣١٣) سورة محمد : ١٠ .

(٣١٤) سورة هود : ١٠٠ - ١٠٣ .

وذلك كله له أثره البالغ في تربية النفوس وإعدادها وتقويتها وتثبيتها على الحق . يخاطب الرسول ﷺ بما قصه الله عليه من أنباء الرسل ليشبث به فؤاده ويطمئن نفسه وهو يرى العاقبة للمرسلين ، والهلاك والدمار للمكذبين .

ويؤمر الرسول ﷺ بأن يتلو ما أنزل إليه وأن يبلغه للناس .

ويسمع المؤمنون ما أنزل إلى الرسول ﷺ - وهم يمرون بشدة أو محنة يرون فيها صلف الباطل وطغيان أهله . فتطمئن قلوبهم وتثبت على الحق نفوسهم .

وهم يعلمون أن العاقبة للمتقين ، وأن الدمار والهلاك للطغاة المفسدين . عندئذ لا تشغل نفس المؤمن بعداوة الأعداء وإنما تشغل بالأسباب التي تحقق الفوز وتجلب رضا الله ونصره .

وهذا ما خوطب به الرسول ﷺ وأمر بتحقيقه في نفسه كما أمر به المؤمنون .
﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرْنَا وَلَوْ أَلْعَزَمْنَا الرُّسُلَ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغَ فَعَلَ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٣١٥).

إعداد النفوس هو الأصل فيما يطلب من فوز أو نصر . والنصر من عند الله وحده ، وما عند الله لا يطلب إلا بطاعته . وهو في حقيقة النفس لا في كيد العدو .

﴿ إِن تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (٣١٦).

وهذا ما يوحى به القصص القرآني وهو يتلى على المؤمنين ، فيرون فيه عاقبة المحقين وخسران المبطلين ﴿ وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ .

(٣١٥) سورة الأحقاف : ٣٥ .

(٣١٦) سورة آل عمران : ١٢٠ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة يوسف ﴿الرَّتِّلَكَ أَيْتُ الْكِتَابِ الْمُيِّنِ﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣١٧﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْءَانُ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ﴿٣١٨﴾

﴿الرَّتِّلَكَ أَيْتُ الْكِتَابِ الْمُيِّنِ﴾ . والإشارة في قوله ﴿تلك﴾ إلى الآيات المؤلفة من هذه الأحرف العربية المعروفة . وهذه الأحرف قريبة للناس متداولة بينهم . ولكن الآيات التي ألفت منها بعيدة في رتبها ومكانتها وعجز الناس عن الإتيان بمثلها ولذلك أشار إليها بقوله ﴿تلك أيت الكتاب الميِّن﴾ المظهر للحق من الباطل والحلال من الحرام .

وقد أنزله الله قرآنًا عربيًّا وقَصَّ فيه من القصص ما لم يكن الرسول ﷺ يعلمه هو ولا قومه . فهو معجز في بيانه وفيما قصَّه وأخبر به .

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ .

وذلك ، لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفس .

فلهذا أنزل الله أشرف الكتب بأشرف اللغات على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة ، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض . وابتدئ إنزاله في أشرف شهور السنة وهو شهر رمضان ، فكمل من كل الوجوه .

ولهذا قال ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْءَانُ﴾ أي بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن كما ذكر ابن كثير في تفسيره وقال بعد أن ذكر ما ورد في سبب النزول قال : «ومما يناسب ذكره عند هذه الآية الكريمة

المشتملة على مدح القرآن وأنه كافٍ عن كل ما سواه من الكتب ما رواه الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله أن عُمَرَ بن الخطاب - رضي الله عنه - أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبي ﷺ قال : فغضب النبي ﷺ وقال : أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب ؟ معناه : أمتحيرون أنتم في الإسلام حتى تأخذوه من اليهود ؟

والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوه عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه ، أو بباطل فتصدقونه .

والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيًا ما وسعه إلا أن يتبعني .

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ ﴿ ففي القرآن قص الله على نبيه أحسن القصص ، ونزل أحسن الحديث وما كان من قبل نزوله يتلو من قرآن ولا يخطه يمينه . وما قص الله على نبيه ﷺ في سورة يوسف لم يكن متداولاً بين قومه حتى بُعث إليهم . إنه من أنباء الغيب التي لم يشهداها الرسول ﷺ ولم يشاهد أحداثها ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ (٣١٨) .

وفي ذلك دعوة إلى الإيمان بهذا القرآن والعمل بما جاء فيه ؛ لأنه وحي من الله إلى نبيه ، لينذر به ويبشر . ويقدم سنن الله في آيات تتلى ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣١٩) . إن القرآن الكريم وهو يقص علينا أحسن القصص يقدم لنا العظة والعبرة في آيات تتلى . ويرينا سنن الله الباقية في أحداث ماضية .

(٣١٨) سورة يوسف : ١٠٢ .

(٣١٩) سورة يوسف : ١١١ .

يرينا سننه فيمن خافه واتقاه، وسننه فيمن جحد بآياته وعصاه .
ومن تدبر ما انتهى إليه أمر يوسف وإخوته أيقن أن الحق لا يهزم أبدًا . وأن
الأمر بعواقبها ، والعاقبة لن تكون إلا لمن آمن واتقى .
وفيما قصَّه الله علينا نرى النتائج والعواقب .
نرى كيف بطل الكذب والكيد وظهر الصدق والحق .
نرى أن من حفظه الله لا يُضَيِّعُهُ الناس . وأن من حَفِظَ اللَّهَ في جميع أمره
حفظه الله ورعاه ، وجعل الفوز والعاقبة له .
وذاك ما كان من أمر يوسف عليه السلام .

فمن كذبت عليه وكادت له هي التي قالت ﴿الآن حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ أي
ثبت واستقر وتلاشى كيدُها ﴿أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين﴾ .

ومن جاءوا على قميصه بدم كذب وكادوا له هم الذين وقفوا أمامه طالبين
تلبية حاجتهم ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِضِغَّةٍ مُّرْتَجَلَةٍ فَأَوْفِ لَنَا
الْكَيْلَ وَنَصِّدَقْ عَلَيْنَا﴾ (٣٢٠) . ولما أذهلتهم المفاجأة وعلموا أنه يوسف الذي
كادوا له ، واتهموا الذئب كذبا في دمه - أعلنوا مقسمين أن الله قد فضله عليهم
وأعزه وأذلهم بالوقوف بين يديه .

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ (٩١) قَالَ
لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٣٢١) .

وانتصر الحق وبطل الكيد وبقيت آية الحق تخاطب الأجيال كلها بعبرتها
ودلالاتها .

﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣٢٢) .

(٣٢٠) سورة يوسف : ٨٨ .

(٣٢١) سورة يوسف : ٩١ - ٩٢ .

(٣٢٢) سورة يوسف : ٩٠ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الرعد ﴿الْمَرْءُ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٣٢٣﴾﴾.

وفي سورة الرعد بيان لما أجملته هذه الآية ﴿الْمَرْءُ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٢٣﴾﴾. فقد تحدثت عن منزل الكتاب وهو الله عز وجل. كما تحدثت عن أنزل عليه وهو الرسول ﷺ وبيّنت ما أرسل به.

وذكرت الحق الذي أنزل وضربت له مثلاً يكشف عن أصالته وبقائه ونفعه. وبيّنت موقف الناس منه ما بين مستجيب له، يعلم أنه الحق ومعرض عنه لا يراه ولا يهتدي بهداه، وأفاضت في بيان الذين لا يؤمنون وهم أكثر الناس. وكل ذلك قد أجملته هذه الآية في مطلع السورة في ترابط وتناسق معجز بينها وبين ما جاء في السورة كلها.

والمراد بالحق في قوله ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ القرآن الكريم. والحق من ربك، وبالحق كان الخلق، ومن أجله أرسل الله الرسل وأنزل الكتاب ولا عذر لمن كذب بالحق أو أعرض عنه.

وفي الأنفس والآفاق آيات وآيات، فيها بيان للحق لا تخفى دلالتة. ولا تُسْتَبْهَمُ حكمته وغايته.

وفي الحديث عن الله الذي أنزل الحق نقرأ ما تطمئن به القلوب وتخضع النفوس .

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرُوعٌ وَغَيْلٌ صُنُوفٌ وَغَيْرُ صُنُوفٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (٣٢٤).

ذلكم الله ربكم الذي أنزل الكتاب بالحق . هو الذي رفع السموات التي ترونها . وهو الذي مد الأرض التي تمشون في مناكبها وتأكلون من رزقه . وهو الذي جعل فيها رواسي من فوقها حتى لا تميد بكم ، وأنهاراً حفظاً لحياتكم وصوناً لمتاعكم وتبصرتكم ، وهو الذي سخر الشمس والقمر دائبين بسطاً لنعمته ورحمته ومخاطبةً منه بالحق لجميع خلقه .

وهذه الأدلة وغيرها مما جاءت به الآيات داعية إلى الإيمان بالحق الذي أنزله الله على نبيه ، مبصرة به مؤيدة له .

يَتَفَكَّرُ فِيهَا وَيَعْقِلُهَا مِنْ رَغَبٍ فِي الْحَقِّ وَأَمْنٍ بِهِ .

ويقف عند ظاهرها من غفل عن حكمتها وغايتها ، فلا يجاوز حدود دنياه مع أنها سبقت لتبصرته بقضايا الحق في نفسه وما يصير إليه وما أرسل الرسل من أجله . أفلا يكون عجباً أن يرى الإنسان أدلة القدرة في خلقه وينكرها في بعثه .

يراها في دنياه ولا يراها في آخرته ﴿ وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَمْ نَأْتِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (٣٢٥) .

(٣٢٤) سورة الرعد : ٢ - ٤ .

(٣٢٥) سورة الرعد : ٥ .

عجب أن ينكر الحق من يرى أدلته في نفسه وينعمُ بآياته ولا يتذكر ولا يستبصر. ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُكَ أَوَّلُوا الْأَنْبِيَاءِ ﴾ (٣٢٦).

إن سورة الرعد التي بدئت بهذه الآية ﴿ الْمَرْءُ تِلْكَ أَيْنْتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ﴾ تبين لنا النتائج والعواقب لمن آمن بهذا الحق وعمل به، ومن عمي وأعرض عنه، لمن استجاب لربه فيما دعاه إليه والذين لم يستجيبوا له.

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ يَبْسُوْنَ إِلَيْهَا ۚ ﴾ (٣٢٧).

وبذا يُعلم أن الحق الذي دُعي الناس للإيمان به ليس أعزل من قوة تحقق وعده ووعيده. إنه من الله، والله على كل شيء قدير وإليه المصير ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿ (٣٢٨).

٥٢

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الرعد ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُكَ أَوَّلُوا الْأَنْبِيَاءِ ﴾ (٣٢٩).

ففي الآية بيان لموقف الناس من الحق الذي أنزل وهو القرآن الكريم. فمنهم مؤمن ومنهم كافر. منهم متبع لهدى الله ومنهم معرض عن ذكره.

(٣٢٦) سورة الرعد : ١٩ .

(٣٢٧) سورة الرعد : ١٨ .

(٣٢٨) سورة الأعراف : ١٨٢ - ١٨٣ .

(٣٢٩) سورة الرعد : ١٩ .

ولكل موقف آثاره ونتائجه في صفات الناس وأخلاقهم وأعمالهم ﴿ إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولَئِكَ لَا تُبَيِّنُ ﴾ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٣٠﴾.

تلك هي الصفات . صفات الذين استجابوا لربهم وعلموا أنزل إلى محمد ﷺ هو الحق . وهي صفات بارة بالخلق . بها يستقيم التعامل ويتحقق التعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان .

فهم يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق .

ويصلون ما أمر الله به أن يوصل .

ويخشون ربهم .

ويخافون سوء الحساب .

ومن كانت هذه صفاته كفَّ شره عن غيره وقَدَّم خيره، ومشى بين الناس بنور من ربِّه لا يكذب ولا يَغْدُر ولا يُفْسِد أو يسيء، بل يُصْلِح ويُحْسِن ويَبْرُّ ويرحم ويصبر في أداء الخير وكف الشر ابتغاء وجه ربه . ويؤدي الأمانات في أدبٍ وصدق وإخلاص . يقيم الصلاة وينفق مما رزقه الله سراً وعَلَانِيَةً . يدرأ بالحسنة السيئة طلباً لمرضاة الله وطاعة لأمره .

صفات يحققها الإيمانُ بما نزل على محمد ﷺ والعمل بمقتضاه .

﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمْ هُوَ أَعْمَى ﴾ .

لا يستويان في صفاتهما ولا في الآثار والنتائج المترتبة على سلوكهما .
لا يستوي عند الله من يؤمن ويوقن أن ما أنزله الله على رسوله ﷺ حق لا
شك فيه فيستجيب لما يدعو إليه ربّه ويؤمن به ويعمل بما نزل من الحق . لا
يستوي من كان هذا شأنه ومن هو معاندٌ مكابر يرى الحق فيعرض عنه ويتبع
هواه وتلهيه الرغائب عن العواقب . كما لا يستوي هؤلاء وأولئك في الصفات
والأخلاق والأعمال .

وفي دنيا الناس ترى هؤلاء وأولئك .
ترى الوفي الكريم الذي يؤمن بربه ويخشاه . وترى الغادر اللئيم الذي
ينقض العهد ويفسد في الأرض .
ترى من يصلح ولا يفسد ، وترى من يريد علوًّا في الأرض ويبغي فيها
الفساد . ومرجع ذلك كلّهُ إلى الإيمان بالحق أو الكفر به .
فمن آمن بالحق خضع له وعمل بمقتضاه ، ومن أعرض عنه قاده هواه .
ومن اتبع الهوى ضل عن سبيل الله .
ومن رحمة الله بالخلق أن حفظ الحق الذي أنزله ليزن الناس أعمالهم
وليكون الحق حكماً فيما بينهم . والواقع المعاصر في حياة الإنسانية كلّها
ينشد إنسان الحق الذي ينصر المظلوم ولو كان من غير جنسه ، ويضرب على
يد الظالم ولو كان من أهله وعشيرته .

الواقع المعاصر ينشد من يعلم أن الحق الذي جاءت به الرسل وأنزل
الكتاب هو ميزان العدل بين جميع الخلق بلا تفرقة . وأن الله الذي أنزل الحق
سيحاسب عليه ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾
يَوْمَ يُنْفَخُ يُنْفَخُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٣٣١﴾ .

(٣٣١) سورة النور : ٢٤ - ٢٥ .

عندما تأتي ساعة الحساب وينظر المرء ما قدمت يداه، بل عندما تأتي
سكرة الموت يتطير الظن الفاسد من رءوس أصحابه. ويذهب الباطل الذي
اتبعوه ويأتي الحق الذي عَمُوا عنه وأنكروه. ويقول الذين كفروا - وقد وجدوا ما
وَعَدَ رَبُّهُمْ حَقًّا - ﴿يَلَيِّنَا نُرَدُّ وَلَا تُكْذِبْ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَنَّ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣٣٢).

ويعترفون في أسف وندم ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ
فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَفْتَرُونَ﴾ (٣٣٣). اعترفوا بالحق في وقت لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن
أمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً. وَرَجُوا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا
لَهُمْ أَوْ يُرَدُّوا إِلَى دَنِيَاهُمْ فَيَعْمَلُوا بِالْحَقِّ الَّذِي أَنْكَرُوهُ مِنْ قَبْلُ. يرجون ذلك
ويودُّون حين يُوقَفُونَ عَلَى النَّارِ.

وهيئات أن يكون لهم هذا أو ذاك. فلن ينفعهم إيمان بعد فوات الأوان ولن
يكون لهم شفعاء لأنهم ليسوا أهلاً للشفاعة. ولو رُدُّوا إلى دَنِيَاهُمْ لَعَادُوا لِمَا
نَهَوْا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. ولن يعودوا إلى دَنِيَاهُمْ وقد فارقوها بعد امتحان
واختبار وانقضاء أجلٍ وانقطاع عمل ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ
يَبْعَثُونَ﴾ (٣٣٤).

٥٣

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة إبراهيم ﴿الَّذِي
كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى
صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ

(٣٣٢) سورة الأنعام : ٢٧ .

(٣٣٣) سورة الأعراف : ٥٣ .

(٣٣٤) سورة المؤمنون : ١٠٠ .

لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ
وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣٣٥﴾.

والحديث عن القرآن هنا حديث عمن أنزله ومن أنزل إليه والغاية من إرسال
الرسول ﷺ وإنزال الكتاب إليه .

﴿الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾
تلك هي الغاية ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ
الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ من أجل ذلك أرسل الرسول وأنزل الكتاب .
وهذه الغاية لها أبعادها في فطرة الخلق وحقيقة الحياة .

فإن الإخراج من الظلمات إلى النور لا يكون إلا بإذن الله وهداه ﴿وَمَنْ لَمْ
يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ ومن أجل إخراج الناس من الظلمات إلى
النور جعل الله الكتاب نوراً يهدي به من يشاء وأرسل نبيه داعياً إلى الله بإذنه
وسراجاً منيراً .

وبنور النبوة والكتاب يهدي الناس بإذن الله إلى صراط العزيز الحميد .

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ
جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾
صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ (٣٣٦).

ونحن نعرف حقيقة النور وما يؤديه في حياة الناس وما يهيئه من أسباب وما
يرشد إليه ولولاه لعميت الأبصار وبُعُدت الغايات وقصرت الوسائل .

(٣٣٥) سورة إبراهيم : ١ - ٣ .

(٣٣٦) سورة الشورى : ٥٢ - ٥٣ .

إن إخراج الناس من الظلمات إلى النور ليس بالأمر الهين الذي يُستطاع بلا هداية وتوفيق ولو تُركَّ الناس بلا هداية من الله لعاشوا في ظلمات الوهم والجهل وحيرة الضلال والإفك . وتحولت الدنيا بظلماتها إلى مقبرة لا استجابة فيها لنداء حقٍّ أو دعاء .

والله الذي خلق السموات والأرض هو الذي جعل الظلمات والنور وهم يرون ما جعله الله محسوسًا أمام أنظارهم ، يرون السموات ويمشون على الأرض ويعرفون ما للنور من تأثير في حركة الحياة وعمل الأحياء .

وإخراج الناس من الظلمات إلى النور في صفاتهم وأخلاقهم وعقائدهم ومعاملاتهم وصلاح ذات بينهم له نوره وهده في عالم النفس كعالم الحس ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ (٣٣٧) .

من أجل ذلك اتسقت آيات الله في الآفاق وفي الأنفس مع آياته المنزلة على نبيه في هداية الإنسان وإرشاده وتبصيرته ودعوته إلى صراط العزيز الحميد .

وامتزج الحديث عن الكتاب مع الحديث عن السموات والأرض وأن من نزل هذا الكتاب هو من له ملك السموات والأرض فلا مجال لأحد أن ينفذ من أقطار أرضه وسمواته . ﴿ كَتَبْنَا نُورَهُ إِلَيْكَ لَنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى أَنْوَرٍ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ . فمن كفر بآياته فلا مجال له أن ينفذ من ملك الله في السموات أو في الأرض ولن يفلت من حساب وجزاء ﴿ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴿

(٣٣٧) سورة الأنعام : ١٢٢ .

إن الحياة لا يستقيم أمرها إلا بنور ربّها . والله برحمته قد أنزل الكتاب إلى نبيه ليخرج الناس من الظلمات إلى النور . والذين كفروا بما أنزل . لهم من الوعيد ما لهم ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ فإن هؤلاء قد آثروا الحياة الدنيا على الآخرة ، وعملوا على الصد عن سبيل الله ، وتكبووا الطريق القويم ، وأرادوها عوجاً لتحقيق أهوائهم وإشباع شهواتهم .

وهذه الخصال هي نهاية الضلال .

ولذا وصف الله ضلالهم بقوله ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ .

بعيد عن الحق ، بعيد عن الصراط المستقيم .

ولا تسل عما يكون في دنيا الناس من فسادٍ ودمارٍ إذا حكمتهم أهواؤهم وضلوا السبيل .

ومن أجل إنقاذ الناس وهدايتهم وإصلاح ذات بينهم قد جاءهم من الله نور وكتاب مبين لمصلحتهم والله غني عن العالمين .

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٣٣٨) .

٥٤

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في سورة الحجر من قوله تعالى ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ وقوله ﴿إِنَّا نَحْنُ الذَّكْرُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٣٣٩) .

وفي الآيتين حديث عن القرآن من حيث وصفه وإنزاله وحفظه .

(٣٣٨) سورة المائدة : ١٥ - ١٦ .

(٣٣٩) سورة الحجر : ١ ، ٩ .

فهو قرآن مبين ، وهو الذكر . والله قد أنزله وتكفل بحفظه .

وقد ناسب هنا أن تتكرر نون العظمة في جانب إنزال الذكر وحفظه ليعلم أن لا مجال فيه لتغيير أو تبديل أو انتقاص أو اختلاف ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

إن الله الذي أنزل الحق قد حفظه كما حفظ ما ينفع الناس وما لا تقوم الحياة إلا به . ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ (٣٤٠) . ومكث الحق وثباته وبقاؤه من الأشياء التي قد يغفل عنها الناس - وهم يتقلبون في زينة الحياة - وقد تقودهم الغفلة عن هذه الحقيقة إلى اتباع الباطل في ساعة استدراج له وإملاء . ثم يفجؤهم زوال ما اتبعوه وإظهار ما غفلوا عنه ، وعندئذ يعلمون أن ما تعلقوا به من غير الحق باطل لا يمكث ولا يبقى .

والحق الذي أنزله الله ثابت لا يميل ، ماكث لا يذهب . ويخطئ من يظن أن أحداً من الخلق يستطيع أن يحجب ضوء الحق أو يطفئ نوره . ومن حفظه الله لا يضيعه الناس . إن فساد الناس في برٍّ أو بحر على أنفسهم . به يؤخذون ويبقى الحق . ويهلكون ويتنصر الحق .

وعبث الناس لإفساد الماء أو تغيير منفعته لاحق بهم .

ويبقى الماء ما بقيت الحياة طهوراً متجدداً وهو ينزل من السماء .

وهو هو في خصائصه قد نزل الله ماءً مباركا وجعل منه كل شيء حي وأخرج به نبات كل شيء . ومن أراده على غير ما أنزله الله لم يستطع ولم يجد غيره أثرا في الحياة . ومن أنزل الحق هو الذي أنزل الماء من السماء .

هذا يُقَذَّف به الزبد ويمكث في الأرض لينفع الناس . وذلك يُقَذَّف به الباطل لتأمن الحياة . وَيَعْرِف مَنْ يخاطب به الغاية والمصير ولا يفقده في موتٍ أو نشور . بل تأتيه سكرة الموت بالحق ، ويأتيه البعث بالحق . ويُساق من يُلقى في النار بالحق ويُقضى بين الخلائق جميعا بالحق . فلا يتوقف أمر الحق على نفع الناس في الأرض فحسب ، بل هم به حيث كانوا في دنياهم أو أخرهم ولن يَنفَكَّ عنهم في بدءٍ أو مصير .

وحديث الحق إليهم له آثاره ونتائجه في جميع مراحل سيرهم من حياة وموت وبعث وحساب وجزاء . فأى شيء أثبت من ذلك وأبقى وأنفع وأدوم؟ وهل يكون ذلك إلا للحق؟

ألا إن الإيمان ببقاء الحق حري ألا تنخدع معه النفس بزبد الباطل أو تُسْتَحَفَّ بِإِمْلَائِهِ واستدراجه أو تؤخذ بِإِغْوَاء شياطينه وأتباعه .

فإن الباطل محكوم عليه بالذهاب والفناء ، وللحق وحده الثبات والبقاء .

ومن اتبع الحق سَلِمَ معه . ومن اتبع الباطل زهق معه .

إن من تدبر العواقب أيقن أن البقاء للحق .

وفي العاقبة لا ترى لأهل الباطل وأتباعهم تماسكا ولا ثباتا ، بل ترى بعضهم يبرأ من بعض ويلعن بعضهم بعضا .

تدبر قول ربك ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ . واعلم أنه الحق . وفي مكث الحق وبقائه نَفْعٌ للناس .

والخسارة التي تلحق بعض الناس تأتي من التفريط فيما تحقق نفعه .

ويأبى الحقُ إلا أن يقدِّم نفعه حتى لخصومه وأعدائه في فرض العدل شريعة تقام دون نظر لعداوةٍ أو شنان .

لهم جميعاً نفع في إنصاف مظلوم وعقاب ظالم .
 لهم حياة في القصاص وأمن مع الإيمان .
 ورحمة في تراحم . ومنفعة في تعاون على برٍّ وتعارف .
 وكل ذلك وغيره من دواعي الحق وما يأمر به الحق .
 من أجل ذلك حَفِظَ الله الذكر كما حَفِظَ ما تبقى به الحياة من نورٍ وماء .
 وما ينفع الناس . وكان من فضل الله ورحمته بخلقه أن يبقى الذكر ما بقيت
 الحياة ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

٥٥

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله في سورة النحل ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ
 الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٣٤١) .
 والمراد بـ ﴿الذكر﴾ القرآن الكريم وفي تسميته بالذكر دلالة على ما له من
 شأن في تبصرة الناس وتذكرتهم وأنه الجدير بهذه التسمية وَحْدَهُ لبلوغه حد
 الكمال .

والله عز وجل قد أنزل الذكر وخاطب الرسول ﷺ بقوله ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ
 لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ .

وقد حفظ الله البيان كما حَفِظَ المُبَيِّن وجعل بيان الرسول ﷺ من قوله وفعله
 وإقراره شريعة تُتَّبَعُ .

والقرآن وحي والسنة وحي ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ
 يُوحَىٰ ﴾ (٣٤٢) . وكم من أحكام أجملها القرآن الكريم وفصلها بيان الرسول ﷺ
 بفعله وقوله .

(٣٤١) سورة النحل : ٤٤ .

(٣٤٢) سورة النجم : ٣ - ٤ .

ولولا بيان الرسول ﷺ لما عرف الناس كيف يؤدون ما فرض الله عليهم من صلاة وزكاة وحج وغير ذلك مما فرضه الله ودعا إليه في كتابه .

فستة الرسول ﷺ يجب الأخذ بها والعمل بمقتضاها .

وبهذا أمر القرآن الكريم وحذر من المخالفة والإعراض .

قال الله عز وجل ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكُمْ إِلَّا رِسَالًا فَخُذُوا وَمَا نَهَكُمُ عَنْهُ فَأَنْتَهُمْ﴾ (٣٤٣).

وقال سبحانه ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٣٤٤). إن بيان الرسول ﷺ قد تلقاه الصحابة علماً وعملاً .

فراى الصحابة - رضوان الله عليهم - كتاب ربهم عملاً في سلوك نبيهم فاقتدوا به .

وقد كان خُلُقُه القرآن، يرضى برضاه، ويسخط بسخطه ﷺ .

قال أبو عبد الرحمن السلمي وهو من التابعين الذين سمعوا من الصحابة ونقلوا عنهم، قال : «حدثنا الذين كانوا يُقرئونا القرآن كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل . قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً» . من هذا يتبين لنا كيف كان بيان الرسول ﷺ للناس وكيف كان منهج المسلمين في تلقي القرآن الكريم وأنهم كانوا يجمعون بين الحفظ والعلم والعمل جميعاً بلا فصل أو تفرقة بين بيانٍ ومُبَيِّنٍ ، بين قرآنٍ وسنة .

وذاك هو الحق الذي أمرنا باتباعه ونُهينا عن مخالفته ﴿فَإِنْ لَنْتَرَعَمُ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (٣٤٥) .

(٣٤٣) سورة الحشر : ٧ .

(٣٤٤) سورة النور : ٦٣ .

(٣٤٥) سورة النساء : ٥٩ .

والرد إلى الله ردُّ إلى الكتاب، والردُّ إلى الرسول ردُّ إلى السنة.

ومن أبى ذلك أو رأى الرد إلى الكتاب وحده فقد جهل وضل وخالف القرآن نفسه فيما دعا إليه وأمر به ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (٣٤٦).

﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٦٥) (٣٤٧).

دينٌ عُرفت معالمه وحفظت آياته وبيناته، فلا موضع فيه لمحدث أو مبتدع.

«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ» كما جاء في الحديث المتفق عليه عن عائشة - رضي الله عنها - وفي رواية لمسلم «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ».

ذاك هو الحق الذي لا يقبل عند الله غيره. ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٣٤٨).

روى البخارى عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى. قيل : ومن يأبى يا رسول الله؟ قال : من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى» وقد روى الترمذي عن أبي نجيح العرْباض بن سارية - رضي الله عنه - قال : «وعظنا رسول الله ﷺ موعظةً بليغةً وجلتُ منها القلوب، وذُرْفَتْ منها العيون. فقلنا : يا رسول الله كأنها موعظة مودِّع فأوصنا. قال : أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبدٌ حبشي. وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا. فعليكم بستى وسنة

(٣٤٦) سورة الحشر : ٧.

(٣٤٧) سورة النساء : ٦٥.

(٣٤٨) سورة الأنعام : ١٥٣.

الخلفاء الراشدين المهديين ، عَضُوا عليها بالنواجذ . وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة» .

ذاك هو البيان ، بيان الرسول ﷺ للذكر الذي أنزل عليه ، بيَّنه كما أُمِرَ بقوله وفعله وإقراره . ولا فصل في دين الله بين البيان والمبين ، بين القرآن والسنة . ومن فَرَّقَ فزعم أنه يعمل بالقرآن وحده ضل السبيل ، ولم يستطع بغير البيان الذي أُمِرَ الرسول ﷺ به أن يؤدي ما بني الإسلام عليه من الفرائض ، ولو أداها مبتدعا غير متَّبِعٍ لَرُدَّتْ عليه وعوقب عليها . ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (٣٤٩) فاتباع البيان اتباعٌ للمبين ومخالفه البيان مخالفةٌ للمبين ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (٣٥٠) . ومن يعص الرسول فقد عصى الله والرسول ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ (٣٥١) . ذاك هو السبيل فاتبعه ولا تتبع سبل الأهواء والشهوات ونزعات الشياطين . ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٣٥٢) .

٥٦

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة النحل ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٣٥٣) .

وقد جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى ﴿وَلِإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٥٤) .

(٣٤٩) سورة آل عمران : ٣١ .

(٣٥٠) سورة النساء : ٨٠ .

(٣٥١) سورة الأحزاب : ٣٦ .

(٣٥٢) سورة التغابن : ١١ .

(٣٥٣) سورة النحل : ١٠٢ .

(٣٥٤) سورة النحل : ١٠١ .

مسارعة في الإنكار ومبالغة في الجحود والتكذيب ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾
 فقد طعنوا في النبي ﷺ بصيغة القصر، قصر الموصوف على الصفة . فجعلوا
 الرسول ﷺ لا صفة له إلا الافتراء . فأنت لست بمرسل من الله وما جئت به قد
 افتريته من عند نفسك وليس من عند الله .

وفي السورة نفسها ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا اسْطِيزُ
 الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٢٤﴾ (٣٥٥).

ولما كان من أكبر أغراض هذه السورة بيان أن القرآن الكريم منزل من عند
 الله فله فضله وهديه وشرفه ومكانته - وأهل الكفر تضيق صدورهم به وهو يعيب
 آلهتهم ويكشف باطلهم - فإنهم يلتمسون كل سبيل للطعن فيه والصد عنه
 ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ إِنَّ الْغَوَافِينَ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٥٦﴾ (٣٥٦)
 ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾.

هكذا تراهم يسرعون في الإنكار والالتهام ويلتمسون كل سبيل للمبالغة في
 الجحود والكفران، فإذا بدل الله آية مكان آية - والله أعلم بما ينزل - لمصلحة
 وحكمة - والتبديل لا يكون إلا في التكليف والأحكام لا في العقائد
 والأخلاق - اتخذوا ذلك سبيلا للطعن في الرسالة والرسول وقالوا «إنما أنت
 مفتر» .

وأصل الافتراء : الاختراع، وغلب على اختراع الخبر، أي اختلاقه وهو
 يساوي الكذب في المعنى . وهم كما أثبت القرآن عنهم يعلمون صدق الرسول
 ﷺ ولا يكذبونه ولكنهم بآيات الله يجحدون . وهذا الجحود يحملهم على
 نكران ما لا ينكر وجحود ما لا يجحد ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ
 لَا يَكَذِبُونَ﴾ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٢٣﴾ (٣٥٧) وقد جاء الرد

(٣٥٥) سورة النحل : ٢٤ .

(٣٥٦) سورة فصلت : ٢٦ .

(٣٥٧) سورة الأنعام : ٢٣ .

عليهم في قولهم ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ بقول ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ وفيه إبطال لدعواهم ونقض لها وبيان لماهية القرآن وحقيقته وأنه من عند الله مصون من كل تحريف أو تبديل . كما جاءت الآيات من بعد لتبين من هم الذين يفترون؟ فأثبتت لهم الافتراء ونفته عن أهل الإيمان واليقين ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (٣٥٨).

إن جحود هؤلاء بآيات الله يقودهم إلى نكران ما استيقنته أنفسهم ظلما وعلوا .

فهم ينسبون إلى الرسول ﷺ الكذب والافتراء وهم يوقنون بصدقه وأمانته .

ويتوهمون أنهم يستطيعون أن يبطلوا ما نزل من الحق ويطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ وروح القدس : هو جبريل عليه السلام . والقدس : الطهر : ومعناه الملك المقدس .

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٦٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٦٤﴾﴾ (٣٥٩).

فمن نزل به مؤتمن على إنزاله ، قوى لا يُغلب عليه حتى يُعَيَّر فيه . أمينٌ لا يُعَيَّر ولا يبدل ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٣٦٠﴾﴾ .

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ فما يتلوه الرسول على الناس هو من عند ربه وحي يوحيه إليه ملابس للحق لا شائبة للباطل فيه .

وهذا الإثبات بهذه القوة والثقة مبطل لما زعمه الكفار من أن الرسول ﷺ قد جاء بالقرآن من عند نفسه ؛ إذ لو كان من عند الله لما وقع التبديل والنسخ . ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦١﴾﴾ وتلك علة العلل فإن من جهل الحق أعرض عنه .

(٣٥٨) سورة النحل : ١٠٥ .

(٣٥٩) سورة الشعراء : ١٩٣ - ١٩٤ .

(٣٦٠) سورة التكوين : ٢٠ .

ومن كان هذا حاله كره الحق وتخطى في ظلمات الباطل . والعلة عند أكثر أهل الباطل أنهم للحق كارهون . فلم يصرفهم عما أنزل على نبيه ﷺ شيء في الرسالة أو الرسول - حاشا أن يكون - وإنما هو الكره للحق وهو داء لا يستقيم معه قول أو سعي . وهم لهذا الكره لا يطيقون سماع الحق ، ويوصي بعضهم بعضاً أن يلغوا عند سماع القرآن وينهى بعضهم بعضاً عن سماعه .

والكره للحق يقود إلى الكذب والعناد والاعتو والاستكبار .

ولا حمى للإنسان من هذه العلل كلها ولا حصانة منها إلا بإخضاع الهوى للحق . فانتصار الحق في النفس مرهون بتغلبه على هوى النفس .

وبالحق وحده تبرأ النفس من عللها وتخرج من ظلمات الباطل التي تحيط بها وترى الأشياء على حقيقتها وتمشي في الناس بنور ربها ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾ به يثبت الإيمان ويستقر اليقين وتعم البشرية نفوس المؤمنين .

ومن أجل ذلك أنزل القرآن وحفظ للأجيال كلها لتصان به معالم الحق والهدى واليقين ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٣٦١) .
﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ .

هكذا على الإطلاق . ففي كل شأن له هدايته وله تبصرته وتذكرته ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ (٣٦٢).

ومن تدبر القرآن الكريم عرف ذلك وأيقن به ووجد في نفسه نورا يمشي به في الناس إنه «نور» وإنه «روح» .

ومن فقد النور تعثرت خطاه وضل في مسعاه .

ومن فقد الروح فهو من الموتى ﴿وَالْمُوتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ .

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ (٣٦٣).

وهل يُنصِّرُ الناسُ الأشياءَ على حقيقتها بغير نور .

وهل تطيب لهم حياة إذا عميت قلوبهم وأظلمت بصائرهم .

إن هداية القرآن شاملة كاملة يهدي للتي هي أقوم في كل شيء في العقيدة والعبادة في ظاهر الإنسان وباطنه ، في خاصة نفسه وفي علاقته بغيره ، في شؤون الحياة كلها يهدي ويرشد في عدل واعتدال ، يفي بالحقوق وينهض بالواجبات . وهو يقيم العدل في ذات الإنسان أولاً بين فضائل روحه ومطالب جسده ، فلا ينسى نصيبه من دنياه ولا يُشغَلُ بدنياه عن أخراه .

وهذا التوازن في هداية القرآن هو السبيل لإيجاد الإنسان السوي . الذي يُنصِفُ المظلوم ، ولو كان من غير جنسه ويأخذ على يد الظالم ولو كان من أهله وعشيرته ؛ لأنه يأخذ نفسه بهدي القرآن ، ويتبع هدايته ، ويخشع لحديثه ، ويستجيب لندائه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ

(٣٦٢) سورة النحل : ٨٩ .

(٣٦٣) سورة الشورى : ٥٢ .

أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا
أَهْوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ نَعَرِضْهُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ (٣٦٤).

تلك هداية القرآن في إقامة العدل والقيام بالقسط . هداية يتحقق بها السلام
الحق بين جميع الخلق . ولا سلام بغير عدل ولا أمن بغير الخضوع للحق .

والعدل والحق لا تحدده أهواء الناس ولم يُترك تحديده لنزواتهم
وشهواتهم . بل قد جاءهم الحق من ربهم رب العالمين ، والله غني عن
العالمين . وبتحديد معالم الحق في كل شأن تنقطع الحجة وتبطل المعذرة .

والناس جميعا مأمورون باتباع ما نزل من الحق ومحاسبون عليه .

وذاك هو موطن امتحانهم وفتنتهم وعليه يكون حسابهم وجزاؤهم .

وما من شأن إلا وَيَجِدُ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ فِي امْتِحَانٍ بَيْنَ اتِّبَاعِ الْهَوَىٰ أَوْ
الْخُضُوعِ لِلْحَقِّ . ومن اتبع الهوى ضل عن سبيل الله . ومن اتبع الحق من ربه
نجا من ضلال وشقاء وفاز بحسن عاقبة وجزاء .

ونداء القرآن الكريم للناس لا ينقطع ، ودعوته لا تتوقف . وبيانه فيهم
شمس لا تغيب إن بارحت رؤوس قوم أنارت عند آخرين ، ولهم جميعا من
النور ما يهديهم للتي هي أقوم ويقودهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

وتلك بشرى القرآن لمن اتبع هداه ، وتحذيره لمن أعرض عنه واتبع هواه
﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ
أَنْ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝﴾
والذين لا يؤمنون بالآخرة لا يؤمنون بما جاء في القرآن وما دعا إليه .

ألا فليعلم الناس جميعاً أن هداية القرآن لهم هي السبيل لإنقاذهم من ضنك الدنيا وعذاب الآخرة، وليعلم المسلمون بخاصة أن هداية القرآن لهم هي السبيل لدفع الكيد عنهم. والقرآن يدعوهم أن يأخذوا بالأسباب؛ طاعة لربهم وإنقاذاً لأنفسهم.

فإن التفريط في الأخذ بالأسباب التي أمروا بها معصية لربهم. وهم يطلبون نصره وينشدون رحمته، وما عند الله لا يُطلب إلا بطاعته.

فاتبعوا - معشر المسلمين - هداية القرآن في روابطكم وفي صلتكم بغيركم. اتبعوا هداية القرآن إنقاذاً لحاضرهم وأماناً لمستقبلهم. اتبعوا هداية القرآن في الحكم فيما بينكم.

واستجيبوا لنداء الله وهو يدعوكم بأكرم نداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهُ تَحْشُرُونَ﴾ (٣٦٥).

٥٨

وفي حديث القرآن عن القرآن نلتقي معاً مرة أخرى عند هذه الآية من سورة الإسراء ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلتي هي أقوم﴾.

فقد التقيت معك في الحديث عن هذه الآية في عموم دلالتها.

وأود على نورها أن نرى هداية القرآن في صلاح حالنا وإصلاح ذات بيننا فللقرآن هدايته وتبصرته. وهو هدى من الله للناس.

وقد يسأل بعض الناس ما لنا نحن المسلمين في واقعنا المعاصر على هذا الحال والقرآن يُتلى علينا والرسول ﷺ يسته الصحيحة فينا؟

(٣٦٥) سورة الأنفال : ٢٤.

ولنطلب الإجابة من القرآن نفسه .

فإن هداية القرآن تبصّرنا بأسباب هذا الواقع وتدلنا على ما يجب أن يكون .
فمن المعلوم أن الله سُنَنًا لا تتبدل ولا تتحول ولا تجامل ولا تحابي ﴿من يعمل
سوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ (٣٦٦) من أي جنس ومن أي لون .

والمسلمون الأوائل - وفيهم رسول الله ﷺ - قد خطبوا حين رأوا ما وقع بهم
في غزوة أحد وقالوا «أنى هذا»؟ خطبوا بقول الله عز وجل ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ
أَنْفُسِكُمْ﴾ وهُمْ مَنْ هُمْ في استقامتهم وفي طاعتهم لربهم واتباعهم لنبيهم
ﷺ . والقرآن الكريم حينما يقص علينا ذلك إنما يبصرنا بما يجب أن نكون
عليه من ترك السليبيات المعوقة والبعد عن المخالفة والمعصية .

وما من داءٍ يبيّنه القرآن إلّا ويرشد معه إلى الدواء .

فهو حين يحذرنا من مطاوعة أهل الكفر والضلال وينهانا أن نتخذ بطانة
من دوننا يبصرنا بما يجب أن نكون عليه من ثقي وثبات وصبر حتى لا ينفذ فينا
كيد أعدائنا، أو يتحقق فينا مكرهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّنْ
دُونِكُمْ لَا يَأْمُرُكُمْ بِأَلْوَدُوعٍ مَّا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي
صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَآئِنِمْ أَوْلَاءُ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا
يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا الْقُوكُمُ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَٰلَيْكُمْ
الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمَسَّكُمْ
حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصِيرُوا تَتَّقُوا لَا
يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (٣٦٧) .

هكذا نرى القرآن الكريم يذكر لنا الداء في مطاوعة أهل الكفر واتخاذ بطانة
من دوننا وما أكثر ما يقع ذلك في حياة المسلمين في واقعنا المعاصر . يذكر لنا

(٣٦٦) سورة النساء : ١٢٣ .

(٣٦٧) سورة آل عمران : ١١٨ - ١٢٠ .

ما تطويه صدور أعدائنا وما يسرُّهم بالنسبة لنا وما يُسيئهم . فما يمسنا من حسنة تسوُّهم وما يُصيينا من سيئة تفرحهم . هذا الداء يبين معه الدواء وما يجب أن نكون عليه لرد الكيد ودفع الشر .

تبصرنا هداية القرآن أن نكون دائماً على تقى وصبر .
تقى يحقق فينا أبرَّ الصفات وأكرم الأخلاق .

وصبر يحقق فينا الثبات على الحق والأخذ بالأسباب - في مثابرة وجد - دون قنوط أو يأس ، واثقين في وعد الله ، آخذين بأسباب نصره ، مؤمنين بأننا إذا لم نتصر بفضلنا لم نغلب بقوتنا وأن ما عند الله لا يطلب إلا بطاعته ، وأن العقابة لا تكون إلا لمن آمن به واتقاه .

إن هداية القرآن تبصرنا أن صلاح نفوسنا هو السبيل لطلب النصر من ربنا .
فإذا تخلف المسلمون عن غيرهم فأسباب تخلفهم من أنفسهم لا من كيد عدوهم . ومن سنن الله أن جعل تَغْيِرَ الحال من تَغْيِرِ النفوس ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْيِرُ مَا يُقَوْمُ حَتَّى يَغْيِرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (٣٦٨) .

فإصلاح الواقع ، أي واقع ، يستلزم تربية النفوس وإعدادها واستقامتها على نهج سوي لا تناقض فيه ولا اختلاف . فإذا تناقضت وسائل التربية فكان منها ما يدعو إلى فضيلة ومنها ما يناقضه ساءت النتائج وعظمت البلوى .

ومن الخطأ بل من الخطيئة أن نلتمس علاج واقعنا بعيداً عن هداية القرآن ، فإذا كنا ننشد التراحم فيما بيننا أولاً فعلينا أن نستمسك بما دعانا إليه لكي نتراحم ، وتلك إشارته الدالة على قرب القرآن الكريم منّا ودعوته إلى تراحمنا ورجاء الرحمة من خالقنا ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٣٦٩) .

(٣٦٨) سورة الرعد : ١١ .

(٣٦٩) سورة الأنعام : ١٥٥ .

هداية القرآن لنا لإصلاح حاضرننا ومستقبلنا لدنيانا وأخرانا، لسرنا وعَلَننا، لسرائنا وضرائنا، لئسرننا وعسرننا، لكل شأن من شئوننا للقرآن هدايته وتبصرته وهو يهدي في كل شأن للتي هي أقوم.

فإن أئينا إلا الإعراض عنه دفعنا الثمن غاليا في ضنك معيشتنا وفشل حياتنا وذهاب ريحننا. وكنا نحن بإعراضنا عن هدايته الذين نحقق لأعدائنا أكثر مما يطمعون فيه دون جهد منهم. وكانت هزائمنا من معاصينا لا من كيد أعدائنا. فإن ذنوبنا أخوف علينا من عدونا. وما من سبب لعزنا ونصرنا إلا وبيئه لنا القرآن وحننا عليه وذكرنا بمآسي التقصير في الأخذ بالأسباب بذكر العبر والعظات وتلاوة الآيات البينات. فما يقع فينا من ظلمنا لأنفسنا. ﴿وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾.

ومن رحمة الله وفضله أن حفظ لنا المصعد ليصعد به من أحب أن يصعد «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع آخرين».

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ (٣٧٠).

٥٩

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ (٣٧١).

يُخبر الله سبحانه أنه قد بين في هذا القرآن وصرف أمثاله ومواعظه وقصصه وأخباره وأوامره ليتذكر الناس ويتعظوا.

ولكن أهل الشرك والضلال ما يزيدهم ذلك التصريف والتبيين إلا نفورا عن الحق. ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَىٰ

(٣٧٠) سورة محمد : ٣٨

(٣٧١) سورة الإسراء : ٤١

الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۚ إِنَّهُ اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرُ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجْدِلُ سُنَّتَ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجْدِلُ سُنَّتَ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٣٧٢﴾

إن نفور الناس عن الحق وإعراضهم عنه — في ماضٍ أو حاضر — يُودي بهم، ويدمر عليهم. والحق الذي أنزل القرآن به وصُرِّفَت آياته أصلٌ في فطرة الخلق وحقيقة الوجود. لن يفلت من كرهه أو أعرض عنه ﴿ وَنَادَوْا بِمَمْلَكَةٍ لِّيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِثُونَ ﴾ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٣٧٣﴾

فمن أعرض عن الحق أخذ به .

فلتتبع هدى القرآن وبيانه فإن فيه تبصرةً وتذكرة، فيه أوامر ونواهٍ، فيه ترغيب وترهيب لمن استجاب ولمن أعرض، فما من عمل إلا وله جزاؤه من خير أو شر ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۚ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ ﴿٣٧٤﴾ . وإذا نحن تدبرنا القرآن عرفنا هدايته في كل شأن صَغُرَ أو كَبُرَ، فمضيئنا في الحياة كلها على بينة ونحن ندرك ما نأخذ وما ندع وما يحل وما لا يحل، واستقامت نفوسنا مع الحق دون نَعْدٍ أو تجاوز ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا ﴾

وقد جاءت هذه الآية بعد بيانٍ لخصالٍ أُمِرْنَا بِهَا أو نُهِنَا عَنْهَا . نقرؤها في سورة الإسراء من أول قوله تعالى ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ

(٣٧٢) سورة فاطر : ٤٢ - ٤٣ .

(٣٧٣) سورة الزخرف : ٧٧ - ٧٨ .

(٣٧٤) سورة الزلزلة : ٧ - ٨ .

إِحْسَنَّا . ونرى فيها بعض ما أمرنا به وما نهينا عنه وكيف بين القرآن الكريم وصرف الأوامر والنواهي ، ودعا إلى مكارم الأخلاق ونهى عن سيئها ، وكيف حدد الحقوق وبين الواجبات في خمس وعشرين من الخصال جمعت في آيات متتابعات شرعة ومنهاجا للقيم والأخلاق . فاقرا أخي وتدبر واعمل رعاك الله وهداك . ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا ۚ إِنَّمَا يَبْغُزَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا وَلَا نَهْرُهُمَا ۚ وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ٢٢ 〉 وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ٢٣ 〉 رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ٢٤ 〉 وَآتَٰ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ۚ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذِرْ بَذِيرًا ٢٥ 〉 إِن الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ٢٦ 〉 وَإِنَّمَا تُعْرَضُونَ عَنْهُمْ أَنْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهُمْ فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِّسُورًا ٢٧ 〉 وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ٢٨ 〉 إِن رَبَّكَ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ٢٩ 〉 وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِن قَتَلْتُمُوهُمْ كَانَ خَطِئًا كَبِيرًا ٣٠ 〉 وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ٣١ 〉 وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ ۚ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ٣٢ 〉 وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۚ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ٣٣ 〉 وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ ۚ إِذَا كَلَّمْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطِ ۚ أَلَمْ تَسْتَقِيمْ ۚ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٣٤ 〉 وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِن السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ٣٥ 〉 وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۚ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ٣٦ 〉 كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ٣٨ 〉 ﴿ (٣٧٥)

(٣٧٥) سورة الإسراء : ٢٣ - ٣٨ .

تلك هداية القرآن وهذا بيانه، يُبين ويصترف الآيات للناس ليذكروا. وقد رأيت كيف بين القرآن وصرف الأوامر والنواهي. فنهى عن كل شر، وأمر بكل خير، أحل ما هو طيب، وحرم ما هو خبيث، وربط الأوامر والنواهي بصدق الإيمان بالله وعدم الإشراك به لتقوم في النفس رقابة ذاتية من معرفة الله وخشيته.

وقد سبقت هذه الآيات بقوله سبحانه ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ (٣٧٦).

وختمت بقوله سبحانه ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ (٣٧٧). فليكن الإخلاص لله رائدك وأنت تأتمر بأمره وتنتهي بنهيه فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه.

اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئا نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه.

٦٠

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ (٣٧٦) وجعلنا على قلوبهم أكنةً أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولولاً على أدبارهم نفورا﴾ (٣٧٨).

إن من كفر بالله وجحد بآياته وأنكر البعث حرم الهداية والتوفيق.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾.

(٣٧٦) : سورة الإسراء : ٢٢ .

(٣٧٧) سورة الإسراء : ٣٩ .

(٣٧٨) سورة الإسراء : ٤٥ - ٤٦ .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ (٥٧) ﴿ (٣٧٩) .

إن الإيمان بالآخرة أصل في حقيقة الإيمان والذين لا يؤمنون بالآخرة يخسرون أنفسهم ولا يزيدهم القرآن إلا خساراً .

قال قتادة : لم يجالس القرآن أحدٌ إلا قام عنه بزيادة أو نقصان قضى الله الذي قضى ﴿ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ .

إن القلوب التي جعل الله عليها أكنة قد حيل بينها وبين تدبره والانتفاع به ؛ عقاباً لها على الإصرار على الكفر والجحود وإنكار العود إلى الله والحساب بين يديه .

وكم من ناس نسوا خلقهم واستحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأخذوا بها فصرّفوا عن الهداية وانغمسوا في الضلالة وكان ذلك جزاءهم ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٥٧) ﴿ وَأُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ وَأَنْصَرَتْهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَافِلُونَ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٣٨٠) ﴿ إن من شرح بالكفر صدراً واستحب الحياة الدنيا على الآخرة خسر الدنيا والآخرة . فما بقيت له دنياه ولا سلمت له أخره .

وكم من ناس تجحد قلوبهم ما تستيقنه نفوسهم طلباً للعلو في الأرض وإيثاراً للحياة الدنيا ، مع يقينهم بأن ما يخاطبون به هو الحق وما يسمعون هو الصدق ، ولكنهم يُعرضون ولا يستجيبون ؛ لأن أهواءهم تقودهم إلى العاجلة وتنسيهم الآخرة . ومن اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم فمن يهديه من بعد الله ؟

(٣٧٩) سورة الكهف : ٥٧ .

(٣٨٠) سورة النحل : ١٠٧ - ١٠٩ .

إن عِلَلُ النفوس تُودي بها، وأمراضُ القلوب تُهلك أصحابها. فالحقد والحسد والبغي والظلم والكبر واتباع الهوى وإيثار العاجلة ونسيان الآخرة كُلُّ ذلك وغيره أمراضٌ مدمرةٌ لأهلها مهلكةٌ لأصحابها.

سئل أبو جهل - وقد استمع إلى القرآن كما استمع غيره. سألَه الأحنس ابن شُرَيْق - وكان ممن يتسلَّل بليلاً ليستمع إلى رسول الله ﷺ - سألَ أبا جهل - وقد رآه يستمع وتعاهد معه ومع أبي سفيان ألا يعودوا - سألَه فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال : ما سمعت. قال : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء. فمتى ندرك ذلك؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه.

تلك هي العلة في نفس كافر جحود. حقدٌ وحسدٌ حالٌ بينه وبين الاستجابة للحق وحرمة من الهداية والتوفيق. ودفعه إلى الصد والكيد والمبالغة في الكفر والجحود وقد لقي جزاءه خسارةً لدينه وخسرانا لأخراه.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِخُونَ الصُّورَ ۚ وَنَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٤٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَآ نَذَرِى مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ ﴿٤٢﴾ وَبَدَأْتُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٨١﴾﴾.

تلك هي عاقبة الذين لا يؤمنون بالآخرة . غرَّبهم الحياة الدنيا فرضوا بها
 واطمأنوا إليها ونسوا الآخرة وشغلوا عنها ، فضلوا وأفسدوا فخسروا دنياهم
 وأخراهم ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ
 نَّصِيرِينَ ﴾ ذَلِكُمْ بِأَنكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ
 مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ
 الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴿٣٨٢﴾ .
 اللهم إنا نسألك رضاك والجنة ونعوذ بك من سخطك والنار .

٦١

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿ وَنُنَزِّلُ
 مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ ﴿٣٨٣﴾ .
 إن للقرآن شأنًا أيَّ شأن .

له شأنه في تبصرة الناس وهدايتهم ، وله شأنه في بيان مصائبهم تبعًا
 لأعمالهم وإيمانهم .

له شأنه في النفوس وما تكون عليه . فمن آمن به فهو له شفاء ورحمة ومن
 أشرك وأعرض فله به خسران أي خسران .

شفاء ورحمة للمؤمنين . شفاء للصدر وشفاء للقلوب وهي تطمئن بذكر
 الله فتسلم من الهوى والحسد ونزعات الشياطين ، شفاء من الاعتقادات
 الفاسدة والأخلاق المذمومة ، شفاء من جميع الأمراض الباطنة والظاهرة ،
 حيث يسلم قلب المؤمن من الحقد والحسد والشك والنفاق والكذب
 والرياء . ويسلم ظاهره من البغي والتسلط والإساءة لغيره .

﴿٣٨٢﴾ سورة الجاثية : ٣٤ - ٣٧ .

﴿٣٨٣﴾ سورة الإسراء : ٨٢ .

ومن تدبر القرآن واستجاب لندائه أيقن بما للقرآن من أثر في طمأنينة القلب وراحة النفس ووجد هدايته في كل شأن .

وإذا عُرِف ما للقرآن من شفاء ورحمة ، وأن السبيل لتحقيق ذلك هو صدق الإيمان به والعمل بما فيه ، فإن من أعرض عنه قد حرّم نفسه بنفسه الرحمة والشفاء ، وعاش في دنياه في قلق وحيرة ، فلا نِعَمَ في دنياه بأمن وسلام - ولو امتلات خزائنه بوفرة من المال - ولا سعد في آخره بفوز أو نجاة .

إن القرآن الكريم قد حدد للناس المعالم وعرفهم ما يوصلهم إلى الفوز والنجاة ؛ وما يسوقهم إلى الدمار والهلاك وقَصَّ عليهم من القصص ما بيّن لهم سنن الله في خلقه . فلم يكن حديثه عن السابقين مجرد حديث عن أمم ماضية ، وإنما كان حديثاً يعرفنا سنن الله الباقية ونحن نراها في مصائر المكذبين وآثارهم . ويبصرها من يبصرها في ديارٍ قد خلت وأمم قد ذهبت ، ليتعظ من يتعظ ويعتبر من يعتبر . ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٨٤﴾ .

فحديث القرآن يُراد به هداية الإنسان . وهو يذكر بسنن الله الباقية في وقائع وأحداث ماضية ، يرى المتدبر مثلها في أحداث حاضرة وواقعة . والسعيد من اعتبر واتعظ والتمس لنفسه النجاة في صالح عمل وصدق يقين . وعرف ما للقرآن من رحمة وشفاء ، فاعتصم به واهتدى بهداه واقتدى بمن كان خلقه القرآن ، فرضي برضاه وسَخِطَ بسخطه ، كما كان هذا حال رسول الله ﷺ . وللقرآن آثاره ونتائجه ، لا في دنيا الناس فحسب ، بل في دنياهم وآخرهم .

وهو يأتي يوم القيامة شفيحاً لأصحابه مدافعاً عن أهله الذين كانوا يعملون به في دنياهم .

وإذا علم أن «الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع آخرين» كما جاء في صحيح مسلم فيما رواه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فهل يعي المسلمون أن القرآن سبيل عزهم ومجدهم - في كل عصر وزمن - وأن من ابتغى العز في غيره أذله الله ؟ هل يدركون أن لا عصمة لهم من فرقة وتنازع إلا بالاعتصام به . ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ؟ هل يدركون أن لا مخرج لهم من ضياع وهوان ولا أمن لهم ولا سلام إلا بنوره وهداه .

هكذا جعله الله . ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٣٨٥) . وهذا أمر الله لهم في كل زمن ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ .

ذاك هو السبيل للرحمة المرجاة ولا سبيل غيره لفوز أو نجاة .

٦٢

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿وَلَيْنِ شِئْنَا لَنذَهِبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَنَجْعَلَكَ بِهِ عَظِيمًا وَكَبِيرًا﴾ (٨٧) ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ (٨٧) ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَلَجْنُ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (٨٨) ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَنَّى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ (٣٨٦) .

﴿وَلَيْنِ شِئْنَا لَنَذَهِبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي القرآن بأن نمحوه من الصدور والمصاحف . واللام في قوله ﴿وَلَيْنِ شِئْنَا﴾ دالة على قسم مقدر .

(٣٨٥) المائدة : ١٥ - ١٦ .

(٣٨٦) سورة الإسراء : ٨٦ - ٨٩ .

وقوله ﴿لَنَذْهَبَنَّهُ﴾ جواب القسم .

ولهذا القسم وجوابه دلالة لا تخفى وهي أن الأمر كله لله وحده وأنه صاحب المنّة والفضل في إنزال الوحي واستبقاء ما أوحى به إلى نبيه ﷺ .

منّة منه وفضل على نبيه وعلى الناس وقد أنزل كتابه وحفظه لينعم به الناس جيلاً بعد جيل ، وهم يجدون هدايتهم وتبصرتهم فيما استبقاه الله وحفظه .

وفي ذلك ما فيه من ردّ على أولئك الذين قالوا لرسول الله ﷺ - وهم لا يرجون لقاء الله - : ﴿ أَنتَ يَقْرَأُ بِغَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ ﴾ فهو ﷺ لا يملك هذا ولا ذاك ولا شأن له في الإتيان أو استبقائه ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَنِيعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ ﴾ .

ولقد كان الرسول ﷺ - وهو يتلقى هذا القرآن - يخاف أن ينسى شيئاً مما يُوحى إليه ويحرك لسانه ليستوثق . فجاءه من ربه ﴿ لَا تَحْرِكْ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۚ إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ ۚ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانْبِعْ قُرْآنُهُ ۚ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ (٣٨٧) .

فالله وحده هو الذي تكفل بشأن هذا القرآن وحيا وحفظا وبيانا وجمعا .

وليس للرسول ﷺ من أمره إلا ما كلف به من تبليغ واتباع .

ولقد كانت الآيات الطوال تنزل عليه وهو يتلقاها ﷺ ويبلغها كما أنزلت بعد مفارقة جبريل عليه السلام . وهو النبي الأمي الذي لم يتلّ من قبل من كتاب ولا يخطه بيمينه . كم تستغرق سورة الأنعام من زمن مع من أراد أن يقرأها ويحفظها ليتلوها على الناس من حفظه ؟ وقد ورد في الخبر أنها نزلت جملة واحدة .

إن الإعجاز فيه وفي إنزاله وحفظه وفي جمعه في صدر نبيه بين لا تخفى دلالة . ﴿ إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ ﴾ علينا لا على غيرنا ، هكذا بنون العظمة الدالة

(٣٨٧) سورة القيامة : ١٦ - ١٩ .

على انفراد العلي العظيم بأمر لا استطاعة فيه لأحد غيره من إنيس أو جن . ولا استطاعة لأحد أن يبقيه إن شاء الله أن يذهبه .

﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنذَهِبَنَّا الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ لكن الله برحمته وفضله أبقاه هدى للناس . فكما امتنَّ على نبيه ﷺ امتنَّ عليه بإبقائه وحفظه ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ أي لكن أبقيناه رحمة من ربك .

والناس عليهم أن يعرفوا هذا الفضل وأن يفرحوا به ﴿فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾ إنه فضل الله ورحمته . ومن آمن بذلك عرف قدر ما تفضل الله به ، فاعتصم به واهتدى بهداه . ومهما قيل في إعجاز القرآن فإن أمره أعظم وأكبر .

إنه روح ، والروح من أمر ربي . فلا يمكن محاكاته ، ولا يملك الجن والإنس أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا .

ولقد صدق السكاكي حين قال عن إعجاز القرآن : «إن شأن الإعجاز عجيب يُدرِّك ولا يمكن وصفه» . ومن تدبر القرآن وكان له قلب عرف ذلك ؛ فالقرآن ليس عبارات وألفاظًا يحاول الجن والإنس أن يحاكوها . إنه روح ، وللروح أثرها في حياة الإنسان وليس للإنسان حياة إلا بها . ومن لم يكن له مع القرآن حياة فهو من الموتى ﴿والموتى بيعثهم الله﴾ .

والحياة التي يتميز بها الإنسان هي في حسن الاستجابة لله وللرسول . ومن هنا كان النداء لأهل الإيمان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ لقد صرَّف الله القرآن وبينه فمن أبى بعد البيان والتذكير إلا الكفر والجحود والإعراض والتكذيب يؤله الله ما تولى ويصله جهنم وساءت مصيرا . ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا نَبَّيْنَاهُ إِلَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولَّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (٣٨٨) .

(٣٨٨) سورة النساء : ١١٥ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الإسراء : ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلُهُ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۚ وَقُرْآنًا فَارَقْنَاهُ لِنُقَرِّاهُ ۚ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ۝﴾ (٣٨٩).

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلُهُ ۝﴾. الحديث هنا عن القرآن الذي قال الله عنه من قبل في هذه السورة سورة الإسراء ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذِهِ الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ۝﴾ وقال سبحانه ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾.

وفي إنزال القرآن بالحق ونزوله به دعوة إلى حسن اتباعه والعمل به .

فإنه الحق . والحق جدير أن يُتَّبَعَ وأن تخضع النفوس له .

ومن اتبع الحق قاده إلى الجنة . ومن اتبع الباطل دمر بدماره ولم يجد سوى الحق في عاقبته ومآله . إن الحق الذي نزل به القرآن وبه أنزل نور تقوم به الحياة ، وحبل واصل من السماء يعتصم به الأحياء ويرتفعون عن الخلود إلى الأرض واتباع الأهواء . له في معاملة الناس وروابطهم شأن أي شأن .

لا تفقده في مواساة فقير أو محاسبة غني ، ولا يغيب عنك في إنصاف مظلوم أو مؤاخذه ظالم . هو ميزان عدل بين الخلق ، وحديث صدق في قيام الناس بالقسط . لا يُخضعه ذو هوى لهواه ، ولا ينشده ذو باطل لباطله . عزيز منيع يُقذف به الباطل ولو احتذى بسطان جائر . وينصف به الحق ولو كان لضعيف خامل .

(٣٨٩) سورة الإسراء : ١٠٥ - ١٠٦ .

إن الحق الذي نزل به القرآن وبه أنزل تُخاطب به الأجيال كلها .
تَفِدُ وتذهب وهو باقٍ بإبقاء الله له ، محفوظ بحفظه لا تنقضي عجائبه .
يهتدي بهداه المتقون ويخسر بجحوده المبطلون .

قد حفظه الله وأبقاه لتستقيم حركة الحياة وتعتدل كلما أريد لها أن تميل ،
وتصفو كلما علق بها زبد الباطل أو غشيتها ظلماته .

إن الحق الذي نزل به القرآن وبه أنزل تحددت به قيم الأشياء وتميزت ،
وعلت قيمة الإنسان حين انتسب إلى الحق وشُرف به . عَلَتْ قيمة الإنسان
وتعلو كلما أخذ نفسه بكلمة الحق التي نزل بها القرآن ، فلم يخضع لنزعة
جنس أو لون ، ولم يستجب لدافع هوى أو إغراء منفعة ، ولم يصرفه عن الثبات
عليه والتمسك به ما يلاقيه في سبيله .

إن قيمة الإنسان تعلو عند الله حين ينصر الحق حيث كان دون نظر لقريب
أو بعيد أو عدو أو صديق . فيغدو بالحق صاحب رسالة وإنسان مبدأ وغاية .
ينصر المظلوم بالحق ولو كان من غير جنسه ويأخذ على يد الظالم بالحق
ولو كان من ذوي قرابته وأهله .

ذاك مقتضى إنزال القرآن بالحق ونزوله به . ومن أنزل القرآن بالحق وحفظه
سَيُحَاسِبُ عليه . ومن أنزل إليهم وشرفوا به سيسألون عنه ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ
وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ (٣٩٠) .

٦٤

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الكهف
﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُ عِوَجًا قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا

(٣٩٠) سورة الزخرف : ٤٤ .

مَنْ لَدُنَّهِ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾
مَكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ
عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾

في حديث القرآن هنا ذكر لمن أنزل الكتاب ومن أنزل عليه .

ومن أنزل الكتاب يستحق أن يُحمد ، ومن أنزل عليه مختار من الله جدير أن
يتبع ، وخير ما يُوصف به أنه عبد الله ورسوله ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ
الْكِتَابَ ﴾ .

والكتاب : هو القرآن الكريم . وقد أنزله الله على عبده محمد ﷺ وجعله
قائما على أحكام الدين ومصالح العباد ، مستقيما لا عوج فيه ولا اختلاف
﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٣٩١) .

وفي ابتداء السورة بالحمد إرشاد للناس أن يحمدوا الله على إرسال الرسول
وإنزال الكتاب . فإن ذلك من أجل النعم وأعظمها .

وقد وصف هذا الكتاب بوصفين : نفي العوج عنه ، وإثبات أنه قيم
مستقيم . وفي النفي والإثبات تأكيد لمعنى الاستقامة وتشديد فيه ليعظم أمر
الاعتداء به والعمل بمقتضاه .

والغرض من إنزال الكتاب على عبده واضح بين ﴿لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ
لَدُنَّهِ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَكِثِينَ
فِيهِ أَبَدًا﴾ .

كتاب قيم في ذاته يدعو إلى الاستقامة ويبشر أهلها .

ويحذر من العوج وينذر أهله .

(٣٩١) سورة النساء : ٨٢ .

والقيّم : المستقيم المعتدل . والأمة القيمة : المعتدلة .

وهذا الكتاب وهو يهدي للتي هي أقوم يدعو إلى الاستقامة في كل شيء :

في العقيدة بعبادة الله وحده وعدم الإشراك به .

وفي السلوك بإتقان العمل وإخلاص القصد لله .

وفي المعاملة بإقامة العدل والبعد عن الظلم والجور .

والقرآن الكريم حين يبشر وينذر، إنما يُبشِّرُ بأجرٍ من الله لا من غيره . ووعد الله حق جزاؤه حق ولن يخلف الله وعده . وحين ينذر بعذاب إنما ينذر بأمر واقع ما له من دافع .

فالذين يبيغون الحياة عِوَجًا ويفسدون في الأرض ولا يصلحون محاصرون ومعاقبون وما هم بمعجزين .

ينذر ويبشر، ولكل عمل عاقبته، ولكل فعل جزاؤه ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾﴾ (٣٩٢).

وللبشرى وللإنذار آثار أي آثار فيمن أيقن أو كذب، ونتائج في سلوك الفرد، وروابط المجتمع فإن من أيقن بالجزاء كف شره عن غيره وقدّم خيره، ومن كذب ولم تردعه عِبرٌ واقعة وعظاٌتٌ بالغة طغى وأفسد، وأحيط به وكان عاقبة أمره خسرا ﴿وَكَانَ مِنْ قَرِيبٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ ۖ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا ثَكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَٰٓأُولِيَ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ

(٣٩٢) سورة النازعات : ٣٧ - ٤١ .

وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿٣٩٣﴾

والفوز في العاقبة لا في الفانية .

فمن ظلم هنا وطغى أخذ بظلمه . ومن استبد واستكبر هلك بذنبه . وسيظل القرآن يبشر وينذر . فمن أصرَّ على شرك وكفر ندم حيث لا ينفع ندم ولا تقبل توبة . ومن تاب من قريب - قبل أن يأتي الموت أو يقع البأس يُعْفِرَ له ما قد سلف . ولن يُترك الإنسان سدى . ومن حَسِبَ ذلك ولم تُبَصِّرْهُ نَشَأَتِهِ أَيْقَظَتْهُ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ وَرَأَى مَا كَانَ عَنْهُ يَحِيدُ . فطوبى لمن استبصر وأُنَابَ قبل أن يأتي يوم الوعيد .

وتلك بشرى القرآن ، وهذا إنذاره . ولا حجة بعد بلاغ ، ولا عذر بعد بيان وإنذار . ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ ﴿٣٩٣﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿٣٩٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٩٥﴾﴾

٦٥

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الكهف ﴿فَلَعَلَّكَ بَخِيعُ نَفْسِكَ عَلَىٰ أَثَرِهِمْ أَنْ لَا تَرْتُومُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسْفًا ﴿٣٩٣﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَنَّا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٣٩٤﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٣٩٥﴾﴾

(٣٩٣) سورة الطلاق : ٨ - ١١ .

(٣٩٤) سورة الروم : ١٤ - ١٦ .

(٣٩٥) سورة الكهف : ٦ - ٨ .

من المعلوم أن الرسول ﷺ - وهو يعلم أن مصائر الناس تتحدد بموقفهم من الحق اتباعاً أو إعراضاً - كان يحزنه أن يكذب قومه بالقرآن ويعرضوا عنه .

﴿ فَلَمَّا لَكَ بِخَيْعٍ نَفْسِكَ عَلَىٰ مَا نَثَرِهِمْ إِن لَّمْ تَرْؤُمْوْنَا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسْفًا ۖ ﴾ .

والمراد بهذا الحديث : القرآن الكريم .

والتكذيب بالقرآن - وهو حق - مُفْضٍ إلى اضطراب في الدنيا وخسران في الآخرة ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ (٣٩٦) .

من هنا كان أسف الرسول وحزنه على هؤلاء المكذبين المعرضين لما يعرفه من سوء عاقبة لهم ومصير .

فخاطبه ربه في كثير من الآيات أن هؤلاء لا يستحقون أن تحزن عليهم وتأسف فإنهم لو استحقوا الهداية لهداهم الله .

﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِن لَّمْ يُلَاحِظْهُ مِن يَشَاءُ وَيَهْدِ مِنْ يَشَاءُ فَلَا نُذِيبْ نَفْسًا عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنِ اتَّخَذُوا عَلِيمٌ مِّمَّا يَصْنَعُونَ ۖ ﴾ (٣٩٧) .

إن من أراد الله إضلاله بما علم من سوء قصده وإحباط عمله لا مقدرة لأحد من البشر على هدايته . ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۖ ﴾ (٣٩٨) .

إن الناس يختلفون في تقبل الحق والعمل به ، كما تختلف الأرض إذا أصابها الغيث فمنها ومنها .

(٣٩٦) سورة ق : ٥ .

(٣٩٧) سورة فاطر : ٨ .

(٣٩٨) سورة الجاثية : ٢٣ .

منها ما يقبل الماء فينبت ويعطي ، ومنها ما لا يمسك ماء ولا يقدم عطاءً
وما بُعث به الرسول ﷺ من الهدى والعلم غيث تستقبله النفوس كما تستقبل
الأرض ما يصيبها من ماء .

والمنتفعون بهذا الغيث أولئك الذين طابت نفوسهم فاستقبلت ما بعث الله
به نبيه من الهدى والعلم كما تستقبل الأرض الطيبة الماء فتتهز وتربو وتنبت
من كل زوج بهيج . وقد اقتضت حكمة الله أن يتلي الناس بما أنعم وأعطى ،
ولم يُجبرهم على إيمان أو يقهرهم عليه . وإلا لانتفى الحساب وبطل
الجزاء .

وقد أمر الرسول ﷺ أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَّغُ وَعَلَيْنَا
الْحِسَابُ ﴾ (٤٠) ﴿ (٣٩٩) .

والله عز وجل عليم بخلقه لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في
السماء . والحساب عنده دقيق يجمع ما تطويه الصدور وما تكسبه الجوارح
﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ
حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (٤٠٠) .

ولعل هذا يكشف لنا وجه المناسبة بين قوله وهو يخاطب نبيه ﴿ فَلَعَلَّكَ
بِخُفِّ نَفْسِكَ عَلَى آثَرِهِمْ أَنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا
عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَنْ يَنْبَلُوهُمُ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا
صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ .

(٣٩٩) سورة الرعد : ٤٠ .

(٤٠٠) سورة الأنبياء : ٤٧ .

فلا أسف على من يكذب بهذا الحديث في دنيا الناس .
فإن دنياهم بساطٌ لا بدَّ أن يُطوى ، وزرع لا بدَّ أن يُحصد ، ومتاع قليل لا بد
أن يزول .

ومن الناس من يُفتن بدنياء ويرى نفسه بها ، ومنهم من يعرف حدودها
فيخضعها لغاية أرزى وأبقى .

والقرآن الكريم وهو حديث حق — يذكر ويبصر ويهدي للتي هي أقوم ،
يبصر بالعواقب ويذكر بالنتائج . لِيُعْلَمَ أن ساحة الحياة لم تكن متروكة لطاغية
أو جبار ، وإنما هي محكومة بسنن عادلة .

فمن طلب الحق هُدي إليه . ومن رغب في الباطل واتبعه دُمِّر به ولا أسف
على مبطل ، ولا حسرة على ظلم جحد .

ومع بيان العاقبة والمصير يدرك كل داع إلى الحق أن الحق لا يهزم أبداً وإن
جحده المبطلون أو عارضه المكذبون .

والناس يدعون إلى اتباع الحق هنا في الدنيا وهم مأخوذون به مجزيون عليه
عند مليك مقتدر .

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ
وَعِيدِ ﴾ (٤٥) ﴿ (٤٠١) .

إن حديث القرآن حق وصدق وعدل ، فاحذر أن تميل عنه إلى باطل أو
تركن إلى ظالم ، أو تؤخذ ببريق خادع كاذب فتضل السبيل وتهلك مع
الهاكين ﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فْتَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَالَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ
مَنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ (١١٣) ﴿ (٤٠٢) .

(٤٠١) سورة ق : ٤٥ .

(٤٠٢) سورة هود : ١١٣ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الكهف ﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشَىٰ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (٤٠٣) أمر الله رسوله ﷺ أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه هداية للمتقين ونذيرًا للعالمين وما أوحاه الله إلى نبيه هو الحق الذي تصان به الحقوق وتُعرف الواجبات .

وللناس أهواءهم وشهواتهم ولهم دوافعهم ومنافعهم .

والحق لا يتبع أهواء الناس ولا يخضع لشهواتهم .

﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن﴾ .

وأصحاب الهوى لا يريدون قرآنًا يصدع بالحق وينطق بالصدق ويدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له . وهم يزنون الأمور بالأهواء والمنافع ، ويؤثرون الرغائب وينسون العواقب . . وينشدون العاجلة ويذرون الآخرة .

لذا نراهم وهم يسمعون القرآن يُتلى عليهم يقولون لرسول الله ﴿أئت بقرآن غير هذا أو بدله﴾ إنهم يريدون أن يتبع الحق أهواءهم فيذعنون له ويطيعون ، وإن يكن غير ذلك فهم عنه معرضون .

إن هؤلاء الذين يقولون لرسول الله ﷺ : «أئت بقرآن غير هذا أو بدله» ينشدون دينًا يتبع أهواءهم .

والرسول ﷺ لا يأتي بشيء من عند نفسه وإنما يتبع ما يوحي إليه من ربه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۖ﴾ . ﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ

كِتَابِ رَبِّكَ ﴿٤٠٤﴾ ولا تلتفت إلى قولهم ، أي اقرأ ما أنزل إليك واتبع ما فيه واعمل به ﴿٤٠٥﴾ لا مبدل لكلماته ﴿٤٠٥﴾ أي لا مغير للقرآن ، ولا يقدر أحد أن يتوصل إليه بتغيير أو تبديل .

ومن هم بتبديل أو تغيير لم يجد من دون الله ملجأ يلجأ إليه أو مهربا يأوي إليه .

القرآن قد أنزل بأمر الله وحفظ بحفظه ولا مبدل لكلماته .

والمؤمنون بالقرآن مطالبون - أسوة بنبيهم - أن يستمسكوا به وأن يشبوا على الحق ولألا يميلوا عنه ، وأن يحبسوا أنفسهم عما يصرفهم عن الثبات ، وأن يحذروا استخفاف أهل الباطل واستدراجهم ؛ فإن من مال عن الحق أو أعرض عنه أخذ بذنبه ودمر بمعصيته ، ومن ركن إلى ظالم أخذ معه ، ومن مال إلى باطل دمر به .

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ ﴿٤٠٤﴾
﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ ﴿٤٠٥﴾

ذاك ما أمر الرسول ﷺ به ودُعينا إلى اتباعه .

دُعينا إلى رفقة أهل الإيمان ومصاحبة الكرام الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه وأن لا تزدري أعيننا فقيرا لفقره أو تؤخذ بغني لغناه .

بل علينا أن نزن الناس بأعمالهم وأخلاقهم كما أمر الله .

فإن أعراض الحياة الدنيا ذاهبة فانية ولا يبقى للإنسان إلا ما قدمت يداه .

(٤٠٤) سورة الروم : ٦٠ .

(٤٠٥) سورة الكهف : ٢٨ .

ولن يجد إلا صدق الإخلاص وصالح الأعمال . ولن ينجو إلا بسلامة قلب وإيثار خير . ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ (٤٠٦).

فلنصبر مع أهل التقى ، ولنحذر أن نؤخذ بزينة أو متاع بعيداً عن ملازمة عباد الرحمن الذين يحبهم الله ويحبونه ، ويذكرون الله ولا ينسونه . ﴿أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب﴾ ميزاننا في ذلك كله القرآن الكريم والسنة المطهرة .

القرآن يهدي للتي هي أقوم . والسنة ترينا كيف نحقق ما يهدي القرآن له ويدعو إليه . وقد كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه ﷺ .

٦٧

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الكهف ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (٤٠٧).

هكذا أمر الرسول ﷺ أن يخاطب الناس ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي هذا القرآن هو الحق من ربكم . وكونه كذلك يدعوكم إلى حسن اتباعه والاستمسك به فهو الحق من ربكم . وقد اقتضت حكمة الله أن لا يرغم أحد على اتباعه أو يكرهه على الإيمان به .

﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ ومع ما يبدو في ذلك من تخيير فإن فيه تخويفاً وردعاً ولذا أعقبه بقوله ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ .

(٤٠٦) سورة الشعراء : ٨٨ - ٨٩ .

(٤٠٧) سورة الكهف : ٢٩ .

إنها لجنة أبدا أو لنار أبدا . فمن شاء الجنة فليؤمن بالقرآن وليعمل به . ومن شاء النار فليكفر به ولا عذر بعد بيان ولا حجة بعد إعدار وإنذار .

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۚ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ ۚ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِىٰ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ۚ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيَرْيَكُمُ أَيُّنَهُ فَنَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۚ ﴾ (٤٠٨) .

إنه الحق يبلغ للناس ويُتلى عليهم إصلاحًا لدنياههم وفوزًا في آخرهم .
وللحق نفعه وأثره في النفوس وهي تؤمن به فتتحول — بفضل الله ورحمته — من ضلال إلى هدى ، ومن فجور إلى تقى ، ومن ظلام إلى نور ، ومن خوف إلى أمن وسلام .

ذاك هو الحق وتلك بعض آثاره ونتائجه .

ومن رحمة الله بالخلق أن حفظ لهم الميزان الذي يزنون به أعمالهم ليقوم الناس بالقسط وليحكموا فيما بينهم بما أراهم الله وبيّن رسوله ، لا بما تمليه أهواؤهم وشهواتهم وهم من بعد سيعودون إليه ويحاسبون على ما عملوا ويتحدد مصيرهم بموقفهم من الحق الذي خوطبوا به في دنياههم وأرسل الله من أجله الرسول وحفظ الكتاب .

ومن تدبر العواقب الباقية ولم تفتنه الرغائب العاجلة الذاهبة أيقن يقينا لا شك فيه أن الحق لا يهزم أبداً وأن الباطل مهما طغى وعُربد محكوم عليه بالذهاب والدمار ومن عرف ذلك وآمن به استمسك بالحق وصبر على ما يلاقه في دنياه .

ولا شيء يعزُّ به الإنسان وتعلو قيمته كانتصار الحق في نفسه وإثارة .

(٤٠٨) سورة النمل : ٩١ - ٩٣ .

وانتصار الحق في النفوس قد يواجه مَعَارِكَ ضارية في دنيا الناس ، يجاهد فيها المؤمنون ويكابدون من سفهاء عصرهم ومن المبغضين لحقهم ما يكابدون . ويفتنون عن الحق بشتى الوسائل وصنوف البلاء . وقد يُقْتَلُونَ فيتتصر الحق وهم يقتلون . وَيَغْلِبُ وهم في نظر الناس يُغْلَبُونَ . وقد يَغْلِبُ المغلوب ساعة يُغْلِبُ . ويتتصر المقتول ساعة يُقْتَلُ .

والحق حين ينتصر في النفوس تؤثره وترضى بالموت دونه . والحق لا يموت بموت الداعين إليه ويذهب بذهابهم . وكم من طغاة قاوموه وعارضوه فهلك الطغاة وبقي الحق محفوظًا بحفظ الله . فلا الحقُ ذهب ولا من قُتِلَ في سبيله قد مات . بل قُتِلَ من عاداه . وذهب ما سواه . والقتل في سبيل الله حياة أي حياة ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩) ﴿٤٠٩﴾ .

اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ، إنك نعم المولى ونعم النصير .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الكهف ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرِ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ ﴿١٦٩﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٤١٠﴾ .

﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي كررنا ورددنا القول في القرآن بكل مثل يوجب الاعتبار من الآيات والعبر والترغيب والترهيب والأوامر والنواهي ليجد الناس هدايتهم في كل شأن من شئونهم . إنه من أجلهم ولرعاية

(٤٠٩) سورة آل عمران : ١٦٩ .

(٤١٠) سورة الكهف : ٥٤ - ٥٥ .

مصالحهم ومنفعتهم . لقد ضرب الله لهم الأمثال ونوعها لتشمل جميع الأحوال .

فما من شأن إلا وللقرآن فيه بيان ، وما من أمرٍ إلا وله فيه موعظةٌ وتبصرة
﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ
لِّلْمُسْلِمِينَ﴾ (٨٩) ﴿٤١١﴾ .

ومن تدبر آيات القرآن رأى في تفصيلها وتصريفها عاقبة كل أمرٍ وجزاء كل عمل . واستلهم العبرة والخشية مما يتلى عليه من مصائر الأمم وعاقبتها . وعرف أن كل نفس مأخوذة بعملها . وأن كل إنسان مرهون بما كسبت يده .
﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٤١٢) .
وإذا أيقن الإنسان بما هو صائر إليه لم يُفتن بزائل أو يُستخفَّ بفانٍ ، بل ينظر في كل أمرٍ عاقبته وفي كل قصيدٍ جزاءه .

ومهما يكن فالله ليس بزائلٍ ويجني الفتى من بعد ما هو غارسُ

ومع ذكر العواقب والتائج واليقين بها يتزّن سلوك الإنسان ويستقيم قصده ويبقى الإنسان مع السراء والضراء إنساناً بإيمانه وخلقه لا بزيته ومتاعه . وإذا علم أن هذا الكون مسخر لتبصرة الإنسان وتذكرته - وأن آيات الله في الآفاق وفي الأنفس تتسق في ذلك مع آيات الذكر الحكيم ، استطاع الإنسان وهو يخاطب بآيات القرآن أن يرى في كل شيء حوله دلالةً وهدايةً وتبصرةً وذكرى .
وتدبر آية الله فيما يساق إليك من رزق وما يتلى عليك من ذكر ترى الاتساق الفطري بين آية الوحي وآيات الله في الكون ، كما ترى في تصريف الآيات

(٤١١) سورة النحل : ٨٩ .

(٤١٢) سورة آل عمران : ٣٠ .

وتقسيم الأرزاق تبصرة وذكرى لكل عبد منيب .

واقراً إن شئت قول الله عز وجل في سورة النور ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ يَجْعَلُهُمُ رُكَّامًا فَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَاقُوهَ إِذْ هَبَّ بِلَا بُصَيْرٍ ﴿٤٣﴾ يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾﴾ (٤١٣) .

وتدبر تر العبرة تساق للإنسان في يسر في مطلع فجر وفي إقبال ليل ، وفي تقلب ليل ونهار ، وفي تسخير شمس وقمر ، في تذليل أرض ورفع سماء ، وفي إنبات زرع وإنزال ماء .

فترى كلمة الحق - التي صرفها الله في هذا القرآن - تخاطب بدلالاتها في كل خطوة ، وتشهدها في كل لمحة ، وتبصرها في الآفاق وفي الأنفس دائبة لا تتوقف ، ظاهرة لا تُنكر ، بيّنة لا تخفى ، ملازمة للخلق في حل وترحال ، وليل ونهار ، وصحو ونوم ، وجوع وشبع ، وصحة ومرض ، وعسر ويسر ، وشدة ورخاء ، لا تنفك عنهم في خلق أو موت ، أو بعث ونشور ، ولا تغيب في حساب وجزاء ، ولا يرون غيرها في جنة أو نار .

أرأيت لِمَ يُصَرِّفُ اللَّهُ الْآيَاتِ وَيَقْلِبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ .

إن رحلة الحياة الدنيا - وفيها القرآن يُتلى - تراها عميقة الدلالة .

يظفر السعيد بدلالاتها ، وينعم بتبصرتها .

ويُفْتَنُ الشقي بزينتها ويؤخذ بزهرتها .

وتبقى الآيات مع الأجيال كلّها تقدّم دلالتها وتعطي عبرتها وتدعو إلى الحق وتنهى عن الباطل . فويل لمن قرأ ولم يتدبر ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ لَآيَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴿٤١٤﴾.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الكهف ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَمُجَدِّدِلَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٤١٥﴾.

الحق بين واضح، ثابت ينفع الناس وما ينفع الناس يمكث ويبقى. فإذا أعرض الناس عنه أو آثروا غيره فَلِعَلَّةٍ فِي نَفْسِهِمْ. ومن أنكر النور فَلِعَمَى فِي بَصِيرَتِهِ، لا في الحق المشرق المنير.

وَعَلَّلَ النُّفُوسَ هِيَ الَّتِي تَصْرِفُ النَّاسَ عَنِ الْحَقِّ وَتُبْعِدُهُمْ عَنِ اسْتِحْبَابِ الْهُدَى وَالرِّشَادِ وَتَجْعَلُهُمْ يَسْتَحِبُّونَ الْعَمَى عَلَى الْهُدَى.

والرسل الكرام صلوات الله عليهم يبلغون رسالات ربهم ويبشرون وينذرون. وأهل الكفر والضلال سادرون في غيهم يجادلون يستهزئون ويكذبون ويتخذون آيات الله وما أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَمُجَدِّدِلَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾.

والعقاب لهؤلاء حِرْمَانٌ مِنَ الْهُدَايَةِ الَّتِي سَخَرُوا مِنْهَا وَخَتَمَ عَلَى الْقُلُوبِ،

(٤١٤) سورة آل عمران : ١٩٠ - ١٩١ .

(٤١٥) سورة الكهف : ٥٦ - ٥٧ .

وَوَقَّرَ فِي الْأَذَانِ ، يَحَقِّقُ لَهُمُ الْحَرَمَانَ وَيَجْلِبُ الْخُسْرَانَ ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ .

هؤلاء الذين يستهزئون بآيات الله لا يرجى منهم أن يفقهوا القرآن ، ولا أن ينتفعوا به ، لذلك جعل الله على قلوبهم أغطية تحول دون فقهه ، وجعل في آذانهم وقراً فلا يستمعون إليه سماع تدبر ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم﴾ .

وقد قَدَّرَ الله عليهم الضلال بسبب إعراضهم واستهزائهم وإصرارهم ﴿فلن يهتدوا إذا أبدا﴾ ذلك جزاء من أعرض عن الحق أو استهزأ به . جزاء مهلك مدمر .

وكم من نداء للعباد أن يفيئوا إلى رشدهم وأن يستجيبوا لنداء ربهم وأن يتبعوا ما جاءهم من الحق من قبل أن يأتيتهم العذاب .

كم من نداء يحذرهم عاقبة التكذيب بالحق أو الإعراض عنه . وما أنزل الله الحق إلا لمصلحتهم في دنياهم وآخرتهم ، والله غني عنهم وعن استقامتهم .

أخي المسلم ، إن الاستمسك بالحق والثبات عليه لا يكون مع إيشار الدنيا والركون إليها والرضا بها وإنما يتحقق بصدق اليقين بالآخرة والسعي لها والإشفاق منها والرجاء فيها .

ولا يستطيع أن ينهض بتبعات الحق واتباع ما أنزل الله إلا من كان يرجو الله واليوم الآخر .

إن الفتنة بالحياة أَبْعَدَتْ نَاسًا عَنِ الْحَقِّ وَأَنْسَتْهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ فَبَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ .

وكم من ناس ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون

صُنْعًا، استخفهم أهل الباطل فأطاعوهم فردوهم بعد إيمانهم كافرين .
ولا غنى لمن طلب النجاة من إثارة الحق وإخضاع الهوى له وإعلان الرضا
به .

لِيَعْتَدِلَ سعي الإنسان في دنياه فلا ينسى نصيبه من الدنيا ولا تشغله الدنيا
عن ابتغاء مرضاة الله ، أو تجعله يَغْفُل عما هو صائر إليه من الحساب والجزاء
في الآخرة . وذاك ما يجعله لا يستحل حرامًا ، ولا يحرم حلالًا ، بل يأكل من
الطيبات ويعمل الصالحات ، ويذكر الله ذكرًا كثيرًا ولا ينساه .

حديث القرآن عن القرآن في آيات من:

- ١ - سورة طه
- ٢ - سورة الأنبياء
- ٣ - سورة الحج
- ٤ - سورة المؤمنون
- ٥ - سورة النور
- ٦ - سورة الفرقان
- ٧ - سورة الشعراء
- ٨ - سورة النمل
- ٩ - سورة القصص
- ١٠ - سورة العنكبوت
- ١١ - سورة الروم
- ١٢ - سورة لقمان
- ١٣ - سورة السجدة
- ١٤ - سورة سبأ
- ١٥ - سورة فاطر

obeikandi.com

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة طه ﴿طه﴾
مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿١﴾ إِلَّا تَذَكُّرًا ﴿٢﴾ لِمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ
الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَىٰ ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ ﴿٤١٦﴾.

في هذه الآيات حديثٌ عن القرآن في خطابٍ إلى الرسول ﷺ ﴿طه﴾ * ما
أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴿١﴾ . فما أنزل الله عليك القرآن ليؤدي إلى شقائك به أو
بصبيه ؛ فهو ميسر للذكر ، لا تكليف فيه فوق الطاقة .

وما أنزلنا عليك القرآن لتشقى مع الناس حين لا يؤمنون ، وإنما عليك
البلاغ ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات . وما أنزلنا عليك القرآن إلا للتذكير
والإنذار ﴿٢﴾ إلا تذكرة لمن يخشى ﴿٣﴾ ، وتلك هي وظيفتك أن تبلغ ما أنزل إليك
من ربك . ولا عليك إن أعرضوا عنك أو لم يستجيبوا لك ، فأنت لا تملك
هدايتهم ولو أحببت ذلك ﴿٤﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ
وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥﴾ ﴿٤١٧﴾ .

إن الله الذي أنزل عليك القرآن له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما
وما تحت الثرى ، وهو أعلم بخفايا القلوب وما تضره النفوس ، يعلم السر
وأخفى .

فمن هداه إلى الحق هداه عن معرفة وعلم ، ومن أضلّه أضلّه على علم .
ولا أحد يملك أن يهدي من أضله الله وختم على سمعه وقلبه وجعل على
بصره غشاوة . وهذه الحقيقة تحدّد للإنسان غايته وتبصره بما يجب أن يكون

﴿٤١٦﴾ سورة طه : ١ - ٦ .

﴿٤١٧﴾ سورة القصص : ٥٦ .

عليه من صدق الإخلاص لله وحسن التوجه إليه وطلب الهداية منه . كما تُحقَّق في النفس أدبًا وتواضعًا وخشية .

إن المؤمن — وهو يأخذ بالأسباب — لا يركن إليها ولا يسند الفضل إليها ، وإنما يسند الفضل إلى الله الذي هيأ له الأسباب وحقق له النتائج .

إنه يأخذ بالأسباب طاعةً لربه ، وهو يطلب ما عنده من هداية وتوفيق . وما عند الله لا يطلب إلا بطاعته .

واليقين بأن الهداية والتوفيق بيد الله وحده تحقق للنفس فضائلها وللمجتمع روابطه في أخوة بارة راشدة ، لابغي فيها ولا تسلط ولا كبر ولا استعلاء ، لأن الجميع يؤمنون بأن الفضل لله وحده فيما وفق إليه . ولولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا ، وهذا الأدب الرفيع والخلق العالی . واليقين بأن الفضل لله وحده يلزم أهل الإيمان فلا يسمع منهم نسبة فضل إلى أنفسهم أو دعوى نجاة وفوز بعملهم . ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَمَلٍ طَوِيلٍ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٤١٨) .

تلك هداية القرآن وتذكرته : ما نزل لشقاء الناس والتعسير عليهم ، وإنما نزل رحمة بهم وشفاء لما في صدورهم . ومن خسر خسر بعمله ، ومن شقي شقي بإعراضه وكفره .

ومن حرم الهداية حرمها بإصراره على معاداة الحق والكيد لأهله . القرآن فضل الله ورحمته . فإذا شغل الناس عنه بما يجمعون — ورأوا أنفسهم

بما يجمعون لا بما يوعظون به ويرحمون ، فهم الذين اختاروا لأنفسهم وآثروا ما يَفْنَى على ما يبقى ، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها - كان من عقابهم في دنياهم أن تفقد دنياهم سلمها وأمنها وبرّها وعدلها ؛ لأن ذلك منوطٌ بصفات النفس لا بزيبتها ، مرتبطٌ بالقيم والأخلاق والإيمان بيوم الحساب .

وآيات القرآن وهي تُتلى علينا تنقلنا من ظلمات الأهواء إلى نور الإيمان واليقين ، وتقودنا إلى الفرار إلى الله لنحسن في الحياة ولا نسيء ، ونصلح ولا نُفسد ونؤمن ونعمل الصالحات دون تواكل أو قعود .

ذاك هو القرآن الذي يجب أن تفرح به النفوس وأن تراه عزّها وشرفها وألا تُشغل عنه بما يفنى وهو يقودها بالخير والتقى إلى ما يدوم ويبقى .

﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ (٤١٩).

فتدبر - أخي المسلم - ما يُتلى عليك وانظر ما فعلت هذه الآيات مع عمر ابن الخطاب رضي الله عنه . فقد حولته - بهداية الله - من حال إلى حال ، وجعلت منه - وهو يؤمن بالله وكلماته - الفاروق عمر بن الخطاب . وتلك هي الآيات فاجعلها ذكرى لنفسك ونورا لقلبك وسبيلا لنجاتك وفوزك ﴿٥٨﴾ طه ﴿٥٩﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْفَى ﴿٦٠﴾ إِلَّا تَذَكُّرٌ ﴿٦١﴾ لِمَنْ يَخْشَى ﴿٦٢﴾ تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٦٣﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٦٤﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦٥﴾

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة طه ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿٥٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿٦٠﴾ خَلِيدٍ فِيهِ سَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿٦١﴾ (٤٢٠).

(٤١٩) سورة يونس : ٥٨ .

(٤٢٠) سورة طه : ٩٩ - ١٠١ .

جاءت هذه الآيات - التي تتحدث عن القرآن - بعد قصة موسى عليه السلام مع فرعون ومع بني إسرائيل والسامري .

وقد خطب النبي ﷺ بقوله سبحانه ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴾ تسلياً له ﷺ وتبصرة ، وتذكير للمستبصرين من أمته . ﴿ وقد آتيناك من لدنا ذكراً ﴾ قرآنا منظوياً على القصص والأخبار .

﴿ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ﴾ فلم يؤمن به ﴿ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴾ حملاً ثقيلاً من الإثم تسوء به العاقبة .

والذكر الحكيم وهو يَقُصُّ علينا من أنباء ما قد سبق يقدم لنا العبر والعظات . فالقصص القرآني وهو يخبر عن أحداث ماضيه يرينا فيها سُناً باقية هي سنن الله التي لا تبدل ولا تتحول . تقع في اللاحقين كما مضت في السابقين .

فمن طغى وتجبر وأصر على طغيانه واستكبر دمر بذنبه وأخذ بمعصيته .

وإذا تدبرنا ما أشارت إليه هذه الآية الكريمة - ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴾ أي كما قصصنا عليك هذه القصة قصة موسى مع فرعون ومع بني إسرائيل والسامري نقص عليك من أخبار ما قد سبق . إذا تدبرنا قصص القرآن بعامة وقصة موسى عليه السلام مع فرعون بخاصة أمكننا أن نرى الحقائق التالية التي تمتد مع الزمن ولا تنقطع :

أولاً : أن من حفظه الله لا يُضَيِّعُهُ الناس .

نرى ذلك في حفظ موسى ورعايته وهو وليد تخشى عليه أمه أن يذبح كما ذُبح غيره . فلا يوحى إليها أن تتعد به عن الخطر وتختفي عن الأنظار .

بل يوحى إليها ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ﴾ .

يُوحى إليها إذا خافت عليه وهي ترضعه بأن تلقيه في اليم، واليمُّ يوصله إلى عدوِّ يكيد له فيرتبى عنده ويُنشأ بين يديه، لأن الله يريد حفظه. ومن حفظه الله لا يضيع ولو تأمر عليه المتآمرون وأحاط به الظالمون الجبارون ﴿وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا نَأْرَظُوكَ وَإِلَيْكَ وَجَعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

وكان ما وعد الله به وعاد موسى إلى أمه تُرضعهُ وتأخذُ أجراً، وبقيت العبرة للأجيال كلها يعقلها العالمون ويُصرف عنها الغافلون ﴿فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ (٤٢١).

ثانياً: أن الباطل مهما طغى وعزَّبد فإن له ساعة يذل فيها ويزهق. وفي فترة الإملاء له قد ترى مفتونين به مأخوذِينَ بزِينته يستخفهم بوعده ووعيده ويغريهم بزِينته ومتاعه. فإذا جاءت الساعة القاضية شملهم الانتقام وعمَّهم الهلاك وجعلوا في أخذهم عبرة لغيرهم. ﴿فَأَسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ۖ فَلَمَّاءَ اسْفُونَا ۖ أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ (٤٢٢).

ثالثاً: أن الحق إذا انتصر في النفوس فلا تسل عن قوتها وثباتها وتجردها لخالقها وهي تعلم العاقبة وتدرك المصير.

وهذا ما كان من سحرة فرعون - وقد أحضرهم وأغراهم ليكونوا نصراً لباطله - ولما وقع الحق وظهر سجد السحرة لخالقهم وأعلنوا إيمانهم برب موسى وهارون.

انتصر الحق في نفوسهم ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُبُجًا ۖ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ۚ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدْنَى لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا قِطْعَ بِأَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ مِّنْ خِلَافٍ وَلَا أَصْلَ بَنَاتِكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ

(٤٢١) سورة القصص : ١٣ .

(٤٢٢) سورة الزخرف : ٥٤ - ٥٦ .

عَذَابًا وَابَقَى ﴿٤٢٣﴾. فهل صرفهم هذا البغي المتسلط وهذا الوعيد من متكبر جبار يعرفون بغيه ويشهدون ظلمه، هل صرفهم عن الثبات على الحق أو مال بهم أدنى ميل؟

إنهم قد ألقوا على الدنيا كلُّها درسًا يُعلِّمها أَنَّ الحقَّ غالٍ تبذل في سبيله النفوس، وأن من أيقن بالعاقبة عرف أن الحق لا يُهزم أبدًا، إنهم بموتهم على الحق هم المنتصرون وهم الغالبون.

وقد سجل القرآن الكريم موقفهم - وهو يُتلى على الناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ليكون موعظة للمتقين، وبيانا للناس أجمعين ﴿٧٢﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٣﴾ إِنَاءً آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَابَقَى ﴿٧٤﴾ إِنَّهُمْ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُمْ مَحْجَرًا فَإِنْ لَهُ جَهَنَّمُ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿٧٥﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿٧٦﴾ ﴿٤٢٤﴾.

٧٢

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى من سورة طه ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٢﴾ فَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ أَمْلِكُ الْحَقِّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿٤٢٥﴾. والحديث هنا عن القرآن من حيث إنزاله بلسان عربي، وتصريف الوعيد فيه تخويفا وتهديدا؛ لعل الناس يتقون الشرك ويتركون المآثم والمحارم والفواحش. أو يحدث لهم القرآن اعتبارًا وتعاضا ويحقق فيهم طاعة وعبادة.

(٤٢٣) سورة طه : ٧٠ - ٧١.

(٤٢٤) سورة طه : ٧٢ - ٧٦.

(٤٢٥) سورة طه : ١١٣ - ١١٤.

ولما بين الله للعباد عظيم نعمته عليهم بإنزال القرآن نزه نفسه - سبحانه - عن مماثلة مخلوقاته في شيء من الأشياء فقال سبحانه : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ أي جل الله عن إلحاد الملحدين وعما يقول المشركون في صفاته .

فإنه الملك الذي بيده الثواب والعقاب وإنه الحق الذي تعنوا له الوجوه ويخيب في حضرته الظالمون ، ويأمن في ظله المؤمنون الصالحون ﴿ وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ (١١١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿ (٢٦٤) ذلكم الله ربكم الذي أنزل القرآن وصرف فيه من الوعيد لغاية وحكمة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ (١١٢) ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ النافذ أمره ونهيه ، الحقيق بأن يرجى وعده ويخشى وعيده .

وفي الآية توجيه للنبي ﷺ وتعليم له كيف يتلقى القرآن . وقد كان ﷺ يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحي حرصاً على ما كان ينزل عليه وشفقة على القرآن مخافة النسيان فنهاه الله عن ذلك وأنزل ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ . وهذا كقوله تعالى ﴿ لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ (١٦) إِنَّ عَيْنَا جَمَعَهُ وَقُرْآنُهُ ﴿ (١٧) فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنبَغْ قُرْآنُهُ ﴾ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿ (١٩) ﴾ (٤٢٧) .

وفي ذلك ما فيه من عظم شأن القرآن وأنه محفوظ بحفظ الله ، وعلى عظم شأن الرسالة والرسول ، وأن الله قد علمه ما لم يكن يعلم ، وأن فضله كان عليه عظيماً .

وأي فضل أعظم من إنزال القرآن عليه؟ وما كان يتلو من قبله من كتاب ولا

(٤٢٦) سورة طه : ١١١ - ١١٢ .

(٤٢٧) سورة القيامة : ١٦ - ١٩ .

يخطه يمينه .

وقد أنزل القرآن بلسان عربي مبين ، فصان العربية وحفظها وأعلم ، قدرها وشأف أهلها ، وألزمهم مسئولية تبليغه وحق اتباعه والعمل به ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ .

فانتقل به العرب من حالٍ إلى حال . فكانوا به خير أمةٍ أخرجت للناس . تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله . أضاء لها جوانب الحياة ، فعزّت دينها وشرفّت برسالتها ، ويبقى لها عزها ما اعتزت به . ومن ابتغى العز في غير ما أعزّه الله به أدلّه الله . فلنعرف للقرآن قدره ، ولتتبع أمره ، ولنعصم به في كلّ أمر ، ولنهتد بهدائه في كلّ شأن ، وليدرك العرب قاطبة ما شرفهم الله به - ومن نطق العربية فهو عربي - ولتجتمع كلمة المسلمين جميعا على ما دعاهم القرآن إليه ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾ .

إنهم بالإسلام ولن يكونوا أبدا بغيره . وإن العروبة هي اللسان والإسلام . وما كانت العربية لتبقى كلسان لولا أن أبقاها وأعزها الله بنزول القرآن فليست العربية - بعد هذا الشرف - نسباً إلى أب وأم وإنما هي اللسان . وكم من لسان أعجمي صار عربيا بالقرآن . وقد روى الحافظ ابن عساكر بسنده عن مالك قول النبي ﷺ « يا أيها الناس إن الربّ واحد ، والأب واحد ، وإن الدّين واحد . وليست العربية بأحدكم من أب وأم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربي » .

فلنكن مع القرآن حيث كان فإنه الحق ، والحقُّ أحقُّ أن يتَّبَعَ . وإنه الهدى ومن ابتغى الهدى في غيره ضل .

قال رجلٌ لعبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - : علّمني كلماتٍ جوامع نوافع . فقال : لا تشرك به شيئا وزُلْ مع القرآن حيث زال . ومن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيدا بغیضا . ومن جاءك بالباطل فاردده عليه وإن كان

قريباً حبيباً .

هكذا كان الصحابة الكرام ترى كلماتهم وأعمالهم تنتسب إلى القرآن وهم يتبعون الرسول ﷺ ، وقد كان خلقه القرآن .

فهل يعي أولئك المعرضون عن هدي القرآن أنهم يعرضون أنفسهم لعاجل شقاء وسوء مصير .

إن الله قد أنزل القرآن بلسان عربي مبين وصرف فيه من الوعيد ليثوب هؤلاء إلى رشدهم ويتقوا ربهم ويحسنوا عملهم من قبل أن يأتي أحدهم الموت فيندم حيث لا ينفع الندم ﴿ وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً ﴾ .

٧٣

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة طه ﴿ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَأَمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمًى ۚ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمًى وَقَدِ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٤﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١٢٥﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَشْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾ (١٢٨) .

والمخاطب بقوله ﴿ أَهْبِطَا مِنْهَا ﴾ آدم وحواء . والخطاب وإن كان لمتن في اللفظ لكنه في المعنى جمع . اهبطا جميعاً إلى الأرض ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ أنما عدو إبليس وذريته وإبليس عدوكم وعدو ذريتكم .

﴿ فَأَمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ﴾ يقول : فإن يأتكم يا آدم وحواء وإبليس مني

(١٢٨) سورة طه : ١٢٣ - ١٢٧ .

هدى : بيان لسبيلي ، وما أختاره لخلقى من دين ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ﴾ فمن اتبع بياني ذلك وعمل به ولم يزع عنه ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ : فلا يزول عن محجة الحق ، ولكنه يرشد في الدنيا ويهتدي ﴿وَلَا يَشْقَى﴾ في الآخرة بعقاب الله لأن الله يدخله الجنة وينجيه من عذابه .

عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال : « تَضَمَّنَ الله لمن قرأ القرآن واتبع ما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة » تم تلا هذه الآية ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ .

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ أي أعرض عن الهدى الذاكر لي والداعي إلي فإن له معيشة ضنكا . قال ابن عباس رضي الله عنهما «المراد بالمعيشة الضنك الحياة في المعصية وإن كان في رخاء ونعمة» .

ولا شك أن من أعرض عن الذكر ساء سعيه وفسد حاله وخسر دنياه وضيع آخرته ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ۖ مَنِ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ۚ خَلِيدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾ (١٠١) (٤٢٩) .

ولا أمان من الضلال والشقاء إلا باتباع هدى الله .

وما يعرض الإنسان عن هدى الله إلا ويتخبط في القلق والحيرة دون توازن أو أمان أو استقرار فالشقاء ثمرة الضلال ولو كان صاحبه غارقا في المتاع .

ومن اتبع هدى الله نجا من الشقاء والضلال في دنياه وفاز برحمة الله في آخره .

(٤٢٩) سورة طه : ٩٩ - ١٠١ .

ولا تسل عما يكون مع الضنك من حيرة وقلق وشك وتنافس مسعور وراء بارق المطامع والحسرة على فوات المرغوب وذهاب المطلوب من زينة الحياة .

وما يشعر القلب بطمأنينة الاستقرار إلا في رحاب الله .

وما يحسن راحة الثقة والرضا إلا وهو مستمسك بالعروة الوثقى .

إن طمأنينة الإيمان تُبقي على الإنسان - مع أعراض الحياة - ظافراً بخصائصه فائزاً بثبات صفاته وأخلاقه .

والحرمان من الإيمان شِفْوَةٌ تُفقد الإنسان الأمن والاستقرار .

ولقد أرسل الله الرسول وأنزل الكتاب رحمة بالخلق وهداية لهم وإنقاذاً من الشقاء والضلال . فمن أبى إلا الإعراض فذاك هو الجزاء ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَنتَ كَذَلِكَ أَنتَ كَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنَسِّي وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ لقد أسرف من أعرض عن ذكر ربه . أسرف فالقى بالهدى من بين يديه وهو أنفُس ثراءٍ وذخر . وأسرف في إنفاق بصره في غير ما خلق له فلم يبصر من آيات الله شيئاً .

فلا جرم يعيش معيشة ضنكا ، ويحشر يوم القيامة أعمى .

إن الله قد أخرج الناس من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً ، وجعل لهم السمع والأبصار الأفتدة لعلهم يشكرون . وفي شكره إسعادٌ لهم ورحمة بهم وتراحم فيما بينهم .

وجعل من الآيات في الآفاق وفي أنفسهم ما يعينهم على معرفة الحق . ونزل لهم الذكر وحفظه ليكون هدى لهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

فمن رغب عن التبصرة والذكرى وأبى إلا أن تكون حواسه تبعاً لشهوته ومتاعه فقد رضي لنفسه أن يكون كالأنعام بل أضل . وعاش في دنياه معطل الحواس وإن ظن أنه يسمع ويعقل . ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (٤٣٠) .

ولا عجب أن يحشر هؤلاء إلى جهنم بعمى البصائر؛ لأن حواسهم لم تسخر لما خلقت له من تدبر وتبصرة وإنما استعملت فيما تستعمل الأنعام حواسها ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ (٤٣١) . ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (٤٣٢) .

اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا وذهاب همومنا . اللهم ذكرنا منه ما نسينا، وعلمنا منه ما جهلنا، وارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يرضيك عنا، وارزقنا شفاعته عند لقائك واجعله حجة لنا لا علينا .

٧٤

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة طه ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ؕ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴾ (١٣٣) ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَمَلَّ الْوَارِثُونَ لَوْلَا أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِّن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزِيَ ﴾ (١٣٣) (٤٣٣) .

(٤٣٠) سورة الفرقان : ٤٤ .

(٤٣١) سورة محمد : ١٢ .

(٤٣٢) سورة الأعراف : ١٧٩ .

(٤٣٣) سورة طه : ١٣٣ - ١٣٤ .

إن من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم يَتَعَنَّتْ في طلب الآيات رغبة في الصد والكيد وإيغالا في الكفر والجحود ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُمْ مَلَكِيَّةً وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ (٤٣٤).

والله قد علم من هؤلاء جحودهم وكفرهم وإصرارهم على الغي من بعد ما تبين لهم الهدى فأضل أعمالهم . ومن أعمال هؤلاء أنهم يحاولون دائما إخراج دعاة الحق بما يقولون ويقترحون ويظنون أنهم بذلك يستطيعون إطفاء نور الله وتبرير ما هم عليه من كفر وجحود . ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ (١) ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعَنْبٍ فَتَفْجُرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ (٢) ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ (٣) ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْفٍ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُّؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٤) ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٥) ﴿قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَكِيَّةً يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ (٦) ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (٧) (٤٣٥). ما الذي دعا هؤلاء الكفار إلى هذا كله؟ هل دعاهم إلى طلب

الآيات رغبته في الإيمان وحبهم له ، أم هو التعنت والكبر والجحود؟ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا آيَاتُنَا بِآيَةِ رَبِّهِ﴾ (٨) ﴿مِمَّا يَقْرَحُونَ وَيَطْلُبُونَهُ تَعْنَتًا﴾ (٩) ﴿أَوْ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (١٠) ألم يكفهم اشتغال القرآن على بيان ما في الصحف الأولى في كونه معجزة حتى طلبوا غيرها؟

(٤٣٤) سورة الأنعام : ١١١ .

(٤٣٥) سورة الإسراء : ٩٠ - ٩٦ .

إن آية القرآن كافية — وهو يبين ويفصل ما أجمل في الصحف الأولى ،
ويذكر من أنباء الأمم الماضية وإهلاكهم بسبب تكذيب الرسل ما فيه عبرة
وموعظة . ولقد أعذر الله للمكذبين فأرسل الله إليهم خاتم النبيين محمد ﷺ ﴿وَلَوْ
أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِّن
قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ . فلا مجال لقول عندما يحق بهم ما حذروا منه وأنذروا
به . وكم من ادعاء يكشفه الواقع . ومن دعاوى تبطل عند مجيء الحق .
﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِّنْ إِحْدَى الْأُمَمِ
فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نِفُورًا﴾ (٤٣٦) هذا حال فريق من الناس عندما
يُبَلِّغون بالحق وينذرون بها .

من قبل كانوا يُقْسِمون جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لئن جاءهم نذير لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ
إِحْدَى الْأُمَمِ ، فلما جاءهم النذير كانوا كغيرهم من المكذبين الضالين ﴿فَلَمَّا
جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نِفُورًا﴾ ونسي هؤلاء أن سنن الله لا تتبدل ولا تتحول
فما وقع بالمكذبين السابقين يقع على المكذبين اللاحقين ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ
إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَحْدِلْ سُنَّتَ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَحْدِلْ سُنَّتَ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ والناس إنما
يؤخذون بمعاصيهم ويهلكون بذنوبهم ويدمرون بشركهم .

والقرآن الكريم يذكر ويبصر ويُنذر ويبشر . فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه
ومن ضل فإنما يضل عليها .

ولا عذر لأحد من الناس بعد بيان ولا حجة بعد تبليغ وإعذار .
والأرض أمام أعينهم تخاطبهم بما فيها من عبر وعظات وآيات بينات .
وهي ساحة تستقبل وتودع . ومن مات لم يرجع ولن يرجع ؛ فقد مضى إلى
حساب جزاء ولن يعود لدنيا امتحان وبلاء .

(٤٣٦) سورة فاطر : ٤٢ .

والسعيد من اعتبر واتعظ والشقي من أعرض عن ذكر ربه ونسي ما هو قادم عليه في غده . والآيات في السابقين كافية في إنذار اللاحقين ﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةٍ وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٤٣٧) .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿ أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٤٣٨﴾ لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ﴾ (٤٣٨) . عجيب أمر الإنسان إذا أصيب بالغفلة وأعرض عن الحق .

يقترّب منه الحساب وهو مُنْغَمِسٌ في غفلته ، سادرٌ في غيّه ، لا يفيق إلاّ بأجلٍ يُدانيه أو بموت يأتيه ، فيبدي حسرتة ويُعلن توبته .

﴿ أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ (٤٣٨) .

ذاك صنف من الناس سادرون في غفلتهم وقد اقترب حسابهم سواء بدنو الآجال أو قرب الساعة ، فإنها آتية لا ريب فيها ، وكل ما هو آت قريب . وإنما البعيد ما انقرض ومضى . وإذا كنت في إدبارٍ والموتُ في إقبالٍ فما أسرع المُلتقى .

والسنون والأعوام الطوال - عند قيام الساعة - كأنما هي دقائق وثوانٍ .

(٤٣٧) سورة العنكبوت : ٥١ .

(٤٣٨) سورة الأنبياء : ١ - ٣ .

﴿كَانَ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَرِبًّا لَّهُمْ إِلَاحَاسِيَّةٌ أَوْحَاهَا﴾ ﴿١٦﴾ ﴿٤٣٩﴾ . ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ ﴿٤٤٠﴾ . وقد يجهل الغافلون أو يغفل الجاهلون عما أعطي لهم من أجل مسمى عند الله لا عندهم ، وأنهم مسئولون عن عمرهم : فيم ضيعوه ؟ كما يسألون عن مالهم : من أين اكتسبوه ؟ وفيم أنفقوه ؟ فلا مجال في هذا العمر المحدود لعبث أو باطل ، ومن غفل عن اليوم الآخر فقد حسب الخلق عبثاً أو باطلاً ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿٤٤١﴾ .

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ ﴿٤٤٢﴾ والآيات البينات تذكر وتبصر وتنذر وتبشر — وترى صنفًا من الناس عن آيات ربهم غافلين . يخوضون ويلعبون ويلهيهام الأمل حتى يأتي اليوم الذي كانوا يوعدون . ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ .

والغفلة : الذهول عن الشيء وعن طرق علمه . والإعراض : صرف العقل عن الاشتغال بالشيء .

والقرآن الكريم يذكرهم بالبعث وينذرهم بيوم الحساب وهم مستمرون في غفلتهم بسبب إعراضهم عن دلائل التذكير به والتحذير منه . ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدِّثٍ إِلَّا أَسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ إنهم إذا سمعوا في القرآن تذكيراً لهم بالنظر والاستدلال اشتغلوا عنه باللعب واللهو فلم يفقهوا معانيه ولم يتدبروا أمره ، وكان حظهم منه سماع ألفاظه .

(٤٣٩) سورة النازعات : ٤٦ .

(٤٤٠) سورة الروم : ٥٥ .

(٤٤١) سورة ص : ٢٧ .

(٤٤٢) سورة المؤمنون : ١١٥ - ١١٦ .

والله عز وجل يحذر أهل الإيمان أن يكونوا كهؤلاء في موقفهم من تدبر القرآن ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (٢١) ﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ (٤٤٣).

إن القرآن الكريم قد أنزل ليتدبر وليعمل به وهؤلاء قد اشتغلوا عنه بآمال باطلة وانصرفوا في إصرار وإعراض إلى اللهو واللعب .

﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ . والذكر : القرآن الكريم . أطلق عليه الذكر - وهو مصدر - لإفادة قوة وصفه بالتذكير .

وبقي محفوظا بحفظ الله ليدكر الأجيال كلها بما دعوا إليه وما خلِقُوا من أجله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ .

والمحدث : أي المتجدد تنزله . وفيه دلالة على تكرار التذكير الذي تنقطع به الحجة والمعدرة ، إذ يأتهم الذكر من الرحمن شيئا فشيئا ؛ رحمة بهم وهداية لهم ، وهم في غفلة معرضون ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُّحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُّعْرِضِينَ﴾ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾ (٤٤٤) .

إن الحديث عن موقف المعرضين جزائهم فيه موعظة وذكرى للمؤمنين . ليحذروا أن يكونوا مثلهم .

«عن أنس بن مالك أنه سمع عمر بن الخطاب حين بايع المسلمون أبا بكر واستوى على منبر رسول الله ﷺ تشهد قبل أبي بكر فقال : «أما بعد فاختر الله

(٤٤٣) سورة الأنفال : ٢١ - ٢٣ .

(٤٤٤) سورة الشعراء : ٥ - ٦ .

لرسوله الذي عنده على الذي عندكم . وهذا الكتاب الذي هدى الله به رسولكم فخذوا به تهتدوا لِمَا هَدَى الله به رسوله . يشير عمر - رضي الله عنه - إلى القرآن الكريم ويدعو إلى الاعتصام به . وقد جاء في خطبة عمر «فإن يك محمد ﷺ قد مات فإن الله قد جعل بين أظهركم نوراً تهتدون به بما هدى الله محمداً ﷺ» اللهم اجعله لنا إماماً ونوراً وهدى ورحمة .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْلِهِ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٤٤٥﴾ ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ . والمراد به القرآن الكريم .

وللآية دلالتها وهدايتها لمن خوطب بها عند نزولها ولمن جاء بعدهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ أي والله لقد أنزلنا إليكم يامعشر قريش كتابا عظيم الشأن نبّر البرهان ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي فيه شرفكم ﴿وإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ ﴿٤٤٦﴾ .

فيه شرفكم إن تمسكتم به وعملتُم بما فيه . فيه ما تحتاجون إليه في أمور دينكم ودنياهم . فيه ما تطلبون حسن الذكر من مكارم الأخلاق . وهو شرف لمن تخلق به وعمل بمقتضاه . فيه موعظتكم وإرشادكم إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فيه حثٌّ على تدبر هذا الكتاب والتأمل فيه ، وإنكارٌ وتوبيخٌ لمن أعرض عنه ولم يتدبر ما جاء فيه .

(٤٤٥) سورة الأنبياء : ١٠ - ١١ .

(٤٤٦) سورة الزخرف : ٤٤ .

إن هذا الكتاب بلاغ من الله للناس . وفي البلاغ إنذارٌ وتبشير . إنذارٌ لمن
أعرض ولم يؤمن وتبشير لمن آمن به وعمل بمقتضاه .

إن من أعرض عنه ظلم نفسه وخسر دنياه وآخرته . وسنة الله ماضية فيمن
ظلموا وأساءوا من قبل ومن بعد ، فهم مأخوذون بظلمهم وإساءتهم هكذا على
مرّ الأجيال .

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ .
﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ
مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ إِنَّ مَا تُوْعَدُونَ
لَأَتِيٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ
فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٤٤٧) .

إن حديث القرآن له دلالة ومقاصده ، وله تأثيره وأثره في إحياء النفوس
وهدايتها . ومن تدبر حال من نزل القرآن فيهم قبل نزوله وبعده أدرك مدى
التحول الذي تم بنزوله . لقد نقلهم القرآن — بفضل الله — من ظلام الشرك
وظلماته إلى نور الإيمان وطيباته . وسيظل حديث القرآن في الحياة يعلن
رسالته للناس جميعا كما جاءت من عند الله ويقيم الحجة عليهم . يدعو
الناس إلى كلمة سواء ويُتلى عليهم ويهديهم ويبصّرهم ويُرِيهم النتائج
والعواقب ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ
لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٤٤٨) .

(٤٤٧) سورة الأنعام : ١٣٣ - ١٣٥ .

(٤٤٨) سورة الأنفال : ٤٢ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنِّىْ وَذِكْرٌ مِّن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ (٤٤٩).

تلك هي العقيدة التي أرسل بها الرسل جميعا وأنزل الكتب .

فهم جميعا دعاة إلى دين واحد لم يبعثوا بغيره ولم يبتغوا سواه .

والإيمان بهم جميعا وبما أرسلوا به أصل في حقيقة الإيمان .

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرٰهِيْمَ وَإِسْمٰعِيْلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوْبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسٰى وَعِيسٰى وَالنَّبِيُّوْنَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَّبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيْنًا فَلَنْ يُّقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخٰسِرِيْنَ ﴿٨٥﴾﴾ (٤٥٠). إن الكتب المنزلة يصدق بعضها بعضا وقد جاء خاتمها مهيمنا عليها محفوظا بحفظ الله ؛ لتظل كلمة الحق على ألسنة الرسل جميعا مصونة من التلبيس والافتراء والكذب .

جاء القرآن الكريم ليعلم الناس جميعا حقيقة الرسالة ويصدق بالحق الذي جاءت به الرسل وأنزلت الكتب . ويرد كل باطل ألبس عليهم وكل ضلال نسبته أهواء الناس إليهم . فلم يعد هناك سبيل لكتمان ما جاءت به الرسل ، والكتاب المحفوظ مهيمن وأمين وشاهد ، ولا مهرب للمفرقين بين الرسل من حساب وعقاب . والقرآن يُتلى عليهم ويبين لهم .

(٤٤٩) سورة الأنبياء : ٢٤ - ٢٥ .

(٤٥٠) سورة آل عمران : ٨٤ - ٨٥ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَقُولُونَ
نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنُكَفِّرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَٰئِكَ هُمُ
الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (٤٥١) إِنَّ التَّفَرُّقَ بَيْنَهُمْ — وَهُمْ
يَدْعُونَ إِلَى دِينٍ وَاحِدٍ — كَفَرٌ بِهِمْ جَمِيعًا . وَتَكْذِيبُ أَحَدِهِمْ تَكْذِيبَ لَهُمْ
جَمِيعًا . وَعَدَاوَةُ أَحَدِهِمْ عَدَاوَةٌ لِلْحَقِّ الَّذِي بَعَثُوا بِهِ . وَالْحَقُّ الَّذِي بَعَثُوا بِهِ
وَاحِدٌ لَا يَتَعَدَّدُ . وَهُمْ يَدْعُونَ إِلَى عِبَادَةِ إِلَهٍ وَاحِدٍ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ
قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ إِنَّ الْإِيمَانَ بِإِلَهِ وَاحِدٍ
لَا شَرِيكَ لَهُ هُوَ مَا جَاءَ الْقُرْآنَ يَدْعُو إِلَيْهِ وَيَذْكُرُ بِهِ وَهُوَ أَصْلُ أَصِيلٍ فِي وَحْدَةِ
الْإِنْسَانِيَّةِ وَصَدَقَ تَعَاوُنُهَا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى لَا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ . وَعِنْدَمَا
يَتَّخِذُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَلَا تَسْلُ عَمَّا يَكُونُ مِنْ بَغْيٍ
وَتَسْلُطُ وَظَلَمٌ وَفُسَادٌ . إِنَّ التَّوَجُّهَ إِلَى اللَّهِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ أَمِنْ لِلْإِنْسَانِيَّةِ كُلِّهَا
وَحِفَافٌ عَلَى الْعَدْلِ الصَّادِقِ بَيْنَهَا .

وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ يَذْكُرُ النَّاسَ جَمِيعًا بِأَصْلِهِمُ الْوَاحِدَ . وَيَدْعُوهُمْ جَمِيعًا إِلَى
عِبَادَةِ اللَّهِ الَّذِي خَلَقَهُمْ جَمِيعًا ، وَفِي ذَلِكَ تَكْرِيمٌ لَهُمْ وَحِفَافٌ عَلَى حَقُوقِهِمْ
وَحَرَمَتِهِمْ «إِنْ رَبِّكُمْ وَاحِدٌ . وَإِنْ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ . كُلُّكُمْ لَأَدَمُ وَآدَمُ مِنْ تَرَابٍ» .
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ
أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٤٥٢) .

وهذا نداء القرآن الكريم وتلك دعوته تقوم على أساس راسخ من الإيمان
بإله واحد لا شريك له ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ
اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٦٤) (٤٥٣) .

(٤٥١) سورة النساء : ١٥٠ - ١٥١ .

(٤٥٢) سورة الحجرات : ١٣ .

(٤٥٣) سورة آل عمران : ٦٤ .

وهذه العقيدة التي ينادي بها ليست بمعزل عن الحياة . بل الحياة نفسها في حقيقتها وفي آثارها ونتائجها هي حياة الصدق والحق والعدل والبر والوفاء والرحمة .

وهي التي يصلح بها أمرُ الناس في دنياهم وينعمون بها في آخرهم . إنها دافعةٌ ومانعةٌ ، دافعةٌ إلى عمل الخير حائثةٌ عليه . مانعةٌ من الشر زاجرةٌ عنه ، بها يكفُ الإنسان شرَّه عن غيره ويقدم خيره . ويتنصر الحق ويبطل الباطل . ويكون الهوى تبعاً للحق . والحق لا يتبع الهوى . وبالحق يهتدي الناس إلى الرشاد ، ومع الهوى يضلون السبيل . وفي الواقع العملي ترى هذه العقيدة بنورها في صلات الناس وروابطهم . في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال : « والله لا يؤمن . والله لا يؤمن . والله لا يؤمن . قيل من يا رسول الله ؟ قال : الذي لا يأمن جاره بوائقه » . وفي رواية لمسلم « لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه » . وروى مسلم عن أبي شريح الخُزاعي - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره . ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت » .

أرأيت أثر العقيدة في تحقيق المودة والبر .

أرأيت أنها دافعةٌ مانعةٌ ، دافعةٌ إلى عمل الخير مانعةٌ من الشر .

إنها ليست بمعزل عن الحياة . بل هي الحياة في أمنها وسلمها . وبرّها وعدلها . في وفائها وصدقها . في تعاونها وإيثارها . في إخلاصها وابتغاء مرضاة ربها .

ذاك ما يدعو القرآن الكريم إليه وما يذكر به وما تنهض به العقيدة التي أرسل بها الرسل جميعاً بلا تفرقة ﴿ أَمْرٌ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ ۚ إِنَّهُمْ لَعَالَمَةٌ ۖ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِمَّا دُكِرَ مِنْ قَبْلُ ۖ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (٢١) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (٢٥) .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الحج ﴿وَإِذَا
تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيَّنَّتْ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ
يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ كُمُ الْبَشَرِ مِنْ ذَلِكَ النَّارِ
وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَنْشِ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾ (٤٥٤).

في هذه الآية بيان موقف أهل الكفر والجحود إذا تلى عليهم القرآن؛ فإنهم
إذا ذكرت لهم آيات القرآن والحجج والدلائل الواضحات على توحيد الله وأنه
لا إله إلا هو وأن رسله الكرام حقٌ وصدق ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ
عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ أي يكادون يُبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة
من القرآن، ويبسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء. يكادون يسطون:
والسطوة شدة البطش. وأصل السطو: القهر. يقال سَطَا به يسطو إذا بطش به
بَضْرِبٍ أو شَتَمٍ أو أَخَذٍ باليد.

هذا موقف أهل الكفر والضلال. وهكذا موقف أهل البدع المضلة إذا
سمع الواحد منهم ما يُتلى عليه من آيات الكتاب العزيز أو من السنة
الصحيحة مُخَالَفًا لما اعتقده من الباطل والضلالة.
إن النفوس الطيبة تتقبل الحق وتَهْتَزُّ له كما تتقبل الأرض الطيبة الغيث
فتنبت الخير الكثير.

والنفوس الخبيثة تشمئزُ ويرى فيها المنكر عند سماع ما يُتلى عليها من
آيات الله البينات. ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ (٤٥٥).

(٤٥٤) سورة الحج : ٧٢.

(٤٥٥) سورة الزمر : ٤٥.

والذين يظنون أنهم — وهم يجحدون الحق — قد أفلتوا من عذاب قد جهلوا
وظلموا أنفسهم فإن الحق من ربك وجميع الخلق يُرجعون إليه فينبئهم بما
عملوا والله بكل شيء عليم .

وهذا وعيد الله لمن كره الحق وأعرض عنه وأساء إلى أهله ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ذاك هو المصير لمن أنكر الحق وطغى واستبد
وبئس المصير مصير هؤلاء الذين لا يسمعون إلى ما أنزل الله ولا يستجيون
لندائه وتنطوي نفوسهم على المنكر وتهيج بالبطش والاعتداء ﴿يَكَادُوتُ
يَسْطُوتُ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ .

إن الحق يُبلِّغ للناس في آيات بينات فمن جحده وآثر هواه لقي ما يلقيه
الجاحدون المكذبون ، ومن استجاب له أمن في دنياه وفاز بوعده الله في آخره
﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ وستظل ساحة الحياة تستقبل وتودِّع .
والأرض تضم الأحياء والأموات . هؤلاء في بطنها وأولئك على ظهرها . لتظل
عبرة الحياة قائمة وعظمتها دائمة .

والدعوة إلى الحق مشفوعة بسلطان الحجة وبالغ الموعظة ﴿الَّذِينَ هَلَكَ
الْأَوَّلِينَ﴾ ثُمَّ نُنَبِّئُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿كَذَلِكَ نَفْعِلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ وَيَلْزَمُ يَوْمَئِذٍ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾
الَّذِينَ خَلَقَكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ
الْقَدِيرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيَلْزَمُ يَوْمَئِذٍ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ الَّتِي تَجْعَلُ الْأَرْضَ كَهَافًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾
وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوْشً شَخِيبًا وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيَلْزَمُ يَوْمَئِذٍ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ .
أدلة للحق بينات واضحات ملازمة للإنسان يراها ويبصرها وينعم بآثارها ويسترشد
بآياتها .

فمن أبى إلا الإصرار على الجحود والانطواء على التكذيب فذاك هو المصير، يُنادي له ويدعى إليه ﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (٢٩) أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظُلِيلَ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّا تَرْمِي بِشَرْكِ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جُمُلَتِ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَبَلْ يُؤْمِدُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ (٤٥٧).

ذاك حديث القرآن عن مصير مَنْ كَذَّبَ به وجحد ما دعا إليه .

إن للخلائق يوماً يُجمعون فيه . إنه يوم الفصل وما أدراك ما يوم الفصل ؟ ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ وَمَا تُؤْخِرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فلنعرف صفات من شَقِوا، ولنحذر أن نركن إلى شيء من صفاتهم . ولنعرف صفات من سَعِدُوا ولنعمل - مستعينين بالله - أن نتبع سبيل من أنعم الله عليهم .

وحديث القرآن فيَّاض ببيان صفات هؤلاء وأولئك .

فلنتدبر حديث القرآن ولنستمع إليه متبعين له مهتدين بهداه . وتلك بشراه لمن آمن وعمل صالحاً وذاك إنذاره لمن كفر وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ (٤٥٩).

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة المؤمنون ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿١٠٤﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ،

(٤٥٧) سورة المرسلات : ٢٩ - ٣٤ .

(٤٥٨) سورة هود : ١٠٣ - ١٠٥ .

(٤٥٩) سورة محمد : ١ - ٢ .

فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٦﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٧﴾ أَلَمْ تَكُنْ أَتِنَىٰ تُنَلِّىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴿٤٦٠﴾

ذاك حديث القرآن عن مصائر الخلق — وهو يتلى عليهم، وهم ما بين مصدق ومكذب، ما بين متبع ومتبع ومعرض.

حديث القرآن عن مصير هؤلاء وأولئك فيه إغذار وإندار. وفيه عبرة وعظة وتبصرة وذكرى. ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿٤٦١﴾

إن عاقبة التكذيب بآيات الله والإعراض عن ذكره عاقبة يخسر فيها المبطلون أنفسهم. وماذا بعد أن يخسر الإنسان نفسه؟ ماذا يملك؟ وماذا يبقى له وقد خسر نفسه؟ لقد كذبوا بالحق لما جاءهم واتبعوا الباطل فخفت موازينهم ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ ﴿١٠٦﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٧﴾ ويقال لهم توبيخاً وتقريراً ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَتِنَىٰ تُنَلِّىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ ﴿١٠٨﴾

إنه القرآن. حجة لك أو عليك.

فمن اتبعه قاده إلى الجنة ومن كذب به وأعرض عنه اضطرب أمره وساءت عاقبته، وأيام العمر تمضي والآجال تنقضي. ويجد الناس صدق ما أخبر به القرآن. ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ ﴿٤٦٢﴾

(٤٦٠) سورة المؤمنون : ١٠١ - ١٠٥ .

(٤٦١) سورة الجاثية : ٦ .

(٤٦٢) سورة آل عمران : ٣٠ .

إن حديث القرآن حديثٌ حقٌ وصدق . وبالأستجابة للحق والصدق تصلح الأمور وتحسن العواقب . فمن اتبع الحق وآمن به طاب سعيه وحسنت عاقبته . ومن كذب بالحق وأعرض عنه فسد عمله وساءت عاقبته . وللحق ناره ونوره . فمن أبى النور فالى النار مصيره . والجنة حق والنار حق ودنيا الناس دار امتحان واختبار، يمر بها الإنسان ولا يُقيم .

وأدلة الحق بيّنة واضحة ، وما جعلت الحياة في امتحانها إلا ليُعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك وربك على كل شيء حفيظ .

وحديث القرآن فيّاض بالبينات والموعظة ، فياض بالتبصرة والذكرى . والله الذي أنزل القرآن هو الذي يحاسب الناس على مقتضاه . وهو الحي الذي لا يموت .

وأجل الخلق مسمى عند الله لا عند الناس ، فلا يدري أحدٌ متى يُدعى فيجيب ﴿وما تدري نفسٌ ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾ . والفوز هناك مبني على الإصلاح هنا ولا فوز إلا لمن آمن وعمل صالحاً .

وما أنزل الله من الكتاب هو الحق الذي أمرنا باتباعه وحذّرنا من الفتنة عن شيء منه . فمن عمل به ثقلت موازينه وهو في عيشة راضية . ومن كذب به وأعرض عنه خفت موازينه وخسر نفسه وقامت الحجة عليه . ﴿تَلَفَحُ وُجُوهُهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ۚ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُلَىٰ عَلَيْهِمْ فَكَفَرُوا بِهَا تَكْذِبُونَ ۚ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَغُفِّرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَأَخَذَتْهُمُ سَخِرَاتٌ

حَتَّىٰ أَنسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١١﴾

تلك هي النتائج تأتيك في حديث القرآن هدى وموعظة وتبصرة وذكرى .
 فاحذر أن تلهيك الرغائب عن العواقب . أو تصرفك العاجلة عن الآخرة .
 كن مع القرآن حيث كان فإنه الفصل ليس بالهزل . من تركه من جبار قصمه
 الله . ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله . إنه الكتاب الذي هدى الله به
 رسولكم فاتبعوه تهتدوا ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ۖ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

٨٠

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في سورة النور في قوله تعالى ﴿ سُوْرَةُ
 أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٤٦٤) وقوله ﴿ وَلَقَدْ
 أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا لِّلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً
 لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٤٦٥) وقوله ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ
 مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٤٦٦) .

﴿سورة أنزلناها وفرضناها﴾ . والسورة في اللغة : اسم للمنزلة الرفيعة . ولذا
 سميت السورة من القرآن سورة . ومنه قول النابغة : ألم تر أن الله أعطاك سورة :
 أي منزلة . والإشارة في قوله ﴿سورة أنزلناها﴾ إلى سورة النور التي افتتحت
 بهذه الآية . أي هذه ﴿سورة أنزلناها وفرضناها﴾ .

فرض الله فيها الآداب والفضائل كما فرض الحدود والعقوبات . وبين
 الحلال والحرام في آيات بينات تذكيرا للناس وتبصرة لهم وهدى وموعظة

(٤٦٣) سورة المؤمنون : ١٠٤ - ١١١ .

(٤٦٤) سورة النور : ١ .

(٤٦٥) سورة النور : ٣٤ .

(٤٦٦) سورة النور : ٤٦ .

﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً
لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣١)

وقد جاءت هذه الآية في سورة النور بعد بيان الأحكام ، وقد وصفت القرآن الكريم بصفات ثلاث : الأولى : أنه آيات مبيّنات : أو واضحات في أنفسهن أو موضّحات . وقد تجلّى ذلك فيما ذكر في هذه السورة من أحكام وآداب ومعالم وحدود .

الصفة الثانية : كونه مثلاً من الذين خلّوا من قبل هؤلاء . أي مثلاً كائناً من أمثال الذين مضوا من قبلكم من القصص العجيبة .

فإن العجب من قصه عائشة - رضي الله عنها - هو كالعجب من قصة يوسف ومريم وما اتّهما به ، ثم تبين بطلانه وبراءتهما ، سلام الله عليهما .

وبيان هذا القصص وإنزاله في آيات مبيّنات فيه توجية وتربية وتبصرة وموعظة . وأن من اتقى ربه وأخلص القصد له حفظه . ومن حفظه الله لا يُضَيّع .

وفي قصة عائشة - رضي الله عنها - التي ذكرت في هذه السورة سورة النور ، كما في قصة يوسف ومريم - عليها السلام - آيات وآيات تنفع المؤمنين وتردع الكائدين والمرجفين .

ولقد أنزلنا إليكم آيات مبيّنات ومثلاً من الذين خلّوا من قبلكم وموعظة للمتقين ، وتلك هي :

الصفة الثالثة : التي وُصِفَ بها القرآن في هذه الآية من سورة النور ، كونه «مَوْعِظَةً» ينتفع بها المتقون بخاصة . فيقتدون بما في القرآن من الأوامر وينزجرون عما فيه من النواهي . وأما غير المتقين . فإن الله قد ختم على قلوبهم وجعل على أبصارهم غشاوة ، فلا يسمعون المواعظ سماع تدبر . ولا

يعتبرون بقصص الذي خَلَوْا من قبل وفَهَم ما تشتمل عليه الآيات البينات من تبصرة وتذكرة، وحثُّ على ما يجب أن يكون، وتحذير مما لا ينبغي أن يكون.

﴿وَبَلَّغْ أَلْأَمْثَلُ نُصْرَتِهِكَ لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾.

ومن حرم الهداية فمن يهديه من بعد الله؟ ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ والله وحده المطلع على ضمائر الناس العليم بما في الصدور.

فمن اهتدى بالآيات زاده الله هدى وآتاه تقواه.

ومن زاغ ونسي ربَّه أزاغ الله قلبه وأنساه نفسه ولم تزده الآيات إلا وبالاً وخسرانا، إن طريقا واحدا مستقيما يدعو القرآن الكريم إلى اتباعه.

فمن اتبعه توصل به إلى نعيم الجنة، وهو صراط مستقيم لا عوج فيه ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. ومن أجل الدعوة إليه أنزلت الآيات البينات وأرسل الرسل وحفظ الكتاب الذي جعله الله نورا تميز به الأشياء ويُعرف الصراط المستقيم.

إن حديث القرآن عن القرآن فيه بيان لهدايته ومقاصده ودعوة إلى حسن تدبره والاعتصام به، وهو حق يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم. فكن مع القرآن حيث كان، واستمسك به ولا تحذ عنه، واعلم أن مصيرك هناك يتحدد بموقفك منه هنا اتباعا أو إعراضا ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٢٢) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى (١٢٣) اللهم اجعله حجة لنا لا علينا يا رب العالمين.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة الفرقان ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (٤٦٧).

هذه اللفظة «تبارك» لا تستعمل إلا لله سبحانه، ولا تستعمل إلا بلفظ الماضي. وأصل «تبارك» مأخوذ من البركة: وهي النماء والزيادة حسية كانت أو معنوية. ومعنى البركة الكثرة من كل ذي خير.

وتبارك وتقدس في العربية معناهما العظمة. وقيل المعنى: تبارك عطاؤه.

ومن معاني «تبارك» في اللغة: دام وثبت.

والفرقان: هو القرآن وسمي فرقانا؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل بأحكامه. أو بين المحق والمبطل.

والمراد بـ«عبد» نبينا محمد ﷺ.

وفي قوله ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ بيان لغاية التنزيل وحكمته والغرض المقصود من إنزاله، ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ والمراد: محمد ﷺ أو الفرقان.

والمراد بـ«العالمين» الإنس والجن؛ لأن النبي ﷺ مرسل إليهما. ولم يكن غيره من الأنبياء مرسلًا للثقلين. والنذير: المنذر أي ليكون محمد ﷺ مُنْذِرًا، أو ليكون إنزال القرآن مُنْذِرًا. والله الذي نزل القرآن وأرسل الرسول تلك صفاته. ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدْ رُفِعَ نَقْدِيرًا﴾ (٤٦٨).

وصف الله نفسه في هذه الآية بصفات أربع.

(٤٦٧) سورة الفرقان: ١.

(٤٦٨) سورة الفرقان: ٢.

وهذه الصفات لها دلالتها في افتقار الخلق إليه وحاجتهم في حسن الاستجابة لما دعاهم له، لها دلالتها في الإيمان بما نزل على محمد ﷺ وهو الحق من ربهم .

إن من نزل القرآن له ملك السموات والأرض فلن ينفذ أحدٌ من ملكه أو يقلت من جزائه . فما دعاهم إليه في التنزيل وبلاغ الرسول سيُسألون عنه ويحاسبون عليه ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٦) ﴿ فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ (٧) ﴿ (٤٦٩) .

إن من نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً سيرجع الخلق جميعاً إليه، ويحاسبون على ما خوطبوا به ودُعوا إليه . ويُساق من يُساق إلى النار على إعراضه وتكذيبه بما نزل من الحق . ويُساق من يُساق إلى الجنة لتقواه وإيمانه بما جاء من الحق .

ومن هنا يُعلم أن الحق ليس ضياعاً، وأن من خوطبوا به لا يفلتون ولا يُعجزون وهم جميعاً إلى الله راجعون ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِن حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٦٦) ﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (٦٧) ﴿ (٤٧٠) .

إن الفرقان الذي نزل على عبده ليكون للعالمين نذيراً سيفرق بين المحق والمبطل والمتبع والمعرض . وستكون النتائج مبنية على المقدمات . ومن تدبر الأمر على هذه الصورة لم تشغله أعراض الحياة عن حقيقتها .

(٤٦٩) سورة الأعراف: ٦-٧ .

(٤٧٠) سورة الزمر: ٧١-٧٢ .

والجن والإنس يُسألون ﴿ يَمَعَشِرَ الْجِنَ وَالْإِنسَ الْقِيََاتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ مَا يَنْتَهِ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٤٧١﴾ .

ذاك هو شأن التنزيل فينا ، يُتلى علينا لنعمل به ونهتدي بهداه . وهو حجة لنا أو علينا .

وقد أعذر من أنذر . فإن من نزل الحق سيحاسب عليه . ومن حفظ الذكر سيؤاخذ من أعرض عنه .

وكل نفس مرهونة بما كسبت ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّخَضَّرٌ وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴿٤٧٢﴾ .

ولا عذر بعد بيان ولا حجة بعد إعدار وإنذار .

إن الفرقان الذي نزله الله على عبده قد أعذر وأنذر بذكر العواقب والنتائج . وقد بين أن ما يعمل هنا في الدنيا من خير أو شر سيراه صاحبه هناك ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ ولا شيء يفلت أو يُضَيَّع والإحصاء دقيق والله بما يعملون محيط ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ﴿٤٧٣﴾ . ﴿ يَنْبَغِي إِنَّمَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ ﴿٤٧٤﴾ .

(٤٧١) سورة الأنعام : ١٣٠ .

(٤٧٢) سورة آل عمران : ٣٠ .

(٤٧٣) سورة المجادلة : ٦ .

(٤٧٤) سورة لقمان : ١٦ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الفرقان ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَفْكٌ أَفْتَرْتَهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فِيهِ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٤٧٥﴾ إن حديث القرآن عن القرآن هنا فيه بيان لموقف أهل الكفر والجحود، وهم يُسيرون إلى القرآن حين قالوا ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَفْكٌ أَفْتَرْتَهُ﴾ أي ما هذا القرآن إلا كذبٌ اختلقه محمد ﷺ وزعم أنه أنزل عليه من عند الله، وأعانه على اختلاقه قوم آخرون من أهل الكتاب.

هكذا تُلَقَّى الكلمات من أفواه الجاحدين دون نظرٍ أو تدبر.

وهي مُسَجَّلَةٌ عليهم، وهم مؤخذون بها. ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿٤٧٦﴾.

لقد حملهم كفرهم على أن يظلموا الرسول ﷺ بما تقولوه عليه، ويفتروا عليه هذا الزور والبهتان، بجعل كلام الله المعجز مُخْتَلَقًا مُتَلَفَّفًا من بعض من أسلم من أهل الكتاب. ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ وأي ظلم وأي زور أكبر من نسبتهم الكذب إلى رسول الله ﷺ وتكذيبهم بما نزل عليه من الحق من ربهم.

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فِيهِ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ﴿٤٧٧﴾.

لقد اضطرب أمرهم حين كذبوا بالحق لما جاءهم.

فلم يَثْبُتُوا على حال. فتارة يقولون عن القرآن ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَفْكٌ أَفْتَرْتَهُ﴾ وتارة يقولون ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا﴾.

(٤٧٥) سورة الفرقان: ٤ - ٦.

(٤٧٦) سورة النحل: ١٠٣.

(٤٧٧) سورة الفرقان: ٥.

ويقولون عن الرسول ﷺ ما يقولون وهم يوقنون في أنفسهم أنهم هم الكاذبون . وما كان هذا القرآن أن يُفترى من دون الله .

وما كان الرسول ﷺ مجهولاً عندهم - وهم الذين لقبوه قبل بعثته بالصادق الأمين وهم يوقنون بصدقه وأمانته واستقامته في قوله وعمله .

ولكنه الجحود يُعمي صاحبه ويوقعه في ظلم وظلمات ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِبَايَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (٤٧٨) .

إنه البغض للحق . والنفوس إذا كرهت الحق أو أعرضت عنه ساء حالها وفسد أمرها واضطرب سعيها . والحق ليس ضياعاً ينال منه أو يُعرض عنه ويأباه من شاء . إنه الحق . والحق من ربك الذي يعود الخلق إليه ويحاسبون بين يديه .

﴿ يَوْمَذِيُوفِيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ (٤٧٩) .

فمن الظلم للنفس أن يستهين الإنسان بالحق وأن يأباه وهو مُؤاخِذٌ به . لذا نرى الرسول ﷺ يُؤمر ليلبِّغ هؤلاء وغيرهم من المكذبين بلاغاً ينتفع بهداه المتقون . ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٤٨٠) . وفي هذا القول الذي أمر الرسول ﷺ بتبليغه دلالات لا تخفى .

فيه أن هذا القرآن قد أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض فاصدقوا معه وصدقوه فأنتم عائدون إليه ومحاسبون . ولن يفلت أحدٌ من موتٍ أو يفر من لقاء .

(٤٧٨) سورة الأنعام : ٣٣ .

(٤٧٩) سورة النور : ٢٥ .

(٤٨٠) سورة الفرقان : ٦ .

وفيه إغراء لهم بالتوبة والإنابة في السر والعلن وعدم الإصرار على ما لا يرضاه الله . وفيه إرشاد إلى ما اشتمل عليه القرآن من غيب لا يعلمه إلا علام الغيوب .

وفيه دعوة إلى حسن تدبر القرآن والاعتصام به لأنه من عند الله ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الفرقان ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ بِرَبِّ إِنْ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (٣٠) ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ (٣١) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ (٣٢) ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (٤٨١) .

لقد شكوا الرسول ﷺ إلى الله ما يعانیه من عناد قومه واستكبارهم وإعراضهم عن قبول دعوته والإيمان بما نزل من الحق . فردَّ الله على نبيه مُوَاسِيًا وَمُسَلِّيًا ومُيَبِّئًا سَتَّهُ فِيمَنْ بُعِثَ مِنْ قَبْلِهِ ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ ﴿إِنْ كُلُّ نَبِيٍّ قَدْ ابْتَلِيَ بِأَعْدَاءٍ مِنَ الْكَافِرِينَ يَتَّبِعُونَهُ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَعَادُونَ رَسُولَهُ﴾ ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَأُولُوا الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ (٤٨٢) . واعتمد على ربك فإنه ناصرٌك عليهم ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ .

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَلِلَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ (٤٨٣) .

(٤٨١) سورة الفرقان : ٣٠ - ٣٣ .

(٤٨٢) سورة الأحقاف : ٣٥ .

(٤٨٣) سورة فاطر : ٤ .

﴿لَا يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ
وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (٤٨٤).

هكذا يُبَيِّنُ القرآن سُنَّةَ الله في رسله وأنبيائه لِيَعْلَمَ دعاءُ الحق حيث كانوا
- وهم يقتدون برسول الله وأنبيائه - أن الله إذا أَحَبَّ عبداً ابتلاه .

و«أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، يتلى الرجل على حسب دينه
فإن كان في دينه صُلْبًا اشتد بلاءؤه وإن كان في دينه رِقَّةً ابتلى على قدر دينه فما
يزال البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة» .

وتلك سُنَّتُهُ في خلقه وبيانه لعباده ﴿الْمَرْءُ﴾ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكَ أَنْ يَقُولُوا
ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٥٦﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا
وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٥٧﴾ تلك سُنَّةُ الله في خلقه . لا يترك الناس لدعواهم
حتى تُمَيِّزَ صفوفهم ويستبين أمرهم أمام أنفسهم فيمحص أهل الإيمان
ويمحص أهل الكفر . وهكذا دواليك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ﴿مَا
كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ (٤٨٦) .

ومن هنا كانت مداولة الأيام بين الناس ، وتباين الأحوال فيما بينهم من عسر
ويسر وشدة ورخاء وخير وشر وموت وحية .

كُلُّ ذلك لتعرف معادن الناس وتحدد مواقفهم .

«وفي تباين الأحوال معرفة معادن الرجال» .

والله يبتلي الناس بعضهم ببعض ، وفي ذلك ما فيه من امتحانٍ لصبرهم
وابتلاءٍ لإيمانهم ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ وَكَانَ
رَبُّكَ بِصِيرًا﴾ (٤٨٧) .

(٤٨٤) سورة فاطر : ٢٥ - ٢٦ .

(٤٨٥) سورة العنكبوت : ١ - ٣ .

(٤٨٦) سورة آل عمران : ١٧٩ .

(٤٨٧) سورة الفرقان : ٢٠ .

وفي صراع الحياة بين الحق والباطل يحاول أهل الباطل بشتى الأسباب والوسائل أن ينالوا من الحق وأهله بإلقاء الشبهات وطلب المعجزات ومخاطبة الشهوات .

وفي طريق الصراع قد تزلُّ أقدام ويُستخفُّ أقوام .

ولا سبيل للنجاة في معركة الحياة إلا باتباع منهج الحق والثبات عليه . به تَرُشِدُ النفوس ، وتثبت أمام العواصف الهوج ، وتهدي في كلِّ شأنٍ للتي هي أقوم .

وهذا ما كان من القرآن - وهو الحق - في مخاطبة الرسول ﷺ وإرشاد المؤمنين وهم يواجهون سفاهة المبطلين وشبهات المضلين . فقد حدَّد لهم منهج الحياة وسبيل النصر والنجاة وهداهم في جميع أمرهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم . ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ۝ ٣٣ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۝ ﴾

هكذا يقذف باطل المبطلين . يقذف بالحق الذي أنزل ليُتدبر ويعمل به . ولا يأتونك لإبطال دعوتك باقتراح إلا أتيناك بالحق الذي يدفعه . ولا فوز إلا بالحق ولا نجاة إلا لمحق . فإن العاقبة له والفوز لمن اتبعه .

٨٤

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الفرقان ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ۝ (٤٨٨) .

(٤٨٨) سورة الفرقان : ٥٠ - ٥٢ .

لقد جاءت هذه الآيات بعد حديث القرآن عن الماء .

وحديث القرآن عن الماء له دلالة وتبصرته . فإنه لا يقف بالإنسان عند متاع الحياة الدنيا بل يمتدُّ به إلى البعث والنشور ، فيقدم مع المتاع التبصرة والذكرى نقرأ ذلك في سورة ق ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۝ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ۝ ﴾ (٤٨٩) أي خروج الموتى من قبورهم .

ونقرأ في سورة الأعراف ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتِ سَحَابًا ۖ نَقَّالَا سُفُنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَلِكَ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ ﴾ (٤٩٠) .

ونقرأ في سورة فاطر: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ۖ فُسْقِنَهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَخْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَلِكَ النُّشُورُ ۝ ﴾ (٤٩١) .

فتصريف القول على هذا النحو يعين على التبصرة والذكرى . والقرآن يحدث الإنسان عن شي يلازمه ولا تقوم الحياة إلا به لتبقى الذكرى ملازمة للإنسان حيث كان ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ۖ لِنُخْضِ بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا وَنُسْقِيَهُ ۖ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأُنَاسٍ كَثِيرًا وَلَقَدْ صَرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا فَآبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝ ﴾ (٤٩٢) .

(٤٨٩) سورة ق : ٩ - ١١ .

(٤٩٠) سورة الأعراف : ٥٧ .

(٤٩١) سورة فاطر : ٩ .

(٤٩٢) سورة الفرقان : ٤٨ - ٥٠ .

وسواء كان مرجع الضمير في قوله ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾ إلى الماء أو إلى حديث القرآن فإن المقصود هو الدلالة في الحالين . وفي كل تبصرة وتذكرة .

فإن آيات الله المنزلة على نبيه تتسق مع آيات الله في الآفاق وفي الأنفس في مخاطبة الإنسان وتذكرته . فآية الله في الآفاق تأتي في حديث القرآن تبصرة وذكرى للإنسان . فمن الناس من يأخذ من آية الله في إنزال الماء المتاع ولا يزيد .

وهؤلاء تشاركهم الأنعام فيما يتمتعون به ويأكلون ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ . ومنهم من يبصر في الآية دلالتها ويأخذ تبصرتها وتذكرتها فيجمع مع المتاع التبصرة والذكرى وهو الأصل في الآيات . آيات الله في الأنفس والآفاق التي يخاطب بها الإنسان في حديث القرآن ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةٌ وَذِكْرٌ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّتَّبِعٍ﴾ (٤٩٣) .

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ (٤٩٤) .

تلك عناية الله بالإنسان يبصّره بآياته في نفسه وفي الآفاق من حوله كما يبصره بما أنزل من الحق وما يتلى منه من الآيات .

والناس - مع التذكير - ما بين شاكر وكافر . فأما الشاكر فيحمد الله ويذكر

(٤٩٣) سورة ق : ٦ - ٨ .

(٤٩٤) سورة الفرقان : ٦٢ .

فضله . وأما الكافر فينكر نعمة الله ويسندها إلى غيره ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا
فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾
لقد أنزلنا القرآن ليلبغ للناس وليجاهد به ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ
مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ (٤٩٥).

والمؤمنون مأمورون بذلك في أي زمان وفي أي مكان ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا
الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ (٤٩٦).

وجهاد المؤمنين بالقرآن يقتضي اعتصامهم به ، وإخلاصهم له ، وصدقهم
معه فإنهم لا يستطيعون نصره إلا إذا نصره في أنفسهم بتغليب أمره على
أهوائهم . ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُم وَيُخْلِفْ
أَقْدَامَكُمْ﴾ (٤٩٧).

إن الأجيال تفد وتذهب ودين الله باقٍ بقاء النور في الكون . وكتابه محفوظ
يهدي ويشهد . ويبلغ للأجيال كلها دون أن يطفأ نوره أو يضعف ذكره . وبه
يجاهد المجاهدون في سبيل الله ، وهم يبلغونه كما أمر الله ويخضعون لذلك
أموالهم وأنفسهم لينالوا بذلك رحمة الله . ولا سبيل لهم إلى ذلك إلا باتباع
هده .

(٤٩٥) سورة المائدة : ٦٧ .

(٤٩٦) سورة الأنعام : ١٩ .

(٤٩٧) سورة محمد : ٧ .

ومن حديث القرآن، عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الشعراء :
﴿طَسَّرَ ۚ إِنَّكَ أَلَمْتُ الْكِتَابَ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَخْعُ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ
إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ
ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٣﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا
كَانُوا بِهٖ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٤٩٨).

في هذه الآيات بيان لصفة من صفات هذا الكتاب .

وهي صفة تنبئ عن نوره وبيانه . ليكون الناس على بينة من أمرهم وهم
يسلكون سبيل النجاة أو يتبعون سبل الهلاك والدمار .

فإن لا عذر بعد بيان ولا حجة بعد إعدار وإنذار .

وفي الإشارة إلى آيات هذا الكتاب الموصوف بهذا الوصف ﴿الكتاب
المبين﴾ في الإشارة إليها لفتاً للأنظار إليه وتوجيه إلى حسن تدبره والاعتصام
به . فهو الكتاب المبين . المظهر الحق من الباطل . الظاهر إعجازه وأنه من
عند الله والمناسبة بين قوله ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾ وقوله مخاطباً رسول
الله ﷺ ﴿لَعَلَّكَ بَخْعُ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ المناسبة بيّنة واضحة .

فإن من ير ناساً يعرضون عن الحق المبين ولا يؤمنون به ، ويأبون الرحمة
ويسارعون إلى العذاب . من ير ذلك يحزنه ما يرى .

والرسول ﷺ — وهو الرحمة المهداة — تبلغ عنده الحسرة مداها عندما يرى
إعراض قومه عن هذا الكتاب المبين الذي يقود من اتبعه إلى الرضوان والنعيم
المقيم . ﴿لعلك باخع نفسك﴾ أي قَاتِلُهَا غَمًّا أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ بهذا
الكتاب .

والترجي هنا في قوله ﴿لعلك باخع نفسك﴾ بمعنى الأمر أي ارحم نفسك وأراف بها وأشفق عليها فإن إيمانهم ليس مما تعلقت به مشيئة الله . فلا وجه للطمع فيه والتألم من فواته .

فإننا إن نشأ نُنزِّل عليهم من السماء آيةً مُلجئةً لهم إلى الإيمان قاصرةً عليه . ولو شاء الله أن يكرهمهم على الإيمان لأكرهمهم عليه .

ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك . ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ .

فإن هؤلاء المصيرين على الكفر ليسوا أهلاً للهداية . والله لا يكرهمهم عليها .

لأن الإكراه يتنافى مع الابتلاء والامتحان وما يترتب عليه من حساب وجزاء .
﴿فَلَمَّا لَكَ بِخَعِّ نَفْسِكَ عَلَىٰ أَثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۖ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ (٤٩٩) .

والناس لو تدبروا العواقب لم يصرفهم عن الإيمان صارف من الأهواء والرغائب . ولكل شيء عاقبته ، ولكل عمل جزاؤه .

والعاقل من لا تلهيه الرغائب عن العواقب أو تشغله العاجلة الفانية عن الآخرة الباقية . والذين يكذبون بما نزل من الحق ويُعرضون عنه سيجدون جزاءهم .

والله عز وجل عندما يذكر لنا أخبار المكذبين وما يلاقونه من عقاب وجزاء . إنما يحذرننا أن نسلك سبيلهم أو نتبع منهجهم .

وحديث القرآن عن المكذبين فيه تهديدٌ ووعيدٌ . قد لا يُبالي به أهل الضلال حتى يلاقوه ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۖ فَكَذَّبُوا ۖ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَتْوَمَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۚ﴾ .

ألا فلتتدبر كتاب ربنا ولنعتصم به في جميع أمرنا. ولنحذر أن تصرفنا عنه زهرة حياة أو زينة متاع. ولنعلم أنه الشرف الذي أكرمنا الله به وحذرنا من الإعراض عنه ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة الشعراء ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١١٤﴾ بِلسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١١٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١١٦﴾ أَوْ لَتُرِيكَ لَمْ يَعْلَمْ أَن يَعْلَمْهُ عَلِيمٌ مُّتَّبِعٍ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١١٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٩﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٢١﴾ فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ (٥٠٠).

إن حديث القرآن عن القرآن في هذه الآيات يقرر أموراً لها تأثيرها في التصديق به والعمل بمقتضاها.

يقرر أولاً أنه من عند الله، وينبه إلى إعجازه وعلى نبوة من نزل عليه. فإن ما اشتمل عليه، وما أخبر به لا يمكن أن يُعلم إلا بوحي من الله عز وجل. ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ نزل به الروح الأمين وهو جبريل عليه السلام، فإنه أمينُ الله على وحيه.

﴿على قلبك﴾ قلب النبي ﷺ. وقد خصَّ القلب بالذكر ليؤكد أنه محفوظ بحفظ الله متمكن من قلب نبيه لا يقع فيه تغيير أو تبديل. ولا يملك الرسول ﷺ إلا اتباعه وتبليغه كما أنزل إليه من ربه ﴿إِنْ اتَّبِعِ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ ﴿نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢﴾ أُولُوْا نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿١٤﴾ لَّا خُذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿١٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿١٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿١٧﴾﴾ (٥٠١).

(٥٠٠) سورة الشعراء: ١٩٢ - ٢٠٢.

(٥٠١) سورة الحاقة: ٤٣ - ٤٧.

هكذا في ثقة وثبات يتحدث القرآن ويبين للناس الحقائق التي لا تستقيم لهم حياة إلا بتصديقها والعمل بمقتضاها .

القرآن : تنزيل من رب العالمين ، والرسول ﷺ يبلغ ما أنزل إليه من ربه . والناس ما بين موفق مهتد بهداه ، وضال غافل مكذب به مأخوذ بزهرة الحياة . وهؤلاء لا يفيقون حتى يأتيهم العذاب ﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي سلكننا التكذيب والكفر والجحود وأدخلناه في قلوب المجرمين فلا يؤمنون بالحق الذي أنزل حتى يروا العذاب الأليم ﴿ فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴾ من هنا يعلم أن الحق الذي أنزل من عند الله عليه يتوقف العمل والمصير ، وأن الناس مأمورون باتباعه ، مأخوذون به في عاجل أمرهم وآجله ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ۚ فَلَا تَكُ فِي مَرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٥٠٢) ، إن ناساً يصرون على الكبر والعناد والجحود وهؤلاء يدخل الله في قلوبهم ما يحول بينهم وبين الهداية والتوفيق فلا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم .

وهؤلاء يستبعدون ما يوعدون به ويستعجلون العذاب ظناً منهم أنه غير واقع . وتشغلهم زهرة الحياة عن حقيقتها وتلهيهم الرغبة فيها عما وراءها فإذا جاءت العقابة أفاقوا من غفوتهم واستيقظوا من غفلتهم وعرفوا أن العذاب واقع ما له من دافع والعاقبة إذا جاءت تضاعل ما قبلها فغدت السنين الطوال كأنها دقائق وثوان . وقد ذهبت المتعة وبقيت التبعة ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴾ ﴿ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ ﴿ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴾ (٥٠٣) .

ذاك حديث القرآن . فاعلم أخي المسلم أن حديث القرآن عن المعرضين عنه حديث إليك فتدبر ما يُتلى عليك واعلم أن الغد قريب . فانظر ما قدمت

(٥٠٢) سورة هود : ١٧ .

(٥٠٣) سورة الشعراء : ٢٠٥ - ٢٠٧ .

له، وأن الدار هناك فلا تُشغل بزائل عن باقي ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٠٤)، ﴿فَمَنْ رُخِّحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (٥٠٥).

روى مسلم عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ: هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟

فيقول: لا والله يا رب.

ويُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ. فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بُؤْسًا قَطُّ؟ هل مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟

فيقول: لا، والله ما مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ» اللهم إنا نسألك رضاك والجنة ونعوذ بك من سخطك والنار.

٨٧

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الشعراء ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ (١٦١) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿١٦٢﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ﴾ (٥٠٦). عندما يذكر الإنسان نزول القرآن وكيف نزل ويتدبر ما تضمنه من آيات بينات يعجب كل العجب من أولئك الذين يمترون ويحاولون أن ينسبوا القرآن لغير ما نسب له.

﴿وَلِئَلَّا يَتَّخِذَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْآيَاتِ حِكْمًا وَلَا يُنذِرِينَ﴾ (١٩١) ﴿بَلْسَانَ عَرَبِيٍّ﴾ (١٩٢) ﴿وَلِئَلَّا يَتَّخِذَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْآيَاتِ حِكْمًا وَلَا يُنذِرِينَ﴾ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بَلْسَانَ عَرَبِيٍّ ﴿١٩٥﴾

إن هذا التأكيد على هذا النحو كافٍ في إقناع من رغب في الهداية وطلب الحق. فإن القرآن الكريم وما اشتمل عليه يدل دلالة قاطعة على أنه تنزيل رب

(٥٠٤) سورة العنكبوت: ٦٤.

(٥٠٥) سورة آل عمران: ١٨٥.

(٥٠٦) سورة الشعراء: ٢١٠-٢١٢.

العالمين ، نزل به الروح الأمين على قلب النبي الأمي الذي لم يتل من قبله من كتاب ولم يخطه يمينه فلا موضع فيه للشك ولا مجال لارتباب المبطلين .

﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا أَلَّا تَرَاتِبَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (٥٠٧) . ومع هذا الإثبات الجازم القاطع نرى الذين يتبعون أهواءهم يتيهون في الضلال فينسبون تنزل القرآن إلى وحي الشياطين ، على طريقة الذين كانوا يزعمون أن الشياطين تأتيهم بخبر الغيب وبالسمع الذي يتكهنون فيه بالأخبار . وغاب عن هؤلاء المبطلين أن القرآن الكريم يدعو إلى ما لا تدعو إليه الشياطين . فإن القرآن يدعو إلى الهدى والصلاح والإيمان . والشياطين تدعو إلى الضلال والكفر والفسوق والعصيان .

فما يليق هذا القرآن بالشياطين . ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ . فهم معزولون عن سماع الوحي به من الله عز وجل ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ . كما قال الله عز وجل مُخْبِرًا عن الجن ﴿ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ﴾ (٨) وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدًا لِّلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَبًا بَارِصًا (٩) وَأَنَا لَا نَذَرِي أَشْرًا أُريدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ (٥٠٨) .

هكذا كانت حماية الوحي وحفظه من تلبيس الشياطين .
فإن الله الذي نزل الفرقان على عبده له كل شيء . ﴿ تبارك الله رب العالمين ﴾ .

فمن حفظه الله لا يُضَيِّع . ومن أهانه لا يُكْرِم . ﴿ وَمَنْ يُهِنْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرَمٍ ﴾ .

وهذا ملكه وذاك أمره ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ ﴾ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿ (١٧) إَلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شُهَابٌ

(٥٠٧) سورة العنكبوت : ٤٨ .

(٥٠٨) سورة الجن : ٨ - ١٠ .

مُبِينٌ ﴿٥٠٩﴾. وهذه الآيات من سورة الحجر وفيها قوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. حفظ عامٌ شامل في تنزيله وتنزيهه وعزته وبقائه. فلا يقترب من ساحته باطل. ولا يبغيه ولا يستطيعه الشياطين. ولكن أهل الضلال يأبون إلا أن ينسبوا إلى الشياطين ما لا يقدرون عليه. ينسبون لهم شرفاً هم بعيدون عنه كائدون له حانقون عليه.

فهم أهل باطل وضلال. وهذا الكتاب كما أخبر الله عنه ﴿عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾. فهو عزيز منيع لا يقترب منه الشياطين ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾. وكيف ينزل شيطان بما يلغنه ويحذر من كيده؟ إن ذلك ممتنع من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه ما ينبغي لهم أي ليس من بغيتهم؛ لأن من سجايأهم الفساد وإضلال العباد. والقرآن فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو نورٌ وهدى وبرهان، فينبه وبين الشياطين منافاة بعيدة، ولهذا قال الله سبحانه ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾.

الثاني: أنه لو انبغى لهم ما استطاعوا ذلك لا هم ولا غيرهم من جن أو إنس ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

الثالث: أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته لما وصلوا إلى ذلك؛ لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله لأن السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً. في مدة إنزال القرآن على رسول الله ﷺ فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف منه. وهذا من رحمة الله بعباده وحفظه لشرعه. وتأييده لكتابه ورسوله.

فكل احتمال لنسبته لغير ما نسب إليه من أنه تنزيل رب العالمين باطل وقد خسر المبطلون.

إن القرآن الكريم حين يتحدث عن ذلك وينفي ويثبت يخاطبُ الأجيال كلها بإعجازه . ويبطل كل باطل . وهو يُتلى على الناس ويبلغهم في عزة وثقة هذا البلاغ القاطع ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ .

ليعلم الناس أن الحق مصون ومحفوظ ، وأن الناس به مُمتحنون ، وعليه محاسبون ، وأن المعرضين عنه مأخوذون به ، والكارهون له - وقد أبوا نوره - مخلصون في ناره وهم في عذاب جهنم خالدون ، يُقال لهم تَوْبِيخًا وتقريعًا ﴿ لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴾ (٧٨) . وهؤلاء عندما يرون ما توعدّهم به سيعلمون إيمانهم به وإخلاصهم له ، حيث لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا . فمن فاته الإيمان بالحق هنا فلن ينفعه إيمانه به ساعة حساب وجزاء ﴿ وَقَالُوا أَمْ آتَاهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاسُتُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ (٥١٠) .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة النمل ﴿ طَسَّٰ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (٢) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ ﴾ (٥) وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿ (٥١١) .

حديث القرآن عن القرآن هنا ينبئ عن بعد مكانته وعظم شأنه وحكمته . وتلك آياته تدل على ما له من شأن ﴿ تلك آيات القرآن وكتاب مبين ﴾ . ﴿ مبين ﴾ : مظهر للحق من الباطل والحلال من الحرام . وفيه من الحكم والأحكام وأحوال الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب وجنة ونار . حديث حق من

(٥١٠) سورة سبأ : ٥٢ .

(٥١١) سورة النمل : ١ - ٦ .

لدى حليم علم. يُخاطب به الخلق لهدايتهم إلى الصراط المستقيم. فمن اهتدى بهداه فاز ونجا، ومن أعرض عنه خسر وهلك، والمتفوعون بهداه هم الفائزون.

وأولئك لهم صفائهم البارة وأخلاقهم الفاضلة وإيمانهم الوثيق. هم أهل صلاة وزكاة ويقين ثابت بالآخرة يقترن بأعمالهم المتجددة فيجعلها بارة راشدة والقرآن الكريم لهؤلاء هدى وبشرى لانتفاعهم بهداه وعملهم بمقتضاه.

﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

يقينهم بالآخرة ثابت راسخ وأداؤهم للفرائض في صحبته متجدد غير متوقف. والقرآن الكريم يصف حالهم ليكون عوناً لمن أراد أن يتبع سبيلهم. ومن اتبع سبيل المؤمنين فهو معهم وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيماً.

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ حَافِظُونَ (٩) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١١) (٥١٢).

صفات أي صفات: أمانة وعفة وطهر نفس واستقامة قصد ووفاء يؤهلهم لإكرام الله لهم ورحمته بهم. وتلك بشرى القرآن لهم ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ومن تدبر صفات هؤلاء الذين بشرهم القرآن وكان لهم هدى وبشرى أيقن أنها الصفات التي يتحقق بها أمن الناس وسلامهم.

فإن من أيقن بقاء الله والحساب بين يديه سابق إلى الخيرات وكف عن السيئات وكان آمناً لمن حوله بصفاته وحسن معاملته وأخلاقه .

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً تَوْأَمَ قُلُوبِهِمْ وَجِلَّةٌ أُنْفُسُ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ (٦١) أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهُمْ سَابِقُونَ ﴿ (٥١٣) .

ومن حافظ على الصلاة وآتى الزكاة طاب مسعاه ، وكانت له ضوابطه التي تحول بينه وبين المنكر والفحشاء .

والأمن في حقيقته كفٌ وعدلٌ . والاستمساك بما أوصى الله به حمى للإنسان من ظلم نفسه أو ظلم غيره .

إن العدل والحق والبر والصدق والأمانة والرحمة صفات لا بد منها لتحقيق الأمن الصادق والسلام البار . وهذا ما تُوفى به صفات أهل الإيمان الذين بشرهم القرآن وهدوا بهداه ومن لا يقين له بالآخرة مفتون بدياه . ومن فتن بالدنيا أفسد ولم يصلح . وكان بإيثاره العاجلة ونسيانه الآخرة ظالماً لنفسه مسيئاً لغيره . ودمر بذلك دياه وخسر أخراه . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخَسُونَ ﴿ .

إن اليقين بالآخرة هو الزمام الذي يكبح الشهوات والنزوات . والذين لا يوقنون بالآخرة ويرونها دنيا فحسب يسئون ولا يصلحون ويعيشون في دنياهم أسرى لأهوائهم ومنافعهم وزينة حياتهم . والله عز وجل يقول عن أولئك الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

هم لم يؤمنوا بما نزل من الحق ولم يعملوا به فكان هذا عقابهم في دنياهم وأخراهم ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخَسُونَ ﴾ .

إن للقرآن بشره لمن آمن به وعمل بمقتضاه ، وإنذاره لمن أعرض عنه وأثر سواه . فطوبى لمن آمن به وويل لمن أعرض عنه .

(٥١٣) سورة المؤمنون : ٦٠ - ٦١ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة النمل ﴿إِنْ هَذَا الْقُرْآنُ يَنْقُصُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ٧٦ ﴿وَأَنَّهُ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ٧٧ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ ٧٨ ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ ٧٩ ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ ۚ وَلَا تَسْمِعُ الْقَوْمَ الدُّعَاءَ ۚ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ ٨٠ ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَدًى الْعَمَىٰ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۚ إِنَّ تَسْمِعَ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٥١٤).

في هذه الآيات بيان لمكانة القرآن وهيمته وحفظه وشهادته على ما ادعاه بنو إسرائيل على أنبيائهم أو اختلفوا فيه .

فالقرآن هو المرجع الحق لرسالات الرسل جميعا وما بعثوا به وما دعوا إليه . ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمَ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ (٥١٥).

فمن أراد أن يعرف رسالة موسى عليه السلام فعليه بالقرآن . ومن أراد أن يعرف حقيقة عيسى عليه السلام وما أنزل عليه فعليه بالقرآن . فإنه المحفوظ بحفظ الله المؤمن الذي يقرر أنهم جميعا ما طلبوا من أقوامهم إلا أن يعبدوا الله وحده لا شريك له . ذاك ما بعثوا به وما دعوا إليه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٥١٦).

ولقد أنكر القرآن الكريم على الذين مآلوا عن هذا الأصل ونسبوا ميلهم وانحرافهم ظلماً وزوراً - إلى ما جاء به أنبيأؤهم .

أنكر على اليهود أن يقولوا «عزير ابن الله» وعلى النصارى أن يقولوا تارة «المسيح ابن الله» وطوراً «إن الله هو المسيح ابن مريم» .

(٥١٤) سورة النمل : ٧٦ - ٨١

(٥١٥) سورة المائدة : ٤٨

(٥١٦) سورة الأنبياء : ٢٥

﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ
قَالَهُمْ اللَّهُ أَتَى يُؤْفِكُونَ﴾ (٥١٧).

هكذا يبين القرآن ويدود عن رسالة الرسل جميعا .

والإسلام في إثباته لرسالات السابقين - على هذا النحو - إنما يقدم للإنسانية الحقيقة كما جاءت من عند الله . الحقيقة التي ظلمتها أهواء الناس وانحرفت بها شهواتهم . واستحفظوا عليها فلم يحفظوها .

يقدم الحقيقة في كتاب محفوظ بحفظ الله . كتاب معجز في ذاته وفي إخباره بما أنزل على الرسل من قبل . ﴿وَأَنَّهُ لَكُنْزٌ عَزِيزٌ ﴿١١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (٥١٨).

يخاطب الناس جميعا بهذا البيان الساطع . وهو بهذا يقول لأتباع موسى إن كنتم صادقين في اتباع نبيكم فهذا دينه الإسلام فاتبعوه وأطيعوه . ولأتباع عيسى إن كنتم تحبون رسولكم فهذا دينه وسبيله فاتبعوه ولا تظلموه . وللإنسانية جميعا ﴿وَأَن هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٥١٩).

هذا ما اشتمل عليه القرآن الكريم من الهدى والبيان . إنه يقص على بني إسرائيل وهم حملة التوراة والإنجيل ﴿أَكْثَرُ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ كاختلافهم في عيسى عليه السلام وتباينهم فيه . إنه قد جاء بالقول الحق العدل أن عيسى عبد من عباد الله ورسول من رسله الكرام عليهم أفضل الصلاة والسلام . ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣١﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٥٢٠).

(٥١٧) سورة التوبة : ٣٠ .

(٥١٨) سورة فصلت : ٤١ ، ٤٢ .

(٥١٩) سورة الأنعام : ١٥٣ .

(٥٢٠) سورة مريم : ٣٤ ، ٣٥ .

إن العبودية لله شرف لا يدانيه شرف . ومن غالى وأساء عُوقِبَ على مغالاته وإساءته وحشر يوم القيامة يحمل وزره وأوزار الذين أضلهم . والمسيح بريء مما نُسِبَ إليه ، شريف ، يرى شرفه في أنه عبد لله يشرف بذلك ولا يستنكف ﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدَ اللَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ (٥٢١) .

وسيسمع الخلق جميعا براءة عيسى عليه السلام مما قيل فيه أو نسب إليه ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ۖ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَإِيتِي إِلَهُي مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۖ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۖ تَعَلَّمْتُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۖ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَادُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ (٥٢٢) .

هذا ممّا قصّه القرآن على بني إسرائيل ونبيه . فمن أبى إلا الإصرار والإعراض عن الحق فإن يوم الفصل آت لا ريب فيه . وعلى الداعين إلى الحق أن يستمسكوا به ولا يحدوا عنه .

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُضُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۖ وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَيَوْمَ الْقَضَاءِ آتٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ۖ﴾ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِئذٍ يَخْسِرُ الْمَبْطُلُونَ﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۖ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ .

(٥٢١) سورة النساء : ١٧٢ .

(٥٢٢) سورة المائدة : ١١٦ ، ١١٧ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة النمل ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ٥٢٣ ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ ٥٢٤ ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ ءَايَتُهُ فَنَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٥٢٣).

في هذه الآيات بيان لما أُمِرَ الرسول ﷺ بتبليغه والقيام به ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ٥٢٣ ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾. وفي ذلك تنبيه على كفاية القرآن في الهداية والإرشاد من غير حاجة إلى إظهار معجزة أخرى.

﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ أي من اهتدى بالإيمان به والعمل بما فيه من الشرائع والأحكام فإنما يهتدي لنفسه. ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾.

فالرسول ﷺ شأنه شأن الرسل من قبل الذين أنذروا قومهم وقاموا بما عليهم من تبليغ الرسالة وأداء الأمانة وحساب أممهم على الله تعالى ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ ﴿إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل﴾. ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ ءَايَتُهُ فَنَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ٥٢٣ ﴿الحمد لله الذي لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه والإنذار له.

﴿سِيرِكُمْ ءَايَتُهُ فَنَعْرِفُونَهَا﴾ أي سيركم آياته في الدنيا. الآيات الباهرة التي نطق القرآن بها ﴿سَرُّيَهُمْ ءَايَتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (٥٢٤). ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ٥٢٣ ﴿بل هو شهيد على كل شيء سبحانه ذاك بلاغ القرآن للناس يُتلى عليهم ليكونوا على بينة من أمرهم.

(٥٢٣) سورة النمل: ٩١ - ٩٣.

(٥٢٤) سورة فصلت: ٥٣.

وفي بلاغ القرآن كفاية لمن طلب الهداية وآثر الحق ولم يتبع الهوى .
وبالقرآن يكون الجهاد جهاد النفوس التي تبغي الحياة عَوْجًا لمآرب عاجلة
وشهوة آسرة .

﴿فَلَا تَطْعَمُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ (٥٢٥) .

إن في هذا القرآن من سلطان الحجة وعميق التأثير ما يزلزل الأرواح
ويخضع النفوس . وكم هزم المقاتلون وانتصر هذا الكتاب بعزته وحجته .
وكم نال العدو من ديار المسلمين ولم يستطع مغالبة حرفٍ منه .
ترى الغالب مغلوبًا أمام سطوته والمنتصر منهزمًا إزاء حجته .
لقد كان ولا يزال مبعث حياة لمن اعتصم به واهتدى بهداه .
ومن رحمة الله أن بقي القرآن محفوظا بحفظ الله . بقي للحياة بقاء النور في
الكون لا يتوقف مدُّه ولا يطفأ نوره .

ذاك هو القرآن الذي أمر الرسول ﷺ بتلاوته . ونحن مأمورون بما أمر به نبينا
ﷺ متبعين له غير مبتدعين . مأمورون أن نتلوهُ وأن نعمل به وأن ندعو إليه وأن
نكون من المسلمين ولا نجاة إلا لمن أطاعه واتبعه . ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ
رَبِّي هَذِهِ الْبَلَدَ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ
وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ .

اللهم اجعله لنا إمامًا ونورًا وهدى ورحمة ، وذكرنا منه ما نسينا وعلمنا منه ما
جهلنا وارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، واجعله لنا حجة يا رب
العالمين .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة القصص
﴿طَسَمَ ۖ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۚ﴾ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ
بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۚ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا آلَهُكَ شَيْعًا يَسْتَضِعُّ

طَائِفَةً مِنْهُمْ يُلَاحِظُ أَهْلَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي، إِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ. ۝ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى
الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُكَلِّمُهُمْ فِي الْأَرْضِ
وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَمْلَانَ وَجُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٥٢٦﴾.

تبدأ السورة بهذه الأحرف : طا - سين - ميم . للتنبيه على أن من مثلها تتألف
آيات الكتاب المبين ذي الرتبة العالية ، وهذه الأحرف هي التي يتألف منها ومن
مثلها الكلام العربي ولا يخرج القرآن عنها ولا يزيد عليها وهي في متناول
المكذبين بالوحي . وهم لا يستطيعون أن يصوغوا منها مثل هذا الكتاب . وفي
ذلك ما فيه من لفت الأنظار والدعوة إلى اتباعه والاعتصام به . إذ هو من عند
الله ، ولا مقدرة للخلق من إنس وجن على أن يأتوا بمثله ﴿ولو كان بعضهم
لبعض ظهيرا﴾ .

إنه معجز في ذاته ومعجز فيما تضمنه واشتمل عليه واختص به من هداية
وتأثير . ومن أجل أولئك الذين يهتدون بهداية القرآن تُتلى الآيات ﴿تَتْلُوا عَلَيْكَ
مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .

إن الله يتلو على رسوله الكتاب من أجلهم ولهم بصفتهم هذه صفة الإيمان
الذي يؤهلهم للاهتمام بهذا النور .

ومن آيات هذا الكتاب تُعرف السنن ، سنن الله التي لا تتبدل ولا تتحول .
ويُهدى من يهتدي بها إلى الصراط المستقيم . ﴿صراط الله الذي له ما في
السموات وما في الأرض﴾ .

﴿تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .

إن المؤمنين وحدهم هم الذين ينتفعون بما في هذا القصص من عبر
وعظات ، وقصة موسى مع فرعون تنفذ بعبرتها إلى أعماق النفوس فتند الشر
قبل أن يولد وهي ترى عاقبته ومصرع أهله . وتنفذ إلى قلوب المستضعفين

فَعَلَّمَهُمْ كَيْفَ يَتَمَسَّكُونَ بِمَرْضَاةِ رَبِّهِمْ وَهِيَ تَرْبِيهِمْ مِنَّةَ اللَّهِ عَلَى الْمُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ فَتَجْعَلُهُمْ أُتَمَّةً وَتَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ .

وتنفذ إلى قلب الأم المفزعة بالبغي والظلم والتسلط فتعلمها كيف تلجأ إلى الله وتعتصم به وهي ترى أم موسى تحاط بحماية ربانية في أشد لحظات الفرع والظلم والتسلط — تُطْمِئِنُّ قَلْبُهَا وَتَحْفَظُ وَلِيدَهَا وَتُعِيدُهُ إِلَيْهَا لِتَرْضِعَهُ مَكْرَمَةً مَعْرُوزَةً — تَرْضِعُهُ وَتَأْخُذُ أَجْرًا .

قصة تنفذ إلى قلوب الناس حيث كانوا فتعلمهم أن ما في أيديهم يُهدّده طغيانهم وتدمره معاصيهم وتعصف به ذنوبهم . وهم بذلك يؤخذون وَيَهْلِكُونَ . يؤخذون بذنوبهم لا بكيد أعدائهم . فما كان لعدو أن يحقق كيده فيمن حفظ الله واهتدى بهداه ومن حَفِظَ اللَّهُ حَفِظَهُ اللَّهُ وجعل العاقبة له «احفظ الله يحفظك» .

قصة تنفذ إلى قلوب الأتباع فتعلمهم أن الطاعة في معصية الله دمارٌ وبوار، وأن الذين يستخفهم الباطل فيركنون إليه ويطيعونه يُزْهَقُونَ به وَيُدْمَرُونَ . ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ٥٤ ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْنَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ٥٥ ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سُلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ ٥٦ (٥٢٧) .

قصة تعلم كل إنسان — أحب أن يعلم — أن ينظر إلى العواقب فيحسن المقدمات ولا يسيء ؛ لأن من يسيء ولا يتذكر تسوء عاقبته .

قصة تعلم جميع الخلق أن بساط دنياهم سيطوى . وأنهم قادمون على دار البقاء ولا أمن لهم فيها إلا بصدق الإيمان وصالح الأعمال ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ ٥٢٨ .

(٥٢٧) سورة الزخرف : ٥٤ - ٥٦ .

(٥٢٨) سورة الأنعام : ٨٢ .

من أجل ذلك حفظ القرآن ليعلم ويصبر ويهدي للتي هي أقوم .
فكن أخي المسلم ممن يتعظ به ويهتدي بهداه . فقد حُفِظَ القرآن لِحِفْظِ
بهده من الضلال وتُنْقَذَ من النار .

فاستمسك به واعتصم ليكون حجة لك لا عليك .

وجاهد نفسك - ما استطعت - أن تكون مع القرآن حيث كان ﴿ ومن يعتصم
بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم ﴾ .

٩٢

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنته هذه الآيات في سورة القصص
﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى
وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٢٣) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفَرِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ
الشَّاهِدِينَ ﴿٢٤﴾ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَابِتًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ
تَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٢٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ
رَحِمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَأْثُورًا مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْلَا
أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ
وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ
مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَيْفُورٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ
فَأَنقُذُوا كِتَابَ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا
لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٠﴾ (٥٢٩) .

حديث القرآن - عما اشتمل عليه من أنباء الغيب نسمع منه هذه الآيات
البيانات من سورة القصص ، وفيه دلالة من دلالات النبوة فما كان النبي ﷺ قد
شهد هذه الأحداث في زمان أو مكان . ولكنه الوحي يأتيه من عند الله بآيات

(٥٢٩) سورة القصص : ٤٣ - ٥٠ .

تُتْلَى نَرَى مِنْ خِلَالِهَا وَقَائِعَ الْمَاضِي مَائِلَةً أَمَامَ أَعْيُنِنَا ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٥٣٠).

والقرآن الكريم وهو يحدثنا بهذه الأحداث الماضية يبصرنا من خلالها بسنن الله الباقية ويجعلنا نحيا مع الزمن كله ماضيه وحاضره ومستقبله .

فهو ينقل لنا عبرة الماضي لصالح الحاضر، ويجعلنا نبصر بنوره ما نحن قادمون له وصائرون إليه بآيات أحكمت ثم فصلت من لدن حكيم خبير .
يخبرنا عما أُعِدَّ لِلنَّاسِ مِنْ جَنَّةٍ أَوْ نَارٍ .

جَنَّةٌ يَصِفُ الْقُرْآنُ مَا فِيهَا مِنْ نَعِيمٍ يَجْعَلُكَ وَأَنْتَ تَقْرَأُ أَوْ تَسْمَعُ كَأَنَّكَ تَرَاهُ .
ونارٍ تكاد ترى غضبها على الكفرة الفجرة وهم يُلقون فيها وقد سمعوا لها شهيقا وهي تفور ﴿ تكاد تميز من الغيظ ﴾ .

إن إخبَارَ القرآن عن الماضي بعبره وعظاته ، وإخبارَه عن المستقبل بوقائعه ومشاهده وما ينتهي إليه الخلق من مصير .

إن هذا وذاك تستقبله النفوس المطمئنة فيحقق لها الحياة ، حياة التبصرة والذكرى ، حياة الاستقامة والتقوى ، ويحثها على حسن الاستجابة للحق لتنعم بحياة طيبة وتُجَازَى بنعيم مُقيم . وذاك وَعْدُ اللَّهِ يُتْلَى فِي كِتَابِهِ وَخَبْرُهُ يُبَلِّغُ إِلَى عِبَادِهِ . ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٥٣١) .

ذاك هو الفرقان نزلهُ الله على عبده ليكون للعالمين نذيرا . به انقطعت الحجة والمعذرة . ولم يعد هناك مجالٌ أن يقول أحدٌ ما قاله أهل الجحود قبل أن يأتيهم بيانه أو يُبعثَ رسوله ﴿ رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

(٥٣٠) سورة هود : ٤٩ .

(٥٣١) سورة النحل : ٩٧ .

فقد أرسل الله الرسول إلى الناس كافة ليقيم الحجة ويقطع المعذرة وحُفِظَ الذكر للخلق جميعاً. فمن أعرض عنه واتبع هواه أخذ بذنبه، ومن أصر على الظلم دُمِّرَ بظلمه. وهذا بلاغ القرآن وذاك حديثه من اتبعه فقد اتبع الحق من ربه، ومن لم يستجب للحق تنازعت الأهواء واقتاده الباطل. والباطل - لا محالة - زاهق وأهله خاسرون ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغْيٍ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ٥٣٢﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٣٣﴾.

٩٣

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنته هذه الآيات من سورة القصص ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٥٣٢﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ إِذَا تَلَا عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ٥٣٣ أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ٥٣٣﴾.

حديث القرآن هنا فيه بيان لمصدره وغايته، وموقف بعض أهل الكتاب منه.

ولئن خوطب به أهل مكة عند نزوله فإنه بلاغ للناس وبيان لهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٥٣٢﴾. بلَغْنَا لَهُمُ الْقُرْآنَ عَلَى التَّابِعِ مَنْجَمًا لِيَكُونَ أَبْلَغُ فِي تَحْقِيقِ التَّبَصُّرَةِ وَالتَّذَكُّرَةِ.

والذين آتاهم الكتاب من قبل إنزال القرآن منهم مؤمن بما جاء في الكتاب مستمسك به وهؤلاء يؤمنون بما نزل على محمد ﷺ؛ لأنهم يرون فيه تحقيقاً لما جاء في كتبهم. فكانوا حين يسمعون القرآن يُتْلَى عليهم يقولون صدقنا بهذا القرآن وبما جاء به فهو منزل من عند ربنا، ويؤكدون أنهم كانوا مسلمين قبل نزول القرآن؛ لإيمانهم بما جاء في كتبهم من نعت النبي ﷺ. وإيمانهم

(٥٣٢) سورة القصص: ٥٠ - ٥١.

(٥٣٣) سورة القصص: ٥١ - ٥٤.

بكتابهم يستلزم الإيمان بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم . وهو معلوم لهم يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل .

﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَلَيْسَ لَهُمُ الْكِتَابُ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذْ آتَيْنَاهُمْ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ قَالُوا أَمْ نَأْتِيهِمْ إِنْهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَبَدَرُوا بِالْحَسَنَةِ الْسيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٥١﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٢﴾﴾ (٥٣٤) .

إن هؤلاء الذين آمنوا بمحمد ﷺ قبل رسالته لما عرفوه في كتابهم ، وآمنوا به بعد رسالته . هؤلاء يضاعف لهم الأجر - يؤتون أجرهم مرتين - لثباتهم على ما جاء في الكتاب الأول وإيمانهم به مخالفين بذلك كثيرا من قومهم . وثباتهم على الإيمان بمحمد وتحملهم أذى مَنْ خالفهم . هؤلاء قد آثروا رضا الله فانتصر الحق في نفوسهم وحقق فيهم من الصفات ما يميزهم من غيرهم .

فمن صفاتهم أنهم يقابلون السيئة بالحسنة ، وينفقون مما رزقهم الله ولا يَظُنُّون . وحين يطرق أذانهم لغو الكلام وباطل القول ممن عاداهم ينصرفون عنه ولا يابھون به ، ولا ينطقون بالقول الفاحش ردا على الناطقين بلغو القول ، بل يقولون صادقين ﴿لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْغِي الْجَاهِلِينَ﴾ وهو منطق سديد وخلق رفيع يستمسك به دعاة الحق ولا يحدون عنه . وتلك ثمرة الإيمان بالحق واليقين به والبراءة من الباطل وأهله .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنته هذه الآيات من سورة القصص :
﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٥٥ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ٥٦ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ

إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ٨٧ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا
 آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٣٥﴾ .

إن حديث القرآن هنا له دلالة في حسن تدبره والاستمسك به والدعوة إليه
 والعمل بمقتضاه . وذلك ما فرضه الله على نبيه ﷺ وأمره بتبليغه وجعل
 الاعتصام به سببا في طلب نصره وتأييده .

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ يؤكد الله لنبيه ﷺ أنه كما
 أنزل عليه القرآن وأوجب عليه قراءته وتبليغه والعمل بكل ما جاء به فهو كذلك
 سيرُّه إلى مكة بعد أن يقهر الكافرين من قريش وينتصر عليهم .
 وهذا إخبار من الله بما سيكون .

وفيه دلالة على أن من فرض القرآن لا يتخلى عمن فرض عليه . وهي دلالة
 تدعو في مضمونها إلى حسن تدبره والاعتصام به .

فإن ما عند الله لا يُطْلَبُ إلا باتباع ما نزل من الحق وتغليب أمر الله على
 هوى النفس . وما فرضه الله وأوجبه من تدبر القرآن والعمل به هو السبيل لهداية
 الخلق في كل شأن للتي هي أقوم . وذلكم هو الحق . ومن أباه أقام على
 ضلال . ولا خفاء في ذلك ولا التباس . ومن بعد البلاغ حساب وجزاء ، ولا
 عذر بعد بيان ، ولا حجة بعد إعدار وإنذار .

﴿قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ .

هكذا يتلى القرآن في ثقة وثبات ويتحقق ما يخبر به في واقع الحياة ﴿إِنَّ
 الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ إن الذي فرض القرآن على نبيه هو
 الله . والذي أخبر برده إلى مكة فاتحا متصرا هو الله . أخبره بذلك أثناء
 هجرته ، وأتباعه آنذاك قليلون ، مستضعفون في الأرض يخافون أن يتخطفهم
 الناس ، فأواهم الله وأيدهم بنصره ورزقهم من الطيبات ؛ لأنهم أحسنوا

الاستجابة وصدقوا في التمسك بما فرض الله عليهم ، ولم يصرفهم عن التمسك به مَا لَاقَوْهُ مِنْ صَدٍّ وَكَيْدٍ ، وتعذيب وتشريد . بل كانوا كما وصفهم الله وأخبر عنهم ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (٥٣٦) .

هذا الصدق والوفاء في التمسك بما فرض الله هو السبيل لطلب النصر والتأييد .

ومن هنا كان التوجيه لنبيه والبيان له بياناً للخلق ودعوة لهم أن يقتدوا به وأن يتبعوه فيما استمسك به ودعا إليه . ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ۖ لَّيْسَ بِكَ عَلَيْهِمْ قَوْلٌ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بِعَدَاذِ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ وَأَدْعِي إِلَىٰ رَّبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

وثمرة ذلك كله تراه في توحيد الألوهية التي لا نجاة لأحد من عذاب الله إلا به ، والذي من أجله أرسل الله الرسل وأنزل الكتاب . ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .

هذه الحقيقة الكبرى من أجلها أنزل القرآن وحفظ ، ومن أجلها خلق الخلق وأمروا بالحق والعدل ونهوا عن الفساد في الأرض ؛ فإن كل فساد في الأرض منشؤه نسيان هذه الحقيقة الكبرى ، حقيقة الغاية التي خلق الإنسان من أجلها وسخر الله له ما في السموات وما في الأرض عوناً منه على تحقيق هذه الغاية وحسن إدراكها .

وهذه الغاية — من توحيد الله والإيمان بالرجوع إليه — هي وحدها التي تصان بها كرامة الإنسان ، ويطلب أمنه وسلامه .

هي وحدها التي تُعين الخلق على أن يكونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين .

ومن أجل ذلك أنزل الله الكتاب على نبيه وأوجب تبليغه للناس ، وأمرهم أن يتبعوا هداه ، لتصان كرامة الإنسان بمعرفة ربه وتقواه ، ويقام العدل ، ويسود البر والحق ، ولا يتخذ الناس بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله . ﴿وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أمر عظيم وخطير ، ولخطورته وعظم شأنه خوطب الرسول ﷺ به ليكون أبلغ في نهى الناس عنه . فإنهم إن لم ينتهوا عما نهوا عنه ساءت حياتهم ، وفست مودتهم ، ووجد الطغاة المفسدون مجالا لطغيانهم وفسادهم . من هنا - ولمصلحة الناس - جاء النداء في كتاب الله بأمر من الله لنبيه ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٥٣٧) ، ذاك هو السبيل لأمن الناس وسلامهم . وذاك ما نزل القرآن من أجله ، وما يرشد إليه قوله ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٥٣٨) .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة العنكبوت ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ ولا تُجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَحْدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٥٣٩) .

(٥٣٧) سورة آل عمران : ٦٤ .

(٥٣٨) سورة القصص : ٨٨ .

(٥٣٩) سورة العنكبوت : ٤٥ ، ٤٦ .

﴿ أَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ . أمرٌ من الله لنبيه بتلاوة القرآن بلاغاً للناس وعملاً بمقتضاه . والناس مأمورون باتباعه وحسن الاستجابة له .

فليقبل الناس على مآدبة القرآن طهراً لدنياههم وشفاء لما في صدورهم . فليقبلوا محبين راغبين فإن القرآن وفي لأصحابه لا يتخلى عنهم في موت أو نشور . وما يشغلهم عنه وما يحرصون عليه من متاع وما يجمعون لا يبارح دورهم ولا ينفعهم إذا نزل الموت بساحتهم .

أما القرآن - الذي يقبلون عليه في دنياههم ويعملون به - فهو معهم لا يتخلى عن أصحابه ولا يغيب عنهم في لحظة حساب أو جزاء .

ومما يلفت النظر أن الأمر بالتلاوة في قوله ﴿ أَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ قد اقترن بالأمر بإقامة الصلاة دلالة على أن التلاوة ليست مجردة عن العمل بل هي حائئة عليه داعية إليه ، والقراءة عمل من أعمال الصلاة .

والصلاة - وهي خير ما يتلى فيه القرآن وما يعبر عن إسلام وإيمان - هي في الوقت نفسه واسطة بين ما يُتلى من آيات وما يقع في الحياة .

إنها عمل طهور ذو صلة وثيقة بوحى الله وآياته .

فهي ذكر لله دائم لا ينقطع يقيمها من يقيمها فتثمر ثمراً خيراً وطهراً وبراً ﴿ إِنِ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ .

ومع ما تحققه من طهر في حياة الناس فإنها خير زادٍ لصاحبها ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ ﴿ ٨٨ ﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّنْ تَبُورَ ﴾ ﴿ ٢٩ ﴾ لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ ﴿ ٥٤٠ ﴾ .

(٥٤٠) سورة فاطر: ٢٩ ، ٣٠ .

ألا إن ذكر الله في الصلاة وفي تلاوة القرآن عمل ذو شأن عند الله . ومن داوم على ذكر الله لزم طاعته وآثر رضاه ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ . ومما يدعونا إليه هذا القرآن - ونحن نتلوه - أن نعلن لأهل الكتاب ما أمرنا أن نعلنه بعد أن نهاننا عن مجادلهم إلا بالتي هي أحسن ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَحْدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ . نؤمن بآله واحد هو إلهنا وإلهكم ونؤمن بالكتاب كله ولا نفرق بين أحد من رسله . فهم جميعا دعاة إلى دين واحد وقد أمروا أن يعبدوا إلهها واحدا لا شريك له . وما أمرنا أن نقوله وأن نعلنه بارٌّ كريم يوحد ولا يفرق يجمع الناس على كلمة سواء .

ومن تدبر ذلك عرف ما للإسلام من فضل في تحقيق العدل والمساواة بين جميع الخلق بلا تفاوت أو تفاضل بسبب جنس أو لون ، أو حسب أو نسب . من تدبر مضمون هذا القول عرف ما يقدمه الإسلام لأمن الناس وسلامهم . وما يفرضه لتعاونهم وبرهم وما يحقق من دفع الشر عنهم وإقامة العدل في ربوعهم . من تدبر وأنصف أيقن أن الإسلام - وهو يخاطب الناس بما يخاطبهم به - يدعوهم إلى التراحم والتعاون بدافع من يقين راشد في نفوسهم أنهم محاسبون عند الله على نياتهم وأعمالهم ليكون تواصلهم برًّا خالصا من المن والأذى وتعاونهم على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان . ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتًا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ٦٠ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ٦١ ﴾ (٥٤١) .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة العنكبوت ﴿وَكَذَٰلِكَ أُنْزِلَ إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ أَلَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ

مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ۖ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَسْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذْ أَلَّا زَنَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْتَضِي فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٥٤٢﴾ .

في حديث القرآن هنا بيان لسنة الله في إرسال الرسل وإنزال الكتاب ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ . فالسنة واحدة لا تتبدل . فعلى الطريقة التي يوحى الله بها إلى رسله أنزل إليك هذا الكتاب ، وهو يدعو إلى ما دعا إليه الرسل من قبل .

﴿فَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْثَبُ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ .
إن القرآن الكريم قد جاء مصداقاً لما بين يديه من الكتاب فلا خفاء فيما تضمنه ودعا إليه فالذين آتيناهم الكتاب من قبله منهم من يؤمن بما جاء فيه ومنهم من يجحد فينكر الشيء بعد معرفته . وكذلك هؤلاء المشركون ، منهم من يؤمن بالحق ومنهم من يجحده بعد معرفته . ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ أي المتوغلون في الكفر المصممون عليه بعد بيان الحق وظهوره . وهؤلاء وأولئك قد انقطعت حججهم بعدما تبين لهم الرشد من الغي . إن الحق لا تخفى دلالاته ، والكاره له لا تنفعه موعظته .
إن إنزال الكتاب على النبي الأمي لا يدع مجالاً لشبهة منكر أو ارتياب مرتاب .

فرسول الله ﷺ قد عاش بين القوم فترة طويلة من حياته وهم يعرفونه . ويعرفون أنه لا يقرأ ولا يكتب ، ثم جاءهم بهذا الكتاب العجيب الذي يعجز الكاتبين القارئين فما شبهتهم وهذا ماضيه بينهم ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْهُ عَلَىٰكُمْ وَلَا أَذْرَبُكُمْ بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٥٤٣﴾ .

(٥٤٢) سورة العنكبوت : ٤٧ - ٤٩ .

(٥٤٣) سورة يونس : ١٦ .

إنه الوحي وإنه الرسول ، كل شيء من أمره يقدم الدليل على صدقه وحقيقة رسالته : الكتب المنزلة من قبله ، وما اختصه الله به من صفات وأخلاق ، وما جاء به من الحق ، كل ذلك فيه دلالة بيّنة على الرسالة والرسول ﴿وَمَا كُنْتَ تَسْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذْ أَلَزَّتْكَ أَلْزَابُ الْمُبْطِلُونَ﴾ ﴿٥٤٤﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٥٤٥﴾ .

إن الحديث عن الرسول ﷺ قد سبق بعثته ، وحملته الكتب المنزلة من قبل وبشّرت به ، وانتقلت البشرية من جيل إلى جيل إلى أن أشرقت شمس هدايته فأمن به من آمن من أهل الكتاب ، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم . والقرآن الكريم - وهو يتلى على العالمين - يخاطبهم بهذه الحقيقة ويبين لهم حقيقة الرسالة والرسول ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ ﴿٥٤٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥٤٧﴾ أَقْلَ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٤٨﴾ .

(٥٤٤) سورة الأعراف : ١٥٧ ، ١٥٨ .

ذاك هو النداء وما جاء فيه ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ .
يصدع القرآن به ويسمع الوجود كله وذاك هو الحق الذي لا خفاء ولا إبهام
فيه .

ومن جحد الحق خسر وضل ، ولا مفر له من حساب وجزاء ﴿فَمَاذَا بَعَدَ
الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرِفُونَ﴾ (٥٣٥) . الحق بين واضح . وهو معلوم
ومحفوظ . آيات بينات ، ودلائل واضحات في صدور الذين وهب الله لهم
العلم ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ . ليس مما يرتاب فيه
لكونه في الصدور وكونه محفوظا لا يقدر أحد على تحريفه أو تغييره .

فمن جحده فقد ظلم ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ ومن ظلم أخذ
بظلمه .

وترى هؤلاء في حسرتهم وندمهم يتمنون أن يعودوا إلى الدنيا بعد مفارقتها
ليؤمنوا بالحق الذي أنكروه وجحدوه قائلين وقد رأوا العذاب : ﴿يَلَيْسَ لَنَا نَرْدٌ وَلَا
نُكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٧﴾ ولن يعودوا إلى الدنيا ، ولن ينفعهم
إيمان بعد فوات الأوان .

﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي
إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾ (٥٤٦) .

(٥٤٥) سورة يونس : ٣٢ .

(٥٤٦) سورة الأنعام : ١٥٨ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنته هذه الآيات من سورة العنكبوت ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ أُولَئِكَ كَفَرُوا أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتٌ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٤٧﴾﴾.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾. قال ذلك كفار مكة للرسول ﷺ لولا أنزل على محمد آية كناقصة صالح وعصا موسى . يعنون الخوارق المادية التي صاحبت الرسالات من قبل ، والتي لا تقوم حجة إلا على من شاهدها أو عاش في عصرها . ولم يكن الدافع لهم - فيما طلبوا - الرغبة في الإيمان أو طلب اليقين . ولو كان ذلك لكفاهم ما نزل من القرآن الكريم على النبي الأمي . ﴿أُولَئِكَ كَفَرُوا أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾.

إن الذين يقترحون على الرسول أن يأتيهم من عنده بآيات هم أعرف الناس بسلطان هذا الكتاب ولكنه العناد والجحود يعمي صاحبه عن الحق . وهم كذلك أعلم الناس بصدق النبي المبلغ عن الله . ولكن الجحود يحملهم على العناد والظلم والافتراء . ومن العناد والجحود ما اقترحوه أو طلبوه ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ وهم لم يطلبوا الآيات رغبة في الإيمان ولو رغبوا في الإيمان لكفاهم القرآن . ومثل هؤلاء لن يؤمنوا ولو جاءتهم كل آية ، بل سيراوغون ويكذبون .

ولن تكون الآيات - وهم على هذا الحال - هداية لهم ، بل ستكون وبالاً عليهم مدعاة لهلاكهم . وهذا ما جرى مع من كان قبلهم ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا

جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَوْ أَنَّا زَلَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحِشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لِلْيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿٥٤٨﴾

إن حديث القرآن عن قوم لا يؤمنون ، فيه موعظة وذكرى للمؤمنين .

موعظة تذكرهم بما يجب أن يكونوا عليه ، وتدعوهم إلى الثبات على الحق الذي آمنوا به . وما وقع من أهل العناد والجحود وما جرى لهم يتلى في آيات ليكون عبرة للأجيال كلها . وكل سيلقى جزاء عمله .

ولا مساواة في الجزاء بين مفسد ومصلح وبين تقي وفاجر ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَذَّبَ رُءُوسَ الْيَاقِينِ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٥٤٩﴾

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الروم ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ ﴿٢٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ ﴿٥٥٠﴾ .

من رحمة الله بالخلق أن بين لهم ما يجب أن يكونوا عليه ، وما هم صائرون إليه ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ .

(٥٤٨) سورة الأنعام : ١٠٩ - ١١١ .

(٥٤٩) سورة ص : ٢٧ - ٢٩ .

(٥٥٠) سورة الروم : ٥٨ - ٦٠ .

لقد أنزل الله القرآن على نبيه ﷺ وحفظه للأجيال كلها بلاغا للناس وإنذارا لهم .

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ .

بيننا لهم كل مثل ينبههم على التوحيد والبعث وصدق الرسول لإيقاظ قلوبهم وعقولهم حتى لا يضلوا الطريق . ﴿وَلَيْنِ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ .

لقد خوطبوا بالبعث - وهو حق - فاستبعدوه وأنكروه وضرب الله لهم الأمثال التي تريهم ما هم صائرون إليه وقادمون عليه .

بين لهم صفة المبعوثين يوم القيامة وما يقولون وما يقال لهم .

بين لهم ذلك كله فأصروا على الكفر والجحود ورموا غيرهم بالباطل وهم المبطلون . ﴿يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَئِنْ كُنْتُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مُعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٥٥١) . إن ما أنكروه قد وجدوه . وتضاءل الزمن في حسهم حتى غدت السنون الطوال كأنها دقائق وثوان .

﴿قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ (٥٥٢) ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِّ الْعَاذِينَ﴾ (٥٥٣) ﴿قُلْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٥٥٤) ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ لَا تَرْجِعُونَ﴾ (٥٥٥) ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ (٥٥٦) ﴿إِنْ أَنْكَارَ الْبَعْثِ أَنْكَارٌ لِأَمْرٍ وَاقِعٍ يَرُونَ دَلَالَتَهُ فِي أَنْفُسِهِمْ وَفِي الْأَفَاقِ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ (٥٥٧) ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ أَذَا مَا مِثُّ لِسَوْفَ أُخْرَجَ حَيًّا﴾ (٥٥٨) ﴿أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ (٥٥٩) .

(٥٥١) سورة الروم : ٥٥ - ٥٧ .

(٥٥٢) سورة المؤمنون : ١١٢ - ١١٦ .

(٥٥٣) سورة مريم : ٦٦ - ٦٧ .

دليل البعث في خلقهم ولكنهم لا يعلمون.

﴿ وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنَاءَ تَالِبَعُوهُمْ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ (١٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ
حَدِيدًا ﴿ ٢٠ ﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْفُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ
أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ
قَرِيبًا ﴿ ٥٥٤ ﴾

لا مجال لاستبعاد البعث وآياته قائمة في الخلق متجددة فيهم ﴿لَوْ مِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خُشْعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا الْمُحْيِي الْمَوْفِقُ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٢٦﴾ (٥٥٥).

هكذا يضرب الله للناس الأمثال في هذا القرآن ليوقنوا بالحق الذي خاطبوا به . فلا تصرفهم الرغائب عن العواقب أو تلهيهم العاجلة عن الآخرة . فيخسرون دنياهم وأخراهم .

إن الدنيا المحبوبة المرغوبة لن تجد أمنها وسلامها إلا باليقين بالآخرة والعمل بها . وعمل الآخرة كله برٌّ بدنيا للناس .

إنه الإيمان والعمل الصالح . إنه الصدق والعدل والوفاء والبر .

إن عمل الآخرة أمنٌ وسلامٌ لدنيا الناس ورحمةٌ لهم .

ومن أيقن بالآخرة كف شره عن غيره وقَدَّم خيره .

وَمَنْ جَحَدَهَا فَقَدْ التَّوَاظَنَ فِي نَفْسِهِ فَدَمَّرَهَا وَأَفْسَدَ وَلَمْ يَصْلَحَ .

إن التنافس المسعور على التكاثر هو نتاج الغفلة عن الآخرة.

وفقدان الأمن في حياة الناس هو نتاج فقدان الإيمان واليقين بالحساب والجزاء . ومن رأى الحياة دنيا فحسب غالب عليها واتبع هواه .

(٥٥٤) سورة الاسراء : ٤٩ - ٥١ .

(۵۵۵) سورة فصلت : ۳۹.

ومن أيقن بقاء الله جعل هواه تبعاً لما جاء من عند الله .
 وشتان ما بين مُتَّبِعٍ لهواه ومتَّبِعٍ للحق الذي جاء من عند الله .
 هذا عبدُ الله . وذاك عبدٌ لشهوته وهواه .
 ودنيا الناس ترى هذا وذاك .

ولا خير يُرجى إلا ممن وجل قلبه من الرجوع إلى الله .
 ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً تَوْأَمَ قُلُوبِهِمْ وَجِلَّةٌ أُنْفِثَتْ إِلَى رَبِّهِمْ يَزِجُوهُمْ فِي
 الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ (٥٥٦) .

إن الله قد أنزل القرآن ، وضرب فيه الأمثال للناس ، وصرف فيه من الوعيد
 لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً .

والناس منهم الصالحون ، ومنهم المفسدون . منهم المتقون ومنهم الفجار .
 وقد جعل الله بعضهم لبعض فتنة .

وعلى المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر أن يدركوا أن دفعهم
 لباطل المبطلين لا يكون إلا بالثبات على الحق والاستمسك به والعمل
 بمقتضاه ، والأخذ بكافة الأسباب لنصرته ، موقنين أن النصر من الله لا من
 غيره . وما عند الله لا يطلب إلا بطاعته . وذاك توجيه الله لنبيه وفيه أسوة لمن
 كان يرجو الله واليوم الآخر ﴿فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا
 يوقنون﴾ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنته هذه الآيات من سورة لقمان ﴿وَالَّذِينَ
 تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ
 الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ
 وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٥٥٧) .

(٥٥٦) سورة المؤمنون : ٦٠ - ٦١ .

(٥٥٧) سورة لقمان : ١ - ٥ .

إن حديث القرآن هنا فيه بيان لصفات من ينتفع بالقرآن الكريم وهم المحسنون فإن القرآن لهم هدى ورحمة .

وهم يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم يوقنون .
وهذه الصفات دلالة صدق على إيمانهم بما نزل من الحق وحسن صلتهم به . إنهم محسنون ، يراقبون الله في السر والعلن ويخلصون القصد له .
ومن كان كذلك اتبع هدى الله في كل حال وراقب الله في جميع الأحوال .
والإحسان « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

هؤلاء المحسنون الذين يكون القرآن لهم هدى ورحمة ، يجدون في صحبة القرآن راحة وطمأنينة ، يطيعون أمره ويجتنبون نهيه ، ويدركون أنهم مخاطبون به ومستثولون عنه ، وأن نجاتهم في حسن اتباعه .

يؤمنون أن من اهتدى بهداه أفلح وفاز ، ومن أعرض عنه ضل في دنياه وخسر في آخره إنه النور الذي يضيء جوانب حياتهم ، ويريهـم الأشياء على حقيقتها ، ويبصّرهم بما يجب أن يكونوا عليه .

يرون فيه خلق نبيهم ﷺ ، فيقتدون به على علم وبصيرة ، وقد كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه .

إنهم محسنون ، ولالإحسان منهجه . وللمحسين صفائهم .

فهم أصحاب منهج مستقيم وخلق قويم ويقين راسخ إنهم إلى ربهم راجعون . إن الكتاب الحكيم أفاض عليهم بحكمته ، فعلموا وعملوا .
والقرآن نور يهدي به الله من يشاء من عباده .

وله علامة ظاهرة تُعرف في هؤلاء المحسنين . التجافي عن دار الغرور .
والإنابة إلى دار الخلود . ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ .

ويقينهم بالآخرة يجعلهم يبصرون العاقبة ويعملون لها .

ومن أبصر العواقب لم تلهمه الرغائب .

ومن أيقن بما عند الله لم تشغله دنياه عن مرضاة الله ، ولم تصرفه العاجلة عن الآخرة ، وهم يهتدون بهدى القرآن يحدّدون موقفهم من كل ما يعرض لهم .

فما أحله القرآن أحلوه لأنفسهم ، وما حرّمه اجتنبوه ولم يقتربوا منه . يقول أبو الدرداء صاحب رسول الله ﷺ :

«إنما أخاف أن يقال لي يوم القيامة أعلمت أم جهلت؟ فأقول : علمت . فلا تبقى آية من كتاب الله امرأة أو زاجرة إلا جاءني تسألني فريضتها . فتسألني الأمرة : هل ائتمرت؟ والزاجرة : هل ازدجرت؟ «فأعوذ بالله من علم لا ينفع ومن دعاء لا يسمع» .

ذاك هو المنهج الذي يُتَّبَع في الوقوف عند أمره ونهيهِ . ولا قبول لعمل يخالفه . فإن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما كان صواباً . ومن صوابها إلا ما كان خالصاً ومن خالصها إلا ما وافق السنّة .

حسن اتباع وصدق إخلاص . ذاك سبيل المحسنين . الذين يكون القرآن

لهم هدى ورحمة : وتلك بشرى القرآن لهم ، وإنذاره لمن اتبع غير سبيلهم .

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (١) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٥٥٨﴾

فريقان من الناس . فريق مهتد بالكتاب وآياته ، يقيم الصلاة ، ويؤتي الزكاة ،

ويوقن بالآخرة . وأولئك هم المفلحون . وفريق يخضع لهواه ، ويفني عمره في

سُبُل ضالة ولهو عابث ، يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله غير آبه

بتبديد ماله وضياع وقته وتدمير حياته . وهو مسئول عن عمره : فيم أفناه؟ وعن

ماله : من أين اكتسبه؟ وفيم أنفق؟ يبذل الثمن الغالي في اللهو الرخيص

وأولئك لهم عذاب مهين وأليم .

(٥٥٨) سورة الإسراء : ٩ - ١٠ .

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرَاءٌ فَأُبَشِّرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٥٥٩﴾.

صنف جاهل محجوب لا يتصرف عن علم أو حكمة ويضل غيره بلهو عابث ينفق فيه عمره . هذا الفريق لا يسمع آيات الله سماع تدبر، بل يعرض عنها وتشمئز نفسه إذا ذكر الله وإذا ذُكرَ بآيات الله اتخذها هزوا . يستبعد ما هو صائر إليه، ويلهيه الأمل عما يجب أن يكون عليه، مع أن الأجل قريب، ولا يدري أحدٌ من الخلق متى يُدعى فيجيب .

فمن طلب النجاة فذاك هو الطريق .

بَيَّنَّ الْقُرْآنَ ، ودعا إليه . ورغب فيه وهدى إليه .

والسعيد من اهتدى بهداه، والشقي من أعرض عنه واتبع هواه .

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَلَا يَنْتَظِرُونَ لِتَحْكُمِ بِهِمْ أَوْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَهُمْ فِي شَكٍّ﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَضِلُّ اللَّهُ عَنْ سَبِيلِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرَ ﴿٥٦٠﴾

— ١٠٠ —

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنته هذه الآيات من سورة السجدة ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَلَا يَنْتَظِرُونَ لِتَحْكُمِ بِهِمْ أَوْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَهُمْ فِي شَكٍّ﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَضِلُّ اللَّهُ عَنْ سَبِيلِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرَ ﴿٥٦٠﴾.

حديث القرآن هنا فيه بيان لحقيقته وأنه — لا ريب فيه — تنزيل من رب العالمين . فليس أهلا لأن يُرتاب فيه . وكلُّ ما فيه يدل دلالة قاطعة على أنه ليس من كلام البشر . وتقدير الأمر على هذا النحو يلفت النظر إلى ما يجب

(٥٥٩) سورة لقمان : ٦ - ٧ .

(٥٦٠) سورة السجدة : ١ - ٣ .

على الخلق من صدق التوجه إليه، والاستمسك به، والعمل بما فيه، لأنه خطاب من ربِّ العالمين إلى الناس أجمعين، هداية ورحمة وحجة ومعذرة. فإله عز وجل هو الذي خلق الخلق وأمدهم برزقه وهدايته.

ومن علَّم القرآن هو الذي خلق الإنسان، وهو يعلم من خلق. وهداية الله للإنسان قد لازمته من بدايته.

فمنذ هبط الإنسان إلى الأرض قد خوطب بآيات الله في نفسه وفي الآفاق. كما خوطب بآياته المنزلة على رسله.

وفاءً بهدايته وتحقيقاً لخلافته، وعونا له على استقامته، وبياناً لما يجب أن يكون عليه في ذات نفسه وفي معاملته لغيره.

ومن تدبر هداية الله رب العالمين للناس أجمعين في أنفسهم وفيما يحتاجون إليه في حياتهم، وعرف نعمته السابغة في كل شيء طابت نفسه بهداية الله فيما أنزل من كتاب وأرسل من رسول، وعلم أن لا صلاح للنفس البشرية إلا بما هدى الله به. فهو الذي خلقها وهو أعلم بما يصلحها ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ وقد يعجب الإنسان من أولئك الذين تقوم حياتهم على ما سخر الله لهم، وما أنزل من رزقه ثم تغلق عقولهم عما أنزل وتعمى أبصارهم عما هدى به وبصر.

أي شيء في شئون الخلق ينشأ عن تسخير الله له؟ بل أي نعمة يمكن إرجاعها لغير فضله ورحمته؟

أليس من النشاز أن يرى في الخلق من يجادل في آيات الله وهو محاط بها وهي قائمة وسابغة عليه ﴿فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون﴾.

﴿الزُّرُّورُ إِنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٥٦١﴾ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٥٦٢﴾ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهُ ۖ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۖ نُمِيعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٦٣﴾

ذاك حديث القرآن . وهذا بيان فيما يثول إليه حال أولئك الذين تضيق نفوسهم بما نزل من الحق ، ويأبون إلا معارضته ومخاصمته ، وفي البيان إغذار وإنذار .

لقد قال الكفار في شأن القرآن ما قالوا وزعموا ما زعموا متعنتين مكابرين . وهم يعلمون بطلان ما زعموا . قالوا قولاً باطلاً عما يعلمون أنه الحق . قالوا عن القرآن مفترى وهو يهديهم . وعن الرسول قد افتراه ، وهو يدعوهم ويحرص علي هدايتهم . ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ . ﴿ بل هو الحق من ربك ﴾ .

هذا الحق الذي يجحدونه - وقد تفجرت به ينابيع المعرفة - قد أنزل على النبي الأمي الذي لم يكتب يوماً ولم يقرأ . وهم يعلمون ذلك . وكانت هذه وحدها كافية في الإذعان للحق والاهتداء به . فليس للأمر من تفسير إلا أن هذا الكتاب تنزيل من رب العالمين .

إنه القرآن المعجز في حقيقته ، المعجز في إنزاله على النبي الأمي ﷺ ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٥٦٤﴾ .

(٥٦١) سورة لقمان : ٢٠ - ٢٤ .

(٥٦٢) سورة يونس : ٣٧ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة السجدة ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِثَائِلِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٥٦٣) وقوله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ ثَائِلَ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾ (٥٦٤).

موقفان متباينان لفريقين من الناس .

فريق آمن بآيات ربه ، وفريق أعرض ونأى بجانبه . ولا يستويان في عمل أو جزاء . ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ (٥٦٥).

فريقان يمران بدنيا الناس .

فريق ترى الدنيا منه طهرًا وبرًا واستقامة وخيرا ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ .

وفريق ترى الدنيا منه صلفًا وكبرًا وعتوًا وظلما ، يطلب الاستعلاء في الأرض فيفسد فيها وينسى أنه مفارقها . وأن الأرض التي مشى مَرَحًا على ظهرها ستطويه يوما في بطنها ودبعة تخرجه للحساب حين يؤذن لها ، وتحدث بما عمل عليها وأساء فيها ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَنْفَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْنَا (٦) لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ (٧) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٨) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٩)﴾ (٥٦٦).

(٥٦٣) سورة السجدة : ١٥ .

(٥٦٤) سورة السجدة : ٢٢ .

(٥٦٥) سورة السجدة : ١٨ - ٢٠ .

(٥٦٦) سورة الزلزلة .

فريقان يخبر القرآن عنهما ويرينا صفات كل منهما . بل يرينا العاقبة لمن عمل خيرا ومن عمل شرا ، يرينا الشرفاء الكرماء من أهل الإيمان وقد أفلحوا وسعدوا ، ويرينا المتكبرين من المجرمين وقد خسرُوا وشقُوا ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو أُرُؤِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ (٥٦٧) .

ومن قبل قد أنكروا ما صاروا إليه وكذبوا بما أخبروا به ونسوا لقاء ربهم فأجروا وأفسدوا وضلوا ﴿ فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٥٦٨) ومن هنا يُعلم أن القرآن الذي يخاطب به الناس في دنياهم ليس أعزل من قوة تحميه وتحقق وعده ووعيده . إنه الحق ، والحق من ربك ، وربك سميع بصير وهو على كل شيء قدير ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إِنَّا من المجرمين منتقمون ﴾ . وقد يستبعد ذلك من يستبعد ، ممن يلهيهم الأمل ، وتصرفهم الرغائب عن العواقب .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانظُرْ إِلَيْهِمْ مُتَنَظِّرُونَ ﴾ (٥٦٩) . وما فوّت إنسان الإيمان بالحق في دنياه إلا وتمناه في عاقبته وأخراه .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ . وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعْهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَنَّتْ آلَهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ . وَخَسِرَ هُنَاكَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٥٧٠) .

والعاقلة من أحسن التدبر واتبع سبيل المؤمنين .

(٥٦٧) سورة السجدة : ١٢ .

(٥٦٨) سورة السجدة : ١٤ .

(٥٦٩) سورة السجدة : ٢٨ - ٣٠ .

(٥٧٠) سورة غافر : ٨٤ - ٨٥ .

والقرآن يذكر ويصبر ويبين ما ينتهي إليه أمر هؤلاء وأولئك من كذب بالحق وصدف عنه ، ومن آمن به وعمل صالحا . ليعرف الناس ما هم صائرون إليه ومحاسبون به . فليتدبر من شاء أن يتدبر . وأجل الله إذا جاء لا يؤخر . ويومئذ ﴿ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَوَ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ .

١٠٢

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة سبأ ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (٥٧١) إن لعلماء التفسير تدبرا في مناسبة هذه الآية لما قبلها .

فيرى بعضهم أن قوله تعالى ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم ﴾ معطوف على قوله ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ . فالرؤية في قوله ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم ﴾ بمعنى العلم . وهي في موضع نصب عطفا على ليجزي . أي ليجزي وليرى .

فالآية على هذا القول مرتبطة بما قبلها من الآيات وليست مستأنفة .

وممن يرى هذا الرأي الإمام الحافظ ابن كثير في تفسيره حيث يقول : وقوله تعالى ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ ﴾ هذه حكمة أخرى معطوفة على التي قبلها . وهي أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار بالذي كانوا قد علموه من كتب الله تعالى في الدنيا رأوه حينئذ عين اليقين يقولون يومئذ : ﴿ لقد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ (٥٧٢) . وقال أيضا ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ (٥٧٣) ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيْمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٥٧٤) .

(٥٧١) سورة سبأ : ٦ .

(٥٧٢) سورة الأعراف : ٤٣ .

(٥٧٣) سورة يس : ٥٢ .

(٥٧٤) سورة الروم : ٥٦ .

﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ .

العزیز: هو المنیع الجانب . الذي لا یُغَالَبُ ولا یُمانع . بل قد قهر کل شیء وغلبه . الحمید فی جمیع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره . وهو المحمود فی ذلك كله جل وعلا . واتصال هذه الآیة بما قبلها یدعونا أن نتدبر هذه الآیات لنذكر حدیث القرآن عن القرآن فی هذا المقام ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَلِيمٌ الْغَيْبُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (٥٧٥) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِرِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رَجْزِ آيَةٍ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ (٥٧٥) .

فقول الإمام ابن كثير: هذه حكمة أخرى معطوفة على التي قبلها يعني به بيان حكمة الله في إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ ؛ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِرِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رَجْزِ آيَةٍ ﴿ . وقوله ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ . فجمع في الآيات بين حكمتين . حكمة الجزاء وحكمة تحقيق ما أخبر القرآن به وهدى الخلق إليه .

وقول من قال : إن المراد من الآیة ثبوت العلم لهم في الدنيا ، والعطف يقتضي ثبوته لهم في الآخرة وليس مراداً فالحق هو الاستئناف . يمكن أن يجاب عنه بأن ثبوت العلم لهم في الدنيا قد تحقق والمقام هنا مقام تحقيق ما آمنوا به وعملوا بمقتضاه حيث يُجَازَى الخلق بمقتضى ما أخبر القرآن به وهدى الناس إليه .

والجزء في الآخرة يتصل به سرور فريق برؤية الحق الذي آمنوا به .

وحسرة فريق برؤيتهم للحق الذي كذبوه وأعرضوا عنه .

ولن يُحجَب هؤلاء عن أولئك . بل يطلع كل فريق على ما صار إليه غيره
وانتهى إليه ، ويتذاكرون ما كان بينهم في الدنيا ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ
يَتَسَاءَلُونَ ﴾ ٥٠ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿ ٥١ ﴾ يَقُولُ أَتَىكَ مِنَ الْمُسْدِقِينَ ﴿ ٥٢ ﴾
أَيَّ دَامِنَا وَكُنَّا ثَرَابًا وَعِظْمًا أَيْ نَا لِمَدِينُونَ ﴿ ٥٣ ﴾ قَالَ هَلْ أُنْتُمْ مُطْلِعُونَ ﴿ ٥٤ ﴾ فَأُطْلِعَ فَرَأَاهُ فِي
سَوَاءٍ الْجَحِيمِ ﴿ ٥٥ ﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ ﴿ ٥٦ ﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ
الْمُخْضَرِينَ ﴿ ٥٧ ﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ ﴿ ٥٨ ﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿ ٥٩ ﴾ إِنَّ هَذَا
لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿ ٦٠ ﴾ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿ ٥٧٦ ﴾ .

أخي المسلم : إن حديث القرآن عن تحقيق ما وعد به ودعا إليه له دلالة
في حسن اتباعه والعمل بمقتضاه .

إنه الحق الذي يرى تحقيق خبره في دنيا الناس وآخرتهم .

﴿ وَإِنَّهُ لَلَّذِكْرُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ٦١ ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنْ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴾ ٦٢ ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾
﴿ ٥٠ ﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿ ٥١ ﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿ ٥٢ ﴾ ﴿ ٥٧٧ ﴾ .

فطوبى لمن أيقن وعمل ، وويل لمن كذب وأعرض .

﴿ وَلِلَّهِ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَ يَخْسَرُ
الْمُطْلُوعُونَ ﴾ ٥٧٨ .

١٠٣

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة سبأ ﴿ وَقَالَ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ
مَوْفُوقُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا
لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا

(٥٧٦) سورة الصافات : ٥٠ - ٦١ .

(٥٧٧) سورة الحاقة : ٤٨ - ٥٢ .

(٥٧٨) سورة الجاثية : ٢٧ .

أَنخُصِدْنَ كُفْرَهُنَّ عَنِ الْهَدْيِ بَعْدَ إِذْ جَاءَهُنَّ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا
لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا
وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ
يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٥٧٩﴾

في حديث القرآن هنا فيه بيان لموقف الكفار من القرآن وما أخبروا به من
قيام الساعة ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ
يَوْمٍ لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَغِدُّونَ﴾ ﴿٥٨٠﴾.

أي لكم ميعاد مؤجل معدود لا يزداد فيه ولا ينقص منه، وإذا جاء لا يؤخر
ولا يقدم. ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ
فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ ﴿٥٨١﴾ إن موقف الكفار من القرآن وما أخبر به من قيام
الساعة يقوم على الجحود والاستبعاد. جحود ما نزل من الحق واستبعاد ما
أخبر به من قيام الساعة وبعث الناس من مرقدهم. ولو تدبر هؤلاء في أنفسهم
وفي آيات الله من حولهم لما جحدوا أو استبعدوا.

فإن ما أخبر به القرآن يرون صدق دلالة في آيات الله في أنفسهم وفيما خلق
في السموات والأرض. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا
الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنْ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ﴾ ﴿٥٨٢﴾. ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ ﴿٥٨٣﴾. ﴿وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا﴾

لو تدبر هؤلاء في خلقهم، وفي آيات الله من حولهم، لما استبعدوا أو
عجبوا من إعادة خلقهم إن من عجب فليعجب من البداية لا من الإعادة.

﴿٥٧٩﴾ سورة سبأ: ٣١-٣٣.

﴿٥٨٠﴾ سورة سبأ: ٢٩.

﴿٥٨١﴾ سورة هود: ١٠٤-١٠٥.

﴿٥٨٢﴾ سورة فصلت: ٣٩.

﴿٥٨٣﴾ سورة مريم: ٦٦-٦٧.

والبداية يرونها في أنفسهم . وقد أتى عليهم حين من الدهر لم يكونوا شيئاً مذكوراً .

وقد جاءوا إلى الدنيا بأمر من الله وسيخرجون منها ، ويُعادون ليوم لا ريب فيه بأمره سبحانه ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٥٨٤) .

إن جحود هؤلاء واستبعادهم أمر البعث يؤدي إلى اعتقاد باطل وسلوك ضال ، إذ يرون الحياة دنیا فحسب فيركنون إليها ويطمثنون بها ويغالبون عليها ، ويلهيهم التكاثر فيها . ومن ذلك ما فيه من تدمير للروابط والتراحم وإشاعة للتنازع والتشاحن .

ولا سلام يُرجى لندى الناس إلا باليقين بالآخرة والإيمان بما يقع فيها من حساب وجزاء . ولو استبعد الناس ذلك لعاشوا في دنياهم أسرى اعتقادهم أن الخلق عبث وباطل . ومن ظن ذلك عوقب بظنه وأخذ باعتقاده ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ (٥٨٥) .

والسنون الطوال تمضي مسرعة وكأنها دقائق وثوان . ويواجه الجاحدون الحق الذي أنكروه ويعشون ويحاسبون . وقد مضى ما فيه يؤملون ، وبه يتعلقون . مضى وانقضى وكأن لم يَلْبَثُوا في الأرض إلا يوماً أو بعض يوم . وهذا ما يقولونه بأنفسهم عندما يجابهون بما كانوا له منكبين ﴿ قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴾ (١١٢) ﴿ قَالُوا الْبَيْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ فَسَلِّ الْعَاذِينَ ﴾ (١١٣) ﴿ قُلْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١١٤) ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (١١٥) ﴿ فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ ﴾ (٥٨٦) .

(٥٨٤) سورة الروم : ٢٧ .

(٥٨٥) سورة ص : ٢٧ .

(٥٨٦) سورة المؤمنون : ١١٢ - ١١٦ .

من هنا يعلم أن الحق الذي خوطب به الناس في دنياهم - وفيه بيان ما يقع في آخرهم - رحمة بهم ليسارعوا في عمل الخيرات وليعلموا أن ما يعملونه هنا سيجدونهم حاضرا هناك. ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (٥٨٧).

وبنور هذا الكتاب وهداه نستطيع أن نرى ما يصير إليه أولئك السادة والأتباع من المستكبرين والمستضعفين الذي قالوا ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

تراهم حين يرون العذاب يتخاصمون ويتلاومون. حيث لا ينفعهم ندم ولا يؤذن لهم فيعتذرون.

١٠٤

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة سبأ ﴿وَإِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا نَزَلَتْ قَالَوَا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ وَقَالَوَا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٥٨٨﴾ وَمَاءِ الْيَنْبُوتِ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٥٨٩﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَاِ الْيَنْبُوتِ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (٥٨٨).

في هذه الآيات يخبر الله تعالى عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب، لأنهم كانوا إذا تلت عليهم آياته بينات يسمعونها من لسان رسول الله ﷺ ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ﴾ يعنون أن دين آبائهم هو الحق، وأن ما جاءهم به الرسول - في زعمهم - باطل ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى﴾ يعنون القرآن الكريم. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

(٥٨٧) سورة الكهف: ٤٩.

(٥٨٨) سورة سبأ: ٤٣-٤٥.

قال الله تعالى ﴿وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير﴾ .

أي ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن . وما أرسل إليهم نبياً قبل محمد ﷺ وقد كانوا يؤذون ذلك ويقولون لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب لكننا أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً .

جاءهم الحق فجحدوا واستكبروا . ومن جحد الحق سيلقى جزاءه . وتلك سنة الله في الأولين وهي ماضية في الآخرين ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (٥٨٩) .

﴿وكذب الذين من قبلهم﴾ أي من الأمم الماضية ﴿وما بلغوا معشار ما آتيناهم﴾ أي من القوة في الدنيا . كما قال ابن عباس رضي الله عنهما . ﴿فكذبوا رسلي فكيف كان نكير﴾ كان الدمار والهلاك لكل من كذبوا الرسل وجحدوا بآيات الله .

﴿وَلَقَدْ مَكَنَّهُمْ فِيمَا إِن مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٥٩٠) .

ذاك حديث القرآن عمن كذب بالحق وأصرَّ واستكبر ، وهو حديث يخبر عن السابقين ويحذر اللاحقين ويقدم الموعظة والذكرى للمؤمنين .

حديث حق وصدق عمن كانوا من قبل . لم تغن عنهم قوتهم شيئاً ، ولم تدفع عنهم ما وقع بهم من عذاب ، بل دمر الله عليهم لما كذبوا رسله ﴿فكلاً أخذنا بذنبه﴾ .

حديث حق وصدق يُتلى على الناس إنذاراً وتحذيراً من سوء العاقبة والمصير .

(٥٨٩) سورة فاطر : ٤٣ .

(٥٩٠) سورة الاحقاف : ٢٦ .

وهو حديث له دلالة في تبصرة الناس وتذكرتهم . ليعلموا أن هذا الحديث وإن كان عن أمم ماضية لكنه يحمل إلى الأجيال كلها سنناً باقية مضت في الأولين وتمضي في اللاحقين المكذبين .

ومن أجل ذلك حفظ القرآن وبقي محفوظاً يقدم العبرة والموعظة والتبصرة والذكرى فمن اتبع هداه فاز ونجا ، ومن أعرض خسر وهلك .
وسيقى القرآن بعزته نوراً للحياة وهدى للأحياء .
فمن أبى النور فالى النار مصيره . ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ .

١٠٥

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة فاطر ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٥٩١)

إن من أعظم نعم الله على الخلق أن حفظ هذا الذكر وصانه من التبديل والتحريف لتبقى كلمة الحق للأجيال كلها تُرشد وتذكر وتهدي للتي هي أقوم .

وللقرآن بُشراه وله إنذاره وتحذيره .

ومن بشراه ما جاء في قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ﴾ .

يخبر الله عباده المؤمنين - الذين يتلون كتاب الله ويؤمنون به ويعملون بما فيه من إقام الصلاة ، والإنفاق مما رزقهم الله سراً وعلانية - بأن تجارتهم لن تبور .

﴿يرجون تجارة لن تبور﴾ أي يرجون ثواباً عند الله لا بُدَّ من حصوله . ولهذا قال : ﴿ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ أي ليوفيهم ثواب ما عملوا

(٥٩١) سورة فاطر: ٢٩ - ٣٠ .

ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر على بالهم . ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ﴾ لذنوبهم
﴿شَكُورٌ﴾ للقليل من أعمالهم . تلك بشرى القرآن لمن يتلوه ويعمل
بمقتضاه . ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ .

إنها أربح تجارة مؤدية إلى أفضل عاقبة وأكرم مصير .

الله سبحانه يشكر لعباده حسن الأداء أفلا يشكر العباد لله حسن العطاء .
ذاك حديث القرآن عمن يتلون وما يرجونه من تلاوته وما ينتظرهم من جزاء
وعطاء . ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ .

تجارة تبقى ولا تزول . وتنمو ولا يتوقف نموها . تجارة مضمونة الربح ،
مصونة من الهلاك والكساد .

تجارة يعاملون فيها الله وحده ، ويتاجرون بها في الآخرة .

إنها تجارة منجية مربحة . يدل القرآن عليها . ويدعو الناس إليها .
ويرشدهم إلى صفات أهلها . ﴿يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ تجارة لا عسر فيها ولا حرج . رأس مالها صفات أهلها .
وهي صفات بارة راشدة . وكم من تاجر رابح بصفاته وأخلاقه .

يحسن عمله ويرجو رحمة ربه . وتاجر له بضاعة تهلك وتبور . تلك تجارة
الذين لا يرجون لقاء الله وقد رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، وشغلوا عن
الآخرة والإعداد لها . وأعرضوا عن ذكر الله ، فلم يقيموا الصلاة ، ولم يؤتوا
الزكاة .

وأولئك في بوار ودمار وخسران وهلاك ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ نَارٍ وَضُوءًا
بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ
بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٥٩٢) ومن تدبر أمر هؤلاء وأولئك - أولئك الذين يرجون

(٥٩٢) سورة يونس : ٧ ، ٨ .

تجارة لن تبور. والذين يؤخذون بتجارة تهلك وتبور - ونظر إلى العواقب أثر ما لا يبور على ما يهلك ويبور. وكل تجارة لا تقوم على الإيمان بالله ورسوله والجهد بالأموال والأنفس في سبيله تجارة تهلك وتبور.

ولن يَنْجُوَ من بوارٍ إلا من عرف للآخرة قدرها وسعى لها سعيها وهو مؤمن . وسعي الآخرة زكاة لأنفسنا وأمن لدنيانا وتوثيق لروابطنا .

ومن تدبر صفات الذين يرجون تجارة لن تبور عرف ما تؤديه هذه الصفات في دنيا الناس من خيرٍ وبر. تلاوة قرآن، وإقامة صلاة، وإنفاق في سرٍّ وعلن. إن ما لا يبور جدير أن تتعلق به النفوس وأن تحرص عليه. ومن بار عمله بطل ولم يُقبل. ومن بذل نعمة الله كفرًا أحل نفسه مع من مآثله دار البوار.

﴿جهنم يصلونها وبئس القرار﴾.

فلتدبر حديث القرآن عمن يرجون تجارة لن تبور، ولتعرف صفاتهم، ولنعمل على أن نكون منهم. ولنحذر أن يشغلنا عاجل عن آجل، أو يفتننا فأن عن باق، أو تلهينا رغائب عن عواقب. فإن ما بأيدينا ذاهب وما عند الله باق.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٥٩٣).

١٠٦

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة فاطر ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (٥٩٤).

(٥٩٣) سورة النحل : ٩٧ .

(٥٩٤) سورة فاطر : ٣١ - ٣٢ .

لقد اصطفى الله الأمة الإسلامية ليورثها هذا الكتاب . وهو شرف لا يدانيه شرف ، يقابله مسئولية وتبعة . ﴿ وإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ . إن الله قد أكرم هذه الأمة بالاصطفاء . ثم أكرمها بفضله في حسن الجزاء .

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (٣٤) الَّذِي أَطْلَنَّا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَ فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَ فِيهَا نُفُوبٌ ﴿ (٥٩٥) .

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ قال : « هم أمة محمد ﷺ ورثتهم الله تعالى كل كتاب أنزله . فظالمهم يُغْفَرُ له ، ومُقتَصِدُهم يحاسب حسابا يسيرا ، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب » .

والظالم لنفسه : هو المفرط في فعل بعض الواجبات ، المرتكب لبعض المحرمات .

والمقتصد : هو المؤدي الواجبات التارك المحرمات ، وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات والسابق بالخيرات بإذن الله : هو الفاعل للواجبات والمستحبات التارك للمحرمات والمكروهات . وهذه الأنواع هم من هذه الأمة التي اصطفاه الله فورثها هذا الكتاب الذي أنزله بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه .

كما قال الله عز وجل ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ . فقد ورثها الله بهذا الكتاب المهيم كل كتاب .

فهي أمة الرسل جميعا تؤمن بهم ولا تفرق وتقتدي بهداهم . ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ

(٥٩٥) سورة فاطر : ٣٢ - ٣٥ .

عَفُورًا رَحِيمًا» (٥٩٦) روى الإمام أحمد بسنده عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله تعالى ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُأْذِنُ اللَّهُ ﴾ فاما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب . واما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبون حسابا يسيرا . واما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحبسون في طول المحشر ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته . فهم الذين يقولون ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (٥٩٧) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ .

إن هؤلاء الذين اصطفاهم الله من عباده ، وأورثوا الكتاب المنزل على نبيه ماؤاهم يوم القيامة جنات عدن يدخلونها .

نعمة اصطفاء ونعمة جزاء لأمة أورثت الكتاب الذي أنزل بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب . فأمنت بما نزل من الحق على أي رسول من رسل الله ولم تفرق بين أحد من رسله . آمنت بالله وحده ولم تشرك به شيئا . وآمنت بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . إن هذه الأمة التي بين معالمها هذا الكتاب جديرة أن تعلن إيمانها ليكون أصلا في وحدة الإنسانية وأمنها وسلامها .

إنها بدينها أمة عدل توحد في إيمانها بين رسل الله ولا تفرق . وتقوم بالقسط دون تفرقة بين عدو وصديق وقريب وبعيد .

تُلبّي نداء ربها فتنصف المظلوم ولو كان من غيرها ، وتأخذ على يد الظالم ولو كان منها .

وهذا نداء الله للمؤمنين بما نزل من الحق وأمره لهم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ

(٥٩٦) سورة النساء : ١٥٢ .

اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٥٩٧﴾ نداء للمؤمنين وأمر لهم أن يكونوا مع الحق حيث كان وأن يلزموا العدل مع كافة الخلق دون تفرقة بين جنس وجنس أو لون ولون. ودون محاباة لقريب أو صديق. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٥٩٨).

إن الأمة التي ورثها الله الكتاب هي أمة رسالة، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله. وهذه الأمة جديرة أن تُعان على رسالتها من كل راغب في الحق مؤثر للعدل.

وفقدان هذه الأمة أو غيابها خسارة للعالم كله.

وكل من لبى نداء الله وآمن بما نزل من الحق هو منها في ماضي الحياة وحاضرها ومستقبلها. إنها - وفيها الحق - ليست زبداً طافيا يذهب جفاءً، وإنما هي معدن أصيل ينفع الناس فيمكث في الأرض.

ومن حفظ لها هذا الكتاب حفظ لها أسباب البقاء إلى أن تقوم الساعة.

إن شمس دينها لن تغيب. إن بارحت رءوس قوم أنارت عند آخرين ﴿وَإِن تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ (٥٩٩).

(٥٩٧) سورة النساء : ١٣٥ .

(٥٩٨) سورة المائدة : ٨ .

(٥٩٩) سورة محمد : ٣٨ .

obeikandi.com

حديث القرآن عن القرآن

في آيات من :

- ١ - سورة يس
- ٢ - سورة ص
- ٣ - سورة الزمر
- ٤ - سورة غافر
- ٥ - سورة فصلت
- ٦ - سورة الشورى
- ٧ - سورة الزخرف
- ٨ - سورة الدخان
- ٩ - سورة الجاثية
- ١٠ - سورة الأحقاف
- ١١ - سورة محمد
- ١٢ - سورة «ق»
- ١٣ - سورة الطور
- ١٤ - سورة القمر
- ١٥ - سورة الرحمن
- ١٦ - سورة الواقعة
- ١٧ - سورة الحديد

obeikandi.com

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة يس ﴿يس﴾
وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ
الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَذَرُوا أَبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦٠٠﴾.

في هذه الآيات جاء الحديث عن القرآن في سياق مخاطبة الرسول ﷺ.
جاء مُقسِّمًا به على إثبات رسالة من نزل عليه. تنويهاً بعظم شأن المنزل
والمنزل عليه، وتنبيهاً إلى حسن الاتباع. اتباع المنزل والمنزل عليه. وهو
القرآن الكريم والرسول ﷺ.

فالقرآن منزل من عند الله ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾.

والرسول ﷺ مرسل من الله ليلبغ ما نزل إليه من ربه.

فالقسم بالقرآن أن محمداً ﷺ رسول الله يلفت النظر إلى عظم المُقسِّم به
والمقسم عليه، وأنه ذو مكانة وشأن يجب أن يُتَّبَعَ وأن يستجاب لما يدعو
إليه. فإنه على صراط مستقيم لا ميل فيه ولا عوج ﴿يس﴾ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴿٢﴾
إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ ووصف
القرآن بالحكيم له دلالة في الأخذ بحكمته واتباع هدايته. والقسم بالقرآن
الحكيم على حقيقة الوحي والرسالة وأن محمداً رسول الله ﴿إِنَّكَ لَمِنَ
الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ وتأکید الأمر على هذا النحو - بالقسم وإنَّ
واللَّام واسمية الجملة ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ومخاطبة الرسول ﷺ بذلك دون
توجيه الخطاب إلى غيره - فيه ما فيه من التكریم للمخاطب، وإشعار
المكذبين بما له عند الله من عناية وتكریم، وأن من كذبه أو عاداه وجحد ما
جاء به فقد عادى الله الذي اصطفاه واختاره ليكون رسولا للعالمين، ومن عاداه
وجحد بما جاء به فقد مال عن الصراط المستقيم.

(٦٠٠) سورة يس: ١ - ٦.

ولا استقامة إلا في اتباعه . ولا نجاة من ضلال وخسران إلا بطاعته والاعتصام بما جاء به . ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٦٠١) .

والقرآن الكريم يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

وحيثما اهتدى الإنسان به وجد هذه الاستقامة سواء في دعوته أو في تركيته للنفس ، أو أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر . وفي حكمه بين الخلق بالعدل دون تفرقة بين من عاداه أو آمن به . في كل شأن يهدي للتي هي أقوم . ذلك لأنه تنزيل من العزيز الرحيم . وهذا الوصفان يدلان على أن ما نزل من الحق رحمةً بالخلق . وما أرسل الله الرسول إلا رحمةً للعالمين . وأن هذا الحق ليس أعزل من قوة تحقق وعده ووعيده .

فإنه منزل من العزيز في ملكه ، القوي الذي يفعل ما يريد ، ولا يعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض . وهو غني عن العالمين . ولا تضره معصية من عصاه . ولا تنفعه طاعة من أطاع .

وإدراك الأمر على هذا النحو يجعل الإنسان يشعر بحاجته إليه وأن ما يأتيه من هداية ورحمة محض فضل من الله ورحمة . وأن الرسول الذي أرسله لا يسأل الله أجراً على ما يهديهم إليه ويدعوهم إليه .

وما من رسول إلا ويؤمر أن يقول لقومه ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٠٩) .

والرسول الخاتم ﷺ يخاطب الناس بما أمر أن يخاطبهم به ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٦٠٢﴾ من هنا يُعَلَّم أن ما يُرْحَمُ الناس به من الحق ليس أعزل من قوة

(٦٠١) سورة الأنعام : ١٥٣ .

(٦٠٢) سورة ص : ٨٦ - ٨٨ .

تُحَاسِبُ عَلَيْهِ وَتُؤَاخِذُ مَنْ كَفَرَ بِهِ وَصَدَّ عَنْهُ ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ .

ذاك ما يوحى به وُصِفَ مَنْ أُنْزِلَ سُبْحَانَهُ فِي قَوْلِهِ ﴿تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ .

فالجمع بين الوصفين جمع بين الرحمة والعزة . فمن أبى الرحمة في حسن الاستجابة لهدايته فليعلم بأن الله ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قوى شديد العقاب ، وأن الخلق جميعا عائدون إليه ومحاسبون بين يديه . وهو عليم بما يسرون وما يعلنون . ﴿حَمَّ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ﴾ (٦٠٣) .
فليشعر القرآن ولينذر . وبشراه وعدٍّ من الرحمن الرحيم ، ولن يخلف الله وعده .

وإنذاره حق واقع ما له من دافع .

وليختار الناس لأنفسهم ، وليعلموا أن لا شيء من أمرهم يخفى على خالقهم .

فليخلصوا القصد له ، وليحسنوا ، وليحذروا جحود آياته ونكران نعمته .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۝ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (٥٩٤) فلنتدبر حديث القرآن عن القرآن وما يدل عليه وما يدعو إليه .

ففي حديث القرآن عن القرآن بيان لهدايته ومقاصده ، ودعوة إلى حسن تدبره والاعتصام به . وهو حق يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

(٦٠٣) سورة غافر : ١ - ٣ .

(٦٠٤) سورة فصلت : ٤٠ - ٤٢ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة يس ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ۚ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٦٠٥).

حديث القرآن عن القرآن هنا فيه ردٌّ على أولئك الذين وصفوا الرسول ﷺ بأنه شاعر، ووصفوا القرآن الذي أنزل عليه بأنه شعر.

والذين قالوا ذلك يوقنون أن الأمر ليس كما قالوا وهم يفرقون بين القرآن والشعر، وما يخفى عليهم ذلك، بل هم أعرف الناس بذلك.

ويعلمون أن ما جاءهم به محمد ﷺ غيرُ معهود لديهم في شعرهم أو قولهم. والله عز وجل ينفي أنه علم الرسول الشعر، وإذا كان الله لم يعلمه فلن يعلم.

وينفي لِيَأَقَّةَ الشعر بالرسول ﷺ ﴿وما ينبغي له﴾.

فإن الله عز وجل إنما علمه القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وليس هو بشعر كما زعمه طائفة من جهلة كفار قريش.

وقد كانت سجيته ﷺ تأبى صناعة الشعر طبعاً وشرعاً ﴿وما علمناه الشعر﴾ يعني محمداً ﷺ ما علمه الله الشعر ﴿وما ينبغي له﴾ أي وما يصلح له.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ أي ما هذا الذي علمناه ﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ أي بين واضح جلّي لمن تأمله وتدبره. ولهذا قال الله سبحانه ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي لينذر هذا القرآن المبين كلّ حيٍّ على وجه الأرض ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ (٦٠٦) وإنما ينتفع بالقرآن من هو حيّ القلب مستنير البصيرة.

(٦٠٥) سورة يس: ٦٩ - ٧٠.

(٦٠٦) سورة الأنعام: ١٩.

تلك وظيفة القرآن ، والناس إزاءه فريقان :

فريق يسمع سماع تدبر ويستجيب لما يدعو إليه فهو حي .

وفريق لا يسمع سماع تدبر ولا يستجيب فهو ميت .

والكفر موت والإيمان حياة .

والذين يستجيبون لما نزل من الحق تتحقق لهم الحياة .

والذين لا يستجيبون لنداء الحق موتى وإن بدا في نظر الناس أنهم أحياء .

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (٦٠٧) .

وهذا نداء الله لأهل الإيمان وفيه ما فيه من تبصرة وبيان ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ، وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٦٠٨﴾ وَأَتَقُوا فِتْنَةَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦٠٩﴾ ومن الواضح البين أن فتنة تعم لا تتوقى إلا بحسن الاستجابة لله وللرسول والتعاون على ذلك ، واعتصام الأمة بحبل الله دون تفرق كما أمر الله عز وجل ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾ . وإن أبى الناس إلا الإعراض واتباع الباطل وقعت الفتنة وعم الفساد .

إن ما دعا القرآن إليه فيه حياة أي حياة ، وما حذر منه دمار لهم وهلاك وخسران ومن تدبر القرآن الكريم أيقن بذلك وطابت نفسه باتباعه وحسن الاستجابة له .

ومن الخطأ البين أن يُظن أن دنيا الناس يمكن أن يستقيم فيها أمن أو يتحقق سلم دون خضوع لمواثيق الحق والعدل ، واستجابة لما يحقق ذلك في حياة الناس وروابطهم .

(٦٠٧) سورة الأنعام : ٣٦ .

(٦٠٨) سورة الأنفال : ٢٤ - ٢٥ .

والحق لا يخضع لشهوات الناس ولا يتبع أهواءهم ﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ (٦٠٩).

لا بد أن يُستجاب للحق وأن يُسمع نداؤه لتسلم حياة الناس من الظلم والبغي والفساد، وليأمن الناس على أنفسهم وأموالهم ودمائهم وأعراضهم.

إن الاستجابة لنداء الحق حياة للناس أي حياة. والقرآن ذكّر. يبصر ويذكر يتلوه اللسان ويذكره القلب ﴿ ذَكَرْهُمْ قُرْآنٌ مُبِينٌ لِيُذَكِّرَ مَنْ كَانَ حَيًّا ﴾ والرسول ﷺ يُذكر به وينذر ويبشر ﴿ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (٦١٠).

وهو محفوظ بحفظ الله لا يطفأ نوره ولا يتوقف مدّه، ولا ينفد عطاؤه.

وقد أمر الرسول ﷺ بالاستمسك به والدعوة إليه ﴿ فَأَسْتَمِعِكَ بِالَّذِي أُوْحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿ (٦١١).

ومن رحمة الله بالخلق أن جعل لهم فيه ﷺ أسوة حسنة. يرون منه كيف يكون القرآن وكيف يُتلى قولاً وعملاً وسلوكاً. وقد كان القرآن خلقاً له. ولا أبلغ من ذلك ولا أكمل، أن يُحفظ القرآن وأن يُرى بيانه ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ (٦١) لِيُذَكِّرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿.

١٠٩

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنته هذه الآيات من سورة ص ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿ كَذَٰلِكَ أَهْلَكَ نَارًا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَ أَوْلَاتٍ حِينَ مَنَاصٍ ﴿ وَعِجْبُوا أَن جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سِحْرٌ كَذَٰبٌ ﴿ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ ﴿ وَأَنْطَلِقُ لِمَآءٍ

(٦٠٩) سورة المؤمنون: ٧١.

(٦١٠) سورة ق: ٤٥.

(٦١١) سورة الزخرف: ٤٣ - ٤٤.

مِنْهُمْ أَنْ أَمْسُوا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ ءَالِهِتُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦١﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ
الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ ﴿٦٢﴾ أَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي
بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِيَ ﴿٦٣﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٦٤﴾
أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَزَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿٦٥﴾ جُنْدٌ
مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿٦٦﴾.

لقد تحدثت هذه الآيات عن القرآن ذي الذكر. وبيّنت موقف الكفار منه
وَمِمَّنْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ ﷺ. وجاء الحديث عن القرآن في أسلوب القسم به دلالة
على عظم شأنه وعُلُوّ مكانته وعظيم نفعه ﴿وَالْقُرْآنُ ذِي الذِّكْرِ﴾. أي المشتمل
على ما فيه ذكرٌ للعباد ونَفْعٌ لهم في المعاش والمعاد. أو ذي الشرف والشأن
والمكانة. فهو كتاب شريف مشتمل على التذكير والهدى والبيان. فإعراض
الكفار عنه ليس لعلّة فيه بل لعلل في نفوسهم ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ
وَشِقَاقٍ﴾ أي إن هذا القرآن لَذِكْرٌ لمن يتذكر وهدى لمن اهتدى به، وإنما لم
يتنفع الكفار به لأنهم في ﴿عِزَّةٍ﴾ أي استكبار عنه وحمية ﴿وَشِقَاقٍ﴾ أي
مخالفة له ومعاندة ومفارقة. ومن عادى الحق حُرِمَ هدايته، ومن تكبّر عنه
وخالفه وعانده لقي ما يلقيه المعاندون المتكبرون. ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ
قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَا تَحْنِمْهُمْ إِنْ مَنِعْنَا لَقَدْ كَانَ لِلْعَذَابِ أَجْرٌ أَوْ بَلَاءٌ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾
ما تهووا نفوسهم دون نظر لما هم صائرون إليه ومحاسبون عليه.

إنهم أسرى ما وجدوا عليه آباءهم دون تدبر لحقيقة ما هم عليه.
وإذا خوطبوا بما يخالفه ودعوا إلى التفكير فيما يوعظون به لَوَّوا رءوسهم
وأصروا على باطلهم واستكبروا استكباراً.

إنهم يعرفون الحق ولا يجهلونه، ويعرفون من يدعوهم إليه ويصدقونه في
أنفسهم ولا يكذبونه. ولكن حميّة الجاهلية تحملهم على جحود ما

إنهم قد أجمعوا من قبل على أن محمداً ﷺ هو الصادق الأمين .

والأحقية عندهم مقياسها في مقدار ما يملك الإنسان من شاةٍ وبغير ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرَبَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٦١٣) أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴿٦١٣﴾

والقوم لو رغبوا في الحق لما كابروا في الاستجابة لمن اختاره الله واصطفاه .

(٦١٣) سورة الزخرف : ٣١-٣٢.

وقد لبث فيهم عمرا من قبله ، وما كان يتلو من قبله من كتاب ولا يخطه
بيمينه . وليس هو ﷺ ممن يفترى الكذب على الناس فكيف يَقُولُ على الله .
ما يتلى عليهم إن هو إلا وحي يوحى ولو شاء الله ما تلاه عليهم .

القوم يعرفون ذلك ، ولا يكذبون الرسول ﷺ ، ولكنهم بآيات الله يجحدون .
إن حديث القرآن عن هؤلاء ليس حديثا عن أمم غابرة وإنما هو تذكير بسنن
عامة باقية مضت في الأولين وتمضي في اللاحقين . من عادى الحق حرم
هدايته ، ومن كذب بالحق اضطرب أمره وساءت عاقبته . ولا نجاة إلا بالإيمان
بما نزل من الحق والاعتصام به .

والقرآن الكريم يخاطب الناس بهذه السنن ويريهـم إياها في أمم قد خلت
وآيات في الأنفس وفي الآفاق . إن عذابا قد وقع على المكذبين من قبل وحق
بهم ما أخبر القرآن به . وفي ذلك بيان للناس أجمعين وهدى وموعظة
للمتقين .

— ١١٠ —

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة ص ﴿ كُتِبَ
أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرُوا أَلَّا يَكُنُ لَهُ ﴾ (٦١٤) .

وهذه الآية قد سبقت بقوله ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ
الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ (٦١٥) أَمْ جَعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ جَعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ (٦١٥) .

ومن تدبر حكمة الخلق عرف ما للكتاب المنزل من فضل واستمسك به
وعمل بمقتضاه . والإنسان يمر بمراحل ليس الموت خاتمتها وإنما هو خاتمة
مرحلة تتبعها أخرى . وأخطر مراحلها أولها ؛ لأن ما بعدها ثمرة لما كان فيها .
ويجني الفتى من بعد ما هو غارس .

(٦١٤) سورة ص : ٢٩ .

(٦١٥) سورة ص : ٢٧ - ٢٨ .

مرحلة الحياة الدنيا هي أخطر المراحل .

ومرحلة الموت ينقطع بها العمل ويستقبل الجزاء ويرى الإنسان ما قدمت يده فممن عمل في دنياه خيراً لقي خيراً ومن عمل شراً رآه كما عمل ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ .

ومن رحمة الله بالخلق أن أنزل هذا الكتاب المبارك وحفظه . ليعرف الناس به الحق من الباطل ، وليزنوا جميع أمورهم بميزان الله وليهتدوا بهداه .

والله عز وجل لم يخلق الخلق عبثاً ولا باطلاً . وإنما خلق الخلق لحكمة عالية وغاية باقية . خلقهم ليعبدوه ويوحدوه وفي ذلك مصلحتهم وسعادتهم . ولا يستوى عنده مفسد ومصلح ومتق وفاجر . لا يستوي من أحسن في دنياه ومن أساء . وكل ذلك مرتبط بما خلُقوا له وأنزل الكتاب من أجله .

فيه يعرف المحسن إحسانه ، والمسيء إساءته ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ والذين يتصورون أنها دنيا فحسب يفسدون ولا يصلحون .

والذين لا يؤمنون بيوم الحساب يرون الحياة عبثاً وباطلاً .

والذين لا يخضعون هواهم لما نزل من الحق يضلون السبيل . وأولئك لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب .

والكتاب المبارك يرشد ويبصر ويهدي للتي هي أقوم . ويؤتى به يوم القيامة شفيحاً لفريق وحجة على آخرين . وبه يرفع الله أقواماً ويضع آخرين .

﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك﴾ .

والناس مدعوون لتدبره طلباً لهداه ، مأمورون بتذكره ليكون نوراً لهم في الحياة ، يخرجون به من ظلمات الجهل والضلال والظلم والإفك إلى نور المعرفة والحق والعدل والصدق . إنه كتاب مبارك . يعرف بركته من تدبر آياته واهتدى بهداه .

ومن أجل ذلك أنزل وحُفظ ﴿لِيَذَّبَ رُءُوءَ إِيَّتِهِ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

هذا الكتاب المبارك انتقل بالإنسان من حدود الدنيا وضيقها إلى سعة الآخرة ونعيمها فجعل من سعى الآخرة براءً بالدنيا، ومن العمل الصالح في الدنيا نعيمًا في الآخرة.

فلم يُعد الإنسان بفقهِ القرآن حَيَسَ غَمٌّ وَهُمْ عَلَى فَوَاتِ دُنْيَاهُ . أو أُسِيرَ تَنَافُسٍ مَسْعُورٍ عَلَى حَطَامِهَا ، بل غدا بنورِ القرآن مُدْرَكًا حَقِيقَتَهَا ، مُبْصِرًا غَايَتَهَا يرى بإيمانه نعمة ربه فيشكر ولا يكفر . ويعرف قضاءه وقدره في خلقه وأن لا شيء يقع إلا بإذنه فلا ييأس ولا يقنط . ولا يذل ولا يطغى . وهو يقرأ من آيات هذا الكتاب المبارك ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۚ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (٦١٦).

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٦١٧) هذا الكتاب المبارك هو الذي فتح أبواب التنافس على الخير الكثير والفوز العظيم .

فجعل الإنسان يرجو الفردوس الأعلى وهو يمشي بين الناس في الأرض . ويقوم إلى جنة عرضها السموات والأرض وهو يجاهد لإعلاء كلمة الله . هذا الكتاب المبارك هو الذي يثدُّ نِيَّةَ السَّوِّءِ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ تَبْلُ أَنْ تُوَلَّدَ بِمَا عَلَّمَ الْإِنْسَانُ مِنْ صَدَقِ نِيَّتِهِ وَشَرَفِ غَايَتِهِ وَخَشْيَتِهِ مِنْ رَبِّهِ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ . فحقق للإنسان أسباب الأمن والسلام بلا تكاليف .

وهل يُطلب الأمن إلاَّ بإيجاد الإنسان الصحيح في خلقه وإيمانه . الإنسان الذي يكف شرَّه عن غيره ابتغاء مرضاة ربه .

(٦١٦) سورة الحديد : ٢٢ - ٢٣ .

(٦١٧) سورة التغابن : ١١ .

ذاك ما توحى به آيات هذا الكتاب المبارك وما تدعو إليه ، فهو مبارك في إصلاح دنيانا مبارك في علاج جميع قضايانا وإصلاح نفوسنا . مبارك في إصلاح ذات بيننا وتحسين روابطنا مبارك في جعلنا نؤثر العواقب ونؤمن باليوم الآخر ، مبارك في تعليمنا ما لم نكن نعلم ودعوتنا إلى العمل بما نعلم ، مبارك في جعل الحق والعدل أساسا في تعاملنا ، وجعل الإيمان أصلا في تحقيق الأمن ، مبارك في هدايتنا بنوره وإدراكنا لحكمة الخلق وغاية الوجود ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (٢٧) أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كَتَبَ أَرْزَلُهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَذَبُوا عَائِيَهُ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢١٨﴾ .



ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنته هذه الآيات من سورة ص ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (٨٦) إِنَّهُ لَا ذِكْرَ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾ ﴿٢١٩﴾ يقول الله تبارك وتعالى لنبية ﷺ قل يا محمد لهؤلاء المشركين ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجرا ﴿وما أنا من المتكلفين﴾ أي وما أزيد على ما أرسلني الله به ، ولا أبتغي زيادة عليه . بل ما أمرت به أدتيه لا أزيد عليه ولا أنقص منه . وإنما أبتغي بذلك وجه ربِّي والدار الآخرة .

وهذا رد القرآن عليهم حينما طلبوا من رسول الله أن يأتيهم بشيء من عند نفسه ، وأن يبدل ما جاءهم به . وقد أمر الرسول ﷺ أن يبلغهم أن لا شيء يأتي به من تلقاء نفسه ، وإنما هو الوحي يأتيه من عند ربه . وأنه ﷺ متبعٌ يُبَلِّغُ ما يوحي إليه ولا يخالف أو يفعل غير ما أمر الله به .

(٢١٨) سورة ص : ٢٧ - ٢٩ .

(٢١٩) سورة ص : ٨٦ - ٨٨ .

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أُمِّيقُ يُقْرَأُ إِن غَيْرِ هَذَا أَوْ يَدِّلُ قُلُوبَهُ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدِلَهُمْ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٦٢٠).

وهذه الحقيقة لها دلالتها في طاعة الرسول ﷺ وحسن اتباعه .

ولها دلالتها أيضا في أن هذا البلاغ منه ﷺ ليس مجرد تذكير لا حساب عليه .

بل هو الحق الذي يُثاب عليه كل من آمن به وعمل بمقتضاه . ويؤخذ به كل من كرهه أو أعرض عنه .

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۚ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ (٦٢) ﴿لَا مَنْ تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ (٦٣) ﴿فَعَذِبَهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ (٦٤) ﴿إِنَّا إِلَيْنَا يَا أَيُّهَا النَّاسُ حِسَابُهُمْ﴾ (٦٥) ﴿ثُمَّ إِنَّا عَلَيْنَا حِسَابُهُمْ﴾ (٦٦) ﴿﴾ (٦٢١).

إن حديث القرآن ينبي عن هذه الحقيقة ويصبر بها ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذَكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۝ وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذَكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ يعني القرآن الكريم فإنه ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن . فمن علم به — وقد تبين له الهدى — حوسب عليه إن هو تولى أو أعرض عنه ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ أي خبره وصدقه عن قريب . وكل ما هو آت قريب . والموت آت لا محالة .

﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ (٦٢٢).

ومن مات دخل في حكم القيامة ، وعند الموت يأتيه الخبر بما هو صائر إليه .

﴿وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ فكل ما أخبر به القرآن فبشر به أو حذر منه حق يرى الناس تأويله . ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ

(٦٢٠) سورة يونس : ١٥ .

(٦٢١) سورة الغاشية : ٢١ - ٢٦ .

(٦٢٢) سورة النحل : ٧٧ .

يُؤْمِنُونَ ﴿٥٤﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٦٢٣﴾ وما من شيء أخبر به القرآن إلا ورأى الناس صدق خبره .

أخبر في فترة نزوله أن الروم قد غلبت وأنهم من بعد غلبتهم سيغلبون في بضع سنين . ورأى الناس صدق ما أخبر به .

أخبر عما يقع لهؤلاء الذين أصروا على كفرهم وصدوا عن سبيل الله - وهم عندما أخبر عنهم في قوة ، والمؤمنون يومئذ قليلٌ مستضعفون يخافون أن يتخطفهم الناس - ورأى الناس صدق ما أخبر به فلم يعد لدى السامعين شك في صدق خبره - وهم يرون هزيمة من أعجبتهم قوتهم وقالوا - أو قال شيطانهم ﴿ لا غالب لكم اليوم من الناس ﴾ . وقد أخبر القرآن بهزيمتهم قبل أن تقع .

هكذا في ثقة يُلقى خبره ويذكر وعيده وينفذ وعده لمن بشرهم بهزيمة عدوهم . ﴿ أَمْرِقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴾ ﴿١١﴾ سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونُ الدُّبُرُ ﴿٦٢٤﴾ .

ولو كان من بشر لتخلف الوعد وبطل الوعيد . ولكنه من الله والله بكل شيء عليم ، وهو على كل شيء قدير . فما يذكر به القرآن ويصّر يجب أن يؤخذ مأخذ الجد وأن لا يشكل في تحقيق وعده ووعيده . فلنتدبر حديث القرآن ، ولنكن متبعين لهده . فإنه تنزيل رب العالمين . والناس جميعا عائدون إليه ومنتهون عنده . ولنحذر أن نُشغَلَ بعاجل عن آجل أو نُصرف بباطل عن حق واقع . أو ننسى - ونحن في دنيانا - ما نحن قادمون عليه وصائرون إليه .

فإن امتحاننا هنا ودارنا الباقية هناك .

(٦٢٣) سورة الأعراف : ٥٢ - ٥٣ .

(٦٢٤) سورة القمر : ٤٤ - ٤٥ .

فلنظهر دنيانا بسعي آخرانا . وما سعي الآخرة في الدنيا إلا أمن لها وبرُّ بأهلها . فإن سعي الآخرة إيمان وعمل صالح ترجى به رحمة الله . وللدنيا من الإيمان أمنٌ وسلام ومن العمل الصالح ودٌّ وتعاون وصادق بر وإقامة عدل وإحقاق حق .

فلنعمل في دنيانا بذكر آخرانا ولنبتغ فيما آتانا الله الدار الآخرة ولا ننس نصيبنا من الدنيا . ولنستتر بنور القرآن ولا نكون من الغافلين .

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۚ وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ ۝﴾

١١٢

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الزمر ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٦٢٥﴾ .

يُخبر الله سبحانه أن تنزيل هذا الكتاب - وهو القرآن العظيم - من عند الله العزيز الحكيم . وفي هذا بيان لحقيقة هذا الكتاب وعزته ومكانته فهو من الله العزيز الحكيم .

وكفى بذلك تنبيها على علو مكانته وتحذيرا من الإعراض عنه أو مخالفته . فإنه من «الله العزيز» فمن عاداه أخذه الله أخذ عزيز مقتدر . «الحكيم» فهو جدير أن تتبع حكمته وألا تُهمل موعظته ، جدير أن يستجاب له وأن تخشع النفوس لحكمته وتخضع لحكمه .

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۝﴾

أي فاعبد الله وحده لا شريك له وادع الخلق إلى ذلك وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده وأنه لا شريك ولا عديل .

(٦٢٥) سورة الزمر : ١ - ٢ .

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ فلا يُقْبَلُ من العمل إلا ما أخلص منه العاملُ لله وحده لا شريك له . هذه الحقيقة قد أنزل القرآن لتقريرها وأرسل الرسل جميعاً من أجلها . وهم جميعاً دعاة إليها مؤمنون بها ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ هذه الحقيقة هي موطن التكريم للإنسان وحمایته من أمراض النفاق والرياء والذلة والمهانة والصغار .

إن الإنسان يعز بعبادة ربّه ويسمو بصدق معرفته والإخلاص له ﴿فاعبد الله مخلصاً له الدين﴾ ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾ (٦٢٦) ذاك ما كان الرسول ﷺ عليه وما امر بالدعوة إليه . وما صدع به وجاهد في سبيله . ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ * وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ * بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٦٢٧) .

وذاك هو الإسلام الذي بعث الله الرسل جميعاً دعاة إليه . وهو ملّة إبراهيم ، وما وصى به إبراهيمُ بنيه ويعقوبُ ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٦٢٨) .

ذاك هو الدين الذي أنزل به القرآن وحفظ ليعلم الناس جميعاً حقيقة الدين وأن الرسل جميعاً دعاة إليه لا إلى غيره . وهو يبين حقيقة الدين كما جاء من

(٦٢٦) سورة الزمر: ١١ - ١٤ .

(٦٢٧) سورة الزمر: ٦٤ - ٦٦ .

(٦٢٨) سورة البقرة: ١٣٠ - ١٣٣ .

عند الله - تنزيل العزيز الحكيم . فلا مجال لأحد أن يفلت من عقابه أو يفر من لقائه إن هو مال عن هذا الدين أو ابتغى غيره ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ (٦٢٩) وهذه الحقيقة جديرة أن تبين وأن يعلمها الناس جميعا .

فإن فيها أمنهم وسلامهم وخيرهم في دنياهم وآخرهم .

ذلك أنها - وهي تدعو إلى الإخلاص لله - لا تجعل لأحد فضلا على أحد إلا بتقواه ولا تقبل أن يتخذ الناس بعضهم بعضا أربابا من دون الله .

ذاك ما نزل الكتاب لتقريره وأرسل الرسول ﷺ لتبليغه : توحيد الله وإفراده بالعبادة وإخلاص الدين له ، وتنزيهه عن الشرك والبراءة منه في أية صورة من صوره ، والاتجاه إليه وحده دون الالتفات إلى غيره .

فإن الله وحده هو القوي ، وهو القاهره فوق عباده ﴿ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (٦٣٠) .

وإدراك هذه الحقيقة والعمل بها هو السبيل إلى تكريم الإنسان وأمنه وسلامه . هو السبيل إلى تقرير حقوقه وبيان واجباته . هو السبيل إلى عمل الخير والكف عن الشر ، بل هو السبيل إلى تراحم الناس ورجاء الرحمة من الله .

وهذا ما نزل القرآن من أجله ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ ﴿وَهَذَا كِتَابُنَا أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكًا فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٦٣١) .

نسأل الله أن يرزقنا صدق الإخلاص له وحسن التوجه إليه .

ونعوذ به من أن نشرك به شيئا نعلمه ونستغفره لما لا نعلمه .

(٦٢٩) سورة آل عمران : ٨٥ .

(٦٣٠) سورة الأنعام : ١٠٢ .

(٦٣١) سورة الأنعام : ١٥٥ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الزمر ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ، لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ، فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي، نَقْشَعِرْمَنَّهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنَ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ، مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ، مِنْ هَادٍ ﴿٦٣٢﴾.

﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ هل يستوي هذا ومن هو قاسي القلب مجاف الحق؟

لا يستويان : ذاك له نورٌ يمشي به في الناس . وهذا متخبط في الظلمات ليس بخارج منها . كما قال الله عز وجل ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِثًّا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ ﴿٦٣٣﴾.

ولهذا قال الله تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ فلا تلين عند ذكره، ولا تخشع ولا تعي ولا تفقه ﴿أولئك في ضلال مبين﴾ .

ومن تدبر المناسبة بين الآيات أدرك ما بينها من صلاتٍ وعرف ما بها من دلالات . وقد جاءت هذه الآية ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ بعد قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ، يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿٦٣٤﴾ .

فكما يُنْزَلُ الله من السماء ماء فيُنْبِت به زرعًا مختلفًا ألوانه .

كذلك قد نزل الله من السماء ذكرًا تتلقاه القلوب الحية ، فتتفتح وتنشرح وتتحرك حركة حياة . وتتلقاه القلوب القاسية كما تتلقاه الصخرة القاسية التي لا

﴿٦٣٢﴾ سورة الزمر: ٢٢ - ٢٣ .

﴿٦٣٣﴾ سورة الأنعام: ١٢٢ .

﴿٦٣٤﴾ سورة الزمر: ٢١ .

لِيَنَ فِيهَا وَلَا حَيَاةَ . وَالْمُنَاسِبَةُ بَيْنَ إِنْزَالِ الْمَاءِ مِنَ السَّمَاءِ وَإِنْزَالِ الْقُرْآنِ بَيِّنَةٌ وَاضِحَةٌ . فِي الْمَاءِ حَيَاةٌ ، وَفِي الْقُرْآنِ حَيَاةٌ .

وَلَكِنْ شَتَانُ مَا بَيْنَ حَيَاةٍ وَحَيَاةٍ . حَيَاةٌ تَطْرَأُ وَلَا تَدُومُ . وَحَيَاةٌ تَبْقَى وَتَدُومُ . وَالْمُنَاسِبَةُ بَيْنَ الْأَرْضِ الَّتِي تَسْتَقْبِلُ الْمَاءَ وَبَيْنَ الْقُلُوبِ الَّتِي تَتَلَقَّى هُدًى بَيِّنَةً وَاضِحَةً . فَالْأَرْضُ تَتَفَاوَتْ ، وَالْقُلُوبُ كَذَلِكَ .

وَقَدْ بَيَّنَّ الرَّسُولُ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الْمَتَّفِقِ عَلَيْهِ عَنْ أَبِي مُوسَى - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حَيْثُ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ . وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبٌ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرَبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا . وَأَصَابَ طَائِفَةٌ مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قَيْعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تَنْبِتُ كَلَأً . فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَّهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا يَبْعَثُنِي اللَّهُ بِهِ فَعِلِمٌ وَعِلْمٌ . وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا ، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدًى اللَّهِ الَّذِي أَرْسَلْتُ بِهِ » .

وَهَذَا الْبَيَانُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَدُلُّنَا عَلَى مَا لِلْغَيْثِ مِنْ أَثَرٍ فِي حَيَاةِ الْأَرْضِ الَّتِي قَبْلَتَهُ وَمَا لِهُدًى اللَّهِ مِنْ أَثَرٍ فِي الْقُلُوبِ الَّتِي فَقَّهَتْهُ .

وَكَثِيرًا مَا نَرَى تَجَاوُرَ الْحَدِيثِ عَنِ الْمَاءِ وَعَنِ الْقُرْآنِ فِي آيَاتٍ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ الْمُبِينِ . لِيَعْلَمَ النَّاسُ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ تَنَاسُبٍ وَتَشَابُهٍ .

مِنْ ذَلِكَ مَا جَاءَ فِي سُورَةِ الزَّمْرِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعٌ فِي الْأَرْضِ ﴾ يَتَجَاوَرُ مَعَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا ﴾ وَبَيْنَهُمَا آيَةٌ لَهَا ارْتِبَاطٌ وَثِيقٌ بِهِذِهِ وَتِلْكَ ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ . فَلِلْمَاءِ أَرْضٌ تَتَلَقَّاهُ وَلِلْهُدَى قُلُوبٌ .

وَالْأَرْضُ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ تَقْبَلُ وَتَنْبِتُ وَمِنْهَا أَجَادِبٌ وَقَيْعَانٌ .

وَالْقُلُوبُ مِنْهَا مَا يَقْبَلُ وَيُثْمِرُ وَمِنْهَا قَائِسٌ لَا يَقْبَلُ وَلَا يُثْمِرُ وَمِنْهَا مَا يَعِي فَيَنْفَعُ غَيْرَهُ وَلَا يَنْفَعُ نَفْسَهُ ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ .

وسيطل حديث القرآن يؤدي عمله في حياة النفوس كما يؤدي الماء عمله في حياة الأرض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

فلنتعهد بالقرآن قلوبنا ولنلزم به نفوسنا ولنكن معه حيث كان . ولنحذر أن نشغل عنه فإنه رحمة من الله وفضل . وليكن لنا مع أهلنا وأولادنا ورؤيومي نُير به بيوتنا ونحفظ أهلنا . فإن الجوف الذي ليس فيه قرآن كالبيت الخرب .

في الحديث المتفق عليه عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله ﷺ : «الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة . والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران» .

وروى الترمذي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب» .
فاستمسكوا به واعتصموا رعاكم الله وسدد خطاكم .

١١٤

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة الزمر ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٦٣٥) . ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ أي بيننا لهم بضرب الأمثال ﴿لعلهم يتذكرون﴾ فإن المثل يُقَرَّبُ المعنى إلى الأذهان كما قال الله تبارك وتعالى ﴿ضرب لكم مثلا من أنفسكم﴾ أي تعلمونه من أنفسكم . وقال جل وعلا ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ .

﴿قرآنا عربيا غير ذي عوج﴾ أي هو قرآن بلسان عربي مبين ، لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، ولا لبس ولا غموض بل هو بيان ووضوح وبرهان . جعله الله

(٦٣٥) سورة الزمر: ٢٧ - ٢٨ .

كذلك وأنزله بذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي يحذرون ما فيه من الوعيد ، ويعلمون بما فيه ويتقون مخالفته أو الإعراض عنه .

﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعَلَّهُمْ يتذكرون﴾ .

ومما ضربه الله من مثل في هذه السورة ، سورة الزمر هذه الآية ضُربت مثلاً للمشرك والمخلص ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٦٣٦) .

عبدٌ مشترك بين شركاء متنازعين . وآخر سالمٌ لرجلٍ خالص لا يملكه أحدٌ غيره هل يستويان ؟ لا يستوي هذا وذاك . فالذي يخضع لسيد واحد ينعم بما لا ينعم به من يخضع لسادة متشاكسين ، فهو معذب قلق لا يستقر على حال ، ولا يستطيع أن يرضي واحداً منهم ، فضلاً عن أن يرضيهم جميعاً .

وهذا المثل يصوّر حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك كما يصور حقيقة الموحّد وحقيقة المشرك . الموحّد يتجه إلى إلهٍ واحد يعلم ما يطلبه منه وينعم براحة الاستقامة والمعرفة واليقين ولا يشرك بربه أحداً .

إن المثل الذي ضربه القرآن الكريم يذكر الناس بهذه الحقيقة التي لا يستقيم لهم شأن إلا بمعرفتها والإيمان بها . وأنه سبحانه واحد لا شريك له . وهذه الحقيقة يشهد لها كلُّ شيء في آيات الكون وفطرة الخلق .

والناس وهم يُخاطبون ويُدعون إلى اليقين والإيمان يشاهدون من آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم ما يزيدهم إيماناً وتسليماً ، ويدعوهم إلى حمدِ الله

وشكره وحسن الاستجابة لأمره .

والقرآن الكريم وهو يضرب المثل الذي يذكّر ويصّبر بهذه الحقيقة يقربها إليهم ويريهـم ما يدلّ عليها فيما أسبغ الله عليهم من نعم ظاهرة وباطنة . لتكون دوافع التبصرة والذكرى قائمة فيهم لا تنفك عنهم ولا تبارحهم .

تساق لهم التبصرة والذكرى فيما سخر الله لهم من ليل ونهار، وشمس وقمر، وفيما أنزل من ماء، وأنبت من شجر . وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد .

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِذِي بَلَدٍ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۚ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِذِي بَلَدٍ أَكْثَرُ هُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۚ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلَفَاءَ ۖ أَلَيْسَ اللَّهُ بِذِي قُوَّةٍ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بِشُرَائِبِكُمْ ۖ أَلَيْسَ اللَّهُ بِذِي قُوَّةٍ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِذِي قُوَّةٍ ۚ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٦٣٧).

تلك آيات الله في الآفاق وفي الأنفس يخاطب بها الإنسان في كل زمان ومكان وهي مسخرة لنفعه وتبصرته تحثه على معرفة خالقه وتدعوه إلى عبادته وصدق الإخلاص له ، في غير عسرٍ أو تكلف . فهو يخاطب بالماء ، وللماء

في حياته شأن أي شأن . يُخاطب بالأرض وهو يمشي عليها وهي تقلُّه ،
وبالسماء وهي تظله . يخاطب بالليل وهو له لباس ، وبالنهار وله فيه معاش .

يخاطب بآيات الله في نفسه وفيها يجد عظمته وتبصرته .

فآيات الله التي تدعوه إلى عبادة إله واحد لا شريك له ليست بعيدة عنه ، أو
منفصلة عن حاجته ومنفعته .

فمن جادل في الله دحضته نعمه وأنكرته نفسه .

وغدا بجحوده منكراً في كونٍ يُسبِّحُ كلُّه بحمد ربه .

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا
وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (٦٣٨) ولا نجاة إلا بالإخلاص لله وعدم الإشراك به .

ومن أشرك به دُمِّرَ بشركه . ومن أسلم وجهه لله فاز برحمة ربِّه .

وعاش في دنياه مستقيماً بلا عوج .

﴿ فَأَقْرِبْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ
يَصَّدَّعُونَ ٤٣ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُمْ يَمْهَدُونَ ٤٤
لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ (٦٣٩) .

(٦٣٨) سورة آل عمران : ٨٣ .

(٦٣٩) سورة الروم : ٤٣ - ٤٥ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة الزمر ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (٦٤٠).

يقول الله تبارك وتعالى مخاطباً رسوله ﷺ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يعني القرآن. ﴿لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أي لجميع الخلق لتنذرهم به. ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ﴾ أي فإنما يعود نفع ذلك إلى نفسه. ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي إنما يرجع وبال ذلك على نفسه. ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي لست مأموراً بأن تحملهم على الإيمان على سبيل القهر بل القبول وعدمه مفوض إليهم. ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۚ إِن لَّسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾.

والله وحده هو الذي يعلم من يستحق الهداية وهو أهل لها. ومن لا يستحق.

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾.

ومن اتخذ إليه هواه لا تزيده الدعوة إلى الحق إلا نفوراً واستكباراً. والله يعلم هذا وذاك. فمن هداه ووفقه هداه على علم. ومن أضله أضله على علم. إن الله قد أنزل الكتاب بالحق لأجل الناس جميعاً. فإنه مناط مصالحهم في معاشهم ومعادهم به يهتدون، ويدركون حكمة وجودهم، وغاية حياتهم ومصيرهم. وعليه يحاسبون وسوف يُسألون ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾. إنما الوكيل عليهم هو الله. وهم في جميع أحوالهم في قبضته. وفي صحوهم ونومهم وحلهم وترحالهم، وحياتهم وموتهم وفي كل حالة من حالاتهم.

ومن أدرك هذه الحقيقة سارع إلى حسن الاستجابة إلى ما دُعي إليه . وكره أن يكون على غير ما يُرضي الله . وأحسن الاستعانة والتوكل عليه . إذ لا شيء من الأمر إلا وهو راجع إليه ، ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٦٤١) .

هذه الحقيقة توقف في الإنسان معرفته وخشيته . وهو يعلم أن الأمر له وحده - سبحانه - في بدايته ونشأته ، وفي موته وبعثه ، وفي العود إليه والحساب بين يديه . فكيف يكفر به أو يجحد نعمه وهو راجع إليه لا إلى غيره ؟ ﴿ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ لا إلى أحدٍ سواه ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٦٤٢) .

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ (٦٤٣) .
﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ (٦٤٤) .

هذه الحقيقة الكبرى جديرة أن تكون في حساب الإنسان وهو يختار لنفسه ما يختار من اتباع - لما نزل من الحق - أو إعراض .

ومن تدبر التناسب بين الآيات أدرك قوله ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تُمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ بعد قوله ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ بِوَكِيلٍ ﴾ . فالوكيل عليهم هو الله ، وهم في قبضته .

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تُمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٦٤٥) .

(٦٤١) سورة الأعراف : ٥٤ .

(٦٤٢) سورة البقرة : ٢٨ .

(٦٤٣) سورة طه : ٥٥ .

(٦٤٤) سورة نوح : ١٧ ، ١٨ .

(٦٤٥) سورة الزمر : ٤٢ .

فمن تفكر وتدبر اختار سبيل الهداية واستجاب لنداء الحق واستمسك به واستعان بالله على الثبات عليه . فإن الله الذي أنزل الكتاب بالحق هو الذي سيحاسب عليه . والناس لا محالة عائدون إليه . فإن لهم جميعاً أجلاً مسمى عند الله ينتهون إليه .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۖ ﴿٦٤٦﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ۖ ﴿٦٤٧﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ۖ ﴿٦٤٨﴾ ۝﴾

من هذا ندرك أن الحق الذي دُعينا إلى اتباعه ليس أعزل من قوة تحقق وعده ووعيده . والناس جميعاً عائدون إلى الله الذي أنزل الكتاب بالحق . وهو الذي يقضي بينهم بالحق ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَنَهُ ۖ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۖ ﴿٦٤٧﴾ ۝﴾ فأيन المفر لمن أبى الحق أو عانده؟ أين المفر لأولئك الذين شغلوا بعاجلٍ عن آجل وألهتهم الرغائب عن العواقب؟ ﴿ إلى ربك يومئذ المستقر ۖ ۝﴾

تلك هي الحقيقة التي يستقيم بها سعي الناس وتصلح أعمالهم ﴿ إلى ربك يومئذ المستقر ۖ ۝﴾ فطوبى لمن آمن بالحق وعمل به ولقي ربّه بالثبات عليه .

وويل لمن غفل ونسي . وصرفته دنياه عن أخراه . فكذب بالحق واتخذ إلهه هواه . ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۖ ﴿٦٤٨﴾ ۝﴾

(٦٤٦) سورة الأنعام: ٦٠ - ٦٢ .

(٦٤٧) سورة الزمر: ٦٧ .

(٦٤٨) سورة النور: ٦٤ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الزمر ﴿قُلْ يٰٓعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ٥٦﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ، مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ٥٧ ﴿٥٨﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٩﴾ (٦٤٩)

﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾ وهو القرآن العظيم .

ولتدبر مورد هذه الآية ودلالاتها في دعوة الخلق إلى حسن الاستجابة والمصارعة إلى الإنابة والإسلام لله وحده . فإن للإسلام شريعةً ومنهاجا . وللإنابة سبيلها وصراطها المستقيم واتباع ما نزل من الحق ومن أنزل عليه هو السبيل لتحقيق الإسلام والإنابة إلى الله ، والرجاء في رحمته ورضوانه . ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٦٥٠) .

ولذا فإن التكذيب بما نزل من الحق والتفريط فيه وعدم الهداية به يفضي - لا محالة - إلى الحسرة والندامة ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ٥٧ ﴿٥٨﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ٥٩﴾ (٦٥١) . ويأتي الرد على من قال لو أن الله هداني لكنت من المتقين بقوله ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تِلْكَ أَيْتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ٦٠﴾ (٦٥٢) جاءك أسباب الهداية فكذبت بآيات الله وتكبرت عن الإيمان بها .

(٦٤٩) سورة الزمر: ٥٣ - ٥٥ .

(٦٥٠) سورة الأنعام: ١٥٣ .

(٦٥١) سورة الزمر: ٥٦ - ٥٨ .

(٦٥٢) سورة الزمر: ٥٩ .

بلى قد جاءتك آياتي - القرآن الكريم - وهو سبب الهداية . وبلغت فكذبت . وكانت نتيجة التكذيب والإعراض - بعد إعدار وإنذار - ما وقع من العذاب .

وترى من جحد بآيات ربّه يتحسّر أولاً، ثم يتعلّل ثانياً بعدم إرشاد الله له، ثم يتمنى الرجوع ليؤمن بما كذب به . فيقال له من قبل الله سبحانه ﴿بلى قد جاءتك آياتي﴾ . فإن قوله ﴿لو أن الله هداني لكنت من المتقين﴾ متضمنٌ نفي الهداية كأنه قال : ما هداني الله . فيقال له : بل قد جاءتك آياتي مرشدة لك . فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين . فما صرت إليه هو ما اخترته لنفسك وسعيت إليه ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولِهِ مَا قَوْلَىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (٦٥٣) . ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ نَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٦٥٤) وتلك دعوة الله لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة قبل أن يأتي الموت أو يقع العذاب . وإخبارٌ منه سبحانه بأنه يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها وإن كثرت . ولا يفتن عبداً من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه وكثرت . ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (٦٥٥) .

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله تعالى : ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ قال : «قد دعا الله إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله ، ومن زعم أن المسيح ابن الله ، ومن زعم أن عزيزاً ابن الله ، ومن زعم أن الله فقير ، ومن زعم أن يد الله مغلولة ، ومن زعم أن الله ثالث

(٦٥٣) سورة النساء : ١١٥ .

(٦٥٤) سورة الزمر : ٦٠ .

(٦٥٥) سورة النساء : ١١٠ .

ثلاثة؛ يقول الله تعالى لهؤلاء ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. ثم دعا إلى التوبة من هو أعظم قولاً من هؤلاء، من قال: ﴿أَنَا رَبِّكُمْ الْأَعْلَى﴾ وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله عز وجل. ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه».

ألا فليبادر الناس جميعاً بالإنيابة والتوبة والعمل الصالح قبل حلول النعمة. وليتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم - القرآن العظيم - من قبل أن يأتيتهم العذاب بغتة وهم لا يشعرون. فإنه بلاغ من الله لهم قبل أن يُقْضَى الأجل المسمّى عند الله لا عندهم. ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ وعندئذ يقع الندم الذي لا محيص عنه. ويودُّ المجرم الذي فرط في التوبة والإنيابة لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله عز وجل.

يودُّ ذلك بعد فوات الأوان ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾.

أخبر الله سبحانه - رحمة منه وفضلاً - ما العباد قائلون قبل أن يقولوه ﴿وَلَا يَنْبُتُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ إغذاراً منه وإنذاراً، ودعوة إلى معرفته وخشيته، وبلاغاً لهم أن لا شيء من أمرهم - في عاجلهم وآجلهم وسرهم وعلنهم وما هم صائرون إليه - إلا والله محيط به، وهو معهم أينما كانوا ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنْ مَا كَانُوا ثُمَّ يَنْتَهُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٦٥٦).

فلنحذر أن نكون من الغافلين الذين لا يفيقون إلا إذا نزل الموت بساحتهم أو جاء العذاب. ولنبادر بالتوبة والاستغفار.

(٦٥٦) سورة المجادلة: ٧.

فإن نفسا تقول حين ترى العذاب ﴿لو أن لي كرة فأكون من المحسنين﴾ لم تفق إلا حين رأت تأويل ما فصله الكتاب ولن تُجاب . ولا عود إلى الدنيا بعد موت ، ولكنه الحساب والجزاء والجنة أو النار وهذا نداء الله للخلق جميعا . فلنحسن تدبره ولنعمل بما جاء فيه ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ وَأَسْبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ اللهم إنا نسألك رضاك والجنة ونعود بك من سخطك والنار .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة غافر ﴿حَمَّ * نَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ * مَا يُجَدِّلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبَلَدِ * كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ (٦٥٧) .

﴿تنزيل الكتاب﴾ وهو القرآن الكريم ﴿من الله العزيز العليم﴾ ذي العزة والعلم سبحانه .

وهذا التقرير على هذا النحو له دلالته في حسن تدبر القرآن والاعتصام به والعمل بمقتضاه ، فتزيل هذا الكتاب من الله العزيز العليم .

وذلك وحده كافٍ في تهيه النفس له ، وحرصها عليه ، وإصغائها لدعوته ، وسكونها عند تلاوته . فهو من الله . واستحضار ذلك واستشعاره يعطي النفس ما يعطيه من طمأنينة وإيواء إليه .

من الله ﴿العزیز العليم﴾ صفتان دالتان على أن من أنزل هذا الكتاب عليم بموقف الناس منه ، وقدير على مؤاخذه من جحدته وأعرض عنه .

إن التعريف ببعض صفات مَنْ أنزل هذا الكتاب ذو علاقة بتوجيه الإنسان وتبصرته وحثه على الاهتداء بهدأيته .

فهذا الكتاب تنزيل من الله العزیز العليم ، غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب ، ذي الطول ، لا إله إلا هو ، إليه المصير .

إن الله عز وجل يعرف نفسه لعباده بصفاته ذات الأثر البالغ في حياتهم ومصيرهم ليكون إقبالهم على الكتاب المنزل إقبالاً من يعرف قدره ويدرك شأنه ، ويعلم أن من أنزله يملك تنفيذ وعده ووعيده . وأن الخلق جميعاً عائدون إليه لا إلى غيره ﴿لا إله إلا هو إليه المصير﴾ فيجازي كلَّ عامل بعمله ، ويحاسب كلَّ إنسان على موقفه من هذا الكتاب الذي أبقاه وحفظه ليكون حجة لهم أو عليهم .

غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول .

إنها صفات فيها وعدٌ وتحذير .

وعد بالتوبة والمغفرة لمن تاب وأناب . وتحذير لمن أدبر وأعرض .

روى ابن أبي حاتم عن يزيد الأصم قال : « كان رجل من أهل الشام ذو بأس وكان يَفِدُّ إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه . ففقده عمر فقال : ما فعل فلانُ بن فلان ؟ فقالوا : يا أمير المؤمنين تتابع في هذا الشراب .

قال : فدعا عمرُ كاتبه فقال : اكتب : من عمر بن الخطاب إلى فلان ابن فلان ، سلام عليك . فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير ، ثم قال :

لأصحابه ، ادعوا الله لأخيكم أن يقبل ويتوب إلى الله . فلما بلغ الرجل كتابَ عمر - رضي الله عنه - جعل يقرؤه ويردده ويقول : غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب . قد حذرني عقوبته ، ووعدني أن يغفر لي ، فلم يزل يرددّها على نفسه ثم بكى ثم نزع فأحسن النزع . فلما بلغ عُمرَ خبره قال : هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخا لكم زلَّ زلَّةً فسددوه ووثقوه وادعوا الله له أن يتوب ولا تكونوا عوناً للشيطان عليه .

ذاك هو الكتاب ، وهذا فقه الصحابة - رضوان الله عليهم - في فهمه وتدبره وإرشاد الناس به . إنه القرآن الكريم ، يذكر الناس ويصبرهم . ويريهـم ما يجب أن يكونوا عليه وما هم صائرون إليه ﴿ لا إله إلا هو إليه المصير ﴾ . فكن أخي موحدًا مخلصًا مؤمنًا بيوم الحساب ، ولا تكن من أولئك الذين يدفعون الحق ويجادلون فيه بعد بيانه وظهوره أو من أولئك الذين يتبعون أهواءهم بغير هدى من الله .

فذاك شأن المكذبين الجاحدين . والله يخبر عنهم وعما جرى منهم وما وقع عليهم ليصّر بذلك وينذر . ﴿ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغرك تقلبهم في البلاد ﴾ فتدبر هذه الآيات واعلم أن من غرس غرسًا جنى من بعد ما هو غارس . ومن عمل عملاً وجده عند الله حاضرًا ، ويوم الفصل آتٍ لا ريب فيه ، وإلى الله لا إلى غيره المصير ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اخْذِلْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَتَابًا ﴾ ﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾ (٦٥٨) .

(٦٥٨) سورة النبأ : ٣٨ - ٤٠ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة فصلت ﴿حَمْدٌ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٦٥٩﴾ كَتَبْتُ فَصَّلْتُ آيَتَهُ، قَرَأَ أَنَا عَرَبِيًّا الْقَوْمَ يَعْلَمُونَ ٦٦٠ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٦٦١ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا عَمَلُونَ ٦٦٢ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ٦٦٣ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ٦٦٤﴾ (٦٥٩).

يقول الله تعالى ﴿حم﴾ تنزيل من الرحمن الرحيم ﴿يعني القرآن منزل من الرحمن الرحيم .

وقد خُصَّ هذان الوصفان بالذكر ﴿الرحمن الرحيم﴾ لما فيهما من دلالة على ما أنزل القرآن من أجله . إذ أنزل الله هذا الكتاب رحمةً منه وهديً لخلقه . فالمنزل من الرحمن الرحيم كتابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ .

وفي ذلك ما فيه من حثٍّ على الإقبال وترغيب في الإفادة ودعوة إلى الاعتصام به ؛ فإنه تنزيل من الرحمن الرحيم . ومن رغب عن الرحمة فقد ظلم نفسه .

وأي رحمة أعظم من رحمة الهداية والتبصرة .

فمن أجل هداية الناس أنزل الذكر، ولمصلحتهم حُفِظَ وبقي لتظل أسباب الهداية قائمة في حياة الناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ومن تدبر هداية القرآن عرف رحمة الله بخلقه في إنزال هذا الكتاب وحفظه .

فأحسن اتباعه رجاء رحمة ربّه وطمعا في رضوان الله ومغفرته .

ومن أبى ما دعا إليه وأعرض عنه فقد أبى الرحمة وأفسد دينه وضيع آخرته .
روى البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « كل أمتي
يدخلون الجنة إلا من أبى . قيل ومن يأبى يا رسول الله ؟

قال : من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد أبى » .

وطاعة الرسول طاعة لله ، ومعصيته معصية لله . وما الرسل إلا دعاة للحق
الذي أنزله الله وأمرهم بتبليغه والاستمسك به .

ومع الرسالة الخاتمة قد حفظ البلاغ إلى يوم القيامة ، لأنه ليس بعد هذا
الكتاب المهيم كتاب ، ولا بعد الرسول الخاتم ﷺ رسول .

وسيطل القرآن الكريم يبلغ الناس حقيقة ما أنزل الله على رسله دون تبديل
أو تغيير ودون أن يقترب من ساحته باطل . لتظل كلمة الحق مصونة كما وعد
الله ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ عزة أعزها الله به . وحفظ وعد الله
به ، والله لا يخلف وعده ﴿وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا
من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ .

فكان إنزاله رحمة ، وحفظه للخلق وبقاؤه يتلى عليهم كما أنزل امتداداً لهذه
الرحمة . وبه تبطل الحجة وتنقطع المعذرة .

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا
فَتُنَبِّعَ ءَايَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى ﴾ (٦٦٠) .

﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ . وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا لُؤْلُؤَ
الْأَلْبَابِ ﴾ (٦٦١) . ألا إن الكتاب في بلاغه وبيانه وتفصيله لم يدع سبيلاً
لمعتذر أو حجة لمبطل .

(٦٦٠) سورة طه : ١٣٤ .

(٦٦١) سورة إبراهيم : ٥٢ .

﴿كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون﴾ فمن حرم هدايته فقد حرم نفسه وعوقب بصرف الهداية عنه لكفره وجحوده . ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٦٦٢) وذلك جزاء إصرار وعناد وكفر وصد ﴿وَقَالُوا أَفَلَوْا فِئَا كُنْتُمْ مَعَادُّونَا إِلَيْهِ وَفِيءَا ذَانَا وَقُرُّوْا مِن بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا نَعْمَلُونَ﴾ .

فليكن في حديث القرآن عن المكذبين الجاحدين وما صاروا إليه عظة لأهل الإيمان في كل زمان ومكان . والقرآن الكريم ينذر ويبشر . وينادي أهل الإيمان أن لا يكونوا كغيرهم ممن فتنهم دنياهم ، وطال عليهم الأمد فقست قلوبهم .

فلنستمع للقرآن ولنستجب له . ولنحذر الغفلة عنه وعما دعا إليه .

ولتكن لنا عبرة فيما تلاه القرآن علينا من موقف نفر من الجن حين سمعوا القرآن . كيف سمعوه وآمنوا به ودعوا إليه وحذروا من مخالفته أو الإعراض عنه فكان سماعهم سماع تدبر وبلاغهم بلاغ حكيم مبصر وإنذارهم لقومهم إنذار صدوق يبشر وينذر . وقد ذكر الله أمرهم في آيات تتلى ليكونوا بما فعلوا موعظة لغيرهم .

ونحن البشر جميعا في حاجة إلى الرحمة والتراحم . في حاجة إلى الاستجابة لنداء الله لننعم بالحياة ولا سبيل للتراحم إلا بحسن الاتباع لما جاء من الرحمن الرحيم .

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٦٦٣) .

(٦٦٢) سورة الجاثية : ٢٣ .

(٦٦٣) سورة الأنعام : ١٥٥ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة فصلت ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (٦٦٤) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦٥﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (٦٦٤).

لقد تواصى الكفار فيما بينهم ألا يطيعوا القرآن ولا ينقادوا لأوامره.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾.

أي إذا تلي لا تسمعوا له والغوا فيه بالمكاء والصفير والتخليط في المنطق على رسول الله ﷺ إذا قرأ؛ ﴿الْعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾.

هذا حال هؤلاء الجهلة من الكفار ومن سلك مسلكهم عند سماع القرآن.

وقد أمر الله عباده المؤمنين بخلاف ذلك فقال سبحانه ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٦٦٥).

وأهل الكفر حين يفعلون ما يفعلون يغيب عنهم أن الحق منتصر لا محالة.

ومن تدبر العواقب أيقن يقينا لا شك فيه أن العاقبة له ولن تكون لغيره.

هؤلاء قد قالوا ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ فلمن كانت الغلبة؟ ولمن كانت العاقبة في دنيا الناس قبل آخرتهم؟

لقد انتصر القرآن في نفوس كثير منهم، ومن أصر على الباطل وجادل به ليدحض الحق دُمر وأخذ بذنبه.

ونرى القرآن الكريم يحذر تحذيرا بالغا من معاداة الحق ومخالفته.

(٦٦٤) سورة فصلت: ٢٦-٢٨.

(٦٦٥) سورة الأعراف: ٢٠٤.

وفيه يُتلى قول الله عز وجل منتصرا للقرآن ومنتقما ممن عاداه وصد عنه ﴿ فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ جزاء موقفهم من القرآن ولغوهم عند سماعه. ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي بِشَرِّ أعمالهم وسيئ أفعالهم.

﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ﴾ جزاء إيماننا بآياتنا بجمود ﴿ تلك هي النتيجة لمن كره الحق أو عاداه .

سرعان ما يلقون جزاءهم ، وسرعان ما نرى كيدهم يحيق بهم .
ونراهم - بعد المودة على الباطل - يلعن بعضهم بعضا ويبرأ بعضهم من بعض .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ (٦٦٦). ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ (٦٦٧).

وقد يظن أولئك الجاحدون أن العذاب بعيدٌ عنهم وأنهم في مأمن منه بما يستدرجون به من عطاء . ويغيب عنهم أن الأمر في يد الله وليس في أيديهم ، وأن الآجال إذا انقضت تضاعل الذي يروونه بعيدا ، فتصبح السنين الطوال وكأنها دقائق وثوان .

إن من يكرهون الحق أو يضيقون به سيؤخذون بناره بعد أن عموا عن نوره .
وهم في جهنم خالدون يطلبون أن يُقضى عليهم فيجابون : إنكم ماكثون ﴿ وَنَادَاؤُا يَمْلِكُ لِيَقْضِيَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِثُونَ ﴾ (٧٧) ﴿ لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴾ (٧٨) ﴿ ذاك ما كان سببا في عذابهم وخلودهم في نار

(٦٦٦) سورة فصلت : ٢٩ .

(٦٦٧) سورة الزخرف : ٦٧ .

جهنم ﴿لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون﴾ ومن هنا نعلم أن العاقبة للحق لا لشيء سواه، وأن من تدبر العاقبة أيقن بذلك. ومن غابت عنه هذه الحقيقة وقع فيما يقع فيه أهل الكفر والضلال من استخفاف ونزق وإفساد وظلم، وأثر العاجلة على الباقية.

والقرآن الكريم حين يخبرنا بما فعل أهل الكفر والجحود عند سماع القرآن إنما يبصرنا بهم ويحذرنا من أن نكون مثلهم. وحين يذكر لنا الجزاء الذي يقع بهم يدعوننا أن نكون مستمسكين بما يُنجينا من سوء العاقبة والمصير، وأن نحفظ الله في جميع أمورنا، وأن لا نُستخفَّ من أولئك الذين لا يوقنون.

فإننا نمُرُّ بدارٍ نُمَتَّحَن فيها ولا نقيم. ونفتن بما نفتن به لتمييز الصادقون من الكاذبين. والقرآن الكريم ميزان عدل به يُعرفُ المفلحون من الخاسرين.

ومن استهان بذلك اليوم عرف تأويله في غده.

وعندئذ نرى الذين أعرضوا عنه يتمنون أن يردُّوا إلى الدنيا ليستمسكوا به.

ويخبر القرآن عن هؤلاء ليعتبر الناس ويستبصروا ويقبلوا على هدى الله ولا يُعرضوا. ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عَلَيْهِمْ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ ذُنُوبُهُمْ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْقَرُونَ ﴿٦٦٨﴾﴾.

إن القرآن الكريم يخبر عن هؤلاء ليُبَصِّر ويحذر ويهدي للتي هي أقوم:

ولن يفلت أحدٌ من لقاء. والكل مخلوق لله، والكل عائد إليه.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ

(٦٦٨) سورة الأعراف: ٥٢ - ٥٣.

فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦٦٩﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٧٠﴾

١٢٠

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة فصلت ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٦٦٩﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٦٧٠﴾﴾ إن الذين كفروا بالذكر - وهو القرآن الكريم - هؤلاء معذبون أو مهلكون .

وأمر هؤلاء لا يخفى على الله ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا﴾ .

وكفرهم على أنفسهم ، والقرآن عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ولا يناله الكيد منهم أو من غيرهم . ولا يسلم من العذاب من أصر على عداوته والصد عنه . ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ لا ترام ساحته ، ولا يأتي أحد بمثله ، ولا يتطرق إليه الباطل من جهة من الجهات . وكل ما فيه حق وصدق .

﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ حكيم في أقواله وأفعاله حميد أي محمود في جميع ما يأمر به أو ينهى عنه الجميع محمود عواقبه وغاياته ، وهو سبحانه محمود على نعمه وفضله ورحمته .

ومن أعظم ما أنعم به - ولا تحصى نعمه - إنزاله هذا الذكر وحفظه ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٦٧٠﴾﴾ . فليفرحوا بما أنزله الله من القرآن العظيم على رسوله ﷺ ، فليفرحوا بما جاءهم من الهدى ودين الحق ، فإنه أولى بما يفرحون به . هو خير مما يجمعون من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة .

(٦٦٩) سورة الأنعام : ٦٠ - ٦٢ .

(٦٧٠) سورة فصلت : ٤١ - ٤٢ .

ومن إعزازِ الله لهذا الكتاب حفظه وبقاؤه للأجيال كلها دون مغالبة حرفٍ منه من كثرة الكائدين له العاملين على تدمير أهله .
وهذا من فضل الله ورحمته بخلقه .

وإن هذا الكتاب لكتاب عزيز بإعزاز الله إيَّاه وحفظه من كل من أراد له تبديلا أو تحريفا أو تغييرا من إنس وجن وشيطان مارد . ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ فلا يستطيع ذو باطل أن يكيد له أو يبدل شيئا منه . ولا أن يلحق به ما ليس منه . فالحق باق محفوظ بحفظ الله لتبقى التبصرة والذكرى للأجيال كلها دون تقوُّل عليه أو تدخُّل للأهواء فيه . ومن حفظه الله لا يضيِّعه الناس ، والله غالبٌ على أمره .

ومن عرف ذلك لم يتبع العزة في غير ما أعزَّه الله به ، ولم يسلك غير السبيل الموصل إلى طاعته ورضاه وهو سبيل المؤمنين .

وسبيل المؤمنين : إيمانٌ بهذا الكتاب واتباع لما جاء به ودعًا إليه ، ودعوة إلى الله على بصيرة اقتداء برسول الله ﷺ ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٦٧١) والاتباع يقتضي مع صدق الإخلاص لله ، الأخذ بالأسباب كما أمر الله ، وقد جعل الله لكل شيء سببا .

ومن الأخذ بالأسباب - في تفوق الأمة وعزتها - وحدثها على الحق وعدم تفرقها . ومن الأخذ بالأسباب التعاون فيما بينها على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان . ومن الأخذ بالأسباب فقه التدين ومعرفة العصر . فإن فقه التدين سبيل لإحسان العمل وإتقانه . ومعرفة العصر سبيل لاختيار الوسائل الملائمة

(٦٧١) سورة يوسف : ١٠٨ .

لتحقيق الغايات والمقاصد . ومن جهل عصره تخلف وضيع . ومن جهل دينه ضلّ وأفسد . وكل جيل مطالب أن يستمسك بما جاء من الحق في عصره ، وأن ينصر الله في جميع أمره فإذا جهل عصره قصّرت وسائله عن تحقيق النصر في زمنه ، وعاش - بدينه - عالية على غيره ، وأضحى مغلوباً يستخفه الغالب ، ويخضعه لاتباع ملته ومذهبه والأمة الحية الناهضة تأبى أن تسكت على ضيم ، أو تقعد عن تحقيق عزة ونصر . والمؤمنون بالذكر يستبصرون به ويستجيون لندائه ويهتدون في جميع شئونهم بهديه . وسوف يسألون - إن هم ضعفوا واستكانوا - عن سبب ضعفهم أو استكانتهم ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ .

الذكر الذي أنزله الله وحفظه كما أنزل يتلى علينا ونحن مسئولون عما عملنا بمقتضاه ، تسألنا كل آية منه أمرة أو زاجرة عن فريضتها : ولن يكون ضعف الأمة أو استكانتها إلا من ضياع ما أمرنا به أو من ارتكاب ما زجنا عنه .

مقياس يجب أن يُعلم ويحفظ . وبه نزن ونعلم أسباب قوتنا وضعفنا ، أسباب عزتنا ومهانتنا ولا مجاملة في سنن الله لنا أو لغيرنا .

وما قاله أبو الدرداء - رضي الله عنه - ليس مقياساً ذاتياً لشخصه فحسب . بل هو فقه الصحابة جميعاً تعلّموه من كتاب ربّهم وسنة نبيهم وأخذوا أنفسهم به ، فعرفوا أن ما يصيبهم من مصيبة هو من عند أنفسهم لا من كيد عدوّهم . واتهموا أنفسهم بالتقصير فيما أمروا به واجتناب ما نهوا عنه . فماذا قال أبو الدرداء رضي الله عنه ؟

قال : « إنما أخاف أن يقال لي يوم القيامة أعلمت أم جهلت ؟ فأقول : علمت . فلا تبقى آية من كتاب الله أمرة أو زاجرة إلا جاءني تسألني فريضتها . فتسألني الأمرة : هل ائتمرت ؟ والزاجرة : هل ازدجرت ؟ فأعوذ بالله من علم لا ينفع ، ومن دعاء لا يسمع » .

لقد عرفوا سبيل عَزَّهم فاستمسكوا به . وعلموا أن ما يأمرهم به هذا الكتاب فيه رفعة لهم وفوز ونجاة ، وأن ما ينهاهم عنه فيه تدميرٌ لهم وخذلان وخسران . عرفوا ذلك عن تجربة ويقين فعرفوا لكل آية فيه قدرها ولم يكونوا كأولئك الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض تبعا لما تمليه أهواؤهم لا بما يفرضه الحق عليهم .

فلم يُقْتَنُوا عن شيء منه ، بل حكموه في كل شأن صغر أو كبر في حياتهم ، مستجيبين لنداء ربهم ، مقتدين راشدين بنبيهم ﷺ - وقد خاطبه ربُّه ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّهُ يَرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنْ كَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ (٦٧٢) .

لقد عرفوا قدر هذا الكتاب فاعتصموا به وتخلقوا كما تخلق نبيهم ﷺ بخلقه . وقد كان خلقه القرآن ﷺ يرضى برضاه ويسخط بسخطه . فكانوا - بحسن اتباعهم - أَعْزَاء كرماء ينتسبون بعزهم إلى ما أعزَّهم الله به .

ومن تدبر حقيقة هذا الكتاب وغايته استطاع أن يعرف كل نَبَتٍ ينتسب إليه وكلَّ عمل يرضاه أو ينهى عنه فيما يبيده الإنسان أو يخفيه .

فإذا تخلف المنتسبون إليه في أي عصر فقد تخلفوا عن إدراك مقاصده واتباع هدايته .

وإذا طَوَّعُوا لمآرب الباطل وشهواته . واستطاع الباطل أن يأخذهم بعيدا عن الاعتصام به والاهتداء بنوره . فاعلم أنهم قد جهلوا دلالة قوله :

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْبَاطِلَ لِكُنْتُمْ بِهِ عَزِيزًا لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ .

دلالتُه في أنفسهم فزلُّوا حيث يجب أن يعزُّوا . وتخلَّفوا حيث يجب أن يتقدموا ، وتفرَّقوا حيث يجب أن يتوحدوا ، وتنازعوا حيث يجب أن يعتصموا به

(٦٧٢) سورة المائدة : ٤٩ .

جميعاً ولا يتفرقوا، وعاشوا عالَةً على غيرهم حيث يجب أن يكونوا سادة الدنيا وقادتها، والواقفين على ذروة العز فيها، لا استعلاءً على الناس، بل هداية لهم وعملاً صادقاً مخلصاً على أمنهم وسلامهم، بإعلاء كلمة الله في جميع شئونهم. وفي إعلاء كلمة الله مصلحة للخلق جميعاً. ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة فصلت ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْوهُ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (٦٧٣).

يقول الله تعالى ﴿ولو جعلناه﴾ هذا القرآن الذي أنزلناه عليك يا محمد أعجمياً لقال قومك من قريش: ﴿لولا فصلت آياته﴾ يعني هلاً بيئت أدلته وما فيه من آية، فنَفَقَهُ ونعلم ما هو وما فيه. ﴿أعجمي وعربي﴾ كانوا يقولون إنكاراً له: ﴿أعجمي﴾ هذا القرآن ولسان الذي أنزل عليه عربي؟! نعم كانوا يقولون لو كان القرآن أعجمياً: القرآن أعجمي ومحمد عربي. ونحن قوم عرب ما لنا وللعجمة؟

يقولون ذلك اعتذاراً لموقف الجحود والنكران. ولكن قطع حجتهم وحجة غيرهم بما فصل وبين وهدى وأرشد. وجعل أدلة الحق فطرية المأخذ قريية المنال، يراها الإنسان في نفسه وفي الآفاق من حوله. فلا عذر ولا اعتذار، ولا حجة لأحد بعد إرسال الرسل وإنزال الآيات التي يخاطب بها الناس في غير لبس ولا إبهام.

وللقرآن فصاحته وبلاغته وله حجته وسلطانه وإحكامه في لفظه ومعناه. فمن كفر به كان كفره كفر عنادٍ وتعنت واستكبار.

وكفار قريش - وهم يخاطبون بلسان عربي مبين - يقولون ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ إِنَّا أَخْلَوْنَاهُ ﴾ ولو جعله الله قرآنا أعجميا لاعترضوا وقالوا لولا جاء عربيا فصيحاً مفصلاً دقيقاً .

فهو المراد، والجدل والكفر والعناد على أي حال .

فليست العلة في القرآن، وإنما العلة في نفوسهم كما قال عز وجل ﴿ صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ بِلِذِّينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِ وَشِقَاقِهِ ﴿ ٦٧٤ ﴾ .

فالصارف لهم عن الذكر في نفوسهم وليس لعلّة فيما يُتلى عليهم .

وكم صَرَفَ الكِبْرُ ناساً عن الخضوع للحق والاستجابة له .

وكم قادتهم الأهواء لسبل الضلال والهلاك .

﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغْيِهِ هَدَىٰ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿ ٦٧٥ ﴾ .

والحق هو الحق بأي لسان كان . والحقيقة التي لا مرأى فيها أن هذا الكتاب هدى للمؤمنين وشفاء لما في الصدور .

يعرف ذلك كل من رغب في الحق وأمن به .

أما الذين لا يؤمنون فقلوبهم مطموسة لا تخالطها بشاشته ولا تلين لذكر الله . والقرآن على هؤلاء وقْرٌ في آذانهم، وعمى في قلوبهم ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْهُو عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ .

﴿ قل هو ﴾ أي القرآن للذين آمنوا بالله ورسله وصدقوا بما جاءهم به من عند ربهم ﴿ هُدًى ﴾ أي بيان للحق ﴿ وشفاء ﴾ من الجهل .

(٦٧٤) سورة ص : ١ ، ٢ .

(٦٧٥) سورة القصص : ٥٠ .

والذين لا يؤمنون بالله ورسوله وما جاءهم به من عند الله في آذانهم ثقل عن استماع هذا القرآن وصمم لا يستمعونه ولكنهم يعرضون عنه ، وهو عليهم عمى .

هذا القرآن على قلوب هؤلاء المكذبين به عمى عنه . فلا يبصرون حُجَجَه ومواعظه عموا وصموا عن القرآن فلا يتتبعون به ، ولا يرغبون فيه ﴿أولئك ينادون من مكان بعيد﴾ لعمى قلوبهم عن فهم ما أنزل في القرآن .

والعرب تقول للرجل القليل الفهم «إنك لتنادى من بعيد» وللفهم : إنك لتأخذ الأمور من قريب .

فالقرآن بعيد من قلوب هؤلاء المنكرين الجاحدين وهم قد ضيعوا أن يقبلوا الأمر من قريب . يتوبون ويؤمنون فيقبل منهم . لقد أبوا ذلك وأصروا واستكبروا استكبارا ، فلم يعد القرآن قريبا من نفوسهم . ويتمنون يوم القيامة أن يحصلوا ما فاتهم . وهم يعلنون إيمانهم حين يرون العذاب وأننى لهم ذلك وقد حيل بينه وبينهم .

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۚ يَوْمَ قَالُوا أَمَنَّا بِهِ ۚ وَإِنَّهُمْ التَّنَاوُسُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۚ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۚ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾ (٦٧٦) ذاك موقف القوم وتلك عاقبتهم .

وفيما يتلوه القرآن عبرة لمن يعتبر وعظة لمن يتعظ .

فلا تطلب الأشياء في غير وقتها . ولا ينفع الإيمان نفوسا لم تكن آمنت به من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا . لا ينفعها في آخرها وقد ضيعته في دنياها .

(٦٧٦) سورة سبأ : ٥١ - ٥٤ .

وأيام العمر لا بد أن تُغتَنَم فيما جعلت له وهي محدودة مغيبة . فعلى العاقل أن يغتنمها قبل أن تقضى وأن يجعلها له لا عليه فكل يوم شاهد على ما وقع . ولا يدري أحد متى يُدعى فيجيب ، فليسارع في عمل الخير وليبادر ومعه الهدى والنور . وليحذر أن يكون كهؤلاء الذين لا يفقهون إلا عندما يهلكون . ولا بد أن يسأل كل إنسان عن عمره : فيم أفناه؟ كما يسأل عن ماله : من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟

وليعلم كل إنسان أنه مخاطب بالقرآن فليقرأه قراءة من يعلم أنه مسئول عما جاء فيه وليحاسب نفسه وليزن جميع أمره بميزان ربه وليتدبر قول ربه ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ . فليكن مقسطا مع نفسه غير ظالم لها بالغفلة والإعراض عن الحق قبل أن يكون مقسطا مع الناس كما أمر الله ؛ فإن مُعَلِّم نفسه ومؤدبها أحق بالاحترام من مُعَلِّم الناس ومؤدبهم ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ .

١٢٢

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة فصلت : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۖ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۚ﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿إِنَّمَا فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۖ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ ﴿٦٧٧﴾ .

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾ أي سنظهر لهم دلائلنا وحجتنا على كون القرآن حقا منزلا من عند الله على رسول الله ﷺ بدلائل في الآفاق وفي أنفسهم . وهذه الدلائل قائمة في حياة الناس لا تنفك عنهم ، تقدم عبرتها في ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم .

(٦٧٧) سورة فصلت : ٥٣ - ٥٤ .

وهذه الآيات كما خوطب بها من قبل عند نزول القرآن يخاطب بها مَنْ جاء مِنْ بَعْدُ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . فالكل مُعَانٌ على معرفة الحق بهذه الآيات في الأنفس وفي الآفاق . فإن فيها دلائل على الحق الذي نزل القرآن به وبه أنزل .

إن آيات الله في الأنفس تتسق مع آيات الله في الكون في الدلالة على الحق والدعوة إليه وتعمل عملها في تربية الإنسان وهدايته . وهو يتدبر آيات الوحي في خاصة نفسه وفي الكون من حوله . فيرى الحق الذي نزل به القرآن . يراه في كل شيء بلا انفصام بين ما يتلوه من القرآن ويراه بين ما يتمتع به وبه يستبصر . والقرآن الكريم - وهو يتحدث عن آيات الله في الأنفس وفي الآفاق ويتلوها في آيات تُقرأ وتحفظ - يجعلك لا تنفصل بقراءتك عن نفسك أو عن الآفاق من حولك . بل يريك إياها ليبصرك بحكمتها وغايتها .

والقرآن يخاطب بها الإنسان خطاباً يحیی فطرته ويحدد منهجه وغايته . ويا لها من روعة أن يعلم الإنسان أن آية الحق قائمة في نفسه عليه أن يبصرها . وألا تصرفه الغفلة عن حسن إدراكها أو تأخذه الأهواء بعيداً عن صادق دلائلها . إن آيات الله في الآفاق وفي الأنفس تدعوه أن يلوذ إلى القرآن الكريم وتدعوه في تأثير بالغ أن يوقن أنه الحق الذي يرى صدقه في ذات نفسه وفي الآفاق من حوله فيسبح بحمد ربّه تسبيح موقن خاشع مصدّق ، يُسَبِّح باختيار كما هو مسبح بفطرته . إن آيات الله في الأنفس وفي الآفاق تتسق مع آياته المنزلة في الدلالة على الحق والدعوة إليه . وتتضامن جميعاً في الدعوة إلى إله واحد لا شريك له ، وتقرأ وتتلّى في القرآن فتحقق الانسجام الكامل في تربية الإنسان بلا تناقض أو تضارب أو اختلاف .

إن هذا الاتساق يؤدي إلى غاية واحدة عبادة الله وحده وعدم الإشراك به . وهي غاية جامعة للفضائل محققة للمنافع ، دافعة مانعة ، دافعة إلى الخير حائلة عليه ، مانعة من الشر محدّرة منه . ومن أجل هذه الغاية تقدم التبصرة

والذكرى فيما يراه الإنسان من آيات الله في الآفاق وفي الأنفس وفيما يُتلى عليه من آيات الذكر الحكيم حتى لا يضل الإنسان عن هذه الغاية أو يصرف عنها . وتظل هذه الآيات تعمل عملها في تفاعل مع الإنسان في يسر فلا يُعزل عنها في مأكله ومشربه وفي صحوه ونومه وفي سمعه وبصره ، فيما تراه العين وتدركه البصيرة .

ومن أجل ذلك خلق الكون وكانت آياته للتبصرة والذكرى مقترنة بالمنفعة والمتاع .

فالماء الذي نشربه فيه متاع وفيه تبصرة وذكرى .
والأرض التي نُقِلُّنا فيها معاش لنا وفيها تبصرة وذكرى .
والسماء التي تظلنا فيها عطاء لنا وفيها تبصرة وذكرى .
فمن أخذ منها المتاع وأهمل ما فيها من تبصرة وذكرى فقد غفل عن حقيقتها ورضي أن يكون كالأنعام بل أضل . فإن الأنعام تشارك الإنسان في المتاع ﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ ولكن الإنسان ينفرد عنها حين يتميز بالتبصرة والذكرى .

وليس كل إنسان يتميز بذلك . بل يتميز بها إنسان العبودية لله والإنابة إليه . وهو الذي أخذ منها دلالتها على الحق قبل أن يأخذ منها ما تأخذه الأنعام من متاع ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (٦) ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (٧) ﴿تَبَصَّرَ وَذَكَرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ (٨) ﴿(٦٧٨)﴾ .

وانظر إلى حديث القرآن كيف يرينا الماء وهو ينزل من السماء فيرينا آيته فيما ينبت به من جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقاتٍ لها طلع نضيد ، ويرينا دلالة فيما ندعى إليه من إيمان واعتقاد بقدرة الله على إحياء الموتى ووقوع البعث والنشور فلم يكن الماء في حديث القرآن مجرداً عن حكمته

(٦٧٨) سورة ق : ٦ - ٨ .

وغايته، بل كان كما أمر الله سببا للحياة وداعيا إلى الإيمان بمن وهب الحياة ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ* وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ* رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَاهُ بِلَدَّةٍ مِّنَّا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ (٦٧٩).

آيات دالة على الحق داعية إليه ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٦٨٠).

وكم لله من آيات في الأنفس وفي الآفاق تمدك بمنفعتها وتقدم لك تبصرتها وتذكرتها. فلا تكن ممن يأخذ منها المتاع ويهمل ما فيها من تبصرة وذكرى. لا تكن من الذين يرون ظاهرها ويهملون حقيقتها ودعوتها. فإن كثيرا من الناس لا يعلمون ﴿يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾.

واجعل منها متاعا لدنياك وزادا لأخراك بما تُبصرك به وتدعوك إليه. لا تأخذ منها ما يذهب ويفنى، وتدع ما يدوم ويبقى. فإنها دلالتك إلى الحق فاستمسك به، ولا تجعلها عونك على الباطل. فإن الباطل زاهق ذاهب والحق دائم باق ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ (٦٨١).
﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَاةِ نَافِئَةً لِّكَ أَنْ تَأْسَىٰ وَلَئِنْ رَأَيْتَ النَّاسَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَحًا لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَأَسْفَىٰ لَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ (٦٨٢).

١٢٣

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الشورى : ﴿حَمْدٌ ۝١ عَسَىٰ ۝٢ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (٦٨٣).

(٦٧٩) سورة ق: ٩ - ١١.

(٦٨٠) سورة فصلت: ٣٩.

(٦٨١) سورة آل عمران: ١٨٥.

(٦٨٢) سورة العنكبوت: ٦٤.

(٦٨٣) سورة الشورى: ١ - ٤.

﴿ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ أي كما أنزل الله إليك هذا القرآن كذلك أنزل الكتب والصحف على الأنبياء من قبلك . أو كما أوحى إليك هذه السورة يُوحى إليك غيرها من القرآن ويُوحى إلى الذين من قبلك الكتب القديمة .

ووجه الشبه أن الموحى به في الكل يرجع إلى أمور ثلاثة : التوحيد والنبوة والبعث ، فهذا القدر موجود في القرآن وفي غيره من الكتب . وهذا أصل الدين الذي وصّى الله به الأنبياء جميعا وأمرهم أن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه .

ومن هنا يُعلم معنى هيمنة القرآن على ما قبله من الكتاب . إنه أمين وشاهد وحافظ ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ . فما يقرره من أمر العقيدة هو ما جاءت به الكتب المنزلة من قبل . وكل قول غير ذلك ادعاء باطل وافتراء . ومن افترى على الله الكذب ضلّ وساءت عاقبته . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ ﴿ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٦٨٤) .

لقد أرسل الله الرسل وأنزل معهم الكتاب والميزان وختم الرسالات بإنزال القرآن الذي حفظه وجعله مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمننا عليه لتبقى الحقيقة بينه أمام الأجيال كلّها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . فليس بعد الرسول الخاتم ﷺ رسول ولا بعد الكتاب المنزل عليه كتاب . فالحق الذي جاء به الأنبياء جميعا قد حفظ بحفظ هذا الكتاب ، وبه بطل كل افتراء على الأنبياء أو ادعاء وهو يُتلى على الخلق جميعا بلا توقف ، ويُعلن - في عزة وإياء - ما بعث به الأنبياء جميعا ويتلى على الناس صباح مساء . ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (٦٨٥) ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (٦٨٦) .

(٦٨٤) سورة النحل : ١١٦ - ١١٧ .

(٦٨٥) سورة الأنبياء : ٢٥ .

(٦٨٦) سورة النحل : ٣٦ .

ويخاطب الذين مالوا عن هذه الحقيقة ، وقالوا بغير ما أنزل الله . يخاطبهم أن لا يغفلوا في الدين أو يقولوا على الله إلا الحق ، ويدعوهم إلى كلمة سواء . يخاطبهم بنور وبرهان ويدعوهم أن يعودوا إلى الحق قبل فوات الأوان . وهذا نداؤه إلى الناس بعامه وإلى أهل الكتاب بخاصة .

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٧٠﴾ يَأَيُّهَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ أَنْتَهُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ١٧١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ١٧٣﴾ (٦٨٧) .

ومن هنا يعلم أن القرآن الكريم - وهو يدعو إلى كلمة سواء - ليس أعزل عن قوة تحقق وعده ووعيده ، وإن بدا في عصر ما أن أهله مستضعفون .

القرآن الكريم ليس أعزل من قوة تحقق وعده ووعيده ، إنه تنزيل من الله العزيز الحكيم ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ . وهذه الصفات لمن أنزل الكتاب كافية في تبليغ الناس أن القرآن ليس أعزل من قوة تحقق الوعد والوعيد .

(٦٨٧) سورة النساء : ١٧٠ - ١٧٥ .

والقرآن الكريم وهو يذكر الوعد والوعيد لمن آمن ومن كفر يذكر دائما بما يصير الخلق إليه ويتتهون عنده . يذكرهم بأن من أنزل القرآن سيجمع الناس جميعا ليوم لا ريب فيه ليعلموا أن حديث القرآن إليهم يجب أن يُصغى إليه وأن يستجاب له ، وألا يستهان بتحذيره وإنذاره . وما يخبر به من حساب وجزاء . فإن الخلق جميعا - وقد تبين لهم الهدى - سيسألون عنه ويجازون على موقفهم منه . أليس هو إنذارا وبلاغاً من الله رب العالمين للناس أجمعين ؟

فالله الذي أنزله هو الذي خلقهم وإليه مرجعهم ومصيرهم . فلن يفلت أحدٌ من الرجوع إليه والحساب بين يديه . فمن ذا الذي يجادل فيما يدعو إليه ويخبر به وكل شيء شاهد على صدقه ؟ وكفى بالله شهيدا ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (١) . وكذلك أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَأَرْيَبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ (٦٨٨).

فلنعلم دلالة هذه الصفات . صفات من أنزل القرآن وأوحى به إلى نبيه . فإنها تدعونا جميعا أن نستمسك بالقرآن وأن نعتصم به ، وأن نتدبر أمره وزجره . ﴿كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم﴾ * له ما في السموات وما في الأرض وهو العلي العظيم ﴿نسأل الله أن يجعله حجة لنا لا علينا وأن يرزقنا شفاعته يوم نلقاه .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الشورى ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ۖ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ۚ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ۚ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۚ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (٦٨٩).

الله الذي أنزل القرآن أو جنس الكتاب مشتملا على الحق مقترنا به، وأنزل الميزان في كتبه المنزلة. أي العدل وسماه ميزاناً لأن به يتم الإنصاف والتسوية بين الناس في جميع شئونهم، كما قال الله عز وجل ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (٦٩٠).

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ۖ﴾ ووجه مناسبة اقتراب الساعة مع إنزال الكتاب والميزان بين واضح. فمع الساعة يأتي الحساب وتوضع الموازين بالقسط كما قال الله عز وجل ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (٦٩١).

فالله عز وجل قد أمر بالعدل والتسوية والعمل بالشرائع واتباع ما أنزل من الكتاب من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله.

فالحديث عن الساعة مقترنا بالحديث عما أنزل من الكتاب يعطي من الدلالة أن من أنزل الكتاب بالحق سيحاسب عليه، وأن للجزاء يوماً يرى الناس فيه أعمالهم.

(٦٨٩) سورة الشورى : ١٧ - ٢٠ .

(٦٩٠) سورة الحديد : ٢٥ .

(٦٩١) سورة الأنبياء : ٤٧ .

فالحق الذي أنزله الله إليهم ليتحاكموا به وليقوم الناس بالقسط ، هو الحق الذي سيحاسبون عليه ويؤخذون به . فمن اتبعه وأخلص له فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عنه ضيع دنياه وخسر في آخره . فالحق الذي أنزل ليس ضياعاً وليس مخالفوه بمتروكين .

إنه الحق ومن كره الحق أخذ به ، ومن عاداه وصد عنه لقي جزاءه مع المجرمين الظالمين . وذاك وعيد القرآن لمن عاداه وصد عنه وكره ما جاء به ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ (٧٦) لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا بِمَلَائِكِهِمْ لَقِضْ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَنْزَلْنَاهُمْ قُرْآنًا مَبْرُورًا ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٦٩٢﴾ .

إن الحق ليس ضياعاً ، وليس الكارهون له بمعجزين .

وحديث القرآن عن الساعة مقترنا بالحديث عن إنزال الكتاب بالحق والميزان ، ليس بعيداً عن فطرة الناس وعمما يرونه في الآفاق وفي أنفسهم من آيات .

إن كل شيء يبرهن عليه ويدعو إلى اليقين به والإعداد له .

وسبيل الإعداد ليوم الحساب هو العمل بما أنزل من الكتاب بالحق والميزان .

ومن جحد يوم الحساب فَرَطَ في العمل بما أنزل الله وضيّع ما خلق له فخر دنياه وأخراه. ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَارَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٦٩٣).

إن الحديث عن قرب الساعة في مقام الحديث عن إنزال الكتاب بالحق والميزان له دلالة سواء في الربط بينهما أو فيما يترتب. فإن الرباط بينهما في الإيمان وثيق. فلا إيمان بالكتاب لمن لا يؤمن بالآخرة. ولا إيمان بالآخرة لمن أعرض عن العمل بما نزل من الحق وأصرّ واستكبر «والإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر».

إن الإيمان باليوم الآخر أصل أصيل في استقامة سعي الإنسان وتقديم خيره وكف شره ولا شيء يغني عنه في تحقيق الرقابة والخشية من الله في السر والعلن.

ووسائل البشر مهما عَظُمَتْ لا تستطيع أن تتد الجريمة المبيتة في نفس صاحبها قبل أن تولد، إنها قبل أن تقع نيّة وعزم في نفس صاحبها، ولا مقدرة للبشر على معرفة النيات وما تطويه الصدور. لكن الخشية من الله وحده هي التي تصرف خواطر السوء قبل أن تُصبح عملاً واقعاً في حياة الناس ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ تُشْفِقُونَ﴾ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً اتَّوُوا قُلُوبَهُمْ وَجَلَّ أَنْهَمُ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَاقُونَ ﴿٦١﴾ ﴿٦٩٤﴾ فكان أخي في عملك من أولئك الذين يشفقون من الساعة ويعلمون أنها الحق.

فإن ذلك يعينك على التمسك بالحق والعمل. يعينك على أن تكون مع القرآن حيث كان ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ

(٦٩٣) سورة الأنعام: ١٢.

(٦٩٤) سورة المؤمنون: ٥٧ - ٦١.

سَعِيَهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٧﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٨﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُعَارَفُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٩﴾ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٢٠﴾ مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢١﴾

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الشورى ﴿٢١﴾ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْسُحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحَقِّقُ الْحَقَّ يَكَلِّمُتِهِ بِأَنَّهُ عَلَيْهِ يُدَاتِ الصُّدُورُ ﴿٢٢﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا نَفَعَلُوا ﴿٢٣﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٤﴾ ﴿٢٥﴾ بدأت سورة الشورى بقوله سبحانه ﴿١﴾ عَسَىٰ ﴿٢﴾ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ وفي هذا البدء بيان لحقيقة القرآن وأن الله أوحى به إلى نبيه ﷺ وأن هذا القرآن ليس أعزل من قوة تحقق وعده ووعيده وهو من الله العزيز الحكيم . محفوظ بحفظه ، ومن حفظه الله لا يضيعه الناس . ومع هذا البيان النير ترى أهل الشرك والضلال - وهم يشهدون بصدق الرسول ﷺ وأمانته ولا يكذبونه - تراهم يخدعون أنفسهم فينسبون إليه ﷺ الافتراء . وأنه افتري على الله كذبا بدعوى النبوة ونزول القرآن عليه .

وهم يوقنون أن الافتراء لا ينسب إليه . ولذا ساق القرآن الكريم مقالته في أسلوب إنكار وتوبيخ لهم على مقالتهم ﴿٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ كبرت كلمة تخرج من أفواههم . وهل يسلم أحد ممن يفترى الكذب على الله من ختم على قلبه وعلى سمعه كما وقع لأهل الكفر والضلال منهم ؟

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ (٦٩٦) أما أهل الإيمان والتقى فإنهم لا يكذبون .

وهؤلاء الذين يقولون افتري على الله كذبا لا يختلف أحدٌ منهم مع الآخر في تقرير صدقه وأمانته ، ولكنه الكفر والجحود بآيات الله يدعوهم أن ينسبوا الكذب إلى من يوقنون بصدقه ويأتمنونه على ما لا يأتمنون عليه أنفسهم ، وما كان ليزر الكذب على الناس ويكذب على الله .

﴿ قَدْ عَلِمْنَا أَنَّهُ لِيَحْزُنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (٦٩٧) لقد لبث فيهم ﷺ عمراً من قبل إنزال القرآن عليه ، ولم يكونوا يلقبونه إلا بالصادق الأمين إذا أقبل عليهم أو غاب عنهم .

فما الذي جرى لهم وجعلهم يكذبون ويفترون هم على الله الكذب فيما ينسبونه إليه ويرمونه به ؟ والقرآن يُتلى عليه ﷺ وهو يبلغهم ما أنزل عليه ويتلوه عليهم في ثبات وثقة ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (٦٩٨) .

يستوي هذا وذاك من افتري على الله كذبا أو كذب بآياته . والرسول ﷺ بريء من هذا وذاك ، وهم بما يقولون ويفعلون موصومون بافتراء الكذب على الله والتكذيب بآياته فهم المجرمون الذي لا يفلحون . ﴿ وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لا رتاب المبطون ﴾ .

والقرآن الكريم يُتلى عليهم ويسمعون منه ما يقولونه في سرهم وعلنهم ليعلموا أن لا مجال لأحد أن يأتي به من عند نفسه أو يزيد عليه أو يتقص منه . ولا علم لأحد إلا الله بما يُسرُّون به في تدبير خفي أو يكيدون .

(٦٩٦) سورة النحل : ١٠٥ .

(٦٩٧) سورة الأنعام : ٣٣ .

(٦٩٨) سورة يونس : ١٦ - ١٧ .

وهم يقترحون ما يقترحونه جحودًا وعنادًا، والقرآن الكريم يذكر ما قالوه أو اقترحوه ويرد عليهم بما يدفع جحودهم ويكسر عنادهم، ويبين لهم أن الرسول ﷺ لا يتبع إلا ما يوحى إليه وهو يبلغ ما أنزل إليه من ربه. ولا يملك أن يأتي بشيء من عند نفسه ينسبه إلى ربه أو يغير أو يبدل، وهو يخشى ربه ويرجو رحمته ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَنْتَبِهَةٌ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدِلَهُمْ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٦٩٩).

كل ذلك يذكره القرآن ليعرف الجاحدون المبطلون أن لا مجال لباطل في ساحة القرآن ولا سبيل لأحد في القول عليه، أو نسبة شيء من عنده إليه. لا مجال للمبطلين ولا إعفاء لأحد من عقاب إن هو فعل ذلك أو أراد ﴿وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (٧٠٠) القرآن يذكر هذا الافتراض أمام الخلق جميعا ليُعلم أن لا سبيل لأحد أن يفترى على الله كذبا. ومن حاول ذلك مُنع منه بالختم على قلبه بحيث لم يخطر بباله شيء من معاني القرآن ولم ينطق بحرف من حروفه ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخَوِّقُ أَلْقَىٰ بِكَلِمَتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

وهذا الأمر يقرره بالنسبة لمن أنزل عليه ﷺ وهو معصوم بعصمة ربه ليُعلم أن لا مجال في القرآن لإبطال مبطل أو افتراء كاذب ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

وتقرير هذه الحقيقة والتحدي بها يفتح المجال لتدبر المتدبرين وتوبة الجاحدين المكذبين وهو يُنْسُهم من كل باطل يلجأون إليه، ويفتح أمامهم

(٦٩٩) سورة يونس: ١٥.

(٧٠٠) سورة الحاقة: ٤٤ - ٤٧.

باب الحق ليقبلوا عليه تائبين راغبين منصفين متدبرين . ويحذرهم بذلك أن يسلكوا أي سبيل غير سبيل المؤمنين . ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ وَتَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ؕ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٧٠١﴾ .

وليعلم أهل الإيمان واليقين أن حديث القرآن عن موقف الجاحدين حديثٌ إليهم يعينهم على الثبات وهم يؤمنون بما نزل من الحق ويعملون به . ويرون ما يصيب الجاحدين له والمتقولين عليه .

إن من نزل القرآن قد حفظه وردَّ سهام الجاحدين إلى نحورهم وحفظ الحق من تلبس الباطل وهذه الحقيقة داعية إلى الإقبال عليه وحسن تدبره والاعتصام به . داعية إلى اليقين . إن من حفظ الذكر سيحاسب الناس على موقفهم منه .

فمن اهتدى بهداه أفلح وفاز، ومن جحدته وأعرض عنه شقي وخسر .

والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين .

١٢٦

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة الشورى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ٥٢ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٧٠٢﴾ . وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا ﴿أي كما كنّا نوحى في سائر رسلنا كذلك أوحينا إليك يا محمد هذا القرآن روحًا من أمرنا، وحيا ورحمةً من أمرنا .

٧٠١) سورة الشورى : ٢٥ - ٢٦ .

٧٠٢) سورة الشورى : ٥٢ - ٥٣ .

فالوحي إليك قد تم بالطريقة المعهودة ولم يكن أمرك بدعا من الرسل ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾ (٧٠٣) ﴿وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا﴾ هو القرآن فيه حياة للقلوب أي حياة.

ينعم بها من أحسن الاستجابة فرضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً. ﴿يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾.

وهل تقوم حياة بلا روح؟ وهل تنعم بأمن وسلم بغير نور وكتاب؟
إن من رحمة الله بالخلق أن أوحى الله إلى نبيه ﷺ روحًا من أمره وحفظ ما أوحى به إليه رحمةً بخلقه ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾ أي ما كنت تعرف قبل الوحي إليك ما القرآن ولا الإيمان أي شرائعه ومعالمه. ولكن بالوحي عُرِفَ القرآن وعُرِفَتْ شرائع الإيمان، واستنارت حياة الناس بنور هذا الكتاب. وهكذا جعله الله نورًا يهدي به من يشاء هدايته إلى الصراط المستقيم ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٧٠٤) وكم هُدي بالقرآن ناسٌ، وضل آخرون. هُدي من استجاب له واتبع هدايته، وضل من أعرض عنه وكذب بآياته.

فانتفع بهدايته من اتقى ربه وجعل هواه تبعًا لما جاء به.

وخسر وظلم نفسه من اتبع هواه فأعرض عن ذكر ربه ولم يرد إلا الحياة الدنيا. إن القرآن هدى ونور. فمن أبى الهدى عاش في ضلال الهوى واستهواء الشياطين. ومن أبى النور تخبط في الظلمات والتمس النور بعد فوات الأوان فحيل بينه وبينه ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكَ يَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ

(٧٠٣) سورة الشورى: ٥١.

(٧٠٤) سورة المائدة: ١٥ - ١٦.

الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٠٥﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِمَ مِنْ تَوْرِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بُابٌ بِاطْنِهِ فَنَبَذُوا فِيهِ الرِّحْمَةَ وظَهِرُهُمْ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿٧٠٦﴾ يُنَادُوهُمْ أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٧٠٧﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَتْكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٠٨﴾

تلك لمن استجاب أو أعرض، لمن آمن أو نافق. عاقبة يرى فيها أن القرآن حينما خاطب الناس لم يكن خطابه إليهم خطاب أعزل من قوة تحقق وعده ووعيد.

فهاهم يعودون إلى الله ويرون بأعينهم حاجتهم إلى النور الذي خوطبوا به ودُعوا إليه يراه أهل الإيمان - وقد آمنوا من قبل وكسبوا في إيمانهم خيرا - يرونه نوراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم. والبشرى بالفوز والنجاة تساق إليهم ﴿بُشْرِكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. الفوز في الآخرة لا في غيرها ﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾ (٧٠٦).

ولا يرى أهل النفاق والضلال الذين أبوا النور عندما دُعوا إليه، لا يرون نوراً لأنفسهم عندما احتاجوا إليه ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِمَ مِنْ تَوْرِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾. إن النور هنا لمن اهتدى بنور الله هناك.

أما من أباه وأعرض عنه، فإنه يُحَرَّمُ منه وهو في أشد الحاجة إليه. وحرمانه منه هلاك وخسران. فإن الله - جل وعلا - يبعث ظلمة يوم القيامة فما من مؤمن

(٧٠٥) سورة الحديد: ١٢ - ١٥.

(٧٠٦) سورة آل عمران: ١٨٥.

ولا كافر يرى كَفَّهُ حتى يبعث الله بالنور إلى المؤمنين بقدر أعمالهم . فيقول المنافقون انظرونا نقتبس من نوركم .

«عن ابن عباس رضي الله عنهما : بينما الناس في ظلمة إذ بعث الله نوراً ، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه وكان النور دليلاً من الله إلى الجنة ، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا اتبعوهم فأظلم الله على المنافقين فقالوا حينئذ ﴿انظرونا نقتبس من نوركم﴾ فإذا كنا معكم في الدنيا . قال المؤمنون ﴿ارجعوا وراءكم﴾ من حيث جئتم من الظلمة فالتمسوا هنالك النور» هكذا تكون النتيجة في اللحظة الحرجة . يجد الناس ما اختاروه لأنفسهم .

فمن اتبع النور وجده . ومن أبى النور في دنياه حرم منه عند الصراط . فإن الله يعطي كل مؤمن نوراً ، وكل منافق نوراً . فإذا استووا على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات فقال المنافقون ﴿انظرونا نقتبس من نوركم﴾ وقال المؤمنون : ﴿ربنا أتمم لنا نورنا﴾ .

تلك هي العاقبة ومنها يُعلم ما للقرآن من شأن في حياة الناس وعاقبتهم . فمن أبى نوره وهدايته في دنياه حرم من النور في آخره .

والكل عائد إلى الله وواجد ما عمل . والنور الذي ينشده من ينشره هناك طلباً للنجاة يُطلب من هنا بالإيمان بالله ورسوله والنور الذي أنزله الله .

﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورَ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٨) **يَوْمَ يَجْمَعُكَ**
لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ الْتَغَابِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَعَمَلْ صَالِحٍ كَفَّرَ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ﴾ (٧٠٧)

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في ختام سورة الشورى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ٥٣﴾ (٧٠٨).

معك مرة أخرى في حديث القرآن عن القرآن في هاتين الآيتين من سورة الشورى .

فإن حديث القرآن جديرٌ أن يُتَدَبَّرَ، وأن تُعَرَفَ خصائصه وآثاره .

﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ فهو حياة للقلوب ، ولا حياة بلا روح . وإيثار هذه الكلمة في هذا المقام له دلالة في بيان ما يحققه القرآن من حياة .

﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً﴾ . أي جعلنا القرآن نوراً ، فهو روح ونور وهدى . ولكل كلمة من هذه الكلمات دلالتها في بيان حقيقة القرآن وغايته . والناس قد يرون أثر الروح في حياتهم ، ويعرفون ما يكون عليه الإنسان إذا فارقت الروح . إنهم يسرعون بمواراة الجسد ودفنه في التراب لأن الإنسان لم يعد يصلح لعمل شيء وقد بعدت عنه الروح . بل لا تماسك لأجزاء الجسد ولا بقاء بغير روح .

الناس يعرفون ذلك ولا يترددون في الحكم على الإنسان بأنه حيٌّ أو ميت . ولكنهم قد يغفلون عن أثر القرآن في حياتهم ، ويغيب عنهم ما يؤديه القرآن الكريم في دنياهم وآخرهم .

(٧٠٨) سورة الشورى : ٥٢ - ٥٣ .

إنه روح وهدي ونور. فمن أباه عاش في دنياه ميتا وإن بدا أمام نظر الناس أنه حي. والميت ليس ميت القبور. وإنما هو ذلك الذي تموت فيه المعاني التي فُضِّل وكرم من أجلها، معاني الإيمان والبر والتقوى، المعاني التي تجعله يعرف حكمة خلقه وغاية وجوده. فلا يعيش في دنياه مفتونا بها غافلا عن عاقبته ومصيره.

كما تؤخذ الأنعام بكلاً وماء وتغفل عما هي صائرة إليه ومتهية عنده.

ومن جحد الحق الذي نزل به القرآن وبه أنزل فقد رضي لنفسه أن يكون كالأنعام بل أضل. ولم تعد حواسه عاملة له بل شاهدة عليه، خاضعة وساخطة إذ أخضعها لهواه ولم يجعلها - كما ينبغي - شاكراً لله ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٠٩).

فمن صرفها عن هذه الغاية فقد أماتها وفقدتها وإن ظن أنه يملكها ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (٧١٠).

هذا الموت للإنسان بذهاب قيمته وفقدان مكانته. سببه ما اختاره لنفسه من مفارقة لنور القرآن وهدايته.

فقد فقد بذلك معنى الحياة وتخطى في ظلمات الهوى ومغريات الزينة والمتاع.

ولم يعد له من نور يمشي به في الناس ويبصر به ما هو ساع إليه ومته عنده. ولا يستوي من فقد الحياة - حياة القرآن - ومن نعيم بها.

(٧٠٩) سورة النحل : ٧٨ .

(٧١٠) سورة الأعراف : ١٧٩ .

لا يستويان في واقع الحياة كما لا يستويان في العاقبة والمصير .

هذا ينعم بصفات الخير من البر والصدق والأمانة والعدل ، ينعم بتقوى الله والرضا عن الله في كل حال . وذاك يشقى ويظلم وإن حيزت له الدنيا بحذافيرها ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ (٧١١) .

القرآن روح وهدى ونور . وتلك أمور لا غنى لحى عنها ، ولا مقصد يتحقق بدونها ولا سلم ولا أمن يُرجى بغير صدق الولاء لها .

روح : وبالروح تتحقق الحياة . وهدى ، ومن أعرض عن هدى الله فمن يهديه من بعد الله ؟

ونور : وهل يُرجى للحياة نور من غير نور الله ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نَوْءٍ﴾ ومن جحد ما جاء به القرآن وأعرض عنه ، فقد الروح والنور والهدى .

فلا حياة ولا ضياء ولا استقامة . بل موت ودمار وخراب ، وظلمات بعضها فوق بعض ، وفتن كقطع الليل المظلم . تموج بالأشلاء والدماء وصراخ المظلوم وسُعَارِ الظالم . ومن تدبر حال الإنسانية - وهي تُعرض عما جاءها من الحق وتركن لهواها - يراها كيف تتصارع لغير غاية ، وكيف تُساق بإعراضها عن الحق إلى أسوأ حال في دنياها وأسوأ مصير في عاقبتها وأخراها . وستمضي فيها سنن الله كما مضت في السابقين من قبلها ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرْيَةٍ عَنَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكَرًا﴾ (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولًا يَنْتَلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّخُرَاجِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾ (٧١٢) .

(٧١١) سورة الأنعام : ١٢٢ .

(٧١٢) سورة الطلاق : ٨ - ١١ .

ذاك حديث القرآن عن القرآن . فليتدبره من شاء أن يتدبر، ولينظر ما هو عليه، وما هو صائر إليه . وطوبى لمن اتبع سبيل من أناب إلى الله وعمل بما جاء من الحق . طوبى لمن آمن بالله وعمل صالحاً واتبع النور الذي أنزل . طوبى لمن عصم من طغيان نفسه وفتنة هواه ، وويل لمن اتبع هواه فضل عن سبيل الله .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله في سورة الزخرف ﴿حَمِّمُوا﴾^(٧١٣) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُولَى الْأَنْبَاءِ لَدِينًا عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٧١٣﴾ .
﴿حَمِّمُوا﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ بداية فيها إشارة بالقرآن وتعظيم لشأنه .

إذ يقسم الله به موصوفا بهذا الوصف الذي لا يدع عُذْرًا لمعرض عنه أو جاحد به . فهو بين واضح جلي في لفظه ومعناه . مبين طريق الهدى وكل ما يحتاج الناس إليه في دنياهم وآخرهم ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾^(٧١٤) ذاك بعض ما تضمنه القسم بالكتاب المبين .

وقد نزل بلغة العرب التي هي أفصح اللغات وأبينها للتخاطب بين الناس . ولهذا قال الله عز وجل ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ .
وهذه الآية جواب القسم . وفي التناسب بين القسم والمقسم عليه ما يلفت النظر إلى ما اشتمل عليه القرآن الكريم . فهو المقسم به والمقسم عليه دون حاجة أن يُدَلَّلَ عليه بشيء خارج عنه ، وهو قسم حسن بديع يحقق ما سيق له .

فالقرآن هو الدالُّ على نفسه ، المبين لمكانته وعلو شأنه . وقد جعله الله بلسان عربي مبين جعله بلغة العرب فصيحاً واضحاً ؛ ليفهموه وليتدبروا معانيه .

(٧١٣) سورة الزخرف : ١ - ٤ .

(٧١٤) سورة النحل : ٨٩ .

فلا عذر ولا حجة لمن نزل فيهم إن هم جحدوه أو أعرضوا عنه . ولا عذر كذلك لمن بَلَغَهُ وأنذَر به . فإن معناه وفحواه ليس بعيدًا عن فطرة الخلق أو دخيلا عليهم ، بل هو آيات بينات تُتلى وتشاهد في آيات الله في الآفاق وفي الأنفس .

فهو لا يخاطب الناس إلا بالصدق ولا يحدثهم إلا بالحق ولا يَنشُدُهم إلا قوامين بالقسط .

وفي خطاب القرآن وحديثه ما يدل على أنه حديث الخالق إلى المخلوق .

الذي أنعم بالخلق ورحم بالهداية . فسبحان من أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . والناس مخاطبون بالقرآن وفيه إعجازه . مخاطبون بما صح عن رسول الله ﷺ وفيه دلالة نبوته وسمات خلقه .

يقول الجاحظ في البيان والتبيين وهو يصف كلام رسول الله ﷺ «لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ، ولا أصدق لفظاً ، ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين عن فحواه من كلامه ﷺ» وقد صدق الجاحظ فيما قال . فإن كلام الرسول ﷺ هو مادة البلاغة العربية بعد القرآن الكريم .

وهذا السمو معنى ومبنى في القرآن أولاً ثم في حديث من نُزل عليه القرآن يلفت النظر إلى أن لغة العرب قد اكتسبت فضلاً بنزول القرآن ، وسطعت نوراً تطوف به من الآفاق دون توقف . نور مبين يبقى في الناس بقاء الشمس في العالمين . وهذا النور هو الذي طَوَّع النفوس ، فنطق اللسان الأعجمي في ديار لم تكن تعرف من قبل لغة العرب . ولكنها نطقت لتشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وهي تتلو كتاب الله تلاوة راغب محب ، وتحفظه حفظاً . وهي التي لم تكن من قبل تنطق من لغة العرب حرفاً ولا لفظاً .

ذلك لأنها وجدت فيه الاستقامة والعدل والهدى والتقى والتبصرة والذكرى، وعرفت به حكمة وجودها وغاية خلقها ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢٧) ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَنْقُورُونَ﴾ (٧١٥).

وهكذا امتدت العربية مع امتداد هذا النور، وأصبح الناطقون بها لا يحدون بحدود الأوطان والأزمان، ولا يوصفون بوصف الجنس والقوم، وإنما يوصفون بلغة القرآن فمن نطق بالعربية فهو عربي حيث كان في أي زمان أو مكان.

وهذا شرف يجب أن ينتبه العرب إليه، وألا يشردوا أنفسهم بمفاهيم بعيدة عما فضّلهم الله به من نزول القرآن بلغتهم وجعله نوراً وبرهاناً للناس أجمعين. ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ فَدَجَاءَ كُمْ بُرْهَنٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ (٧١٦).

إنه شرف لا يدانيه شرف وهم مسئولون عما شرفوا به. هل قدره حق قدره أو ابتغوا العز في غيره ﴿وَلِإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (٧١٧).

إن ما شرفوا به هو أرفع عند الله وأبقى وأعلى ﴿وَلِإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ﴾ ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٧١٨) إنه عالي الشأن، عظيم القدر والشرف والمكانة، ذو حكمة بالغة ﴿وَلِإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١١٢) ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (١١٣) ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ (١١٤) ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (٧١٩).

ألا وإن نزول القرآن الكريم بلسان عربي مبين قد صان اللغة العربية وحفظها. ورفع قدرها وشرفها. فامتدت بنوره في مشارق الأرض ومغاربها.

فلنحرص على لغة القرآن ولنكن وثيقي الصلة بنوره وهدايته؛ لنرى كل شيء على حقيقته، ونهدي في كل شأن للتي هي أقوم بنوره وهدايته.

(٧١٥) سورة الزمر: ٢٧ - ٢٨.

(٧١٦) سورة النساء: ١٧٤.

(٧١٧) سورة الزخرف: ٤٤.

(٧١٨) سورة الواقعة: ٧٧ - ٨٠.

(٧١٩) سورة الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الزخرف ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٣١) أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٧٢٠﴾.

عجيب أمر هؤلاء الكفار الذين يجحدون بآيات الله وهم يعلمون أنها الحق .

إذ لا تغيب عنهم دلالة القرآن ولا صفات من أنزل عليه ﷺ .

ومع هذا تراهم — وقد أمدّهم الله بالنعم — ينسون أنفسهم ويصفون الحق الذي جاءهم وهو القرآن والرسول — الذي يعرفونه ويعرفون صدقه وأمانته — بأن ساحر وما جاء به سحرٌ وأباطيل ليس بوحي من الله ، ويعلنون أنهم بما أرسل به جاحدون ؛ عنادًا واستكبارًا أو حسدًا وبغيا . وهم يقولون هلا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، يعنون مكة والطائف . هلا أنزل القرآن على أحد رجلين عظيمين وهما الوليد بن المغيرة في مكة ومسعود بن عروة الثقفي في الطائف . فكل منهما عظيم المال والجاه وسيّد في قومه . وهؤلاء القائلون قد جهلوا وعمّوا وغاب عنهم أنهم مخلوقون لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا . فكيف يعترضون على تخصيص النبوة والرسالة في بعض العباد وهم يرون أن الله يُقسّم الأرزاق ويفضّل بعضهم على بعض في الرزق ، ويعلمون أن أحدًا من العباد لا يخلق شيئا ولا يملك رزقا ؟!

فكيف بهم يقولون لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، اعتراضا منهم وإنكارًا وجحودًا ؟ ﴿ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا ﴾ .

(٧٢٠) سورة الزخرف : ٣١ - ٣٢ .

إن هؤلاء الذين غلب عليهم المتاع فرأوا العظمة في المال والضياع والشاة
والبعير قد خلطوا بين موازينهم الباطلة وبين ميزان الله .

وكم من فقير تقي شريف النفس هو خير عند الله من ملء الأرض من مثل
هؤلاء ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ .

ولقد اختار سبحانه من يعلم أنه أهل لرسالته وشهد له بما يتميز به من قيمة
تُعلي قدره . شهد له بسمو الخلق فقال جل شأنه ﴿وإنك لعلی خلق عظیم﴾ .
وقد عُرِفَ بذلك في بيئته قبل مبعثه .

اختار الله من هذا مِيزَتِهِ لِيُتِمَّ به مكارم الأخلاق .

ولكن النفوس إذا هبطت وأخلدت إلى الأرض أخذت بزينة الحياة وغفلت
عن قيمتها والقيمة فيما يبقى لا فيما يذهب ويفنى .

وكم من أمور لها عند الناس شأن وليس لها عند الله قدرٌ ولا وزن .

في الصحيحين من حديث أبي هريرة — رضي الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال :
«إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة ،
وقال اقرؤا إن شئتم ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾» .

ومن تدبر أمر الحياة عرف أين تكون الباقيات فعمل بها وتخلق بأخلاقها .

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ .

أما أولئك الذين يخدعون بديناهم فيحبون العاجلة ويذرون الآخرة فإن
القيمة عندهم في المظهر لا في المخبر، وفي العرض لا في الجوهر . وأولئك
لا يفقهون إلا عندما يُحاط بهم ويرون أنفسهم مجردين من زينتهم ومتاعهم ،
مسئولين عن إيمانهم وبقينهم . عندئذ يدركون قيمة ما فرطوا فيه ، وضياع ما
حرصوا عليه ورأوا أنفسهم به .

وكم نَبَّه القرآن الكريم على موطن القيمة ولم يجعلها إلا في إيمانٍ وتُقَى وخشية . مبعدا ما يظنه الناس منها ، فقال جل شأنه ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَّةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٥٩﴾ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (٧٢١) .

هنا تكون قيمة الإنسان : في خشية وتُقَى وإيمان لا في ضياع ومتاع .

والقيمة تبقى والزينة تذهب وتنفى .

وقد شاء الله سبحانه أن يفاوت بين أرزاق العباد لعمران الأرض ونمو الحياة ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْحِرًا ﴾ . إن التفاوت في الرزق هو الذي يسخر هذا لذلك ويسخر ذاك لهذا دون من أو استعلاء ولو كان الجميع على حال واحدة لاستحال أن تصلح الحياة .

والذين يجعلون من تفاوت الرزق إكراما أو إهانة ، ويرون العظمة فيمن بُسِط له يجهلون أن من بُسِط له مسخرٌ لغيره ، وغيره مسخر له ، في تفاعل تتنظم به شؤون الحياة وتحقق حكمتها في الابتلاء والامتحان ، ويعرف قدرُ الناس في صبر وشكر أو جزع وكفر ثم تطوى الحياة بأرزاقها وتأتي العاقبة التي تنبئ عن الفوز والفلاح .

ولن تكون إلا لمن آمن وعمل صالحا ولا يُلْقَاهَا إلا الصابرون . ﴿ وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ والله يختار لها من يشاء ، ولا علاقة بينها وبين عرض الحياة الدنيا . فهذه يشترك فيها الأبرار والفجار . وينالها الصالحون

والطالحون ، بينما يختص الله برحمته ويختار وهو بكل شيء عليم . وهو أعلم حيث يجعل رسالته ومن ذا الذي يستحق رحمته .

وكل متاع في دنيانا لا يتجاوز حدودها . ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وهؤلاء هم المكرمون عند الله بتقواهم . لهم عند الله ما هو أكرم وأبقى .

وأولئك الذين يعترضون على اختيار الله لنبيه ﷺ لأنه لم يرث شيئاً من عرض الحياة الدنيا ، وقيسون الرجال بما يملكون من عرض الحياة قد أسرّتهم دنياهم فلم يدركوا زهادتها وأنها قد تُعطى لشرّ الناس وأبغضهم عند الله . وأن ما يُعطاه الفجار لا يدل على قيمة لهم أو كرامة عند الله . بل الكرامة في موقف الإنسان مما يُمتحن به وإجابته فيها إهانته أو كرامته . وكرامة المرء في تقوى الله ومعرفته وخشيته . وأكرم الناس عند الله أتقاهم ومحمد رسول الله ﷺ هو أبقى الناس لله وأخشاهم .

ولقد اختاره الله ليتمم به مكارم الأخلاق ويهدي إلى صراط مستقيم . وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين .

١٣٠

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الزخرف ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۚ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (٧٢٢) إن من تدبر شؤون الحياة أيقن أن لا قيمة ولا نجاة للإنسان إلا بالإيمان بالحق والثبات عليه والرضا بحكمه . فإن الإنسان إنما يشرف بالعمل الباقي لا بالعرض الزائل .

ومن أيقن أن دنياه ذاهبة ، وأن أخراه قادمة باقية لم يُعمر دنياه على حساب أخراه . ولم ينس نصيبه من الدنيا وهو ينشد العاقبة ويرجو رحمة الله .

(٧٢٢) سورة الزخرف : ٤٣ - ٤٤ .

لأن نسيان الدنيا قد يعوق خطاه في تحصيل ما يرجو به الفوز والنجاة .
ومن يُرد الدنيا غافلاً عن الآخرة قد يفرط في الاستمساك بالحق والثبات
عليه . وعندئذ يخسر ديناه وأخراه .

ولا يحقق التوازن والاعتدال في موقف الإنسان بين ديناه وأخراه إلا
الاستمساك بما نزل من الحق والعمل به .

فإن الاستمساك بما أوحى الله إلى نبيه وهو الحق خير لديانا وأخرانا ولا
خير يُرجى للدارين بغيره . ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى
مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَتْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ (٧٢٣) .
لذا وجب أن يُستمسك بالحق وأن يحرص عليه وأن تُحذر مخالفته أو
الإعراض عنه .

وفي توجيه الرسول ﷺ على هذا النحو ﴿ فاستمسك بالذي أوحى إليك ﴾
عناية بالمأمور به وإرشاد للمؤمنين أن يقتدوا بنبيه ﷺ وهو يهديهم إلى الحق
وإلى طريق مستقيم . وقد يلقي الإنسان ما يلقيه في التمسك بالحق والدعوة
إليه ، ولكن لا سبيل لفوز أو نجاة إلا بالتمسك بالحق والثبات عليه والعمل
به . وما يلقيه في ديناه في سبيل التمسك بالحق فوز له في أخراه . ذاك ما نبّه
القرآن له ودعا إليه وجعله شرطاً في طلب النصر من الله ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ
اللَّهِ ﴾ (٧٢٤) وما عند الله لا يطلب إلا بطاعته . ﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ
أَقْدَامَكُمْ ﴾ (٧٢٥) وسبيل ذلك هو إخضاع النفس لمرضاة الله وتغليب أمره على
هواها ، حتى يتحقق فيها نصر الله قبل أن يُطلب في حرب أو خصام . إنك لن
تنصر الله في معركة حتى تنصره في نفسك بتغليب أمره على هواك ، إن تنصروا
الله في أنفسكم ينصركم على أعدائكم ويثبت أقدامكم .

(٧٢٣) سورة محمد : ٢ .

(٧٢٤) سورة الأنفال : ١٠ .

(٧٢٥) سورة محمد : ٧ .

ومن خذله في الأولى كيف يطلب نصره في الثانية ؟ من خذله في نفسه كيف يطلب نصره على عدوه ؟ فصلاح النفس أصل في طلب الفوز. وسنن الله لا تخضع لأماني الناس . والحق لا يتبع أهواءهم ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ .

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِيهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿١٢٣﴾ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ ﴿٧٢٦﴾ سننٌ عادلة بها يتحقق الإصلاح ويُدْرأ الفساد . ويعلم الناس أن الخير الذي ينشدونه لأنفسهم والشر الذي يخافون مرتبط بعملهم وقصدهم . ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ ﴿٨﴾ .

من هنا نستطيع أن نتدبر وأن نفيد من خطاب الله لنبيه بقوله ﴿فاستمسك بالذي أوحى إليك إنك على صراط مستقيم﴾ . إنه أمرٌ بالثبات على ما هو عليه ، والسير في طريق الحق وهو مطمئن القلب دون مبالاة بصد أو كيد ﴿إنك على صراط مستقيم﴾ . والله وحده هو الذي يتولى الأمر في الانتقام من المكذبين ، وهم ليسوا بمعجزين ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوْحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿وَإِنَّهُمْ لَذَكَرُكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ ﴿٧٢٧﴾ .

والتناسب بين الآيات بيّن واضح . ودلالة الخطاب لنبيه بقوله ﴿فاستمسك بالذي أوحى إليك﴾ في مقام الحديث عن المكذبين وردّ كيدهم والانتقام منهم لا تخفى . فقوله ﴿فاستمسك بالذي أوحى إليك﴾ هو إجمال للأخذ بالأسباب التي لا بد منها لطلب النصر ورد الكيد . فخذوا بالأسباب معشر المسلمين مهتدين بما أجمله بقوله ﴿فاستمسك بالذي أوحى إليك﴾ . خذوا

(٧٢٦) سورة النساء : ١٢٣ - ١٢٤ .

(٧٢٧) سورة الزخرف : ٤١ - ٤٤ .

بالأسباب ولا تفرطوا فيها، فإن الأخذ بالأسباب - كما أمر الله - طاعة له، والتفريط فيها معصية. كما أن الركون إليها دون توكل على الله مفسدة ومضيعة.

إن الله سبحانه الذي أخبر عن الكفار بقوله ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ لم يترك مجالاً لاحتمال أن يركن المسلم لذلك دون أن يأخذ بما أوجب عليه من إعداد واستعداد بل قال بعدها مباشرة ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ قال ذلك بعد قوله ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ والإعداد في جميع الأمور مرتبط بمنهج يجمعه قوله ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ والقرآن الكريم - وهو محفوظ بحفظ الله - يذكر الأجيال كلها ويبصرها بما يجب أن تكون عليه من إعداد واستعداد يرتبط كل الارتباط بمفهوم قوله ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ استمسك بكل ما أوحى الله به إلى نبيه ﷺ وعمل بمقتضاه. ومن عاد عن ذلك ضل السبيل.

وهذا الذي أوحى الله به إلى نبيه ﷺ وأمره بالاستمسك به شرف لمن تلقاه واستمسك به، ومن أباه وأعرض عنه دفع ثمننا غاليا، وعاش في دنياه مهينا بلا عز ولا شرف، وسئل يوم القيامة عما فرط فيه وضع ﴿إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾.

١٣١

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الزخرف ﴿وَنَادُوا بِمَلِكِهِمْ لِيَقْضِيَ عَلَيْهِمْ صَبْرُكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ﴾ (٧٧) لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ (٧٨) حديث القرآن عن القرآن هنا في هذه السورة فيه بيان لموقف الناس من القرآن وما يلقونه من جزاء لقد ذكر في هذه السورة سبب ما يلقيه هؤلاء وأولئك الذين آمنوا به والذين كرهوه وصدوا عنه. ولا أحد يفلت من لقاء أو يفر من حساب وجزاء ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَاعْمَلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُنْخَصَرًا وَمَاعْمَلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾.

إن الحق الذي أنزل هو الميزان الذي توزن به الأعمال وبه وعليه يحاسب الناس . فمن اتبع هداه نجا وفاز ومن أعرض عنه خسر وهلك .

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَصْلَلْ أَعْمَلُهُمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾ (٧٢٨) . تلك هي النتائج لمن اتبع الحق أو أعرض عنه . وتأتي الساعة - وقد اقتربت - فتفرق بين هؤلاء وأولئك .
﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِذِبُ نَفَقَاتُهُمْ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ (٧٢٩) .

ولتندبر ما جاء في هذه السورة ، سورة الزخرف لنرى النتائج والعواقب ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ يَنْعَادُ لَخَوْفِ عَيْنِكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَتَنَبَّأُونَ كَانُوا مُسْلِمِينَ أَدْخِلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَآزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٧٣٠) .

تلك هي النتيجة لمن آمن بالحق وعمل به .

أما الذين كرهوا الحق وأعرضوا عنه فتلك عاقبتهم وهذا مصيرهم .

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (٧٦) ﴿لَا يُفَرِّغُهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ (٧٥) وَمَا ظَنَنْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَىٰ أَيْمَنُكَ لِيَقْضَ عَلَيْكَ رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ

(٧٢٨) سورة محمد : ١ - ٣ .

(٧٢٩) سورة الروم : ١٤ - ١٦ .

(٧٣٠) سورة الزخرف : ٦٦ - ٧٣ .

مَنْ كُنْتُمْ (٧٧) لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَذِبُونَ (٧٨) ﴿٧٣١﴾ . ذاك هو القرآن وهذا بيانه ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة﴾ .

وماذا بعد أن تعرف نتائج الأعمال وتذكر عواقبها؟ لا حجة لأحد بعد بيان ولا عذر بعد إنذار وإعذار . بيان للناس جميعا . وهدى وموعظة للمتقين .

ومن تدبر العاقبة في كل أمر لم تلته اللذة الذاهبة عما يكون لها من عاقبة . فإن من ألته الرغائب عن العواقب ففيت رغائبه وبقيت عواقبه . ومن كره الحق في دنياه لقيه نارا في آخره . ومن رغب فيه وعمل به وجد نورا يمشي به في دنياه ويسعى في آخره ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ .

ومن ضيعه هنا سيفقده هناك .

فليتقظ لذلك أهل الإيمان وليكن حديث القرآن إليهم حديث موعظة وذكرى ، وليحذروا أن يكون كأولئك الذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم .

فليحذروا قسوة القلب التي تحول بين الخشوع لذكر الله وما نزل من الحق وتبعد عن سماع القرآن وتدبره والانقياد له . وليجعلوا أمام أنظارهم قول ربهم وليتدبروا ما يوحى به وما يحذر منه ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٧٣٢) .

فعلى الذين بعدوا عن الحق أن يثوبوا إليه وأن لا يياسوا من صحوة نفس وإحياء قلب ، فإن في هذا القرآن ما يحيي القلوب كما تحيا الأرض بعد موتها بالماء فتنبض بالحياة وتنبت من كل زوج بهيج .

(٧٣١) سورة الزخرف : ٧٤ - ٧٨ .

(٧٣٢) سورة الحديد : ١٦ - ١٧ .

ولتتدبر التناسب بين قوله سبحانه ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ وَمَنْزِلِ مِنَ الْحَقِّ﴾ وقوله جل شأنه ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ أَفَذَيْتُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ .

١٣٢

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الدخان ﴿حَمَّ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ٢ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ٤ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ٥ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٦ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُوزَ مُوقِنِينَ ٧ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٧٣٣) .

أقسم الله في قوله والكتاب المبين على أنه سبحانه قد أنزل القرآن في ليلة مباركة وهي ليلة القدر. كما قال الله عز وجل ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وكان ذلك في شهر رمضان كما قال الله تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا .

وكان ذلك في شهر رمضان في ليلة القدر منه . وتلك هي الليلة المباركة . ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ﴾ ثم نزل بعد ذلك مفصلاً بحسب الوقائع على رسول الله ﷺ .

إنها لليلة مباركة تلك التي أنزل فيها القرآن وهي خير من ألف شهر .

وهكذا نرى بركة القرآن في كل شيء .

نرى بركته في ذاته ، وفي الزمن الذي أنزل فيه . وفي آثاره ونتائجه .

ففي سورة الأنعام نقرأ في آيتين منها قوله تعالى ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ

(٧٣٣) سورة الدخان : ١ - ٨ .

يُذَكِّرُهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴿٧٣٤﴾ وقوله ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ﴿٧٣٥﴾ .

ونقرأ في سورة الأنبياء قوله تعالى ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ ﴿٧٣٦﴾ .

ونقرأ في سورة «ص» قوله تعالى ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ ﴿٧٣٧﴾ فهو مبارك في ذاته، وفي آثاره ونتائجه، وفي الزمن الذي اقترن به .

والإخبار بذلك له دلالة في الحث على التزود منه، واتباع هدايته، والحذر من مخالفاته أو مخالفته .

فالليلة التي أنزل فيها ليلة مباركة هي خير من ألف شهر، مَنْ حُرِمَ خيرها فقد حرم . ليلة مباركة ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ رحمة من الله بالعباد وإنذاراً لهم وتحذيراً . والقسم بالكتاب المبين على تنزيل هذا الكتاب في ليلة مباركة فيه ما فيه من إشادة وتكريم وتعظيم لشأن هذا الكتاب .

فَبِهِ حَفِظَ اللهُ لِلنَّاسِ رِسَالَةَ الْأَنْبِيَاءِ جَمِيعاً كَمَا جَاءَتْ مِنْ عِنْدِ اللهِ .
وبقي القرآن للحياة بقاء النور في الكون، لا يَتَوَقَّفُ مَدَّةً وَلَا يُطْفَأُ نُورُهُ، وَلَا يَنْفَدُ عَطَاؤُهُ . به تفجرت ينابيع الحكمة وامتدت أنهار المعرفة . وعرف الناس حكمة الخلق وحقيقة الوجود، ورأوا الأنبياء جميعاً في موكبٍ واحدٍ دعاةً إلى دين واحدٍ وأمورين بأمرٍ واحدٍ ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ .

فأقام بذلك أسس العدل والسلام بين العباد على أسس من بيان حقيقة الدين وما جاء به الأنبياء، وأن بعضهم يصدِّق بعضاً وينصر بعضهم بعضاً دون

﴿٧٣٤﴾ سورة الأنعام : ٩٢ .

﴿٧٣٥﴾ سورة الأنعام : ١٥٥ .

﴿٧٣٦﴾ سورة الأنبياء : ٥٠ .

﴿٧٣٧﴾ سورة ص : ٢٩ .

تفرقة أو اختلاف فمن اختلف في شأنهم من البشر فاختلفه مصدره الهوى لا الدين .

ومن آمن ببعض وكفر ببعض فقد كفر بهم جميعا ، لأنهم جميعا دعاة إلى دين واحد أقاموه ولم يتفرقوا فيه .

وهذا ميثاق الله الذي أخذه عليهم فعملوا به وبلغوه كما أمروا ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءَآتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٧٣٨﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٧٣٩﴾﴾

هذا ما جاء به القرآن وما أعلنه وحفظه الله رحمةً للعالمين وإنذاراً لهم وتحذيراً . فمن ابتغى غير ذلك فقد ابتغى غير دين الله ، ونسب إلى الأنبياء ما لم يكونوا عليه .

ووقع فيما حذر منه القرآن وأنذر ﴿أَفَعَدَّ دِينُ اللَّهِ يَجْعُوكَ وَلَهُ اسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طُوعًا وَكَرْهًا وَإِلَهُ يُجْعُوكَ ﴿٨٢﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٣﴾ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ ﴿٧٣٩﴾ ذلك إنذار هذا الكتاب الذي أنزله الله في ليلة مباركة ليضع به حداً فاصلاً بين الحق والباطل والهدى والضلال ، في حقيقة الاعتقاد وهو أصل الدين . وسيظل نداؤه موصولاً للعالمين ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ

(٧٣٨) سورة آل عمران : ٨١ - ٨٢ .

(٧٣٩) سورة آل عمران : ٨٣ - ٨٥ .

أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٧٤٠﴾ نداءٌ مُنْصِفٌ بَارٌّ كَرِيمٌ رَحِيمٌ .

ينصف الحقيقة ويصون الخلائق من الفرقة والتنازع ، والطغيان والفساد .

نداءٌ يدعو الجميع إلى كلمةٍ سواء لا يبغى معها أحدٌ على أحد .

إذ الناس جميعاً من أصل واحد . الله ربُّهم وهم عباده كلهم لآدم وآدم من تراب . من هنا تنبع الشريعة التي تعدل بين الناس ولا تفرق ويكون الأمن والسلام ناشئاً من اعتقاد أن لا فرقة في الدين بين نبي ونبي أو رسول ورسول .

وعندئذ يُمَحَى التعصب للباطل ، ويكرّم التمسك بالحق بميزان اللقاء على كلمة سواء نزل بها كتاب مبارك في ليلة مباركة .

إنها لكلمة الحق التي لا يقر فيها طاغ على طغيانه ولا باغ على بغيه .

﴿ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَلَّا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ﴾ .

كلمة جامعة لصفات الخير، مانعة من دواعي الطغيان والكبر والفساد والشر .

فإن أباي الناس إلا أن يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ، إن أبوا إلا أن يتخذوا من دون الله أنداداً . فليعلموا أن العزة لله جميعاً ، وأن القوة لله جميعاً . وأن الله شديد العذاب .

وليشهدوا جميعاً أنا مسلمون .

١٣٣

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الدخان ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٥٨) ﴿ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴾ (٧٤١) .

(٧٤٠) سورة آل عمران : ٦٤ .

(٧٤١) سورة الدخان : ٥٨ - ٥٩ .

أي إنما يسرنا هذا القرآن الذي أنزلناه سهلاً واضحاً بيناً جليلاً بلسانك الذي هو أفصح اللغات وأحلاها وأعلاها ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي يتفهمون ويعملون . ولما كان مع هذا الوضوح والبيان من الناس من كفر وخالف وعاند - قال الله تعالى لرسوله ﷺ مُسَلِّيًا لَهُ وَمُسَرِّيًا عَنْهُ ووَاعِدًا لَهُ بِالنَّصْرِ، وَمُتَوَعِّدًا لِمَنْ كَذَبَهُ بِالْخُسْرَانِ وَالْهَلَاكِ قَالَ سُبْحَانَهُ ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ .

فسيعلمون لمن تكون النصرة والغلبة وعلو الكلمة في الدنيا والآخرة .

فذاك وعد الله لرسله ومن آمن معهم ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدَاءُ ۚ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ (٧٤٢) إن التذكير بنعمة الله في تيسير القرآن الكريم وإدراك معانيه له دلالة في تحقيق الشكر واتباع الذكر والتخويف من سوء العاقبة والمصير في التكذيب به أو الإعراض عنه .

﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزِقُهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ .

يقول الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ: فإنما سهلنا قراءة هذا القرآن الذي أنزلناه إليك بلسانك ، ليتذكر هؤلاء المشركون بِعَبْرِهِ وحججه ويتعظون بعظاته ويتفكروا في آياته إذا أنت تتلوه عليهم ، فينبسوا إلى طاعة ربهم ويدعوا للحق الذي تبين لهم ويتبعوا سبيله ؛ فإن الأمور بعواقبها .

ومن تدبر العواقب أيقن أن الحق لا يهزم أبداً فإن العاقبة له ولن تكون لشيء سواه . ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ يخاطب الله نبيه بما يؤول إليه أمره وأمر أولئك المكذبين بالحق والصَّادِّينَ عنه . فانتظر الفتح من ربك والنصر على هؤلاء المشركين بالله من قومك إنهم منتظرون عند أنفسهم قهرك وغلبتك بصددهم عما أتيتهم به من الحق من أراد قبوله واتباعك عليه .

(٧٤٢) سورة غافر: ٥١ - ٥٢ .

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ ﴿٧٤٣﴾ أَوْزُرْنَاكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ﴾ (٧٤٣) من هنا يعلم أن الحق الذي يخاطب به الناس سيحاسبون عليه من الله الذي لا يعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض . ولقد حفظ الله القرآن الكريم ليكون بلاغا للناس أجمعين .

وبحفظه قد حفظت الرسالات وبقيت أمام أعين الناس كما جاءت من عند الله مصونة من التلبيس والتدليس . حفظت في كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فمن خالفه أو أعرض عنه فلينتظر ما سيؤول إليه . فسيعلم جميع الخلق تأويل ما أخبر به أو حذر منه ﴿فارتقب إنهم مرتقبون﴾ . وستكون الحسرة والندامة لأولئك الذين نسوه وأعرضوا عنه وكذبوا ما جاء به .

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿٧٤٤﴾ .

إن الحق ليس ضياعا في حياة الناس - إن هم كرهوه أو أعرضوا - فإنه من ربك وربك على كل شيء حفيظ إن ما أخبر به أو حذر منه واقع لا محالة .

وآيات الله في الآفاق وفي الأنفس تدعو إلى هذا الحق وتشهد به وله . وسنة الله في حياة أو موت تبلغ الناس وتذكرهم أن عمرهم المحدود في دنياهم فترة امتحان لا تعود . والله قد ﴿خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ .

والموت يقدم عبرته وعظته للحياة .

والحياة تذكر بالبعث والنشور . وما من لحظة إلا ويولد من يولد ويموت من يموت . فإذا لم تزل غفلة الإنسان بهذا التعاقب بين موت وحياة فبأي شيء تنزل؟ ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٧٤٥﴾ .

(٧٤٣) سورة الزخرف : ٤١ - ٤٢ .

(٧٤٤) سورة الأعراف : ٥٣ .

(٧٤٥) سورة البقرة : ٢٨ .

﴿ مِنْهَا خَلَقْتَكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ (٧٤٦).

﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۚ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ (٧٤٧).

وهكذا يبصر القرآن ويذكر ويُري الناس نتائج أعمالهم وما هم صائرون إليه ومتنهون عنده ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

١٣٤

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في سورة الجاثية ﴿حَمْدُ اللَّهِ أَنْزِلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَأَبْنَتْ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ نَابَةِ أَيْتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ وَأَخْلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ زَرْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ ۝ أَيْتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَةٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٧٤٨).

حديث القرآن عن القرآن في هذه الآيات فيه بيان لمصدره وأنه تنزيل من الله العزيز الحكيم . وفي هذا البيان ما فيه من حثٍّ على اتباعه والحذر من مخالفته ؛ فإنه تنزيل من الله العزيز الذي لا يغلب ، فهو عزيز في انتقامه من أعدائه حكيم في تدبيره أمر خلقه .

وتلك آياته في الآفاق وفي الأنفس شاهدة على قدرته معبرة عن تدبيره وحكمته .

وهي ليست بعيدة عن مخاطبون بهذا القرآن في أي زمان أو مكان .

إنها آيات ذات تأثير بالغ في حياتهم بإذن الله لا تبارحهم ولا تنفك عنهم .

(٧٤٦) سورة طه : ٥٥ .

(٧٤٧) سورة نوح : ١٧ - ١٨ .

(٧٤٨) سورة الجاثية : ١ - ٦ .

ومن يقرأ الآية في كتاب الله يرى دلالتها في نفسه وفي الكون من حوله .
لتكون زادًا للإيمان وتبصرة لكل عبد منيب .

آيات وآيات في الأنفس والآفاق ، في السموات وفي الأرض تعلن عن
نفسها وتدعو الناس إلى الإيمان بمبدعها وخالقها .

آيات وآيات في الأنفس والآفاق يشير إليها القرآن الكريم بآياته فلتمسّ
القلب وتوقظ العقل وتخطب الفطرة التي لا يحتاج إيقاظها إلا إلى كلمات
موحية كآيات القرآن العظيم . فمن لم يؤمن بهذه الآيات فلا رجاء في أن يؤمن
بسواها . ومن لم توقظه هذه الإشارات الموحية فلن يُوقظه إلا ما يلقاه من
عذاب أليم ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ الْحَقُّ فَاَيُّ حَدِيثٍ بَعْدَ أَهْوَاءِهِمْ وَمَا يَبْنِيهِ
يُؤْمِنُونَ ﴾ .

إن أي كلام لن يبلغ كلام الله في القرآن وإن أي عمل لن يبلغ إبداع الله في
الكون والإنسان يسمع الآيات تُتلى عليه ويرى الآيات تتحدث إليه .

يراهنا في ليل ونهار، وشمس وقمر، وأرض سماء، وزرع وماء، يراها في
نفسه وفي الآفاق من حوله . دالة على وحدانية الله داعية إلى عبادته وصدق
الإخلاص له . موحية بفضله ورحمته ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ
الرَّحِيمُ ﴾ (١٦٣) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي
تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿ (٧٤٩) .

فمن أخذ من هذه الآيات زادًا لمعاشه ومتاعه . ولم يأخذ منها زادًا لإيمانه
وتبصرة ليقينه فقد ظلم نفسه .

(٧٤٩) سورة البقرة : ١٦٣ - ١٦٤ .

إن القرآن وهو يبصر الناس بآيات الله في السموات وفي الأرض يدعوهم أن يأخذوا منها لأنفسهم التبصرة والذكرى وأن تكون زادًا للتقوى قبل أن تكون للمتاع . فإن المتاع قدرٌ مشترك بين الإنسان والأنعام ﴿متاعا لكم ولأنعامكم﴾ (٧٥٠) ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ﴾ (٧٥١).

ولكن التبصرة والذكرى ينفرد بها الإنسان المخاطب بشرع الله وآياته .

فمن قَصَرَ الآيات على المتاع دون غيره فقد رضي لنفسه أن يكون كالأنعام بل أضل وأولئك هم وقود النار، فقد ضيعوا ما خلقوا وما كرموا من أجله وعطلوا حواسهم وأبوا أن تكون لشيء إلا لمتاعهم وشهواتهم ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِئِنِ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (٧٥٢).

إن آيات الله في السموات وفي الأرض توحى للإنسان بما لا توحى به إلى الدواب والأنعام . وحديث القرآن تتسق فيه آياته مع آيات الله في الآفاق وفي الأنفس لتسمع وتُرى وتُقرأ وتُشاهد . وتشير إلى الغاية التي من أجلها أنزل القرآن وخلق الإنسان وتلك هي الغاية التي تشير إليها وتدعو لها : والتي من أجلها خلق الإنسان وعليها يحاسب ويجازى .

﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۚ لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَاصِرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۚ﴾ (١٣) ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بِصَآئِرٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَمَن أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَٰ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ﴾ (٧٥٣).

(٧٥٠) سورة عبس : ٣٢ .

(٧٥١) سورة السجدة : ٢٧ .

(٧٥٢) سورة الأعراف : ١٧٩ .

(٧٥٣) سورة الأنعام : ١٠٢ - ١٠٤ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الجاثية ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ (٧) يَتَّبِعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذْ أَعْلَمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا هَزُورًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩) مَنْ وَرَّاهُمْ جَهَنَّمَ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَئَاءِ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٌ (١١) ﴿٧٥٤﴾

في هذه الآيات وعيد لمن كذب بآيات ربه وأعرض عنها وإنذار لأولئك الذين يتخذون آيات الله هزوا.

والآيات وإن ذكر لها سبب خاص لكن العبرة فيها بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. والعموم هنا له دلالة في بيان أن كل إنسان مأخوذ بعمله، وأن هذا العذاب واقع على كل من كان هذا شأنه في أي زمان أو مكان؛ لأن سنن الله لا تجامل ولا تحابي ولا تتبدل ولا تتحول.

وسنة الله في المكذبين بالحق المعرضين عنه في أي زمان أو مكان أن يأخذهم بذنوبهم وأن يهلكهم بمعاصيهم، فلا أمن ولا استقرار لهم في دنياهم، ولا فرار من الجزاء في آخرهم.

إن التكذيب بالحق إثارة للباطل. والباطل زاهق والحق باق.

وللباطل سرايب يحسبه المبطلون ماء. وعندما يؤخذ المبطلون بذنوبهم لن يجدوا الباطل الذي تعلقوا به وأخذوا بسرايه.

والناس يمرون بدنياهم ممتحنين لا مقيمين، وليس بأيديهم أجل امتحانهم ولا هو مسمى عندهم وما أمروا به أو نهوا عنه لمصلحتهم والله غني عن العالمين.

(٧٥٤) سورة الجاثية: ٧ - ١١.

فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها .

وبيان النتائج للناس مع ما فيه من إعذارٍ وإنذارٍ فيه رحمةٌ بهم وتذكير لهم قبل أن تقع الواقعة ، أو يأتي الأجل الذي لا مفر منه .

ولتتدبر هذه الآيات لنرى ما فيها من بيان وهدى للناس .

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ والأفَّاك : الكذاب المارد على الكذب . والأثيم : كثير المقارفة للأثم . ودلالة إفكه وعلامة إثمه ﴿ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنْزِلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ لأنها لا توافق هواه ، ولا تسير مع مألوفه ولا تعينه على باطله ، ولا تفره على شره .

﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ﴾ يستهزئ بآيات الله التي يعلمها ويتخذها مادة للسخرية ويسخر من الذين يؤمنون بها .

إن هؤلاء النفر من الخلق - وهم يتبعون أهواءهم - يسخرون من كل شيء لا يوافق أهواءهم . وهؤلاء الذين يسخرون من الحق وممن يؤمنون به ويستهزئون بآيات الله سيجدون المهانة جزاءً مناسباً لموقفهم ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ . ﴿ مِّن وَرَائِهِم جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وتلك عاقبة تكذيبهم وسخريتهم ﴿ تَلَفَحَ وَجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُنْزِلُ عَلَيْهِمْ فَاكْتُمُوهَا تَكْذِبُونَ قَالُوا رَبَّنَا عَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ قَالُوا خَسِرْتُمْ فِيهَا وَلَا تَحْكُمُونَ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُوا رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضَحِكُونَ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴾ (٧٥٥) .

(٧٥٥) سورة المؤمنون : ١٠٤ - ١١١ .

تلك هي العاقبة لمن كذب بالحق وسخر منه ولمن آمن به وثبت عليه عاقبة
منذرة مبشرة :

منذرة أولئك الذين يصرون على عداوة الحق ويتخذون آيات الله هزوا .
ومبشرة أولئك الذين آمنوا بالحق وعملوا به وطلبوا مغفرة الله ورحمته .
والقرآن وهو يبين ذلك للناس يدعوهم إلى إنقاذ أنفسهم باتباع الحق
والعمل به ﴿ هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم ﴾ .
تلك بشرى القرآن وهذا إنذاره .

فليحذر الذين يستخفون ببيانه أو يخالفون عن أمره أو يُشغَلون عن هديه ،
فليحذروا أن تأسرهم دنياهم فتنسيهم ما هم مقبلون عليه في آخرهم ﴿ يوم
يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء
شهِيد ﴾ (٧٥٦) .

١٣٦

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الجاثية ﴿ هذا
بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ
أَنْ نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيَاهُمْ وَمَمَّا يُهْمُ سَاءَ مَا
يَحْكُمُونَ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٧٥٧) .

﴿ هذا بصائر للناس ﴾ والإشارة إلى القرآن الكريم فهو بينات من الهدى
والفرقان تبصر الناس بما يجب أن يكونوا عليه من صدق الإيمان وصالح
الأعمال . وهو براهين ساطعة ونور يقود من اتبعه إلى الفوز برحمة الله
ورضوانه .

(٧٥٦) سورة المجادلة : ٦ .

(٧٥٧) سورة الجاثية : ٢٠ - ٢٢ .

ومع بيانه وهده لا يظن من عاداه ولم يعمل بمقتضاه ، لا يظن أولئك الذين
اجترحو السيئات أنهم سيفلتون من عقاب أو يفرون من جزاء .

لا يظن أولئك أنهم سيُسَوَّى بينهم وبين من آمنوا وعملوا صالحا .

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ .

إن الله قد خلق السموات والأرض بالحق ، وأنزل الكتاب والميزان ليقوم
الناس بالقسط . وميزان العدل لا يسوي بين المحسن والمسيء ، والمؤمن
والكافر .

ميزان العدل يُوقِي كُلَّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ فَلَا تَظْلِمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ
الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا
وَكُفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (٧٥٨) ذاك مقتضى خلق السموات والأرض بالحق أن
يُقَضَىٰ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَإِلَّا كَانَ الْخَلْقُ عِثًا وَبَاطِلًا . ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ
وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (٢٧) أَمْ
نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ
﴿كَلَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٢١) ﴿٧٥٩﴾ .

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٧٦٠) .

إن الله عز وجل لم يخلق الخلق عبثا ولا باطلا حتى يسوي بين من يُفسدون
ومن يصلحون وهم يؤمنون أنهم إلى ربهم راجعون .
شتان ما بين هؤلاء وأولئك في الأعمال والنتائج .

(٧٥٨) سورة الأنبياء : ٤٧ .

(٧٥٩) سورة ص : ٢٧ - ٢٩ .

(٧٦٠) سورة الجاثية : ٢٢ .

والقرآن الكريم يبين ذلك ويُبَصِّرُ به رحمةً بالناس في دنياهم ليتراحموا فيما بينهم وليجتنبوا السيئات وهم إن تراحموا رحمهم الله - والراحمون يرحمهم الرحمن . ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء . والذين يرون الحياة دنیا فحسب يقع التنافس بينهم على ما يفرق جمعهم ويدمر روابطهم . الذين يرونها دنیا فحسب لا يبالون بغدر ولا ظلم ، بل يرجعون بكل ما يحقق لهم منفعة عاجلة ، فمرحبا عندهم بالظلم والغدر إن حقق لذة أو أحرز غنماً . واحسرتاه عند هؤلاء إن فات المطلوب أو بعد المرغوب . وبمثل هؤلاء تتحول دنیا الناس إلى غابة تتناثر فيها الأشلاء والدماء ولا تصان حقوق ولا تحفظ حرّات .

إن أمن الحياة في الإيمان بيوم الحساب .

والذين لا يؤمنون بيوم الحساب يضلُّون ويسيّئون .

ووسائل الأمن مهما عظمت لا تحقق أمناً إذا فقد الناس إيمانهم بيوم الحساب ذلك أن وسائل الأمن لا تستطيع أن تُثدّ الجريمة المبيتة في نفس صاحبها قبل أن تولد . إن وسائل الأمن عاجزة كعجز أهلها أن تعرف ما تكنه الصدور وما تطويه النفوس .

والجريمة في بدايتها عزمٌ ونية في داخل النفوس قبل أن تكون في خارجها . فمن ذا الذي يعلم ما في النفوس فيعالج أمرها قبل أن تسوء أو تسيء إلى غيرها؟

إنه الإيمان واليقين بما أخبر الله به ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾ هنا يوجد الأمن في حياة الناس بلا تكاليف ، وتحقق الرقابة الذاتية في نفس الإنسان مع اليقين والخشية والإيمان ، فيكفّ الإنسان شرّه عن غيره في سرّه وعلنه ، ويكون في ذاته موطن أمنٍ لغيره يأمنه الناس على أموالهم وأعراضهم ودمائهم يأمنون لصدق إيمانه وصادق برّه وعدله . ولا أمن يُرجى بغير صدق الإيمان ووجل القلوب بذكر الله .

وعندئذ يكون الأمن والسلام أمن حق وعدل وسلام بر وخير. ويسعد الناس بنعم الله فلا تساق أقوات الجياع إلى بطون المدافع ولا يحرز قوت أمة جائعة ظالم أو مستبد. ذاك هو الحق: ﴿وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون﴾ فإن أبى الناس إلا اتباع الهوى والإعراض عن الحق فليدفعوا الثمن غالبا في معيشتهم وعاقبتهم فليدفعوه في دنياهم فواجع ومصائب ومعيشة ضنكا، وليدفعوه كذلك في آخرهم عذابا وحسرة ونداما.

وسیظل القرآن يذكر ويصبر ويحذر النتائج والعواقب دون أن يُسكت له صوت أو يُطفأ له نور. وستبقى الإشارة إلى هداة ما بقيت الحياة.

﴿هَذَا بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

١٣٧

من حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الجاثية ﴿وَإِذَا تَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَأَتْنُوهُمَا بَيِّنَاتٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِذُ بِخَسْرِ الْمُجْذِلُونَ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ (٧٦١).

وإذا تلى عليهم آياتنا بينات واضحات الدلالة على ما يخالف معتقدهم لم يؤمنوا ولم يصدقوا وأصروا على عنادهم وكفرهم، ولم يكن لهم حجة إلا أن

يقولوا ردًا على ما أخبر به القرآن الكريم من أمر البعث والنشور اثبتوا بآبائنا وابعثوهم من القبور إن كنتم صادقين فيما تقولون من أن هناك بعثًا من القبور.

﴿قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعملون﴾ والناس لو تدبروا أمر الحياة والموت لعرفوا أن البعث قائم فيهم . فإنهم لم يكونوا شيئًا مذكورًا قبل خلقهم .

والقرآن الكريم يلفت نظرهم إلى ذلك ليعينهم على اليقين بما هم مقبلون إليه وصائرون عنده ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾.

لقد جاء عليه حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا .

وتلك أعمق الدلالات على النشور . فإن الموت بعد حياة قد يذكر صاحبه ولا يُنسى . أما هذا الموت قبل الإحياء ، فأى شيء هو حتى يكون مذكورًا؟

ومن العجب أن يُنسى ذلك وأن يكفر بالله وتجدد نعمته ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتًا فأحياكم﴾ ذاك هو الإحياء القائم في جميع الخلق .

ومنهم من ينساه ويجادل في الله ويجحد بآياته ، وينكر بعث الناس من قبورهم وهو أهون مما وقع من قبل فيهم ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ .

والذين يقولون - جاحدين - اثبتوا بآبائنا إن كنتم صادقين لا يبصرون أنفسهم فيرون ما صاروا إليه بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا .

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِى الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٦٢) . ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَاتَ

(٧٦٢) سورة يس : ٧٨ - ٧٩ .

لَسَوْفَ أَخْرِجُ حَيًّا ﴿٧٦٣﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَعَلَّكَ
شَيْئًا ﴿٧٦٣﴾ .

آيات بينات واضحات يخاطب بها الناس ويرون دلالتها في أنفسهم لعلهم
يتفكرون . فسبحان من خلق الموت والحياة وجعلهما ماضيين لا ينقطعان فما
من لحظة إلا ومولود يُولد على الأرض وميتٌ يُقبر فيها .

والموت يقدم للحياة عظته وعبرته ، والمولود يقدم للناس دلالة القدرة ، قدرة
الله على البعث والنشور . فهل تسلم ساحة الحياة من الكفر والجحود ، وينعم
الناس بأمن الإيمان ورشد اليقين ؟ ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ آمُونًا فَأَخِيذْكُمْ
ثُمَّ يَمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ولا خير يرجى للحياة بعد اعتقاد ﴿ إن
إلى ربك الرجعى ﴾ .

البعث حق وبه يصان الحق ﴿ وَيَسْتَنْشِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلُوبًا إِيَّايَ وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ
وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ ﴿٧٦٤﴾ .

والذين يستبعدون بعثتهم ينسون خلقهم . ويجزون بالنسيان نسيانا .
﴿ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ ومن أنساه الله نفسه ، فسق وضل وأفسد في الأرض ولم
يصلح وهو يحسب أنه يحسن صنعا .

فإذا جاء الأجل المحتوم ووجد تأويل ما أخبره به القرآن أعلن إيمانه بما كان
قد استبعده وأنكره ، والتمس العود فلم يجد ، وطلب الشفعاء فلم يُجَبَّ . وهنا
ينقطع زعمهم ويأتي اليقين ﴿ تَوَمِّدْ يُوفِّهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ
الْمُبِينُ ﴾ ﴿٣٥﴾ .

(٧٦٣) سورة مريم : ٦٦-٦٧ .

(٧٦٤) سورة يونس : ٥٣ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الأحقاف ﴿حَمَّ
تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٧٦٥﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا
بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦٦﴾﴾ (٧٦٥).

حديث القرآن عن القرآن هنا فيه ما فيه من توجيه النظر إليه والعمل بمقتضاه
فهو تنزيل من الله العزيز الحكيم . وكفى أن يعلم أن هذا الكتاب قد جاء ممن
يستحق أن يعبد ولا يُجحد . العزيز الذي لا يغلب ولا يقهر، الحكيم الذي
دبر كل شيء وقدره بحكمته . فلا سبيل إلى جحود ما جاء منه ودعا إليه .

فإن كل شيء مرجعه إليه لا إلى غيره ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ
الْعَالَمِينَ﴾ (٧٦٦) ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ .

كتاب من الله العزيز الحكيم جدير أن يستمسك به وأن يستجاب لندائه ،
وأن تحذر مخالفته أو الإعراض عنه . فإن من أنزله له القوة جميعا والعزة
جميعا . من أنزله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء . ومن أنزله
سبحانه جعله محفوظا لا يُنسخ ، عزيزا لا يغلب مهما غلب الناس من حوله .
فليحذر الذي يخالفون عن أمره ، وليُفِقْ الذي يَغْفُلُونَ عن ذكره ؛ فإن الله الذي
أنزل الكتاب هو الذي خلق السموات والأرض وما بينهما ، وأقام هذا الكون
على نظام دقيق ، وجعله قائما أمام أعين الناس ؛ ليجدوا في دلالته عوناً على
طاعة خالقه وعدم مخالفته . وما خلق الله ذلك إلا بالحق ليُعَانِ الناس في كل
زمان ومكان على اتباع ما نزل من الحق . ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا
بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فقد جعل الله أجلاً مسمى لما خلق ، إذا جاء
الأجل لا يؤخر .

(٧٦٥) سورة الأحقاف : ١ - ٣ .

(٧٦٦) سورة الأعراف : ٥٤ .

وسياتي اليوم الذي تبدل الأرض فيه غير الأرض والسموات . وهو اليوم الذي يحاسب فيه كل بما عمل . ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ .

ومع هذا البيان ترى أهل الكفر سادرين في غيهم ، معرضين عما أنذروا به لاهين . ولا يفيقون إلا عندما يحاط بهم ، ويرون أنفسهم في غمرات الموت لا ينفعهم ما شغلوا به وما حرصوا عليه من مالٍ أو متاع .

إن في الإخبار بقوله ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ بعد الحديث عن تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم له دلالة فيما يدعى الناس إليه من اتباع هذا الكتاب . فإنه الحق ، والله عز وجل ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق . فلا شيء يقوم أو يبقى إلا بالحق . ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ .

ومن أيقن بذلك استمسك بالحق وعمل به واعتصم بالله ولم يركن لظالم أو يستدرج لباطل . فإن العاقبة تنذر الناس جميعا أن يجعلوها نصب أعينهم وأن لا تشغلهم رغائبهم عن عواقبهم أو تخدعهم دنياهم عن آخرتهم إن الإيمان بالحق يستلزم التمسك به والحرص عليه والرضا بحكمه وإلا اضطربت الأمور وساءت الأحوال .

فالحق سمة الحياة كلها ، وبه ومن أجله خلق الله الخلق وأرسل الرسل وأنزل الكتاب ، ومن أجله يكون الحساب والجزاء والجنة والنار .

وترى الخلائق جميعا يعلنون إيمانهم بالحق وركونهم إليه عندما لا يرون أمام أعينهم شيئا سواه في جنة أو نار وحساب أو جزاء .

لا بقاء إلا للحق ولا نجاة إلا به ، ولا أمن ولا سلام إلا بإقامة فرائضه واتباع شرائعه ، ومن ابتغى شيئا بغير الحق لقي ما يلقاه المبطلون الخاسرون .

﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ .

خلق الله السموات والأرض بالحق إن في ذلك لآية للمؤمنين .

فهل يعي الناس دلالة الآيات ويستمسكون بما تدل عليه وتدعو إليه ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِنَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٧٦٧﴾.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الأحقاف ﴿وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ أَيْنُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنْ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا نَفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٧﴾﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَنْبِئُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٧٦٨﴾.

حديث القرآن عن القرآن هنا فيه بيان لحقيقته وأنه الحق وبيان لموقف أهل الكفر والجحود منه ﴿وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ أَيْنُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ هذا القول لا يقولونه في القرآن لخباء فيه أو لبس في معرفته.

إنه آيات بينات واضحات لا اختلاف فيه ولا التباس ولا غموض.

ولكن الجحود يحمل صاحبه على إنكار ما يعرفه وجحود ما يستيقن أنه الحق، والجحود يقود إلى الإيغال في الضلال والمبالغة في الإنكار.

(٧٦٧) سورة يونس: ٥-٦.

(٧٦٨) سورة الأحقاف: ٧-٩.

ومهما حاول الكفار أن يسمّوا الأشياء بغير اسمها أو يحجبوا ضوء الشمس بقول أو فعل . فإن الشمس تنبئ عن نفسها وتقدم للناس خصائصها . ولا يمكن لدعي أن يحجب ضوءها أو يوقف مداها .

والسحر الذي وصفوا به القرآن لا يُفلح أهله ولا يبقى أثره ، والله يبطله ويهلك أهله . والقوم الذين يتقولون بما يتقولون يعرفون السحر . ويؤمنون أن القرآن ليس بسحر والرسول ليس بساحر .

ولذا نراهم لا يثبتون على قول — وهم يكذبون بالحق — بل يضطرب قولهم كما يضطرب فعلهم ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴾ . ولا ثبات لباطل ولا أمن ولا استقرار مع جحود الحق والإعراض عنه .

ولو تدبر هؤلاء ما يتلى عليهم ، وصدقوا مع أنفسهم لوجدوا أن ما قالوه يُدينهم ويسيء إليهم لا إلى غيرهم . ومثلهم فيما يقولون كمثل من رمى الشمس بحجر فإذا الحجر يسقط على وجهه .

ومثلهم فيما يكيدون ويمكرون كمثل من يتوهمون أنهم يستطيعون أن يحبسوا ضوء الشمس في زجاجة أو يطفئوا نورها بأفواههم . فلا بقيت زجاجتهم ولا سلمت أفواههم وبقي نور الحق بقاء الشمس في الكون ، إن بارحت رءوس قوم أنارت عند آخرين وأعطت ما أعطت راغبيها أو جاحديها بتقدير من العزيز الحكيم .

﴿ وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ أَيْنُنَا بِئْنَتِ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ ﴿ ٧٦٩ ﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَبَهُ قُلْ إِنْ افْتَرَبْتُهُ ، فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا نُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ .

اضطراب في أقوال القوم . وثبات في كلمة الحق . ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ . فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿ ٧٦٩ ﴾ .

هكذا نرى باطل القوم أمام سلطان القرآن لا يبدئ ولا يعيد ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ حجة لا تدع مجالاً لمبطل أو ادعاء لكذب . ﴿ قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَ الْغُيُوبِ ۝ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ۝ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ (٧٧٠).

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ .

ما أبر هذا القول وما أكرمه وما أعظم أثره عند من يتدبر ويتذكر . ﴿ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ لَنْ تَعْنُوا وَلَنْ تَدْفَعُوا عَنِّي عِقَابَهُ ﴾ وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿١٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿١٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿١٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٧٧١﴾ .

﴿ هو أعلم بما تفيضون فيه ﴾ وما تندفعون فيه من التكذيب وتخوضون فيه من وصف القرآن بالسحر . وحسبي أن الله يعلم ما أعمل ويعلم ما تعملون . ﴿ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ وهو الذي يشهد لي بالصدق ، ويعلم ما تخوضون فيه من تكذبي ﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ فتوبوا إليه يرحمكم واستغفروه يغفر لكم . وهو إن تبتم وانتهيتم عما أنتم عليه من تكذيب وصد وكيد وآمتم بما جاءكم من الحق يغفر لكم ما قد سلف ، وإن أبيتم إلا الإصرار على ما أنتم عليه فإن سنن الله التي خلت في الأولين ستمضي في الآخرين دون تبديل أو تحويل ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٧٧٢) . ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ وقد أرسل الله الرسل من قبل ، وكل من

(٧٧٠) سورة سبأ : ٤٨ - ٥٠ .

(٧٧١) سورة الحاقة : ٤٤ - ٤٧ .

(٧٧٢) سورة الأنفال : ٣٨ .

كذب الرسل قد حق عليه وعيد الله . ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيِّسِ
وَشُؤْدُ ﴿٧٢﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿٧٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ
وَعِيدُ ﴾ .

﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعَ عَامِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَنِيعَ إِلَّا مَا يُوْحِي إِلَيَّ
وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ .

ولا عذر بعد بيان ولا حجة بعد إعدار وإنذار.

﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا وَلُوا
الْأَلْبَابِ ﴾ (٧٧٣) .

١٤٠

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الأحقاف ﴿ قُلْ
أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ لَوْ شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَنَأْمَنْ
وَأَسْتَكْبَرْتُمْ إِنْ أَنَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٧٧٤) .

حديث القرآن عن القرآن هنا فيه بيان لما خوطب به الجاحدون الكافرون
بالقرآن من أن القرآن إذا ثبت عندكم أنه من عند الله ثم كفرتم به بعد ذلك فأنتم
ظالمون لأنفسكم، محرومون من الهداية والتوفيق بسبب ظلمكم .

وقد ثبت عندكم أنه من عند الله وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثل ما
في القرآن من الدعوة إلى التوحيد وهو ما جاء به النبي ﷺ ودعا إليه . فليس
بدعا من الرسل وهو يدعو إلى ما دعا إليه الرسل جميعا . فمن كذبه فقد كذب
الرسل جميعا .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ
بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ
حَقًّا وَاعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾ ﴾ (٧٧٥) ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ

(٧٧٣) سورة إبراهيم : ٥٢ .

(٧٧٤) سورة الأحقاف : ١٠ .

(٧٧٥) سورة النساء : ١٥٠ - ١٥١ .

اللَّهُ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَنَامَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٢٥﴾ .

وأي ظلم أكبر من ظلم من ينكر الحق وهو يعلم أنه الحق .

وتلك شهادة شاهد من بني إسرائيل هو عبد الله بن سلام . لما أراد أن يسلم قال : يا رسول الله ، قد علمتُ اليهودُ أنني من علمائهم ، وأن أبي كان من علمائهم .

وإني أشهد أنك رسول الله ، وأنهم يجدونك مكتوبا عندهم في التوراة . فأرسل إلى فلان وفلان - ومن سماه من اليهود - وأخبرتني في بيتك . وسلّمهم عني وعن أبي . فإنهم سيحدثونك أنني أعلمهم . وأن أبي من أعلمهم . وإني سأخرج إليهم فأشهد أنك رسول الله وأنهم يجدونك مكتوبا عندهم في التوراة وأنك بعثت بالهدى ودين الحق .

ففعل رسول الله ﷺ ذلك .

فخبّاه في بيته ، وأرسل إلى اليهود فدخلوا عليه .

فقال لهم رسول الله ﷺ : ما عبد الله بن سلام فيكم ؟

قالوا : خيرنا وابن خيرنا وسيّدنا وابن سيّدنا ، وأعلّمنا وابن أعلّمنا .

فقال رسول الله ﷺ : رأيتم إن أسلم تُسلموا ؟

قالوا : أعاده الله من ذلك .

فدعاه النبي ﷺ فخرج . ثم قال : أشهد أنك رسول الله ، وأنهم يجدونك مكتوبا عندهم في التوراة . وأنك تُبعث بالهدى ودين الحق .

فقال اليهود : إنه شرُّنا وابن شرِّنا ، وأخذوا ينتقصونه . وخرجوا كُفَّارًا .

فأنزل الله في ذلك ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَنَامَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

وهذه الآية وإن خوطب من خوطب بها من قبل عند نزولها فإن الخطاب بها لانتقطع دلالة في الدعوة إلى الإيمان بما نزل من الحق .

وأولى الناس بأن يخاطب بها هم أهل الكتب الذي يجدون الرسول ﷺ مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل .

وعلى الأجيال من أهل الكتاب أن يعلموا ما كان من شهادة هذا الشاهد من بني إسرائيل .

وستظل هذه الآيات البينات تُتلى وتذكر بما هو موجود حقاً في التوراة والإنجيل وتدعو إلى اتباع الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل - وإن أنكروا ذلك أو أخفوه .

فإن اتباع هذا الرسول ﷺ اتباع لما جاء به موسى وما جاء به عيسى عليهما السلام . وتكذيبه تكذيبٌ لجميع المرسلين .

وذاك حديث القرآن عمن استجاب لنداء الله فآمن ولم يفرق بين أحدٍ من رسل الله . ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ أَمْنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٧٧٦) .

هذا بلاغه وذاك نداؤه .

(٧٧٦) سورة الأعراف : ١٥٧ .

﴿ قُلْ يَتَّيِّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ
الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (٧٧٧).

نداء بارز منصف كريم، يدعو الناس جميعًا إلى كلمة سواء بها يعدلون
ويفلحون ﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٧٧٨).

١٤١

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الأحقاف ﴿وَقَالَ
الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَيَسْأَلُونَ
هَذَا أَفْكَ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ
لِسَانًا عَرَبِيًّا لِنُذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ (٧٧٩).

في حديث القرآن هنا بيان لما قاله الذين كفروا والذين آمنوا في شأن القرآن
الكريم وما دعا إليه الرسول ﷺ: قالوا: لو كان ما جاء في القرآن وما جاء به
محمد ﷺ من الدعوة إلى الإسلام فيه خير لكانا أسبق إلى التصديق والإيمان
به من الذين أسرعوا وأسلموا.

قولٌ يقولونه: ينبئ عن استكبارٍ وعناد واستهزاء بمن آمن واستخفافٍ بهم
يَبْرُزُونَ به كفرهم وجحودهم.

وحيث لم يؤمنوا فإنهم يسيئون ويضلُّون. وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا
إفكٌ قديم. فليس هذا - في زعمهم - من عند الله بل هو أساطير قديمة كتبها
المتقدمون ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ
فَقَدْ جَاءَ وظُلُمًا وُزُورًا ﴿١٢﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أكتبها فهي تُمَلَّى
عليه بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٧٨٠﴾.

(٧٧٧) سورة الأعراف: ١٥٨.

(٧٧٨) سورة آل عمران: ٨٢.

(٧٧٩) سورة الأحقاف: ١١ - ١٢.

(٧٨٠) سورة الفرقان: ٤ - ٥.

والذين يقولون بأفواههم ما يقولون يخدعون أنفسهم بما يقولون لأنهم أعرف الناس أن الخلق جميعا من قبل ومن بعد عاجزون كل العجز أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بسورة منه . وأن القرآن بما اشتمل عليه خطاب متميز بحقائقه التي لو كانت من عند غير الله لوجدت مع الزمن الممتد ما يخالفها أو ينتقص منها أو يزيد عليه . وهم يرون تأويلها في أنفسهم وفي حقائق الحياة من حولهم ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾ . ولم يكن القرآن الكريم بمعزل عما يصدق من كتاب جاء إماما ورحمة لمن نزل فيهم ﴿ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة﴾ .

لقد جاء القرآن بعد كتاب موسى مصدقا لما جاء في التوراة من أن محمدا رسول الله شاهدا أميناً على ما جاء فيها من عند الله .

جاء هذا الكتاب بلسان عربي لينذر الذين ظلموا أنفسهم بالإصرار على الكفر والشرك بالله ويبشر المحسنين الذين أخلصوا دينهم لله وآمنوا برسول الله جميعا بلا تفرقة بين رسول ورسول . وفي هذا الكتاب بيان لجزاء من أحسن ومن أساء ولا يستوي في الجزاء محسن ومسيء كما لا يستوي تقي وفاجر .

فالذين آمنوا واستقاموا على الحق جزاؤهم عند ربهم آمنٌ وخلود في رحمة ربهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٣) ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٧٨١) .

والله عز وجل يخبر عن الجزاء ليعلم الناس نتيجة أعمالهم . وفي ذلك ما فيه من دعوة إلى الاستقامة والإحسان وتحذير من الإساءة والعوج . فمن أبصر فلنفسه ومن أساء فعليها . ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمٌ لَّارِيبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٧٨٢) .

(٧٨١) سورة الأحقاف : ١٣ - ١٤ .

(٧٨٢) سورة غافر : ٥٨ - ٥٩ .

تلك ثمرة إنذار القرآن للظالمين وبشره للمحسنين . فليحذر أولئك الذين يستهينون بإنذاره أو يستخفون ببشره . فإنه وعدٌ صادقٌ وحقٌ واقع ، ما له من رادٍّ ولا دافع ، ولن يخلف الله وعده ﴿والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ (٧٨٣) .

ومن رحمته - سبحانه - أن جعل جزاءه منوطا بعملهم لتنعم دنياهم بالبر والإحسان فيما بينهم ، وليتنافسوا على عمل الخير والمسارة إليه والإمساك عن الشر والكف عنه . وسيظل القرآن يقدم إنذاره لهؤلاء وبشره لأولئك . وفيما يقع من تأويله عبر وعظات ، ويوم القيامة يأتيهم تأويل ما بشر به وأنذر . ﴿ويوم يُرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم﴾ (٧٨٤) .

١٤٢

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الأحقاف ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ يَنْقُومُنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَدَاعِيَ الْإِنسَانِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيَجْزِيَ الَّذِينَ لَا يُجِيبُونَ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٧٨٥) .

في هذه الآيات بيان لموقف نفر من الجن قد استمعوا إلى هذا القرآن فتنادوا بالإنصات واطمأنت قلوبهم مع سماعه إلى الإيمان به ، وانصرفوا إلى قومهم منذرين يدعونهم إلى الله ويبشرونهم بالمغفرة ويحذرونهم من الإعراض .

(٧٨٣) سورة الزمر: ٦٧ .

(٧٨٤) سورة النور: ٦٤ .

(٧٨٥) سورة الأحقاف: ٢٩-٣٢ .

وفي حديث القرآن عنهم والتذكير بما كان منهم إيقاظ لقلوب البشر الذين هم أولى بذلك من الجن ، والرسول ﷺ منهم وفيهم ، والقرآن يُتلى عليهم .

وهذه الآيات تشير إلى حادث قد وقع - كما تشير إلى سورة الجن . وقد وردت فيه روايات متعددة أصحها ما أخرجه البخاري ومسلم ورواه الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال « ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم » انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ . وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا : ما لكم ؟

فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب .

قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث .

فاضربوا في مشارق الأرض ومغاربها وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء . فانطلقوا يضربون في مشارق الأرض ومغاربها . يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء .

فانصرف أولئك النفر الذي توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ . وهو بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر .

فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا : هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء . فهناك حين رجعوا إلى قومهم . وقالوا : « يا قومنا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً » وأنزل الله على نبيه ﷺ ﴿ قل أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن ﴾ وإنما أوحى إليه قول الجن .

وفيما قصه الله علينا - من خبر هذا النفر من الجن - عبر وعظات :

فقد كان هذا النفر من الجن أهلاً لأن يذكروا وأن يكونوا دعاة لغيرهم وهذه لقومهم وحديثا يتلى على الجن والإنس ، ومثلاً لكل طالب علم لا يفوته أدب الطلب ولا يقعد عن تبليغ ما عليم من الحق .

وما أخرى دعاة الحق أن يتدبروا ما قاله هذا النفر من الجن - وهم يستمعون القرآن ويستجيبون لداعي الحق ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا آلِهَدَىءَ أَمْنَابِهٖ ۖ فَمَنْ يُّؤْمِنُ بِرَبِّهٖ ۚ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ . وقالوا ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانَا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ . فما أخرى دعاة الحق من الإنس أن تكون لهم مع القرآن خلوة .

ومن تلاوته زيادة إيمان وخشية ، ومن هدايته سبيل إخلاص لمقاصده وتبليغ لدعوته ويكونون به راشدين موحدين مخلصين مطمئنين ثابتين على طريق مستقيم .

هكذا كان هذا النفر من الجن وقد استمعوا إلى القرآن وعملوا به .
لقد سمعوا ما أنزل إلى الرسول ﷺ فكانوا بما سمعوا معلمين راشدين ، وكان للحق تأثيره في نفوسهم .

أحسنوا الأدب في التلقي وسماع القرآن ﴿فلما حضروه قالوا أنصتوا﴾ .
عادوا إلى قومهم فبلغوا ما سمعوا دون إبطاء أو قعود أو تخاذل ﴿فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين﴾ .
وعُوا وفقهُوا فكان بيانهم بيان حفيظ أمين .

عرفوا الحق فلزموه ودعوا إليه وبينوا نتائج الإيمان به والاستجابة له وحذروا من مخالفته أو الإعراض عنه . فجمعوا بين الترغيب والترهيب . ﴿يَقُومَنَّ أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ ۖ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ۖ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ .

هكذا قد بلغوا رسالة ربهم ، وصدقوا في نصح قومهم وخاطبهم بالقول الذي لا يجحد ولا يُردُّ ولا ينقض ﴿ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض﴾ .

فكم من جبار قصمه الله . وكم من مفسد دمّر الله عليه . وباع خسف الله به
وظالم أخذه الله أخذ عزيز مقتدر .

وفي الحياة عبر أي عبر ، وعظات لمن اتعظ .

ومن لا توقظه مواعظ الحق صبحته قوارعه .

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ .

١٤٣

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة محمد ﴿الَّذِينَ
كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا
بِمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ
﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ
كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ (٧٨٦) في هذه الآيات بيان لحقيقة القرآن وما
يدعو إليه ، وموقف الناس منه .

ومن رحمة الله بالخلق وهم في دار الامتحان والاختبار أن يبين لهم نتائج
الإيمان بالحق والعمل به وعاقبة الكفر به والصد عنه .

الذي أنزل على محمد ﷺ هو الحق من ربهم .

والذين اتبعوه كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم .

وما خالفه هو الباطل ، والذين اتبعوه أضل أعمالهم .

والباطل ذاهب هالك . والحق ما كثر باق .

والحق من ربك فمن اتبعه هُدي إلى صراط مستقيم . ومن تعمد مخالفته
استحوذت عليه الشياطين . والحق دعوة الله إلى جميع الخلق . وفي الحق
صلاحهم وفلاحهم والله - سبحانه - لم يطلب من عباده إلا ما يصلح حالهم

(٧٨٦) سورة محمد : ١ - ٣ .

ويقوي روابطهم ويحقق التعاون الصادق بينهم على البر والتقوى ، لا على الإثم والعدوان .

أليس الكفر به جحودًا؟ ومن جحد حقَّ الله في أن يُعبد ولا يشرك به شيئًا هل يرجى منه أن يكون وفيا لغيره؟ وهل يتحقق أمن أو سلام ممن لا وفاء له ولا إيمان .

إلام يدعونا الحق الذي أنزل على محمد ﷺ؟ يدعونا إلى العدل فيما بيننا .

فمن أبى العدل فماذا يريد؟

ومن أبى الصدق فماذا يريد؟

ومن أبى التعاون على البر والتقوى فماذا يريد؟

ماذا بعد فضائل الحق إلا رذائل الضلال والباطل؟

ماذا بعد الصدق والعدل والأمانة والبر إلا الكذب والظلم والخيانة والإثم؟

وهل يقام سلام بين الناس بهذه الرذائل وأخواتها .

إن للحق شريعته ومنهجه ، فمن أباه دفع الثمن من أمنه وراحته ومعيشته وشرب من أنواع الذل والهوان ما تصبح به معيشته ضنكا وعاقبته خسرا ومن أخضع هواه لما نزل من الحق سَعِدَ به وأصلح ولم يُفسد . وسنن الله تعطي كلَّ عامل عمله . والميزان هو ما نَزَلَ من الحقَّ وبُلِّغَ به الخلق . ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم﴾ .

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نَزَلَ على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم﴾ ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة محمد ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَالَهُمْ﴾ (٧٨٧).

إن من تدبر القرآن الكريم وجد قضية الشرط والجزاء متضمنة في آياته حتى فيما يجيء منها في صيغة الجمل الخبرية. ليعلم أن لكل عمل جزاءه، وأن لكل سعي عاقبته ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

هنا شرط لا بد أن يتحقق، شرط يحققه أهل الإيمان لينالوا جزاءه، أن ينصروا الله في أنفسهم بأن يخلصوا له، وألا يشركوا به، وأن يكون الله أحب إليهم من ذواتهم ومن كل ما تهوى نفوسهم، وهم لن يستطيعوا أن ينتصروا على غيرهم إلا إذا انتصر الحق في نفوسهم بتغليب أمر الله على أهوائهم، وتحكيم شرع الله ومنهاجه في واقع حياتهم، عندئذ يكون الجزاء ﴿يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ شرط لا بد منه لطلب النصر والتأييد من الله أن يكون عمل المؤمن كله لله وفي سبيل الله وابتغاء مرضاته، وأن يكون الهدف دائما إعلاء كلمة الله، وأن يهيمن دين الله على ضمائر الناس وأخلاقهم وسلوكهم وأنظمتهم ومعاملتهم وعلاقاتهم بغيرهم، وينتفي من حياتهم ما يخالف دينه ويبعدهم عن الإخلاص له؛ ذلك أن النصر من عند الله وحده وما عند الله لا يطلب إلا بطاعته، إنك لن تنصر الله في معركة حتى تنصره في نفسك بتغليب أمره على هواك. والذي يطلب نصر الله عن غير هذا الطريق يخسر نفسه، ويحبط عمله فقد سئل الرسول ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاقل حمية

ويقاتل رياءً، أي ذلك في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» كما جاء في الحديث المتفق عليه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

فذلك هو شرط الله على الذين آمنوا «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا» وجزاؤهم إن هم صدقوا في ذلك النصر وتثبيت الأقدام لأنهم يقاتلون في سبيله، ومن قاتل في سبيله نصر بإذنه وفاز بجنته.

﴿ينصركم ويثبت أقدامكم﴾.

وفي تثبيت الأقدام معنى يجب أن يلتفت إليه وقد جاء بعد قوله ينصركم، وتأخير ذكره يوحي بأن معناه أوسع مما يتصور من تثبيت الأقدام لتحقيق النصر فحسب؛ فالنصر ليس نهاية المعركة بين الحق والباطل والكفر والإيمان؛ فإن للنصر تكاليفه، وتلك تحتاج إلى ثبات في القصد، وبُعْد عن البطر والزهو والتراخي والتهاون. فكم من ناس قد يثبتون في معارك القتال، ويهزمون أمام زهرة الحياة الدنيا. وتكاليف النصر قد نبه القرآن إليها، وأرشد إلى التمسك بها وعدم التفريط فيها وإلا كان النصر وبالاً على أهله.

ومن الناس ناس إذا انتصروا ازدادوا جرأة على حرمان الله. لذا فإن للتمكين الذي يعقب النصر فرائض يجب أن تقام وإلا فقد النصر ثمرته، ولقي الممتحنون بالنصر ما يلقيه المضيعون، والله قد نصرهم واستخلفهم لينظر ماذا يعملون، وهو سبحانه إن يشأ يذهبهم ويستخلف من بعدهم ما يشاء.

وتلك فرائض النصر وتكاليفه: ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور﴾^(٧٨٨) لله لا إلى غيره عاقبة الأمور، وعندئذ يكون النصر نصراً بحسن عاقبته ودوام مسرته وبقاء نعمته، ولا يكون كذلك إلا إذا كان لإعلاء كلمة الله ونصرة الحق الذي أمر به، ودعا إليه.

(٧٨٨) سورة الحج: ٤١.

وإذا علم أن الأمور بعاقبتها سلمت المقدمات مما تسوء به العاقبة من كفرٍ وفسوق وكره للحق .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالُهُمْ﴾ .

ومن تدبر العواقب مع الزمن الممتد أيقن أنها سنةٌ باقية لا تتبدل ولا تتحول ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ .

وقد يخدع ناس بما يرون لأهل الكفر والكارهين للحق إملاء واستدراجا وينسون ما هم صائرون إليه ومتهنون عنده .

إن الذين كرهوا ما أنزل الله قد أخبر الله عنهم خبراً له دلالة .

إنهم يبدون أمام نظر الناس متفخين ، كبطون الأنعام عندما تأكل نوعاً ساماً من المرعى ينتهي بها إلى الهلاك ﴿ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم﴾ وأصل الحبط من الحبط ، وهو أن تكثر الدابة أكلها حتى يتنفخ بطنها ثم تقتل بما فعلت ، وهؤلاء يهلكون بأعمالهم كما تهلك الدابة بما أكلت من مرعى سام . تلك هي العاقبة لمن كفر بالله ، وكره ما أنزل من الحق ﴿والذين كفروا فتعسا لهم﴾ خزيًا وشقاء وبلاء ﴿وأضلَّ أعمالهم﴾ لأنها عُمِلت في طاعة الشيطان لا في طاعة الرحمن ، ذلك الذي فعلنا بهم من الإتعاس وإضلال الأعمال من أجل أنهم كرهوا كتابنا الذي أنزلناه إلى نبينا محمد ﷺ وسخطوه وكذبوا به فأحبط أعمالهم وأبطلها وأصلاهم سعيراً .

وهذا حكم الله جل وعلا في جميع من كفر به من أجناس الأمم أن من كذب بالحق وأبى نوره دُمِّر كما دُمِّر المكذبون من قبله ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة محمد ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ أَفَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۚ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ ۚ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُرْعَانَ أَمَرَ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا ۚ﴾ (٧٨٩).

من سنن الله في خلقه ألا يدع الناس أو يتركهم أن يقولوا آمنا دون كشف لحقيقتهم وإظهار لمعادنهم وتمييز بين صادقهم وكاذبهم، وتلك سنته في خلقه ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْقِنُونَ ۚ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (٧٩٠).

ولا شيء يكشف عن حقيقة الناس كالشدائد تمر بهم والأخطار تقع في حياتهم، إنها بلاء يميز الصفوف، ويمحص النفوس، ويظهر الصادق من الكاذب.

وعجيب أمر الناس، في أوقات السلم لهم حال، وفي ساعة العُسرة تتبدل الأحوال، ويسبق ناسٌ بإيمانهم وأعمالهم، ويتخلف آخرون.

والله عز وجل لا يذر أهل الإيمان على ما هم عليه دون تمييز لصفوفهم وتمحيص لنفوسهم، وإبعاد للخبيث الذي يحاول أن يمتزج بهم ليبقى ما ينفع الناس خالصا نقياً لا يلبسُ بزبد أو باطل ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ﴾. ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۚ﴾.

(٧٨٩) سورة محمد: ٢٠-٢٤.

(٧٩٠) العنكبوت: ١-٣.

ولتدبر هذه الآيات وما تضمنته من حديث القرآن عن ناسٍ يُظهرون ما يُظهرون من غيرة على المقدرات وحسن الاستجابة لما يرون فيه بريق منفعة، فإذا ما وقعت الشدائد وجاء الجد رأيت منهم غير ما كانوا يظهرُونَ .

وهذا الصنف من الناس لا يثبت على حال يدور مع المنفعة حيث يراها، إن أقبل الخطر فزعت نفوسهم وابتعدوا لا يريدون إلا فرارا . وإن بدت المنفعة أقبلوا معتذرين عما كان منهم طالبين للمنفعة راغبين فيها . هذا الصنف من الناس مخادع يبدي الشجاعة في السلم ، ولا ينصر أخا له في ساعة بأسٍ وحزم ، إنهم أهل النفاق ، في كل زمن هم أهل إضلال وإفساد .

ينشد أهل الصدق والإيمان جهاداً في سبيل الله يردون به كيد الباطل وينصرون الحق ، فإذا ما فرض الجهاد وأنزلت آياته رأيت أهل النفاق على حال كما أخبر القرآن عنهم ﴿ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ ، جبن وهلع وخوف وفزع يسيطر على نفوسهم ﴿ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ والناس من خوف الموت في موت .

والحياة بمعناها الحق لا تُوهب إلا لمن صدق وصبر « احرص على الموت تُوهب لك الحياة » .

كلمة للصديق — رضي الله عنه — تنبى عن فقه في الدين وإيمان وصدق يتقين ؛ فما الحياة التي يحرص الناس عليها إلا متاع ذاهب وما الموت الذي يفرون منه إلا قضاء واقع ، يلقيه كل الناس ، من أقبل عليه ومن فر منه ، ومن أقبل عليه في إعلاء حق نعم بالحياة ، ومن فر منه طلباً للباطل أفسد وضلّ ولقي ما يلقيه المفسدون المضلون .

﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۚ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۚ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ۚ﴾.

فلنتدبر معاني القرآن ومقاصده حتى لا نفع فيما حذر منه أولئك المنافقون من إفساد في الأرض وقطع للأرحام وإعراض عن مقتضيات الإيمان، ولنتبع هدايه حتى لا نضل عن سبيل الله فنؤثر ما يفنى على ما يبقى ونفتن بزينه الحياة فتلهينا الذاهبات عن الباقيات، وتصرفنا العاجلة عن الآخرة، وما استحق من استحقوا لعنة الله إلا بإعراضهم عن تدبر القرآن، وما يُوحي إليه فحيل بين قلوبهم وبين نوره وهدايته.

﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾.

١٤٦

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة محمد ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَّانَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا ۚ إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْحَبَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ۚ فَاحْبِطْ أَعْمَلَهُمْ ۚ﴾ (٢٨) أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغاثهم (٢٩) ولئن شاء لأزيتكنهم فلنفرنهم بسيمهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم (٣٠) ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم (٧٩١).

(٧٩١) سورة محمد: ٢٤ - ٣١.

إن الله قد حفظ القرآن لتبقى معالم الحق بينة للأجيال كلها ، ولينتهي الناس إلى هذه المعالم دون تعدُّ أو تجاوز ، ولكن مواقف الناس تختلف بالنسبة لهدى الله ، فمنهم مؤمن متبع ، وأكثرهم معرض مخالف . منهم من يقوده إيمانه و يقينه ومنهم من يتبع هواه ويكون عبدا لما يشتهي ويرغب ، والله عز وجل لا يدع الناس دون حساب وجزاء . كلُّ يُجَازَى بما عمل ، ولا يستوي في ميزان الحق محسن ومسيء ومتق وفاجر ، وقد حفظ الله هذا الكتاب لتبقى التبصرة والذكرى قائمة في حياتهم جميعا لا تغيب عنهم ولا تبتعد عن أي شأن من شئونهم .

ومن أبى إلا أن يُغلق قلبه عن هداية القرآن ، وأن يقضي عمره غافلاً عن يوم حساب وجزاء ضل وأفسد ، وعاش في دنياه متلوِّنا مذبذبا لا يعرف ثباتا أو استقراراً .

كلما بدا سراب منفعة عند هؤلاء سعى إليهم وأظهر لهم طاعة وإخلاصا فإذا رأى المنفعة عند عدوهم سعى إليها وراءى من أجلها .

يقول لكل فئة ما يُرضيها ، يرائي الناس ولا يذكر الله إلا قليلا ، وقد وصف القرآن الكريم حال هؤلاء ليكون الناس على بينة من أمرهم ليحذروا فسادهم وإفسادهم ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمُ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِجْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ (١١١) إِنَّ الْمُتَنَفِّقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١١٢﴾ مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ

وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَا يَمُوتُ وَمَنْ يُمْضِلِ اللَّهَ فَلَنْ يَحْدِلَهُ سَبِيلًا ﴿٧٩٢﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا
الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا
مُبِينًا ﴿٧٩٢﴾.

هذا بيان القرآن الكريم .

وهو يرينا هذا الصنف الذي يُفسد في الأرض ، ولا يبالي بما يقول أو يفعل
فلتندبر ولنعتبر .

ولتكن ثقتنا فيمن يتقي ربه ويخشاه .

لتكن ثقتنا في أهل الصدق والأمان والوفاء ، ومع التجارب والشدائد تعرف
معادن الناس .

ولنجعل من صفوف أهل الإيمان قوة بالحق كما أمر الله ، قوة يستجير بها
المظلوم ويردع الظالم .

فتلك رسالتنا وبها تتميز الصفوف وتُعرف خبايا النفوس ، ويصفو المعدن
الأصيل ، ويتخلص من كل زبد يلتصق به ، والله لن يدع أمور الناس لدعاوهم
وأمانهم ، وهو يحيط علما بسعيهم ومقاصدهم فلا بد من ابتلاء يكشف أمرهم
للناس ولأنفسهم فيبقى ما ينفع الناس ويمكث في الأرض ، ويذهب جُفَاءً ما
لَصِقَ به ، ومع الماء موج يُقَذَفُ ما حَمَلَ من زبد ، وللمعدن نارٌ تُوقَدُ يصفو بها
معدنه ويُقَذَفُ زَبْدُهُ . ولن يصفو للحياة مأوها ومعدنها إلا بامتحان واختبار
﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ الْخَبَارَ ﴾ .

(٧٩٢) سورة النساء : ١٤١ - ١٤٤ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة ق ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْوَعْدُ إِنَّهُمْ مُخْتَارُونَ﴾ (١) ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كَذِبًا مُّكْتَرَبًا﴾ (٢) ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كَنْزٌ حَافِظٌ﴾ (٣) ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيعٍ﴾ (٧٩٣) أقسم الله بالقرآن موصوفا بهذه الصفة (المجيد) الدالة على ما له من نفع وشرف عظيم، ليلفت النظر إليه ويدعو الناس للإقبال عليه والإفادة من كرمه وعطائه وتبصرته وهده. ﴿والقرآن المجيد﴾.

ومن كرم القرآن وعظم شأنه وكريم عطائه وسمو منزلته أن لا شيء إلا للقرآن فيه هداية وبيان وموعظة. وتبصرته لا تقف عند حدود الدنيا فحسب بل يمتد نوره إلى ما وراء ذلك فيُري الناس ما يجب أن يكونوا عليه وما هم صائرون إليه من بعث وحساب وجزاء وجنة أو نار يريهم كل ذلك وهم في دنياهم يمشون في الأرض يبتغون من فضل الله ليحقق لهم من الخشية ما يصون دنياهم من الظلم والفساد؛ فإن من خشي ربه كف شره عن غيره وقدم خيره، ومن نسي الله خضع لهواه وأثر دنياه.

وحديث القرآن عن البعث له دلالة في حياة الناس، وفيهم أدلته، فمن أنكره فقد أنكر آية الله في خلقه، ومن استبعده فقد استبعد ما هو حتم واقع وكان استبعاده سوء ظن يفضي إلى أن الخلق عبث وباطل. وتعالى الله الملك الحق أن يخلق عبثاً أو باطلاً.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (٧٩٤) ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ (٧٩٥).

(٧٩٣) سورة ق: ١-٥.

(٧٩٤) سورة ص: ٢٧.

(٧٩٥) سورة المؤمنون: ١١٥-١١٦.

الدنيا امتحان واختبار، والامتحان له آثاره ونتائجه، وعليه يكون الجزاء وبه تتحدد درجات الناس ومكانتهم.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَ كُنَّ عَلِيمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ٣ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ٤ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ ٥ ﴾ (٧٩٦).

أي عجب إذن في أمر البعث إذا أسند لقدرة الله وعلمه؟

والإنسان يرى أدلته في نفسه وفي الآفاق من حوله.

إن آية البعث قائمة فيهم وهم عنها عمون.

﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَذَا مَاتْتُ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ٦٦ أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَعَلَّكَ شَيْئًا ٦٧ ﴾ (٧٩٧).

إن من رحمة الله بالخلق أن أرسل فيهم رسولاً منهم يبلغهم ما أنزل إليه من ربه ويشرهم وينذرهم ويخبرهم بما هم صائرون إليه ومحاسبون عليه.

لكن ناساً من الناس يأبون الرحمة ويظهرون العجب من أن يبعثوا أو يحاسبوا، ويستبعدون أن يعودوا خلقاً جديداً بعد أن ماتوا وصاروا تراباً.

﴿ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذَرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ٦٨ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ٦٩ ﴾.

﴿ وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ٧٠ أَقُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ٧١ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْفُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ٧٢ ﴾ (٧٩٨). أليس الاستبعاد عمى وإنكاراً وجحوداً؟

(٧٩٦) سورة سبأ: ٣-٥.

(٧٩٧) سورة مريم: ٦٦-٦٧.

(٧٩٨) سورة الإسراء: ٤٩-٥١.

إن كان الاستبعاد عند القوم لاستبعاد القدرة على الإعادة فذاك أثر القدرة أمام أعينهم في خلق السموات والأرض ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٧٩٩)، وإن كان الاستبعاد عند هؤلاء لاستبعاد العلم الذي يحيط بالأجساد ويميز بعضها من بعض فالله قد أحاط بكل شيء علماً. ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ﴾.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨) ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٨٠٠).

لا مجال لاستبعاد والخلق والبعث مسندان إلى الله لا إلى غيره ﴿ذلك حشر علينا يسير﴾ علينا لا على غيرنا.

ولكن الذين استبعدوا نظروا إلى قدرة المخلوق ولم ينظروا إلى قدرة الخالق، وإلى جهل المخلوق لا إلى علم الخالق، فكان استبعادهم إنكاراً لأنفسهم وظلماً لحقيقة وجودهم.

لا استبعاد والأمر كله مسند إلى قدرة الله وعلمه، لا إلى عجز المخلوق وجهله ﴿أَفَعَبِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (٧٩) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُمُ مَّا تَوْسَّوْسُ بِهِ نَفْسَهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾.

فأيهما أشدُّ خفاءً : وسوسة في الصدور أو ميت في القبور؟

القرآن حق وما أخبر به هو الحق، ومن كذب بالحق اضطرب أمره وضل سعيه ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ وللحق آياته في الآفاق وفي الأنفس تخاطب الناس بقدرة الله وحكمته حيث كانوا، وتتسق مع آيات القرآن في تبصرة الإنسان وتذكرته.

(٧٩٩) سورة غافر: ٥٧.

(٨٠٠) سورة يس: ٧٨-٧٩.

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ (٦)
وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى
لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨٠١﴾ .

١٤٨

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة ق ﴿ إِنَّا نَحْنُ
نَحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴾ (٤٣) يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا
يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَأْنَتْ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ
وَعِيلَهُ ﴿٨٠٢﴾ .

يخاطب الناس بالحياة كما يخاطبون بالموت ، والله قد خلق الموت والحياة
ليبلو الناس أيهم أحسن عملاً .

فالموت يقدم للناس عظته وعبرته . والحياة تبصر الناس بقدرة الله على
إحيائهم من بعد موت ، ولا عذر لأحد - من بعد بيان - في كفر أو جحود .

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ
يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٨٠٣) ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ
تَارَةً أُخْرَى ﴾ (٨٠٤) .

هكذا يُخبر القرآن بما هو واقع مشاهد من حياة وموت ليعرف الناس غاية
وجودهم وحكمة خلقهم وعاقبة أمرهم ، ومن أيقن بذلك سارع إلى الخيرات
وكف عن السيئات ، وفي ذلك ما فيه من أمن لديناهم وتحقيق التراحم فيما
بينهم .

(٨٠١) سورة ق : ٦ - ٨ .

(٨٠٢) سورة ق : ٤٣ - ٤٥ .

(٨٠٣) سورة البقرة : ٢٨ .

(٨٠٤) سورة طه : ٥٥ .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴾ .

هكذا بكل تأكيد ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَحْيِي وَنُمِيتُ ﴾ فالله الحق هو الذي يحيي الخلائق وهو الذي يميتها ، وإليه لا إلى غيره عاقبتها ومصيرها .

والقرآن وهو يتلى على الناس ويذكرهم بهذه الحقائق الواقعة فيهم يعينهم على صدق الإيمان واليقين ، وهم يرون صدق حديثه في أنفسهم ويشاهدونه في الآفاق من حولهم .

ولا أبلغ من حديث ترى صدق دلالة في نفسك وتشاهده في موت وحياة والله حي لا يموت فتحسن التوكل عليه وتصدق في الفرار إليه ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ وكفى به بذنوب عباده خيراً ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴾ .

وإذا أيقن الإنسان أنه يمر بهذه المراحل ، يمر بالدنيا ولا يقيم ، وهو لا يدري متى يُدعى فيجيب ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ إذا أيقن الإنسان بذلك عرف أين يكون الخير له؟ وفيمن يكمن الشر؟ فجعل استباقه إلى الخيرات قربى لربه وزاداً لغده .

وهو يعلم أنه من خيره في خير أبداً ، ومن شره في شر أبداً .

يمر الإنسان بدنيائه ويأتيه الموت فيقبر في الأرض التي أخرج منها ﴿ مِنْهَا خَلَقْتَكُمْ فِيهَا نَعِيذُكُمْ ﴾ ، ويأتي أمر الله فتخرج الأرض أثقالها .

والعبرة قائمة أمام أعين الناس في الأرض التي يمشون عليها ، وهي تجمع بين الأحياء والأموات ، هؤلاء في بطنها وأولئك على ظهرها ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿ أَحْيَاءَ وَأَمْواتًا ﴾ .

فمن ذا الذي يكذب بالبعث وهو يرى حقيقته في موت وحياة ويمشي على أرض تجمع بين أموات وأحياء ؟ ﴿ وَيَلْزَمُهُمُ لَوْمَةُ الْمَكْذِبِينَ ﴾ .

(٨٠٥) سورة الفرقان : ٥٨ .

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ (١٣) يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿إِنَّهُ حَشْرٌ يَسِيرٌ عَلَى اللَّهِ لَا عَلَى غَيْرِهِ .

فلا استبعاد ولا إنكار .

لو كان البعث متعلقا بقدرة الناس لساغ لهم أن ينكروا وأن يجحدوا، أما والأمر مرتبط بقدرة الله فإن اليقين به ميسور لمن طلب اليقين ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ .

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ يَقْدِرْ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٨٠٦) .

ذاك حديث القرآن وبيانه، وتلك أدلته وذاك سلطانه فماذا يقول الجاحدون؟ وماذا يعملون؟ يكفي أن يُخبر القرآن المجيد بأن الله يعلم ما يقولون ﴿تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ ﴿فَسِيُخَذُ هَؤُلَاءِ بِمَا يَقُولُونَ وَيَفْعَلُونَ .

وما على الرسول إلا البلاغ ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ وسيظل القرآن - في عزته - يذكر ويبصر، ويحذر وينذر فمن خاف وعيده نجا وسلم، ومن أصر على الجحود خسر وندم ﴿تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ .

١٤٩

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الطور ﴿فَذَكَرَ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا جَنَّوْنَ﴾ (٢١) ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُّ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ (٣٠) ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ (٣١) ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ (٣٢) ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٣) ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (٨٠٧) .

(٨٠٦) سورة الأحقاف: ٣٣ .

(٨٠٧) سورة الطور: ٢٩ - ٣٤ .

إن الله قد أنعم على نبيه بما أنعم عليه من كمال الخلق ورجاحة العقل وكریم الخصال ، وأتمَّ نعمته عليه بما أوحى إليه وأمره أن يذكر بالقرآن وما جاء به وما يدعو إليه من هدى وطريق مستقيم ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ .

إن من أنعم الله عليه بكمال الخلق ورجاحة العقل وكریم الخصال ، من أنعم عليه بهذه النعم واختاره واصطفاه من بين خلقه ليلبغ ما أنزل إليه من ربه وشهد له بأخصِّ الخصائص التي تميزه من غيره — جدير أن يذكر ويبلغ ويبشر وينذر، ولا يجد الناس في فعله ما يناقض قوله ، فلا يأمر بشيء ويأتي ضده ، ولا ينهى عن شيء ويخالفهم إلى ما ينهاهم عنه ، ولا شيء من أمره إلا وفيه دلالة على صدقه وأمانته وصدق ما يدعو إليه ويبشر به أو يحذر منه .

فقوله دالٌّ على رجاحة عقل وسمو نفس . وفعله يتسق مع قوله ويقرب الناس منه ولا يجعلهم ينفضون من حوله .

والناس يشهدون بذلك وهم يسمعون منه ويتعاملون معه وشهادة الله أعظم وأكبر ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾ .

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ (٢١) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّبَرَّصُ بِهِ ۚ رَيْبَ الْمُنُونِ ﴿٢٢﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرَبِّصِينَ﴾ .

إن كل قول يخالف الواقع ساقط يسىء إلى قائله ، وكل باطل زاهق مهما ساندته أهله أو أكثر حزبه وجنده .

والزمن يعطى العبرة ويحكي العاقبة ، فليتربص من يتربص بمُحقٍّ فلن يرى في العاقبة إلا النصر للحق ، والله يحق الحق ويبطل الباطل بإرادته وقدرته وإن استدرج مبطل — بما يفتح عليه من أبواب كل شيء — إلى حين ، وإن أُملي له فإن كيد الله متين .

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ، فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (٨٠٨).

ومن تدبر العاقبة منذ خلق الله الخلق أيقن يقينا لا شك فيه أن الحق لا يهزم أبداً، وأن الباطل زبدٌ يطفو ويذهب فلا يمكث ولا يبقى، ومن عرف ذلك لزم الصدق فيما يقول أو يفعل.

لقد قال الكفار في رسول الله ﷺ ما قالوا، قالوا كاهن أو مجنون، وقالوا شاعر نتربص به ريب المنون.

قول باطل ضاق به قائلوه وأنكره سامعوه.

والكل يوقن يقينا لا شك فيه أن رسول الله ﷺ ليس بكاهن ولا مجنون، وإنما هو رسولٌ صدوقٌ رحيمٌ أمين.

وكم من حرٍّ كريم يُدعى عليه، وكم من فاضل تقى يسيء الظالمون إليه.

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ (٨٠٩).

وتوجيه الله نبيه فيه تبصرة لمن اتبعه واقتدى بهداه واعتصم بحبل الله ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ﴿١٨﴾ ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ ﴿١٩﴾ (٨١٠).

هكذا يشغل الكريم بما يناسب كرمه وفضله ويرضي ربه.

والله يكفيه سفاهة السفهاء، ويرد عنه كيد الجهلاء ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٩﴾ ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢١﴾ (٨١١).

(٨٠٨) سورة الأنعام: ٤٤-٤٥.

(٨٠٩) سورة الفرقان: ٣١.

(٨١٠) سورة الحجر: ٩٧-٩٩.

(٨١١) سورة الحجر: ٩٤-٩٦.

وكم من قول قيل من السفهاء ثم سقط .

وكم من كيد دبّروه ثم بطل ، وانتصر الحق مع قلة أهله وتكاثر عدده ،
وستبقى آية الله لنصر الحق وإزهاق الباطل عظة لمن يتعظ وعبرة لمن يعتبر .
﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ .

وكم في الأنفس والآفاق من آيات وعبر وعظات يبصر الإنسان فيها آية
الحق ويرى دلالة .

فلتدبر كتاب ربنا ، ولنلزم طريق الحق والصدق ولا نقل إلا ما يرضي الله ،
ولنعلم أن كل باطل مآله الزوال ، وأن الحق باق لا يزول .
فمن آثره فاز بالعاقبة ، ومن كذب بالحق أو عادى مُحَقِّقًا لقي ما يلقيه
المبطلون .

وقد نزل الله الكتاب على نبيه تبيانًا لكل شيء وما فرط فيه من شيء فلنكن
مع القرآن حيث كان ، ولنحذر مخالفته أو الإعراض عنه ، ولنستمسك به ،
ونذكر مقتدين بمن كان خلقه القرآن ﷺ معتصمين بالله متوكلين عليه ﴿ومن
يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾ .

١٥٠

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة القمر ﴿وَلَقَدْ
سَرَّنا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (٨١٢) .

إن القرآن الكريم قد سهله الله للحفظ والفهم لكي يتدبره من أراد أن يهتدي
به ويتعظ بما جاء فيه ، فهل من متعظ ومتذكر ؟

إن هذه الآية قد كررت في سورة القمر . وقد جاء تكرارها بعد آيات ، وبعد
ألوان من العبر والعظات ، وأنباء عن الرسل وما جرى معهم ، وما وقع
للمكذبين من أقوامهم لنرى من خلال هذه الأنباء الماضية سنن الله الباقية .

(٨١٢) سورة القمر: ١٧ .

جاءت الآية الأولى بعد حديث القرآن عن قوم نوح وما وقع منهم وما جرى لهم ، وتحققت سنة الله في هلاك المكذبين ونجاة المؤمنين ، وقص القرآن الكريم علينا ذلك موعظة وذكرى للمؤمنين ، وتحذيراً وإنذاراً للمكذبين المعرضين .

﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۖ ﴿١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ۖ ﴿٢﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۖ ﴿٣﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۖ ﴿٤﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوُجْهِ دُسْرًا ۖ ﴿٥﴾ نَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرًا ۖ ﴿٦﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ۖ ﴿٧﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ۖ ﴿٨﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ۖ ﴿٩﴾ ﴾ (٨١٣)

إن القرآن الكريم قد قص علينا ما كان من قوم نوح وهو يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً ويحذرهم عاقبة ما هم عليه من تكذيب وإعراض وإصرار واستكبار .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۖ ﴿١﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ۖ ﴿٢﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا ۖ ﴿٣﴾ إِذَا نَادَيْتُهُمْ أَنْ اسْتَغْفِرُوا لِثَابِتِهِمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا وَاسْتَكْبَارًا ۖ ﴿٤﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۖ ﴿٥﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۖ ﴿٦﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۖ ﴿٧﴾ ﴾ (٨١٤)

هكذا فعل نوح عليه السلام مع قومه وأعذر وأنذر، ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فما استجابوا له ولا ارتدعوا عن الإساءة إليه والسخرية منه .

استمر يدعوهم زمناً طويلاً وهم يكيدون له ويضيقون به ﴿وَمَاءَ أَمْنٍ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ فدعا ربه - وهم يبالغون في الإساءة إليه والسخرية منه - ﴿أني مغلوب فانتصر﴾ فاستجاب الله له ، وفتح أبواب السماء بماء منهمر ، وفجر الأرض عيوناً فالتقى الماء النازل من السماء والنابع من الأرض على أمر قد قدره وقضاه بأن يهلك قوم نوح بالماء الطاغي لأنهم كانوا هم أظلم وأطغى .

(٨١٣) سورة القمر: ٩ - ١٧ .

(٨١٤) سورة نوح: ٥ - ١٠ .

أهلكهم الله وجعل هلاكهم حديثاً يتلى على الناس ليعتبروا وهم ينظرون عاقبة المكذبين ، وليكون الحديث موعظة وذكرى للمؤمنين وهم يرون نجاة أهل الإيمان واليقين والماء مأموراً بأمر ربه ينزل غدقاً أو غرقاً .

فمع الطوفان الغامر ترى سفينة نوح تجري بمن حملت في موج كالجبال وهي في أمن وسلام ، وترى الماء الغاضب يمتد ويعلو - بإذن ربه - ليأتي بمن كفر ولو اعتصم برءوس الجبال ، ولو كان من أوى إليها ابن نبي ورسول ، ويؤدي الماء المؤتمر بأمر ربه ما أمر به وما قُدر له .

ثم تؤمر الأرض وتؤمر السماء بأمر من له الخلق والأمر سبحانه ، فتقلع السماء ، وتبتلع الأرض الماء بعد تحقيق أمر وتنفيذ قصد وكأن الماء جيش مجاهد في سبيل الله عاد منتصراً من أخذ عدو الله ليكون حيث يؤمر من تقديم غوث ونجاة أو إحداث إغراق وإهلاك .

﴿ وَقِيلَ يَتَّارِضْ أَبْلَعِي مَاءَكِ وَنَسَمَاءَ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨١٥) .

ويتلى ذلك على الناس ليكون تذكرة للأجيال كلها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ .

ليعلم الناس أن لكل شيء عاقبته ولكل عمل جزاءه .

وأن الكفر مهما بغى وتجبّر فإن العاقبة دمارٌ وهلاكٌ وبوارٌ وخسرانٌ ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴾ .

وما على الذين يريدون النجاة لأنفسهم والفوز في عاقبتهم إلا أن يتدبروا ما يتلى عليهم ، وأن يعرفوا سنن الله في خلقه ، وأن يأخذوا بأسباب النجاة من

عذابه وسخطه موقنين أن لا شيء من أمرهم بخاف على ربهم ، وأن لا شيء من عملهم يغيب عن ميزانهم . ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (٨١٦)

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة القمر ﴿ وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ (٨١٧) . وهذه الآية من سورة القمر قد تكررت في السورة وجاء ذكرها أولاً بعد قصة قوم نوح وإهلاكهم - وقد تحدثنا عن ذلك في حديث سابق - ثم أعيد ذكرها بعد الحديث عن عاد قوم هود وما وقع منهم وما جرى لهم .

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴾ (٨١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿ تَنَزَّعُ النَّاسُ ظَنَّنُوهُمْ أَنْعَارٌ نَحْلٌ مُتَقَعِرٌ ﴾ ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴾ (٨١٩) وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ (٨٢٠)

ذاك لون آخر من ألوان العذاب ، أخذت به عاد ﴿ فَأَهْلِكُوكُمْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ (٨٢١) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَحْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ .

هلك قوم نوح بالطوفان ، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية .

أخذ هؤلاء بذنوبهم كما أهلك أولئك بمعاصيهم .

﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّبْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٨٢٢)

(٨١٦) سورة الأنبياء : ٤٧ .

(٨١٧) سورة القمر : ٢٢ .

(٨١٨) سورة القمر : ١٨ - ٢٢ .

(٨١٩) سورة العنكبوت : ٤٠ .

والقرآن الكريم وهو يذكر الناس بذلك يبصرهم بعاقبة أعمالهم إن هم أحسنوا أو أساءوا ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنٰى﴾ (٨٢٠).

لله ما في السموات وما في الأرض لا غيره. فكل شيء خاضع لأمره، مسبح بحمده، لا ينبغي له أن يخالف أو يحيد، يؤمر الماء فيؤدي ما يؤمر به غرقاً أو غدقاً، وتؤمر الرياح فتأتي كما أمرت طيبة أو عاصفة فتحقق فرحاً أو تسوق دماراً وهلاكاً، وكل ذلك بأمره سبحانه وله وحده الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين.

﴿هُوَ الَّذِي يُسَخِّرُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَبَیَّةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَ تَهَارِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أُنْجِيتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٨٢١) فَلَمَّا أُنْجِيتَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ بِأَيِّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا نَعْرَ الْإِنْسَانِ رَجِيعُكُمْ فَتَنْتَعِمُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٢١﴾.

والله عز وجل هو الذي يُسَخِّرُ الريح في الحالين، وموقف الناس يختلف من حال إلى حال ولو تدبروا ما يُتلى عليهم لعرفوا السبيل لأنهم ونجاتهم وتمسكوا بما ينجيهم وابتعدوا عما يسوق إليهم الدمار والهلاك.

الناس يدمرون بذنوبهم ويهلكون بمعاصيهم، والله غني عنهم لا تنفعه طاعتهم ولا تضره معاصيهم، إنما هي أعمالهم تحصى عليهم وبها يفوزون أو يهلكون. ﴿وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾.

﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾. وسيظل القرآن الكريم تُتلى آياته وتقدم هدايته.

(٨٢٠) سورة النجم: ٣١.

(٨٢١) سورة يونس: ٢٢-٢٣.

وستظل العبر التي يشير إليها ويذكر بها قائمة في حياة الناس لا تغيب دالاتها ولا تخفى عظمتها .

وستظل التبصرة والذكرى محفوفة بحياة الناس لا تنفك عنهم يرونها في ليل ونهار وشمس وقمر وزرع وثمر وأرض وسماء ، يرونها في أنفسهم وفي الآفاق من حولهم ، مقروءة مسموعة مرئية ، تُتلى في كلمات وتُرى في آيات .

والقرآن مُيسرٌ في حفظه وفهمه ، والآيات التي يخاطبهم بها قائمة فيهم ومرتبطة بحياتهم ، فلا عُسْر ولا حرج في تبصرة وتذكرة ، ولا تكلف في فقه ومعرفة ، وآيات القرآن الكريم تتسق مع آيات الله في الأنفس والآفاق في مخاطبة الإنسان وهدايته وتبصرته ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَواسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿ ٧ ﴾ تَبْصِرَةٌ وَذِكْرٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿ ٨٢٢ ﴾ .

فهل من معتبر ومتذكر بما يرى وبما يسمع ؟ ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ .

١٥٢

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة القمر ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ (٨٢٣) .

وقد تكررت هذه الآية بعد الحديث عن قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط .
وها نحن الآن مع الحديث عن ثمود قوم صالح وما وقع منهم وما جرى لهم .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴾ (٢٢) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِثَّا وَاحِدًا نَبِّعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿ ٢٤ ﴾ أَلْفَى الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿ ٢٥ ﴾ سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ مَنْ الْكُذَّابُ الْأَشِرُّ

(٨٢٢) سورة ق : ٦ - ٨ .

(٨٢٣) سورة القمر : ٣٢ .

﴿٢٦﴾ إِنَّا مَرْسَلُوا النَّاقَةَ فَنَسَتْ لَهُمْ فَاذْقَبَهُمْ وَأَصْطَبِرَ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّهَهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قَسَمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُخَضَّرٌ ﴿٢٨﴾ فَادَّوْا صَاحِبَكُمْ فَنَعَاطَى فَمَقَرَّ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذَرُ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيَّحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْمُحْظَرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٣٢﴾ ﴿٨٢٤﴾

ذاك ما أجمله القرآن في قصة صالح مع قومه وما وقع منهم وما جرى لهم ، لقد أرسل الله صالحا - عليه السلام - إلى قبيلة ثمود فدعاهم إلى عبادته وعدم الإشراف به وأنذرهم عذاب الله إن هم ظلوا على الشرك والضلال ، وقد ختمت القصة هنا كما ختم القصص من قبل بقوله تعالى ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ ليتعظ بالقرآن من يتعظ ويعتبر من يعتبر بما أصاب المكذبين من قبل مع اختلاف زمانهم ومكانهم .

فإن القرآن وهو يتحدث عن أخبار ماضية إنما يخاطب من خلالها بسنن الله الباقية وماذا بعد التبليغ والإنذار ، لقد كذبت ثمود بالنذر ، واستكبروا أن يطيعوا صالحا ، وأبوا أن يتبعوه وقالوا - مستهزئين به - ﴿ أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعور ﴾ . إصرار أي إصرار ، يقولون إنا لو اتبعنا صالحا على دينه لكننا إذا في ضلال وجنون مطبق هل اختصه الله بالوحي من دوننا ، وأنزل عليه من بيننا وفينا من هو أكثر منه مالا .

قول يقوله كل من جحد أو كذب المرسلين ، قاله هؤلاء وقاله كفار مكة عندما بعث فيهم سيد المرسلين ﷺ . ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ نزعه واحدة تراها من المكذبين مع من بُعث فيهم من المرسلين ، وقول واحد يقولونه مع تباعد الزمان واختلاف المكان .

﴿ أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾ . هل لقي قوم صالح كفار قريش فتواصوا فيما بينهم أن يقولوا ما قالوه لنبيهم ؟

﴿٨٢٤﴾ سورة القمر: ٢٣ - ٣٢ .

أو هو الطغيان والجحود يجمعهم ويلقي ما يلقيه من كبر في أقوالهم واتفاق في سلوكهم وأعمالهم؟ إنه الطاغوت وهم عبدته فلا غرابة أن يوالي بعضهم بعضا، وأن يُرى جمعهم حيث كانوا في ظلم وظلمات، وهم جميعا قد حقت عليهم الضلالة. والقرآن الكريم يرينا ما قاله هؤلاء وأولئك وما فعلوه فتنبه إلى من شئت منهم فلا تكون قد جاوزت أو أسندت قولاً لغير قائله، وانظر إلى ما قاله كفار قريش لخاتم الرسل ﷺ عندما دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فلن تجد فرقا بين قولهم وبين ما قيل لأي نبي أو رسول ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ ۝١١ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝١٢ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝١٣ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ ۝١٤﴾ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُفَعُوا عَذَابٌ ۝١٥﴾ (٨٢٥).

ولا يفيد عند هؤلاء وأولئك أن يروا بأعينهم دلائل الصدق واليقين لقد طلب قوم صالح من نبيهم آية دالة على صدقه.

فجاءت الآية دالة على صدقه ومنبئة عن مصيرهم؛ فإنهم بعد تكذيبهم لا ينظرون ﴿إِنَّا مَرْسِلُوا النَّاقَةَ فَنَنْهَ لَهُمْ ۝١٦ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ۝١٧ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُخْضَرٌ ۝١٨﴾.

فالناقة لها شرب يوم، ولثمود شرب يوم.

ويوم ثمود هو لثمود لا تأتي الناقة إليه.

ويوم الناقة هو للناقة لا يجوز لثمود أن ترده.

فلم يصبر القوم على ذلك، وعزموا على عقر الناقة وقتلها والتخلص منها.

﴿فَنَادَا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ۝١٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٢٠ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحُمْرِ ۝٢١﴾.

(٨٢٥) سورة ص: ٤ - ٨.

صيحة واحدة انخلعت لها قلوبهم ، فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿كهشيم المحتظر﴾ كالهشيم المتفتت من الشجر والعشب اليابس الذي يجمعه صاحب الغنم ليتخذ منه حظيرة لها .

صيحة واحدة أودت بهم وجعلتهم هكذا كهشيم المحتظر .

قصص يقصه القرآن الكريم على الناس في كل زمان وفي كل مكان ليعتبر من يعتبر ويتذكر من يتذكر .

وسيبقى القرآن مع الأجيال يقدم هدايته وتبصرته .

سبقى الذكر ما بقيت الحياة نورا وهدى للناس فهل يعي الناس ما يدعو إليه وما يذكّر به . فينقذون أنفسهم قبل فوات الأوان ؟ ﴿هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكّر أولو الألباب﴾ .

١٥٣

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة القمر ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ (٨٢٦) .

جاءت هذه الآية بعد الحديث عن قوم لوط وما وقع منهم وما جرى لهم ، والقرآن يذكّر بذلك ليُعلم أن لا شيء في ماضٍ أو حاضر أو مستقبل إلا والإحاطة به كاملة ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٨٢٧) .

وحديث القرآن عما وقع من المكذبين في الماضي وما جرى لهم فيه عبرة وعظة لحاضر الناس ومستقبلهم ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ .

﴿كَذَّبَ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ (٢٢) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا ءَالَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ (٢١) نِعْمَةٌ مِّنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ (٢٥) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا

(٨١٦) سورة القمر : ٤٠ .

(٨٢٧) سورة يونس : ٦١ .

فَتَمَارَوْا بِالنَّذْرِ (٢٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرْ (٢٧) وَلَقَدْ صَبَحَهُمْ بُكَرَةٌ عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ (٢٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرْ (٢٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (٨٢٨).

إن قوم لوط من الأمم التي كذبت رسولها واستهزأت به وبما أنذرهم به من نقمة وعذاب ﴿ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر﴾.

وهذا حال الأمم عندما تأسرها المعاصي وتأكلها الشهوات .

إذا أنذروا تماروا بما أنذروا به وتمادوا في الفجور وجاهروا بالفحش دون خوف من رادع أو زاجر .

وهذا ما كان من قوم لوط تمادوا في الفجور وبلغ بهم الأمر أن راودوا لوطاً عن ضيفه من الملائكة واقتحموا عليهم الباب ، فأعماههم الله وطمس على أعينهم وحجب عنهم رؤيتهم ، فدخلوا المنزل ولم يروا شيئاً .

وفي الصباح الباكر نزل بهم العذاب والهلاك الذي أفضى بهم إلى جهنم وبئس المصير ﴿ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ . وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَوْرُهُمْ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزَوْا فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ . قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا نُرِيدُ . قَالَ لَوَ أَنِّي بِيَكُمْ قُوَّةٌ أَوْ إِيَّائِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ . قَالُوا يَنْلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنَاصِلُوكَ إِلَّا أَمْرًا نَكِيدُ فَاسْرِبْ بَاهِلِكِ بِقِطْعِ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانَا إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (٨٢٩).

قصص يُتلى ، فيه موعظة وذكرى للمؤمنين . وإنذار ووعيد للمكذبين الضالين وقد حلَّ بقوم لوط ما يحق بالظالمين ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا

(٧٢٧) سورة القمر: ٣٣ - ٤٠ .

(٨٢٩) سورة هود: ٧٧ - ٨١ .

سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ مُّسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣٠﴾ تلك عاقبة الإصرار على الذنوب والآثام، عاقبة مهلكة مدمرة تُوعظ بها الأمم وتؤخذ - إن هي أصرت - بذنوبها وآثامها.

﴿وما ربك بغافل عما يعملون﴾.

والقرآن الكريم وقد ضمنه الله أنواع المواعظ والعبر وصرف فيه من الوعيد، ويسر حفظه وفهمه سيظل يتلى على الناس ويريههم مصائر المكذبين ومصارع الجبارين والمفسدين ليتعظ من يتعظ ويعتبر من يعتبر.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّخِصٍ ﴿٨٣١﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (٨٣١).

وما من أحد يفلت من لقاء أو يفر من جزاء، والخلق جميعا عائدون إلى الله ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ له ملك السموات والأرض لا لغيره، وإليه المصير لا إلى غيره.

﴿وَرَبُّكَ الْغَفِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ إِنَّكَ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ (٨٣٢).

ذاك هو القرآن في يسره وهدايته وفضله، فهل من متعظ ومعتبر؟ ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾.

(٨٣٠) سورة هود: ٨٢-٨٣.

(٨٣١) سورة ق: ٣٦-٣٧.

(٨٣٢) سورة الأنعام: ١٣٣-١٣٤.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنته قوله تعالى في سورة الرحمن ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾.

لقد تضمنت هذه السورة من ذكر نعم الله وآلائه ما تضمنت .

وبدئت باسم من أسماء الله لا يُسمَّى به غيره دالٌّ على سعة فضله وشمول نعمته وبالغ رحمته (الرحمن) وجاء به مُبتدأ يُشعرُ بالخبر ويدلُّ عليه ، وعدد من صنوف نعمائه وضروب آلائه ما لا يجد أحدٌ من الجن والإنس مجالاً لإنكارها أو التكذيب بها ، وقد جاء بعد بيان كل نعمة من هذه النعم قوله تعالى ﴿فَيَا أَيُّهَا الْآءِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ .

آلاء الرحمن يخاطب بها الجن والإنس .

وفي الخطاب بلاغ وتبشير وإنذار وتسبق الرحمة ، ويشعر بها البدء باسم الرحمن ، وفي تعداد النعم دعوة إلى الإقبال على الرحمن والمبادرة بالأعمال الصالحة طلباً لمرضاته وابتغاء رحمته .

وفي تعداد النعم بعد ذكر الرحمن يبدأ بأعلاها وأغلاها وأبقاها ، يبدأ بتعليم القرآن قبل الحديث عن خلق الإنسان . ﴿الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان﴾ فإن النعمة التي تمتد وتبقى وتدفع وتشفع هي نعمة القرآن .

«اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه» .

نعمة تنزيل القرآن وتعليمه تأتي في الذكر بعد الرحمن ، وقبل الحديث عن خلق الإنسان ، ليُعلم أن خلق الإنسان من أجل الدين وبه يكون ولن يكون بغيره .

فقدم ما خلق الإنسان من أجله على خلقه ليكون على بصيرة وعلم بما يميّزه من غيره ، وما يجب أن يكون عليه في جميع أمره ، وألا يصرف عن غايته

بأي صارف من رغبات نفسه وزينة حياته .

وقد رأينا الفاروق عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ينبه على هذه الحقيقة في موقف قد يختلط الأمر فيه على كثير من الناس .

رأيناه لما قدم إليه خراج العراق يخرج ومعه مولى له .

فجعل عمر - رضي الله عنه - يَعدُّ الإبل فإذا هي أكثر من ذلك ، فجعل عمر يقول : الحمد لله تعالى . ويقول مولاه : هذا والله من فضل الله ورحمته .

كلمة يقولها الناس كلما سيقَّت إليهم نعمة أو ظفروا بمتاع .

قالها مولى لعمر - وقد رأى الخراج أكثر من أن يعد .

فلم يقبلها عمر . وقال له كذبت . ليس هذا

بل هو الذي يقول الله تعالى ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ وهذا مما يجمعون . يشير إلى ما جاء من الخراج وقال عنه مولاه : هذا من فضل الله ورحمته ، فقال عمر : هذا مما يجمعون ، أما فضل الله ورحمته فقد امتن الله على خلقه بما أنزله من القرآن العظيم على رسول الله ﷺ في قوله ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٨٣٣﴾ خير مما يجمعون من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة .

هكذا يحدّد الفاروق - رضي الله عنه - قيم الأشياء بفقّه وبصيرة ، وينبه إلى أمر قد يغيب على كثير من الناس في زحمة الحياة والتعلق بزينتها ومتاعها .

ينبه إلى أن القيمة فيما يبقى لا فيما يذهب ويفنى .

وما يجمعه الناس ذاهب فان وما عند الله باق .

(٨٣٣) سورة يونس : ٥٧ - ٥٨ .

والقرآن الكريم - وهو يدعو إلى الله ويعين على طاعته ورضاه ويبصر ويذكر ويهدي للتي هي أقوم - هو السبيل للفوز والنجاة فمن اتبع هداه فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عنه فإن له معيشة ضنكا ، والإنسان بلا هداه تائه ضال .

من هنا كان تقديمه في الذكر على خلق الإنسان إيذاناً بمكانته وإعلاماً بشأنه وهدايته ، والإنسان على هدى من نوره يعرف حكمة خلقه وغاية وجوده ولولا فضل الله ورحمته بتعليم القرآن لعاش الإنسان أسيراً لضياح أو عبداً لمتاع ، فتعس في دنياه وهلك في آخره .

فليكن القرآن مقدما في حياتنا كلها لنبصر على هداه جميع أمرنا فنصون روابطنا ، ونحسن تعاملنا فلا يشغلنا فان عن باق ، ولا تصرفنا رغائب عاجلة عن عواقب قادمة .

إن القرآن بما اشتمل عليه قد قدّم الميزان الصحيح لقيمة الإنسان وكرامة الإنسان ، وحدد الطريق لنجاته وفوزه .

فجدير أن يقدم تعليم القرآن في الذكر على خلق الإنسان لأنه السبب في خلقه ووجوده ؛ فالإنسان خلق لغاية يحددها ويهدي لها ويدعو إليها تعليم القرآن . خلق الإنسان لعبادة ربه ، والقرآن يريه منهج العبادة وسبيلها في آيات تتلى ، وبها يتعبّد ، وفي دعوته لاتباع من أنزل عليه القرآن ، وبه يتأسى ويتبع ، وقد كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه ﷺ .

١٥٥

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة الواقعة ﴿ فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْعِدِ الْجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٨٣٤) .

(٨٣٤) سورة الواقعة : ٧٥ - ٨٠ .

والله أن يُقسم بما شاء من خلقه ، وهو دليل على عظمته . وفي القسم بما خلق تذكرة وتبصرة ، وقد أقسم هنا سبحانه بمواقع النجوم .

وجاء القسم على هذا النحو مسبقا بلا النافية كما ورد كثيرا في القرآن الكريم في مثل قوله ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ ۝١٥ الْجَوَارِ الْكُنْ ۝١٦ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ۝١٧ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ﴾ (٨٣٥) . وقوله ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۝١٦ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩ ﴾ (٨٣٦) وقوله ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصَرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصَرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ۝٤٢ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝٤٣ ﴾ (٨٣٧) .

ومن ذلك ما جاء في قوله ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِرُونَ ۝٤٤ ﴾ (٨٣٨) ، وقوله ﴿ لَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْقِيَمَةِ ۝١ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۝٢ ﴾ (٨٣٩) .

وقد جاء القسم في كل ذلك مسبقا بلا النافية قبل فعل القسم فأفاد التأكيد ببيان أن الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم ما فضلا عن هذا القسم .

ويرى بعض المفسرين أن « لا » التي سبقت الفعل « أقسم » يؤتى بها في أول القسم إذا كان مقسما به على منفي كقول عائشة - رضي الله عنها - « لا والله ما لمست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط » .

والمنفي هنا في قوله ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ محذوف ، وهو كلام الكافر الجاحد تقديره : فلا صحة لما يقول الكافر الجاحد من أن القرآن قول

(٨٣٥) سورة التكوين : ١٥ - ١٩ .

(٨٣٦) سورة الانشقاق : ١٦ - ١٩ .

(٨٣٧) سورة الحاقة : ٣٨ - ٤٣ .

(٨٣٨) سورة المعارج : ٤٠ - ٤٢ .

(٨٣٩) سورة القيامة : ١ - ٢ .

شاعر أو قول كاهن ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ ﴿ ٤٠ ﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوَمِّنُونَ ﴿ ٤١ ﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴿ ٤٢ ﴾ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ ٤٣ ﴾ .
﴿ فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ﴾ .

ومواقع النجوم : مساقطها ومغاربها .

ولله أن يقسم بما يريد ، وليس لنا أن نقسم بغير الله وصفاته .

والقسم بمواقع النجوم — والقول بعد ﴿ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ — فيه ما فيه من تعظيم للقسم وللمقسم عليه . أي : وإن هذا القسم الذي أقسمت به لقسم عظيم ، لو تعلمون عَظَمَتَهُ لعَظَمَتُمُ المقسم به عليه ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ .
أي إن هذا القرآن الذي نزل على محمد ﷺ لكتاب عظيم ﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ أي : معظم في كتاب محفوظ موقر ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ . وفي هذا النفي ما فيه من حفظ القرآن مما زعم الكفار من أن القرآن تنزلت به الشياطين ، فأخبر الله تعالى أنه لا يمسه إلا المطهرون ؛ فالقرآن مصون من ذلك ومن نزل عليه مصون ، والشياطين إنما ينزلون على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة ؛ ولهذا قال الله عز وجل : ﴿ هَلْ أُتَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَن نَّزَّلَ الشَّيَاطِينُ ﴾ ﴿ ٢١ ﴾ نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿ ٢٢ ﴾ .

أما القرآن فمصون في ذاته ، مصون من نزل به ومن أنزل عليه ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ ﴿ ٢٣ ﴾ فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ﴿ ٢٤ ﴾ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿ ٢٥ ﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿ ٢٦ ﴾ .

فالقسم عظيم ، والمقسم عليه كريم ، أي : عزيز مكرم ، لأنه كلام الله ووحيه إلى نبيه ﷺ ، والكريم من شأنه أن يُعْطِيَ الكثير ، والقرآن لا ينقطع عطاؤه لما فيه من الهدى والنور والبيان والعلم ، فالفقيه يستدل به ويأخذ منه ،

والحكيم يستمد منه ويحتج به ، والأديب يستفيد منه ويتقوى به ، فكل عالم يطلب أصل علمه منه .

ولا ينقطع عطاء القرآن ولا تنقضي عجائبه .

ذاك حديث القرآن عن القرآن .

فيه هدى ونور . ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

١٥٦

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الحديد ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (٨٤١) . ففي هذه الآية ذكر من نزل القرآن ومن نزل عليه وبيان الغاية من إنزال الكتاب وإرسال الرسول ﷺ ، فقد أنزل الله الكتاب وأرسل الرسول لهداية الناس وإزاحة العلل وإزالة الشبه .

فقد أنزل الله الآيات البينات الواضحات التي هي آيات القرآن ليخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر إلى نور الهدى والإيمان ﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ .

وفي ذلك ما فيه من رحمة بالعباد ، حيث أنزل الكتاب وأرسل الرسول لهدايتهم وإزالة الشبه من حياتهم ، وليكونوا على علم بحكمة خلقهم وغاية وجودهم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ومن تدبر ذلك ، وأيقن أن من أنزل الكتاب وأرسل الرسول غني عن العالمين استمسك بالكتاب واعتصم به واهتدى بهداه . ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ والسورة التي نزلت فيها هذه الآية هي سورة الحديد وهي تذكر من بدايتها من أسماء الله وصفاته ما يعين على معرفة الله وخشيته ويدعو

(٨٤١) سورة الحديد : ٩ .

إلى محبته وصدق عبادته فكل شيء منه وإليه ، فهذه الآيات من الله الذي يسبح كل شيء بحمده ويخضع كل شيء لمشيئته وقدرته ، والخلق جميعا فقراء إليه والله هو الغني الحميد .

وقد سُبقت هذه الآية بقوله جل شأنه ﴿إِنَّمَا آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَسَخِّلِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا هُمْ أَجْرُكُمْ ۖ وَمَالَكُمْ لَا تَأْمَنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمُ لِلتَّوْحِيدِ لِقَوْمٍ إِتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۚ قَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِ كُنْتُ مُؤْمِنِينَ ۖ﴾ (٨٤٢) .

والله عز وجل ما طالبهم بالإنفاق مما أعطاهم ودعاهم إلى الإيمان به إلا لمصلحتهم في دنياهم وآخرتهم . ومن رحمته بهم أن يخاطبهم بآياته ويذكرهم بقدرته وصفاته ؛ ليعلموا أن ما دعاهم إليه هو محض فضل منه عليهم ، وقد كتب على نفسه الرحمة ، ودعاهم أن يتراحموا فيما بينهم بما أنعم عليهم ليرحمهم .

فإن أبوا إلا الكفر والجحود والظلم والفسوق فليعلموا أن لا مفر لهم من الرجوع إليه والحساب بين يديه .

وتلك آياته وهذه صفاته ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۚ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۚ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۚ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۚ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۚ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۖ﴾ (٨٤٣) .

فلندقق النظر في هذه الآيات ولنعش بقلوبنا في هذه الآيات البينات ولنسأل أنفسنا لماذا أمرنا الله بالإنفاق ودعانا إلى الإيمان ، وقدّم لهذا الطلب تعريفا

(٨٤٢) سورة الحديد : ٧ - ٨ .

(٨٤٣) سورة الحديد : ١ - ٦ .

بنفسه وذكرًا لعظمته ودلالة قدرته في آياته التي تعود على الإنسان بالنفع؟
أليس كل ذلك تبصرة لخلقه وعونا لهم على معرفته وطاعته وخشيته؟ لمن هذه
الآيات البينات؟

أليست للناس علما وحكمة وهداية وتبصرة وبلاغاً وإنذاراً؟
إن الذي يخاطبهم بآياته تلك صفاته .
هو العزيز الحكيم .

له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير .
يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها
وهو معكم أينما كنتم .

والله بما تعملون بصير .

له ملك السموات والأرض .

وإلى الله ترجع الأمور .

يولج الليل في النهار . ويولج النهار في الليل .

وهو علیم بذات الصدور .

ألا يدعو كل ذلك إلى الخشية ويثير في النفس رغبة ورهبة؟

إن كل حقيقة من هذه الحقائق لا يخاطب الإنسان بها وهي بعيدة عنه ، بل
يراهها بينة واضحة عاملة مؤثرة في نفسه وفي الآفاق من حوله .

فآيات الله وهو يخاطب بها ويرى صدق دلالتها تعينه على معرفة الحق
والاستمساك به ، وتصرفه عن الباطل والركون إليه ، وتجعله يبصر كل شيء
على حقيقته وهو يهتدي بنورها ويذكر ربه بها . ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ
عَن يَنبِئِكُنَّ لِيُخْرِجَكُنَّ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

ذاك هو القرآن وتلك آياته عون للإنسان على الخروج من ظلمات الهوى والشرك إلى نور الهدى والعلم، عون له حتى لا يميل أو يحيد عن الصراط المستقيم، عون له على صدق نيته واستقامة سعيه وكلمته.

عون على التمسك بالفضائل والبعد عن الرذائل.

عون أي عون على الإيمان وصالح الأعمال والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

عون على الاعتصام بالله والتحرر من أسر الهوى ونزغات الشياطين.

ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم.

١٥٧

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الحديد ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٨٤٤).

يقول ابن مسعود - رضي الله عنه - ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين.

وقال الزجاج: نزلت هذه الآية في طائفة من المؤمنين حُثُوا على الرِّقَّة والخشوع. فأما من كان موصوفاً بالخشوع والرقَّة، فطبقة من المؤمنين فوق هؤلاء.

ويقول الفخر الرازي في قوله تعالى ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾: «يحتمل أن يكون المراد بالحق هو القرآن لأنه جامع للوصفين، الذكر والموعظة، وأنه حق نازل من السماء، ويحتمل أن يكون المراد من الذكر هو ذكر الله مطلقاً».

(٨٤٤) سورة الحديد: ١٦.

والمراد بما نزل من الحق هو القرآن وإنما قدم الخشوع بالذكر على الخشوع بما نزل من القرآن لأن الخشوع والخوف والخشية لا تحصل إلا عند ذكر الله ، فأما حصولها عند سماع القرآن فذاك لأجل اشتغال القرآن على ذكر الله . قال ابن عباس - رضي الله عنهما - «وما نزل من الحق» يعني القرآن .

وواضح أن الآية نزلت في المؤمنين .

وهي للمؤمنين حيث كانوا في أي زمان أو مكان .

فلهم فيها عظة وتذكرة ، ولهم فيمن مضى من أهل الكتاب قبلهم درس يجب أن يتذكروه دائماً وهم يسمعون هذه الآية ويتلون كتاب الله ؛ حتى لا تقسو منهم القلوب ، فلا تفيدهم عظة ولا تنفعهم تذكرة . وقد آن لهم أن يستجيئوا وأن يعودوا إلى هداية القرآن وأن يعتصموا به .

والآية تعطي كل جيل عظمتها وعتابها بما يتناسب مع موقف الجيل ، وتفاوت الناس في درجات الإيمان .

وإذا كان أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - وهو من هو في خشيته وخشوعه ، وقد قرئت هذه الآية بين يديه وعنده قوم من أهل اليمامة فبكوا بكاء شديداً ، فنظر إليهم فقال : «هكذا كنا حتى قست منا القلوب» .

إذا كان أبو بكر - رضي الله عنه - يقول ذلك فماذا تقول الأجيال من بعد وليس فيهم من يخشع خشوع الصحابة أو يبلغ مكانتهم ؟

الآية تعظ المؤمنين حيث كانوا ، ويسمعها أقوى المؤمنين إيماناً فتعظه ، ويسمعها أدناها فيرى فيها عتاباً وتحذيراً من غفلة نفس أو قسوة قلب . والقرآن الكريم قد كمل نزوله وحفظ بحفظ الله له .

فإن لكل من سمع أن يثوب وأن يعود وأن يحذر الغفلة وقسوة القلب . ومن رحمة الله أن حفظ الذكر ليكون باعثاً على الخشية وداعياً إلى تقوى النفس وصلاحها . وهو يدعو إلى الحق ويهدي إلى صراط مستقيم .

والأمة التي أقام فيها التنزيل قيام الشمس في فلك السماء آن لها أن تُصغي لهذه الآية وأن تعي دلالتها ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾ إن هذه الأمة يتصل تاريخها بالقرآن الكريم ولا ينفك عنه ، فهي في مدّ حين تقبل عليه وتعمل به .

وهي في جزرٍ وضعفٍ حين تُشغل عنه .

وهو في منعته وعزته يظل يذكر ويشر ويهدي للتي هي أقوم ، يظل يوجه نداءه للقلوب لتخشع ، وإلى من شغل عنه أن يعود إليه ، وأن يتبع صراطه المستقيم حتى لا تتفرق بهم السبل ، أو ينتهي بهم البعد والإعراض إلى سوء عاقبة ومصير .

وهذا التذكير من جانب القرآن الكريم يخاطب به من نزل فيهم .

وتخاطب به الأجيال كلها من بعد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وكأنه نزل لساعته .

وسيطّل القرآن الكريم في عزته ومنعته يُصدّرُ نداءه ويعلن عتابه ويدعو من آمنوا به أن يهتدوا بهداه وأن يعتصموا بحمّاه ، وأن يكونوا معه حيث كان موحدّين موحدّين معتصمين به غير متفرقين ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾ ولعلّ تجربة الواقع المعاصر تحث أبناء الإسلام حيث كانوا أن يتوحدوا ولا يتفرقوا وأن يعتصموا بحبل الله ويهتدوا بما هداهم الله به في روابطهم ومعاملاتهم ورد كيد العدو عنهم ؛ لعلّهم - وهم يرون - ما يحوط بهم وما يراد لهم أن يعلموا موقنين أن كلّ آية في كتاب ربهم ستسألهم فريضة أمرّة كانت أو زاجرة ، فليسألوا هم أنفسهم قبل أن يسألوا ، هل ائتمروا بما أمروا به؟ وهل ازدجروا عما نهوا عنه؟

أو أن صلتهم بالإسلام صلة نسب؟ وأعمالهم تكذب نسبتهم إليه .

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الحديد ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ نَصَرَهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٨٤٥).

إن للناس حقوقاً ولهم حرماً . ولن تحفظ حقوقهم وتصاب حرمتهم إلا بإحقاق الحق وإقامة العدل .

ومن أجل ذلك أرسل الله الرسل بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وقد طلب الله منهم أن ينصروه - وهو القوي العزيز - ليكونوا جنود حق وحماة عدل ، وسيحاسبهم إن هم فرطوا أو قصرُوا فيما دعاهم إليه وأمرهم به وأعانهم عليه بما أنزل من كتاب وأرسل من رسول ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ نَصَرَهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ونصرة الله لا تكون إلا في إحقاق حق وإقامة عدل .

نصرة الله في إعلاء كلمته والله هو الحق وقوله الحق وقد أنزل الكتاب بالحق .

وما فرضه عليهم من فرائض يؤدونها تقرباً إليه هي لهم طهارة وتزكية وبرٌ وتراحم وألفة وتعاون وأمن ومغفرة ، ولا تزيد طاعتهم في ملك الله شيئاً ولا تُنقصُ معصيتهم من ملك الله شيئاً .

ومن تدبر ما أمر الخلق به وما نهوا عنه وجد ذلك لمصلحة الخلق ، لإحقاق الحق وإقامة العدل وإشاعة البر والكف عن الإفساد والشر . وقد جعل امتحانهم بأوامره ونواهيه في مصلحتهم ، وجعل جزاءه على أعمالهم تحريضا لهم على فعل الخير وردعا عن ارتكاب الشر ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

(٨٤٥) سورة الحديد : ٢٥ .

خَيْرًا يَسْرُوْنَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٤٣﴾ . وأنزل الكتاب والميزان ليكون عوناً لهم على معرفة الحق وإقامة العدل ولم يكلِّهم إلى أنفسهم — في بيان الحق وتحديد معالمه — حتى لا تكون أهواؤهم حكماً فيما بينهم ﴿٤٤﴾ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴿٤٥﴾ فالقول بأن هذا حق أو باطل ليس قولهم .

بل هو قول من خلقهم وهو غني عنهم ، ولو ترك القول لهم دون هدى وبيان لأفسدوا وأضلوا ورأوا الحق لأنفسهم دون غيرهم ، وبغى بعضهم على بعض كما يحدث عند اتباعهم الباطل وإعراضهم عن الحق .

الحق من الله ، وبه تصان الدماء والأموال والأعراض ويحفظ العقل والدين وتلك مقاصد الشريعة وما تؤدي إليه .

ومن استخف بدم غيره فقد أباح دم نفسه .

ومن استحل مال أو عرض غيره لم يسلم من استباحة ماله وعرضه . ومن تناول المفسدات لعقله لم تعقل نفسه من الإساءة لغيره ، ومن هان عليه دينه هانت عليه حرمان الناس .

ومن لم يف لله الذي خلقه ورزقه فلن يكون وفياً للناس ولا عدلاً مع نفسه ، وإن بدا للناس منه غير ذلك فلمصلحة طارئة لا تلبث أن تزول فيزول ما بدا من وفاء ويظهر ما خفي من غدر وجفاء .

إن ثبات الفضائل وشمولها لا يستمد إلا من عصمة الإنسان بدينه وصدق خشيته من ربه ، فتلك هي الرقابة التي لا تبارح الإنسان في سرٍّ أو علن ، ولا تنفك عنه في عسر أو يسر ، ولا يكيل الإنسان معها بمكيالين ، ولا يزن بميزانين ، وإنما هو ميزان واحد مع العدو والصديق والقريب والبعيد ؛ استجابة لأمر الله وعملاً بما أنزل من ميزان وأرسل من رسول .

وقد حفظ الله ما أنزل لتبقى معالم الحق والعدل كما جاءت من عند الله حتى لا يقول متقول على الله فينسب إلى الحق ما ليس منه ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

لقد حفظ الكتاب المهيمن ليعلن ما جاء به الرسل جميعا من عند الله دون تفرقة أو اختلاف ، وهذا ما جاءوا به - كما أخبر الله - وما أرسلوا له ﴿ فَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ آية جامعة للغاية من إرسال الرسل جميعا وما أنزل معهم من الكتاب والميزان ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ ﴾ .

ومن استخدم ما في الحديد من بأس شديد لغير ما أنزل من أجله الكتاب والميزان حوسب وعوقب .

فإن ما في الحديد من بأس شديد إذا استعمل لغير إحقاق حق وإقامة عدل ، إذا استعمل لغير إعلاء كلمة الله كما جاء في الكتاب فقد استعمل لغير ما أنزل له وما جعل فيه .

وتلك قضية الامتحان للإنسان وعليها يكون الحساب والجزاء ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

ومن المعلوم أن الوسائل صالحة لأن تستعمل في خير أو شر .

ومنها حواس الإنسان وجوارحه ، ليعلم موقف الإنسان بإرادته واختياره وقد جاء إرسال الرسل وإنزال الكتاب والميزان مصاحبا لإنزال الحديد في حديث القرآن لتبقى هذه المصاحبة قائمة في سلوك الإنسان فلا ينفرد الحديد ببأسه وشدته ومنفعته أو ينفك عن نور الكتاب وهدايته وخضوعه لسلطان كلمته ، وإلا كان الحديد دماراً في يد من لا يخضع لمواثيق الحق والعدل التي أرسل الله بها الرسل وأنزل معهم الكتاب والميزان .

والإنسان بإيمانه وفقهه وهداية ربّه هو الجامع لهما على بصيرة، وهو إن
أعرض عن هداية ربّه فرّق بينهما فاستعمل الحديد بغير اتباع للكتاب وهدايته
وأخذ بعهوده ومواثيقه .

من هنا تُعرفُ مكانةُ الإنسان فيما خُوطب به وما أنزل من أجله ، فإذا اهتدى
بهداية ربه أصلح ولم يفسد ، وإن أعرض دمر ولم يصلح . والناس ممتحنون
ومختبرون ومحاسبون . والأسباب موفورة لإظهار النتائج والعواقب ﴿وَأَنزَلْنَا
الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ
اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ .

obeikandi.com

حديث القرآن عن القرآن في آيات من:

- ١ - سورة الحشر
- ٢ - سورة الصف
- ٣ - سورة الجمعة
- ٤ - سورة التغابن
- ٥ - سورة الطلاق
- ٦ - سورة الملك
- ٧ - سورة القلم
- ٨ - سورة الحاقة
- ٩ - سورة الجن
- ١٠ - سورة المزمل
- ١١ - سورة المدثر
- ١٢ - سورة القيامة
- ١٣ - سورة الإنسان
- ١٤ - سورة التكويد
- ١٥ - سورة الانشقاق
- ١٦ - سورة البروج
- ١٧ - سورة العلق
- ١٨ - سورة القدر
- ١٩ - سورة البينة

obeikandi.com

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة الحشر ﴿لَوْ أَنزَلْنَاهُ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَشِيعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُصْرِمُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَنْفَكُّوْنَ﴾ (٨٤٦).

هذه الآية التي تتحدث عن القرآن قد سُبقت بقوله ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٤٧﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (٨٤٧).

وجاء بعدها قوله تعالى ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٨٤٨).

والتناسب بين الآيات بَيِّنٌ واضح ودلالاتها على عظم شأن القرآن الكريم لا تخفى؛ فمَنْزَلُ القرآن هو الله ذو الأسماء الحسنى الذي انقادت له السموات والأرض، وهو خالق الجبال، ومَنْزَلُ القرآن. وقال - وقوله الحق: ﴿لَوْ أَنزَلْنَاهُ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَشِيعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾.

لقد بلغ من شأن القرآن وعظمته وشدة تأثيره أنه لو أنزل على جبل من الجبال لرأيت الجبل - مع كونه في غاية القسوة والصلابة - لرأيت خاشعًا متصدعًا من خشية الله.

(٨٤٦) سورة الحشر: ٢١.

(٨٤٧) سورة الحشر: ١٨ - ٢٠.

(٨٤٨) سورة الحشر: ٢٢ - ٢٤.

فإذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وعقلته لخشعت وتصدعت من خشية الله فكيف تكون صفة أولئك الذين يُعرضون وتقسو قلوبهم عند سماعه وهم مخاطبون به؟ !

إن في الآية ما فيها من توبيخ وتقريع للإنسان على عدم تخشعه عند تلاوة القرآن .

إن لهذا القرآن لثقلاً وسلطاناً وأثراً أيَّ أثرٍ فيمن يتلقاه حاضر القلب مدركاً لحقيقته وغايته .

لقد وجدَ عمرُ بن الخطاب - رضي الله عنه - عندما سمع قارئاً يقرأ ﴿وَالطُّورِ وَكَتَبَ مُسْطُورٍ﴾ في رَقٍّ مَنشُورٍ ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ (٨٤٩) فارتكن إلى الجدار، ثم عاد إلى بيته يعودُه الناسُ شهراً مما أَلَمَّ به .

والذين يُحسُّون شيئاً من أثر القرآن في حياتهم يتذوقون هذه الحقيقة ويعرفون دلالة قوله تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَاهَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتُمُ خَشِيعَةً مَّتَّصِدَةً غَاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ وهذا أثر القرآن فيمن يخشون ربهم ﴿نَقْشَعْرُوتُهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٨٥٠) وإذا كانت هذه الآية ﴿وَأَنْزَلْنَاهَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ . . .﴾ قد سُبقت بقوله تعالى ﴿يُنَادِيهِمُ الَّذِينَ﴾ ءَامِنُوا أَنْفَعُوا اللَّهَ وَلَتَنْظُرَ نَفْسٌ مَقْدَمَتِ لِعَدْرِ .

(٨٤٩) سورة الطور: ١-٨ .

(٨٥٠) سورة الزمر: ٢٣ .

فإن الحديث عن القرآن في هذا المقام فيه ما فيه من تنبيه على ما يجب أن يتبع لتحقيق ما تضمنته قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

إن القرآن قائد يقود من اتبعه إلى الجنة، ولا عذر لأحد في ترك تدبره والعمل به. فإنه لو خوطب بهذا القرآن الجبال مع تركيب العقل لها لانقادت لمواعظه ولرأيتها مع صلابتها ذليلة متصدعة من خشية الله.

وهذا مثل ضرب للناس لكي يعلموا مدى ما في القرآن من تأثير لمن تفكر فيه وتدبر ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

فما لك والآيات تأتي من بعد هذه الآية ذاكرة أسماء الله وصفاته تاركة للنفس أن تدبر أن من هذه صفاته هو الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً؟ ويكفي من تدبر هذه الصفات أن يدرك ما للقرآن من ثقل وسلطان.

إن هذه الأسماء التي ختمت بها سورة الحشر حين يتدبرها المؤمن توحى إليه بما يجب أن يكون عليه فإن لكل اسم من هذه الأسماء الحسنی أثراً في حياة البشر، وهي تلفت النظر إلى ما للقرآن من فضل وأثر وقد أنزله من هذه أسماؤه وصفاته.

فالقرآن كلام من له هذه الأسماء الحسنی سبحانه الله عما يشركون، فلتخشع القلوب له، ولتفرح النفس به، ولتحسن تدبره، ولتسبح بحمد الله الذي أنزله متجاوبة مع الوجود كله، وكل ما فيه مسبح بحمد ربّه.

﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الصف ﴿يُرِيدُونَ لِيطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٨٥١).

محاولة يائسة من أهل الكفر والجحود أن يعمدوا إلى إطفاء نور الله بأفواههم وهم يقولون: ﴿هذا سحر مبين﴾، ويكيدون له محاولين القضاء عليه، ويتواصون فيما بينهم ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

محاولة يائسة يقوم بها أهل الكفر وهم يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق كمن يحاول أن يطفى شعاع الشمس بفيه، والشمس لا يحبس ضوءها ولا يوقف مدّها.

والحق لا يدحض ولا يُهزم وإنما الباطل هو الذي يزهد ويهلك.
والله ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾.
فمن ذا الذي يحجب ما يظهر الله أو يطفى نوره.

لقد أتم الله نعمته وأكمل دينه وحفظ كتابه، ولم يفلح في صد الناس عن هذا الدين ما قام به الأعداء من حرب وكيد وتنكيل وتشريد، لم يفلح ما قاموا به من كيد وصد في إطفاء نوره أو صرف الناس عن فدائه وحبّه؛ لأن نور الله لا يمكن أن يطفأ، والحق الذي أنزله لا يمكن أن يدحض. وكل محاولة لإطفاء هذا النور في ماضٍ أو حاضر مهما تنوعت الأساليب أو تعددت الإساءات ستبوء بما يبوء به الباطل حين يُقذف بالحق. والمؤمنون بالحق يؤثرونه على

أنفسهم - بل لا يرون أنفسهم من دونه - فلا يصرفهم عنه وعيد أو إغراء ، ومن عرف الحق وآمن به يرض أن يلقي في النار ولا يعود إلى ظلمات الشرك والجهود ؛ لأن الحق الذي آمنوا به له نوره الذي يمشون به في الناس ، وله انتصاره في النفوس التي تحبه فتؤثره وتفتديه .

ومن تدبر كيف بدأ دينُ الحق ، وكيف ظهر أيقن أن الحق لا يهزم أبداً وإن قلَّ جنده ، وأن الباطل زاهق ولو كان له من العدد والعدد ما في الأرض جميعاً ومثله معه ، وهو ظلام لا بقاء له إذا سطع النور ولا حراك له إذا جاء الحق ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ .

﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾

وقد صدق الله وعده ، وأعز جنده ، وأظهر دينه ، ونصر عبده وأقامه وأبقاه وحفظه هدى للناس وحجة لهم أو عليهم .

والقرآن الكريم وهو يتلى على الناس جميعاً لا تهزم له حجة ، ولا يطفأ له نور ، ترى الغالب مغلوباً أمام عزته والمنتصر منهزماً إزاء حجته وسلطان كلمته ، وكم هزم المسلمون وانتصر هذا الكتاب فطوع الكائدين له إلى مؤمنين به ومجاهدين لنصرته . وكم نال العدو من ديار المسلمين ولم يستطع مغالبة حرف واحد منه .

﴿وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ .

إن الله الذي أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى الكامل ودين الحق المبين الواضح قد حفظ ما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق في آيات تتلى وسنة تتبع ، وفي إظهار هذا الدين بالحجة وحفظه وبقيائه بقاء الشمس في الكون ما

يقطع الحجة ويبطل المَعذرة فلا حجة ولا عذر لجاحد به أو معرض عنه، ولا مجال لتبديل فيه أو تغيير وقد تكفل الله بحفظه فحفظ بعزته .

هذه الحقيقة تجعل كلَّ من كادَ له أو طمع في إبعاده عن ساحة الحياة تجعلهم جميعاً يائسين من إطفاء نوره أو إبطال عمله، وهو ثابت لا يتغير محفوظ بحفظ الله لا يتبدل، ومن يتول عنه يستبدل الله غيره به .

وأمتنا بخير دائماً إن هي أحسنت كيف تسعى بثبات القرآن في متغيرات الحياة، الثابت يحفظ شخصيتها، ويبقى عليها ممتدةً مع الزمن كلُّه، لا يضرها من خالفها، ويجعلها تصمد أمام المخاطر والمغريات .

لأن ثبات القرآن متميز ذو خصائص تتجدد به حياة النفوس .
والذي جعله سبباً في الحياة هو الذي جعل من الماء كل شيء حيّ .

والماء يحيي به الله الأرض بعد موتها، فتهتز وتربو وتنبث من كل زوج بهيج .

والقرآن الكريم قد أنزله الله لتحيا به النفوس وتؤتي ثمارها أمانة وعدلاً وصدقاً وبراً وإيثاراً ورحمة .

وهذا أمر ظاهر بين لا يجحده إلا من أضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة .

وإذا كان من الأرض قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً فإن من النفوس نفوساً لا تقبل ما جاء من الهدى والحق .

وخصائص الحياة لا تخفى فيما جعل الله من الماء وفيما أنزل من الكتاب وقد حفظ الله هذا وذاك .

ولم تتغير خصائص الماء في فطرته من زمن إلى زمن وإن تغير الزرع والثمر، ولم يعرف التاريخ في ماضٍ أو حاضر أن أي حياة قامت أو بقيت بغير الماء . وكل أرض صالحة قبلته اهتزت وربت وأنبتت بإذن الله .

ومثل ما بعث الرسول ﷺ به كمثل غيث أصاب أرضا .

وسيبقى الماء ما بقيت الحياة .

وسيبقى الذكر ظاهرا مهيمنا محفوظا بحفظ الله ولو كره أعداء الله ﴿هُوَ
الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ
الْمُشْرِكُونَ﴾ .

١٦١

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الجمعة ﴿هُوَ
الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٨٥٢) .

في هذه الآيات بيان للغاية من بعثة الرسول ﷺ وقد أجملتها الآيات في
ثلاثة أمور هي :

تلاوة القرآن ، وجعل المبعوث فيهم مطهرين من دنس الشرك والمعاصي ،
وتعليم القرآن والسنة وما فيهما من شرائع وحكم .

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ .

وقد كانت أمة العرب قبل بعثته ﷺ في شتات وضياح وبعد عن الحق ،
فمن الله عليهم وأرسل فيهم رسولا منهم ، فرفع بذلك شأنهم وأعلى ذكرهم ،
ولم تكن رسالة الرسول ﷺ خاصة بالعرب وحدهم ، وإنما هي عامة للناس
جميعا في زمنه وفي الأزمان اللاحقة من بعده ﷺ .

(٨٥٢) سورة الجمعة : ٢ - ٤ .

وتخصيص العرب الأميين بالذكر، لأنه ﷺ مبعوث إليهم خاصة وإلى الناس عامة وهذا أمر الله لنبيه، ونداؤه للناس لتبليغ ما أنزل إليه من ربه ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (٨٥٣).

لقد بعث الرسول ﷺ للأجيال كلها سواء من العرب أو من غيرهم، من الصحابة أو من جاء بعدهم إلى يوم القيامة ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا لَهُمْ مِنْ حَقِّهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هؤلاء جميعا مخاطبون بما بعث به ﷺ، مطالبون باتباعه والعمل بما جاء به، وقد حفظت رسالته ﷺ كما جاءت من عند الله لتكون بلاغا للناس جميعا إلى يوم الدين.

وآيات الله تتلى على الناس جميعا بلا توقف أو انقطاع أو تغيير أو تبديل، تتلى عليهم وكأنما نزلت لساعتها داعية إلى ما يحتاج إليه كل جيل وكل قبيل لصالح أمره واستقامة سعيه.

فمن ذا الذي لا يحتاج إلى نور الإيمان ومحاسن الأعمال ومكارم الأخلاق؟ لا استغناء عن ذلك في أي زمان أو مكان.

ولقد أدرك الجيل الأول ضرورة ذلك فاستمسك بما أوحى الله به. وخاطب الناس بما بلغ به في صدق ورشد وأمانة وحكمة.

ومن تدبر آيات القرآن الكريم وعرف أثره في نفوس من آمنوا به وصدقوا الله في الإخلاص له رأى ما يحققه من أثر وما يثمره من استقامة وخير. وصف جعفر بن أبي طالب - رضي الله عنه - ما كانوا عليه قبل بعثة الرسول ﷺ وما صاروا إليه، وصف ذلك لنجاشي الحبشة حين بعثت إليه قريش عمرو

(٨٥٣) سورة الأعراف: ١٥٨.

ابن العاص ليردّ المهاجرين ، وقد سمع النجاشي من مؤفد قريش ومن معه ما سمع ، فأحبّ أن يسمع من المهاجرين أنفسهم ، ويعلم حقيقة أمرهم وما بعث به الرسول ﷺ فيهم :

فقال جعفر بن أبي طالب - رضي الله عنه - هذه الكلمات المعبرة عمّا كانوا عليه وما صاروا إليه . قال : «أيها الملك . كنا أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام . ونسيء الجوار ويأكل القويُّ منَّا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته .

فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من قبل من الحجارة والأوثان .

وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء .

ونهاينا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا . وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .

هكذا زكت النفوس وطهرت وعُلمت ما لم تكن تعلم ، وصارت كما وصف جعفر بن أبي طالب - رضي الله عنه - بعد استجابتها لمن بعث فيها توحّد الله وتعبده ، وتصديق الحديث وتؤدي الأمانة وتصل الرحم ، وتحسن الجوار وتكف عن المحارم والدماء .

رسولٌ بعث فيهم يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة تحولت به حياتهم من الظلمات إلى النور ، وصاروا به خير أمة أخرجت للناس ولم يكن ذلك وفقاً على الجيل الذي بعث فيه ، بل امتد مع الزمان والمكان ، وبقي تأثيره في حياة الإنسان حيث كان لا يتوقف أثره ولا يُطفأ نوره .

والكتاب تُتلى آياته والرسول ﷺ تُعَرَفُ سنته وتدرِكُ حكمته، وقد حَفِظَ ذلك بحفظ الله وبقي بقاء النور في الكون لتنعم الأجيال كلها - وهي تستجيب لله وللرسول - بنعمة الحياة، حياة الطهر والعفاف والإيمان والصدق، حياة العدل والبر والرحمة، حياة أي حياة ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رُسُلًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۚ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۚ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝﴾

١٦٢

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة التغابن ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِمَا عَمِلُوا وَلَئِنْ نُبْعَثُ نُبْعَثُ ثُمَّ لَنَنْبِتُونَ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَعَمِلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝١٠﴾ (٨٥٤).

حديث القرآن هنا عن أصل من أصول الإيمان وهو الإيمان باليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء .

وقد كذب به الكافرون وزعموا أن لن يبعثوا، وهو زعم يدل على ما هم فيه من غفلة وعمى وجحود .

ذلك أن البعث قائم فيهم وأدلتة في أنفسهم ولكنهم لا يبصرون، ولو ذكروا بداية أمرهم لما غابت عنهم قدرة خالقهم في بعثهم وحسابهم . ﴿وَيَقُولُ

(٨٥٤) سورة التغابن : ٧ - ١٠ .

الْإِنْسَانُ إِذْ ذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿١٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ
وَلَعَلَّكَ شَيْئًا .

إن إنكار البعث فيه إنكار لحقيقة وجودهم وحكمة خلقهم .

واستبعاد البعث يُفضي إلى الظن بأن الخلق عبث وباطل ﴿ وَمَا خَلَقْنَا
السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
النَّارِ ﴾ .

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ ﴿١٧﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ
الْحَقُّ ﴾ .

تعالى الله عن أن يخلق عبثاً أو باطلاً، إنه الحق وقوله الحق ووعدته حق
ولقاؤه حق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد ﷺ حق والساعة حق .
وللحق آياته وبيناته ، وله نوره وناره ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ فَأَلْتَنَارُ
مَوْعِدُهُ ﴾ .

﴿ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

ومن آمن بالله ورسوله وآمن بالقرآن - وهو النور الذي أنزله الله - هده إلى
الحق ودعاه إلى العمل به ، وعرف به حكمة وجوده وغاية خلقه ، وحكمة
الخلق تأبى أن تكون الحياة دنيا فحسب ، وفيها ظالم ومظلوم ومحسن
ومسيء . حكمة الله تأبى أن تسوي بين هذا وذاك ، فلا بد من الحساب ولا بد
من الجزاء ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ
مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ ﴿٨٥٥﴾ . وما أنزل الكتاب
وأرسل الرسول ﷺ إلا ليبين للناس ما يجب أن يكونوا عليه ويذكروهم بما هم
صائرون إليه .

(٨٥٥) سورة الأنبياء : ٤٧ .

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ .

ليست الحياة دنيا فحسب ، وإنما الدنيا مقدمة للحياة ﴿وَلَا تَدَارُ الْأَخْرَةَ
لَيْهِ الْحَيَّوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ الناس يمرون بالدنيا ولا يقيمون وما أسرع ما
تمر الأيام وتنقضي الآجال .

إنها دار امتحان واختبار ومن أرادها لغير ذلك أهلك نفسه في الجري وراء
سراب وخسر دنياه وآخرته ، ومن أجل الامتحان والاختيار خلق الله الموت
والحياة .

الموت يقدم للحياة موعظته ، والحياة تُعلمُ الناس أنهم بعد موتهم صائرون
إلى بعث ونشور ، وقد رأوا قدرة الله فيهم فلا مجال لكفر أو جحود ﴿كَيْفَ
تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .

فكيف يزعم من يزعم أن لا بعث ولا نشور والبعث قائم فيه ، وكان ميتا
فأحياه الله؟! ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ .

وفي المقسم به دلالة على المُقَسَّم عليه ﴿وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ .

وقد أمر الرسول ﷺ أن يُقسم بربه عز وجل على وقوع البعث ووجوده ؛ لأن
في الربوبية دلالة أي دلالة على البعث الذي أنكروه وزعموا أن لا يكون
﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يَعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ . ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ
وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨) قُلِ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ .

ذاك هو نور القرآن في دحض الشبهات وإزالة الظلمات والأخذ بيد الإنسان
إلى الطمأنينة واليقين .

ولو أبصر هؤلاء أنفسهم ورأوا آيات الله فيها وفي الآفاق من حولهم لأيقنوا بالحق الذي خوطبوا به ودعوا إليه وعرفوا عن يقين أن أمر البعث على الله يسير، وأن الإيمان به مصلح لدنياههم، مبعث للظلم والفساد من حياتهم، معين على التراحم فيما بينهم. إن الاستقامة في الحياة منوطة باليقين بالدار الآخرة.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٧٣ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُونَ﴾ (٨٥٦) ذاك حديث القرآن فيه هدى ونور ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورَ الَّذِي أُنْزِلَنَا﴾.

وفيه موعظة وذكرى فلتتمسك به ولتتبع هداه ولنحذر مخالفته أو الإعراض عنه، ولنذكر ما نحن صائرون إليه ومحاسبون عليه ﴿إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

١٦٣

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الطلاق ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَهَا حَسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَاهَا عَذَابًا تُكْرًا ٨﴾ ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَنَقِبَهُ أَمْرُهَا خُسْرًا ٩﴾ ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ١٠﴾ ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ١١﴾ (٨٥٧).

(٨٥٦) سورة المؤمنون : ٧٣ - ٧٤ .

(٨٥٧) سورة الطلاق : ٨ - ١١ .

إن القرآن الكريم وهو يذكر بما وقع من أحداث ماضية يقدم لنا من خلال ذكرها سنن الله الباقية، فكل أمة من قبل قد عصت ربها وأعرضت عن رسله نالها من عقاب الله ما نالها، فذهبت وبقيت للناس عبرتها تخاطب الأجيال من بعد.

والله عز وجل وهو يبين ما حلّ بالأمم الماضية حين عتت عن أمر ربها ورسله يحذر من جاء بعدهم من أن يتبعوا سبلهم ويتوعد كل من خالف أمره وكذب رسله. ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَاهَا عَذَابًا نُّكَرًا ۖ﴾ فذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا خُسْرًا .

خسران وهلاك ونكال في الدنيا وعذاب شديد في الآخرة. كل ذلك بسبب كفرهم وجحودهم وإعراضهم عن الحق الذي أمروا باتباعه وما يتلى على الناس من قرآن يريهم نتائج الأعمال والأقوال والنيات، يريهم ذلك في مصائر الأمم وعاقبتها.

يريهـم نتائج الفسوق والعصيان، ويريهـم مصائر الظالمين المفسدين ليحث أهل الإيمان واليقين على الثبات على الحق في جميع أمرهم وأن يحذروا أن يستدرجوا إلى ما وقع فيه غيرهم من دمار وخسران ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَىٰ أَلْبَابٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا ۖ﴾ فلا تكونوا كهؤلاء فيصيبكم ما أصابهم.

ولا تنقطع التبصرة والتذكرة. والذكر محفوظ والسنة باقية؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور ﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۖ﴾ رُسُلًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ . ذكر محفوظ لا يطفأ نوره ولا يوقف مدّه.

ذكر يتلى ويُسمع ويراه الناس خلقا لرسول الله ﷺ، وقد جعله الله نوراً يهدي به من يشاء ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾

يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٥٨﴾

وهكذا قد تمت النعمة وكملت بإرسال الرسول وإنزال الكتاب ، وحفظت النعمة لتكون تبصرة وذكرى للمؤمنين ، وإعذاراً وإنذاراً للعالمين .

حفظ الذكر في آيات مبینات تلاها الرسول ﷺ ورآها الناس في سيرته منهجاً وخلقاً فاكتملت البينة وتحققت الأسوة بنورين : كتاب ورسول . فلا حجة لأحد بعد بيان ولا عذر بعد بلاغ وإنذار .

فمن أثر الحياة الدنيا وبغى وطغى لقي ما يلقاه الطغاة الظالمون ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ومن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فهدى بالحق وعدل حسنت عاقبته وطاب نزه ، وفي بيان القرآن وآياته بلاغ للناس وإنذار لهم .

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾ ﴿٨٥٩﴾

﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾ وعيدٌ يلقاه كل من كذب بالحق وأعرض عنه ، يلقاه كل من بغى وطغى وأفسد في الأرض بعد إصلاحها ، وكم في الأرض من طغاة يظنون بطغيانهم أنهم فائزون .
﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾

١٦٤

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الملك
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَأَنسَ الْمَصِيرُ﴾ إِذَا الْقُورُفُفِهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ

(٨٥٨) سورة المائدة : ١٥ - ١٦ .

(٨٥٩) سورة السجدة : ٢٢ .

نَذِيرٌ ۖ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَ نَاذِرٌ فَكَذَّبُوا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِن أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ
كَبِيرٍ ۖ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۖ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا
لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٨٦٠﴾.

تلك عاقبة الذين كذبوا بالحق وقالوا — منكبين — : ما نزل الله من شيء .
مبالغة منهم في الكفر والجحود .

قالوا في حق ما تلي عليهم من الآيات : ما نزل الله على أحد من شيء من
الأمور ، فضلا عن تنزيل الآيات . جحود للحق أي جحود .

والنفوس إذا جحدت الحق المبين عميت وضلت وكان عاقبة أمرها خسرا ،
ومن فرط في حق دعي إليه ندم على التفريط حيث لا ينفع الندم ، ولن ينفع
بعد فوات الأوان ندم ولا حسرة ؛ فإن للامتحان وقتا لا يتجاوزه ، وأجلا إذا جاء
لا يؤخر .

فإذا ما انقضى الأجل ﴿ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ
كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا ﴾ . عندئذ لا ينفع ندم ولا حسرة ولا تقبل شفاعة ولا
معدرة .

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ ۖ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا
لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٨٦٠﴾ ۖ إن الحق الذي أنزله الله على نبيه وأمره أن يبلغه
وينذر به قومه هذا الحق ليس بخاف ، والنذير ليس بعيداً عنهم . إنه منهم
يأتمنونه على ما لا يأتمنون عليه أنفسهم ، ويشهدون جميعاً بصدقه وأمانته .
ولكن الجحود يقود صاحبه إلى إنكار ما لا ينكر .

والنفوس التي تكفر بربها ، ودواعي الإيمان مودعة في فطرتها ، ودليله قائم
فيها ، هذه النفوس تعادي بكفرها كل شيء ، وتناقض بجحودها الوجود كله
وهو يسبح بحمد ربه ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يَسْبَحُ بِحَمْدِهِ ﴾ .

فلا غرابة أن تُرى جهنم في هذا الغيظ والمقت على من ألقى فيها من أهل الكفر والجحود. ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورٌ ۖ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ۗ ۝﴾

إنها تنغيظ لهذا الجحود الذي تنكره فطرتها وتنفر منه وتنطوي على بغض وكره لأهله، وإسناد الغيظ إليها تنبيه إلى أن الأشياء ليست بمعزل عن سلوك الإنسان وما يوحيه إليها، إن الأرض قد تبكي لفراق ناس ولا تبكي على آخرين وتحمد ربها حين يُقطع من على ظهرها دابر الظالمين. الأشياء التي قد يظن أنها بمعزل عن الإنسان وموقفه من كفر أو إيمان، هذه الأشياء لها تأثيرها وتأثرها بما يتسق مع فطرة الخلق أو ينافيها، ولها شعورها وتعبيرها عما تحبه أو تجافيه. فما اتسق مع فطرة الخلق تسبىحاً وإيماناً مالت إليه ورغبت فيه، وما خالفه وشذ عنه نفرت منه وتحفزت للانقضاض عليه. ولو أحسن الإنسان التدبر لعرف أنه يعيش في كون حسّاس شفاف مسجل بما أودع الله فيه، يحس بما يقع ويذكر ويحدث حين يؤذن له، ويحب ويكره، ويفرح ويجزع بفطرة لا تبديل فيها ولا تغير في حقيقتها.

كل شيء في هذا الكون مسبحٌ بحمد ربه ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ فمن كفر بربه فقد شذَّ عن هذا الكون كلّهُ ولقي ما يلقيه من سخط وبغض وتحفُّزٍ عليه وتوثُّب، وذاك حال جهنم - وهي من خلق الله.

تستقبل من كفر بربه وجحد آياته، تستقبله حين يُساق إليها في غيظ وحنق شديد ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورٌ ۖ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ۗ ۝﴾ إذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا ۗ ﴿٨٦١﴾

(٨٦١) سورة الفرقان: ١٢.

والأرض التي مشى الإنسان في مناكبها وأكل من رزق ربّه، هذه الأرض تسجل على الإنسان ما جرى عليها وما وقع فيها، وتأتى يوم القيامة حافظة شاهدة مُخبرة صادقة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُخْبِتُ أَخْبَارَهَا * إِنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْنَاءَ النَّاسِ وَأَعْمَلُهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨٦٢) فلا يظن ظان أنه قد خلص بنفسه دون شهيد أورقيب .

إن الشاهد عليه سيكون من نفسه ومن الأشياء من حوله .

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَئِذٍ يُوفِيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ (١٥) .

فأعداء الله ليسوا بمعجزين والأشياء تحيط بهم، وإن بدا أنها مسخرة لنفعهم، فإنها ستكون في العاقبة حين يؤذن لها شاهدة عليهم، ولن يكون لهم سلطان عليها حين تنطق وتشهد .

﴿وَيَوْمَ يُخْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا جُودُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا قُلُوبُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَذَلِكَ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُصَبِّحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (١٦٣) .

ذاك حديث القرآن عن أولئك الذين يجحدون ما نزل من الحق ويعرضون عنه . حديث يبصر ويذكر ويحذر أولئك الذين يجادلون بالباطل ليدحضوا ما نزل من الحق .

(٨٦٢) سورة الزلزلة .

(٨٦٣) سورة فصلت : ١٩ - ٢٣ .

إنهم هنالك يسألون ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴿هاهم يلومون أنفسهم ويتحسرون على التفريط والتكذيب.

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ فَأَعْرِضُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿.

وهذه جهنم التي أنكروها فيما كانوا ينكرون . هاهم يرونها تكاد تميز من الغيظ من كفر هؤلاء وجحودهم .

﴿هذه جهنم التي كنتم توعدون﴾ اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾ (٨٦٤).

١٦٥

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنته هذه الآيات من سورة القلم ﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿وَأَنْتَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿فَسَتَبْصُرُ وَتُبْصِرُونَ ﴿بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿فَلَا تُطِيعِ الْمُكْذِبِينَ ﴿وَدُّوا لَوْلَاهُمْ فَيُدْهِنُونَ ﴿وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿هَمَّا زِمَنَآ بِنَمِيمٍ ﴿مَنَاجِ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَيْمٍ ﴿عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿ سَنَسِفُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ﴾ (٨٦٥).

حديث القرآن عن القرآن هنا فيه بيان لموقف أهل الكفر والجحود من الرسالة والرسول ، لقد قالوا في الرسول ما قالوا ، وقالوا في الكتاب المنزل عليه - إذا تليت عليهم آياته - قالوا أساطير الأولين . وما يقوله واحد منهم هو قول

(٨٦٤) سورة يس : ٦٣ - ٦٥ .

(٨٦٥) سورة القلم : ١ - ١٦ .

لهم جميعا يؤخذون عليه، ويؤخذون به؛ لأن الكفر يجمعهم والجهود
بآيات الله يدفعهم إلى الرضا بالصدق والكذب والافتراء.

ومن تدبر القرآن ورأى ما صار إليه أمر هؤلاء علم أن القرآن وهو يتلى على
الناس ليس أعزل من قوة غالبية تحقق وعده ووعيده، وقد كان من وعيده لهؤلاء
وأمثالهم: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا
يَعْلَمُونَ﴾ (١١) وَأَمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٨٦٦﴾.

﴿فَذَرَهُمْ خَوْضًا وَيَلْبَؤًا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ (١٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ
مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿١٣﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِفُهُمْ ذَلَّةٌ
ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (١٤) ﴿٨٦٧﴾. وقد بقي الحق متصرا وهلك هؤلاء
وأخذوا بما فعلوا.

إن المسلم الحق لا تنطفئ شعله أمله وهو يحيا مع كتاب ربه، ويعرف
سنن الله في خلقه، ومداولة الأيام بين الناس.

والكتاب العزيز يثير في نفسه دوافع العزة ويعرفه مكانة أمتة وهي تعتصم
بكتاب ربها، وما يجب أن تكون عليه في عسرها ويسرها وما تلاقيه من شدة
ورخاء. إنها مطالبة أن تستمسك به في كل حال، وأن تهتدي بهداه
﴿فاستمسك بالذي أوحى إليك إنك على صراط مستقيم، وإنه لذكر لك
ولقومك وسوف تسألون﴾.

﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله﴾ وهم لا يعجزون فاجعل تمسكك
بالحق واتباعك له سبيلا إلى مرضاة ربك وطلب النصر منه.

إن الذين قالوا عن القرآن الكريم ما قالوا، وقالوا في الرسول ﷺ ما قالوا لم
يمض على أقوالهم ومواقفهم زمن طويل حتى رأينا هؤلاء منهم من خضع

(٨٦٦) سورة القلم: ٤٤ - ٤٥.

(٨٦٧) سورة المعارج: ٤٢ - ٤٤.

للحق فانتفع بنوره، ومنهم من استكبر وأعرض فاحترق بناره. وستظل العبرة قائمة أمام أعين الناس لا تغيب.

والقرآن الكريم يُتلى على الناس فيرون الواقع شاخصاً أمام أعينهم، يرون من كذب بالحق ماذا كان مصيره؟ ومن آمن به وجاهد في سبيله كيف تم نصره وعلا ذكره؟

وسيظل الناس ما بين مؤمن به ومعرض عنه إلى أن تأتي الساعة الفاصلة التي يقول فيها جميع الخلق: لقد جاءت رسل ربنا بالحق، ويعلنون إسلامهم لما جاء به. وعندئذ يودُّ من عاداه أن لو كان مُسَلِّماً له متبعاً ما جاء به.

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ * رَبَّمَا يُودِ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ * ذَرِهِمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمْلُ فَسُوفَ يُعْلَمُونَ﴾ (٨٦٨).

نعم سيودُّ ذلك كلُّ من كفر أو ابتغى غير الإسلام.
﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

١٦٦

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة القلم ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (٨٦٩).

﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ يعني القرآن.

خطاب من الله لرسوله ﷺ فيه ما فيه من تسرية وتأيد للرسول ﷺ. ومن تهديد ووعد شديد لأعدائه.

(٨٦٨) سورة الحجر: ١ - ٣.

(٨٦٩) سورة القلم: ٤٤ - ٤٥.

فذرني ومن يكذب بهذا الحديث : هؤلُ مزلزل للمكذبين ، وطمانينة للمؤمنين المستضعفين . دعني ومن يكذب بهذا الحديث ، وأنا أعلم به كيف أستدرجه وأمه في غيِّه ثم أخذه أخذ عزيز مقتدر .

﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ .

أي : وهم لا يشعرون أنهم مستدرجون بل يعتقدون أن ذلك من الله كرامة وهو في الأمر نفسه إهانة . كما قال الله عز وجل ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمْدَهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ نَسَارِعَ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ .

تلك سنة الله في خلقه أن يملئ للظالم وأن يؤخره وأن يمدّه ، وذلك من كيد الله به ﴿إِنْ كِيدِي مَتَيْنِ﴾ أي : عظيم لمن خالف أمري وكذب رسلي ، واجترأ على معصيتي .

في الحديث المتفق عليه عن أبي موسى - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله ليملي للظالم ، فإذا أخذه لم يُفلته ، ثم قرأ : ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخْذَ الْفَرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ .

﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث﴾ أي : دعني وإياه فترى ما أصنع .

وهي كلمة يقولها المغتاض إذا اشتد غيظه وغضبه ، وكره أن يُشفعَ لمن غضبَ عليه . فمعنى الكلام : لا شفاعاة في هذا الكافر .

عليك أن تكل أمرهم إليّ ؛ فأنا أعلم كيف أنتصف منهم ، فلا تشغل نفسك بهم وتوكل عليّ ﴿سنستدرجهم﴾ والاستدراج والإملاء يعقبهما الانتقام المحقق . والتأخير لحكمة تقتضيه ﴿إِنْ كِيدِي مَتَيْنِ﴾ .

إن مدَّ الكافرين بنعم الله إنما هو استدراج وإملاء يعقبه دمارٌ وانتقام ﴿لَا يَعْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ ﴿١٧﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٨٧٠﴾ .

(٨٧٠) سورة آل عمران : ١٩٦ - ١٩٧ .

والاستدراج : استنزال الشيء من درجة إلى أخرى في مثل السلم ، وقد شاع إطلاقه على معاملة حسنة لمسيء إلى أن يحين عقابه .

ومعنى ﴿من حيث لا يعلمون﴾ أي من حيث لا يعلمون أن استدراجهم المفضي إلى حلول العقاب بهم يأتيهم من أحوال وأسباب لا يدركون أنها مُفْضِيَةٌ بهم إلى الدمار والهلاك ، وذلك أَجْلَبُ لِقُوَّةِ حَسْرَتِهِمْ عند حلول المصائب بهم .

فإن الدمار بعد اقتدار فيه ما فيه من أليم الحسرة وبالغ العبرة والموعظة . وتلك سنة ماضية في الأفراد والأمم . فهل يعي ذلك كل من خالف الحق أو كذب به ؟

هل يعي ذلك من يتآمرون على دين الحق ويكيدون له ويكذبون بآيات الله ويجحدون؟ هل يعي هؤلاء أن الحق - وإن ضعف أهله - ليس أعزل من قوة غالبية كما يتصورون؟ إنهم بما أوتوا - وهم يكذبون بالحق - مستدرجون ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ .

فليتق الله أولئك في أنفسهم وليعرفوا السبيل لأنهم وسلامهم وتراحمهم . إن ضياع الأمن من حياتهم وفقدان التراحم فيما بينهم نذير لكي يعرفوا طريق التراحم وسبيل الهداية إلى الأمن والسلام . ذاك سبيل التراحم وطلب الرحمة من الرحمة ولا سبيل غيره :

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٨٧١) . وهذا طريق الهداية لما يطلب من أمن وسلام :

﴿فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (٨٧٢) فهل يدرك المسلمون - وفيهم نوران : كتابٌ وسنة - أنهم

(٨٧١) سورة الأنعام : ١٥٥ .

(٨٧٢) سورة الأعراف : ١٥٨ .

أصحاب رسالة عالمية ، وأنهم مأمورون أن يكونوا دُعاةً إلى ما أمروا به من تبليغ رسالة الله بأفعالهم وقوة ترابطهم ، وحسن أخلاقهم ، وصالح أعمالهم ، وصادق اعتصامهم بحبل ربهم ؟ هل يدرك المسلمون أن سلام العالم كله متوقف عليهم لا على غيرهم - وفيهم نوران : كتاب وسنة ؟ ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ﴾ فهل يتبع المسلمون في كل مكان نور كتابهم ، ويجعلونه منهج حياتهم ليكون ميزان عدل - كما أمر الله - بينهم وبين غيرهم ؟

وقد أنزل الله الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، فإذا فرط المسلمون في ذلك فإن سنن الله لن تجاملهم ، ولن يجدوا من دون الله - إن هم فرطوا - ولياً ولا نصيراً .

إن القرآن الكريم بلاغ من الله للعالمين ، وإنه الحق الذي يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، وإن الحق ليس أعزل من قوة تنصره وهو من الله رب العالمين . وإن ضياع جيل أو فرط فإن الحق لن يضيع وهو باق ، ويختار الله لنصره من يشاء ﴿ وإن تولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ (٨٧٣) .

﴿ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ، فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٨٧٤) .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة القلم ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ (٥١)

(٨٧٣) سورة محمد : ٣٨ .

(٨٧٤) سورة المائدة : ٥٤ .

وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٥﴾ (٨٧٥) ذاك حال أهل الجحود وهم يسمعون القرآن ﴿لِيَرْلِقُونَكَ أَبْصَارَهُمْ﴾ لما سمعوا الذكر ﴿وَالزَّلَقُ﴾، والإزلاق : مصدر زَلَقَهُ وَأَزْلَقَهُ يُقَالُ : زَلَقْتُ الرَّجُلَ إِذَا اضْطَرَبْتُ ، وَزَلَّتْ عَلَى الْأَرْضِ فَلَمْ تَسْتَقِرْ ، وَالزَّلَقُ يُفْضِي إِلَى السَّقُوطِ .

﴿لِيَرْلِقُونَكَ﴾ أي : يسقطونك ويضرعونك .

إن الإزلاق بالأبصار فيه دلالة واضحة على ما تحمله هذه النفوس من كيد وغيظ وشر وحسد وضغن . نظرات تكاد تؤثر في أقدام الرسول ﷺ فتجعلها تزل وتنفقد توازنها وثباتها . أي نظرات هذه ؟ وأي حقد تحمله هذه النفوس ؟ ذاك حالهم عند سماع القرآن ﴿وإن يكاد الذين كفروا ليرلِقُونَكَ أَبْصَارَهُمْ﴾ لما سمعوا الذكر .

وهم يقرنون نظراتهم المسمومة بسب قبيح ، وشتم وافتراء ويقولون : إنه لمجنون . عمن يقولون ؟! يقولون عن المصطفى ﷺ .

وهم يريدون بهذا القول إبطال ما جاء به ؛ لأنهم قالوه في سياق تكذيبهم بالقرآن ، ومن هنا جاء قوله ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ فهذا فيه إبطال لقولهم ﴿إنه لمجنون﴾ .

فإذا ثبت أن القرآن ذكرٌ بطل أن يكون مبلَّغه مجنوناً .

هم يريدون أن يقولوا : ﴿إنه لمجنون﴾ وإن القرآن كلام مجنون .

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي : وما القرآن إلا ذكر ، وما أنت إلا مذكر . ﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ .

(٨٧٥) سورة القلم : ٥١ - ٥٢ .

وهم قد قالوا هذا القول اعتلالاً لأنفسهم ؛ إذ لم يجدوا في الذكر الذي يسمعون مدخلاً للطعن فيه ، فانصرفوا إلى الطعن في صاحبه ﷺ بأنه مجنون لينتقلوا من ذلك إلى أن الكلام الجاري على لسانه لا يوثق به ، ليصرفوا دهماءهم عن سماعه ؛ فلذلك أبطل الله قولهم إنه مجنون بقوله : ﴿ وما هو إلا ذكر للعالمين ﴾ .

أي : ما القرآن الكريم إلا ذكر للناس كلهم ، وليس بكلام المجانين ، ويتنقل إلى أن الناطق به ليس من المجانين في شيء ؛ فإن الذكر الذي أنزل عليه هو أشرف الكلام وأكرم ، وفيه صلاح للناس وفلاحهم ، فهو نعمة أي نعمة ورحمة بالناس أي رحمة ، ولن يكون من جاء به إلا أكرم الناس وأرفعهم وأحسنهم خلقاً وأرجحهم عقلاً . ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ وإن لك لأجراً غير ممنون ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ تلك شهادة الله له وثناؤه عليه . وهم يوقنون بذلك ويعلمون عظمة خلقه . يعلمون ذلك من سيرته ، ويعترفون بصدقه وأمانته .

وإن الإنسان ليعجب أشد العجب أن يبلغ الغيظ بالناس هذا المبلغ وأن يدفع الحق أهل الكفر أن يقولوا عمن عرفوه وأيقنوا برجاحة عقله وسمو خلقه وكامل صدقه وأمانته أن يقولوا عنه إنه لمجنون .

وهم الذين حكموه بينهم ، ورضوا بحكمه ولقبوه بالأمين قبل أن يبعث ، واستودعوه أماناتهم مع عدائهم له ، وهم الذين لم يعرفوا عنه كذبة واحدة ، حتى قال أبو سفيان حين سأله هرقل : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل نبوته ؟ قال : لا .

فقال هرقل : ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .

إن القرآن وهو يُتلى علينا يرينا كيف يجحد الناس النعمة ، ويدفعهم هواهم إلى مجافاة الرحمة .

فما النبي ﷺ إلا رحمة مهداة، وما جاء به نعمة من الله فكيف يوصف من هذا شأنه بأنه مجنون؟ ﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾.

هكذا في آية قصيرة يثبت الله وينفي، يثبت نعمته على عبده ورسوله في كلمات توحى بالقرب والمودة حيث يُضَيِّفُهُ إلى ذاته ﴿ما أنت بنعمة ربك﴾.

وينفي تلك الصفة المفتراة التي لا تجتمع مع نعمة الله على عبد نسبه إليه وقرَّبه واصطفاه. وهذه النعمة ممتدة إلى خلقه. فمن أجل هدايتهم بعثه، ومن أجل الرحمة بهم أرسله ﷺ. فمن عاداه عادى الهداية والرحمة، واستحب العمى على الهدى.

وتأتي العواقب في كل شأن لتري الناس أن الحق لا يعادى، وأن النعمة لا تجحد، والعبرة قائمة في الأولين ممتدة في الخلق إلى يوم الدين.

والقرآن وهو يذكر ما وقع مع الجاحدين وما جرى لهم يبصرنا بما يجب أن نكون عليه، فما وقع للجاحدين السابقين واقع لا محالة بمن كان مثلهم من اللاحقين ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجْدِلُسُنَّتَ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجْدِلُسُنَّتَ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ والعاقل من اعتبر بغيره، ولم يسلك سبيل من أخذ بظلمه.

والأرض تحكي للناس ما جرى فيها وما مرَّ عليها. والقرآن الكريم يُري الناس ما هم صائرون إليه ومنتھون عنده.

وهو بذلك يعينهم على إنقاذ أنفسهم من سوء عاقبة ومصير. يعينهم بآيات بينات تتلى عليهم، وآيات مرئية في الأنفس والآفاق أمام أعينهم، والله هو الغني وهم الفقراء إليه، فما يعينهم به محض فضل منه عليهم، وهم مهما امتدت آمالهم في دنياهم فإنهم راجعون إليه، ومحاسبون بين يديه، وإن غدا لناظره قريب.

﴿وَرُبُّكَ الْغَفِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ (١٧٢) إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٧٦﴾.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة الحاقة ﴿فَلَا أَقِيمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾.

لقد جمع الله في هذا القسم كل ما الشأن أن يقسم الله به من الأمور العظيمة من صفات الله ومن مخلوقاته الدالة على عظيم قدرته إذ يجمع ذلك كله الصلطان.

﴿بما تبصرون وما لا تبصرون﴾

فمما يبصرون الأرض والجبال والبحار والنفوس البشرية والسموات والكواكب، وما لا يبصرون الأرواح والملائكة وأمور الآخرة. وضمير (إنه) في قوله ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ عائد إلى القرآن، وقد جاء مؤكداً بأن واللام للرد على الذين كذبوا أن يكون القرآن من كلام الله ونسبوه إلى غير ذلك.

والمراد بالرسول الكريم في قوله ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ المراد به : محمد ﷺ، وإضافة قول إلى «رسول» لأنه هو الذي بلغه فهو قائله ؛ فالقرآن جعله الله وأجراه على لسان النبي ﷺ. كما صدر من جبريل عليه السلام بإيحاؤه بواسطته كما قال الله عز وجل : ﴿فإنما يسرناه بلسانك﴾ وفي لفظ «رسول» إيذان بأن القول قولُ مرسله : أي الله تعالى ، وقد أكد هذا المعنى بقوله ﴿تنزيل من رب العالمين﴾.

ووصف الرسول بـ «كريم» لأنه الكريم في صفته أي: النفيس الأفضل، وقد أثبت للرسول ﷺ الفضل على غيره، ونفى أن يكون شاعراً أو كاهناً بنفي أن يكون القرآن قول شاعر أو قول كاهن. والنبي ﷺ منزّه عن أن يكون شاعراً أو كاهناً.

وإنما خُصَّ هذان الوصفان بالذكر دون قولهم: افتراه، أو مجنون؛ لأن الوصف بقوله ﴿رسول كريم﴾ كاف في نفي أن يكون مجنوناً أو كاذباً إذ ليس المجنون ولا الكاذب بكريمين، فأما الشاعر والكاهن فقد كانا معدودين عندهم من أهل الشرف. والمعنى: ما هو بقول شاعر ولا قول كاهن تلقاه من أحدهما ونسبه إلى الله تعالى، فادّعاؤهم أنه قول شاعر أو قول كاهن بهتان متعمّد، وهم يعلمون الشعر والكهانة، وقد قال مؤفّدهم عتبة بن ربيعة بعد أن قرأ النبي ﷺ: ﴿حَمْرٌ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كَتَبْتُ فَصَّلْتُ ءَايَتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا الْقَوْمُ يَعْلَمُونَ﴾ حتى بلغ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ قال عندما عاد إلى قريش: «يا قوم أطيعوني في هذا اليوم واعصوني بعده؛ فوالله لقد سمعتُ من هذا الرجل كلاماً ما سمعت أذني قطُّ كلاماً مثله» هم يعرفون الشعر ويعرفون الكهانة، ويوقنون أن القرآن لم يكن قول شاعر ولا قول كاهن، ولم يقله قبل محمد ﷺ قائل.

وقد لبث النبي ﷺ فيهم عمراً من قبله لم يقل من ذلك شيئاً قبل أن يوحى إليه، ولكن ما دلالة أن يبيّن القرآن الكريم ذلك كلّ، وأن يذكر أقوال المبطلين الجاحدين؟ ويجعل الأجيال كلّها على علم بما لقيه المرسلون؟

دلالة ذلك أن تُعرف سنن الله في خلقه وحكمته في امتحان عباده، فمع وضوح الحق وبيانه اقتضت حكمة الله أن تُبتلى عَفَّةُ المحققين بسفاهة المبطلين ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين﴾، وأن تُمتحن استقامة المستقيمين بكيد الكائدين.

والكاذبون يضيقون بصدق الصادق، والسارقون لا يرحبون بقطع يد السارق، والذين تتمرغ أنوفهم عند رجس أو ثان وأصنام يضيقون بمن ترتفع هاماتهم بذكر الرحمن. وقد جعل الله هؤلاء فتنة لهؤلاء ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً﴾ ليميز الله الخبيث من الطيب، ويُعلم الصادق من الكاذب، لا خفاء في بيان الحق ولا خلاف في طهارة الصدق، ولكن النفوس إذا عبدت هواها فلن تجد من بعد الله هداها.

والقرآن سيظل يتلى على الناس، ويجد فيه المستقيم سلوته وتثبته، ويجد الضال إنذاره وتحذيره، وفي كل ذلك يقدم هدايته وتبصرته، دون ضنٍّ أو توقف وتُمَتِّحَن الأجيال وتذهب، ويفنى ما تعلق به من دون الله وما حرصت عليه، ويبقى الذكر في جميع الأحوال عزيزاً لا يقترب من ساحته باطل، ولا ينال من عزته جمع متآمر أو تتكاثر. يبقى مع الزمن كله إنذاراً للعالمين وبلاغاً للناس أجمعين.

﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون إنه لبقول رسول كريم* وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون* ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون* تنزيل من رب العالمين﴾.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الحاقة ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿١١﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿١٣﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿١٤﴾﴾ (٨٧٧).

القرآن منزل من عند الله، والله الذي أنزله على كل شيء قدير، وهو بكل شيء عليم؛ فلا يُقَرُّ أحداً على أن يقول عنه كلاماً لم يقله؛ إذ لو لم يكن

القرآن منزلاً من عند الله ، ومحمد ﷺ ادَّعى أنه منزل منه ، لما أقره على ذلك ولعجل بإهلاكه ، فعدم إهلاكه ﷺ دالٌّ على أنه لم يتقوله على الله .

فإن «لو» تقتضي انتفاء مضمون شرطها لانتفاء مضمون جوابها ، فقد انتفى تقوله على الله لانتفاء أخذه باليمين .

بل ما تحقق هو الفوز والنصر المبين .

﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل﴾ .

والتقول : نسبة قول لمن لم يقله .

وهو تَفَعَّلٌ من القول ، صيغة دالَّةٌ على التكلف ، لأن الذي ينسب إلى غيره قولاً لم يقله يتكلف ويختلق ذلك الكلام .

والمعنى : لو كذب علينا فأخبر أنا قلنا قولاً لم نقله ﴿لأخذنا منه باليمين﴾ أي : لأخذناه بقوة دون إمهال ، أخذناه عاجلاً فقطعنا وتيناه .

والوتين : عرقٌ معلقٌ به القلب ، وهو إذا قطع مات صاحبه . وفي هذه الحالة من أحوال القول لو أخذنا منه باليمين فقطعنا منه الوتين لا يستطيع أحدٌ منكم أو من غيركم أن يحجز عنه ذلك العقاب .

وفي الآية دليل على أن الله تعالى لا يبغي أحداً يدَّعي أن الله أوحى إليه كلاماً يبلغه إلى الناس ، وأنه يُعَجِّلُ بهلاكه ؛ فالحق من عند الله مصون بالحفظ والتأييد ، عزيز لا يقترب من ساحته باطل . وكلمات الحق لها قدرها . ومن استقام مع الحق استضاء بنوره ، ومن كذب عليه أخذ بناره .

والفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وإن صُرفَ الناس عنها بصارِفٍ فإنها مُسْتَيَقَّةٌ في النفوس ، وبها يستطيعون أن يميزوا بين صدوقٍ وكذوبٍ وبين قول

فيه نور الحق وكلام يدفعه الهوى وفي ظلام التكلف . وقد يعادي الإنسان من يُعادي ولكن فطرته قد تنصف من يعاديه ، لأن الحق له سلطانه وبرهانه ونفعه الذي لا يُنكر ولا يجحد .

وللباطل زبده وغشاؤه وهو لا يلبث أن يُقذف ويذهب ، ولا يستطيع أحد أن يجعل من الباطل حقاً يدوم ويبقى ، ولا أن يُطفىء نور حق منسوب إلى من يدوم ويبقى ، ومن تدبر أمر الحق أيقن أنه غني عن التكلف منزّه عن القول .

والقرآن يتسق بحقائقه ومقاصده مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها في يسر دون حرج أو عسر ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ .

مؤدّى هذا أن القرآن منزل من الله لا من أحد سواه ﴿ وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، ولكن ما دلالة النفي والإثبات ، إثبات أنه من عند الله ونفي أن يكون من عند غيره؟ دلالة أن لا سبيل لهدايتهم إلا بحسن اتباعه ؛ لأنه من عند الله ، وما التوفيق إلا بالله ، ولا نجاة لهم من سوء عاقبة ومصير إلا بالاعتصام به .

هذه الحقيقة يرى الناس تأويلها ويجدون صدقها في أنفسهم وفيما يقع من حولهم ، وقد يخطئ الناس في تعليل ما يقع ، ويرجعون الأمر لغير ما ذكر الله من مخالفة للحق الذي أنزل وإعراض عن الهدى الذي بين .

قد يخطئون زمناً ثم لا تلبث الحياة أن تريهم أن ما هم عليه من فواجع ومصائب وفساد وقلق واضطراب مصدره معاداتهم للحق وبعدهم عنه ؛ فإن من عادى الحق وقع في الباطل ، ومن أبى العدل آثر الظلم .

إن القرآن الكريم تنزيل رب العالمين والله بكل شيء عليم وهو على كل شيء قدير . والله الذي رحم الناس بإرسال رسوله ، وهداهم بحفظ كتابه ،

وأمرهم بحسن تدبره والاعتصام به ، هو الذي خلقهم ورزقهم وهو غني عنهم وإليه يرجعون ؛ وما رضى لهم فيه أمنهم وسلامهم في دنياهم وأخراهم ، وما لا يرضاه لهم فيه شقاؤهم وضلالهم ، وهم يحملون وزر ما عملوا ولا حجة لهم بعد إرسال رسول وحفظ كتاب ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ولا أحد يدفع عن أحد شيئاً ، ولا يجزي والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً .

إن لهذا الحق الذي أنزل من عند الله وحُفِظ بحفظه سلطاناً ونوراً وبرهاناً لا يلتبس بشيء سواه ، فمن أبى إلا أن ينسبه إلى تقوّل متقول على الله فلن يجد ملجأ يعصمه من عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون .

١٧٠

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة الحاقة ﴿ وَإِنَّهُ لَنَذِيرٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ ﴿ (٨٧٨) .

وإنه لتذكرة للمتقين ، والضمير عائد إلى القرآن الكريم . فإنه مذكر للناس بما يغفلون عنه من العلم بالله ، وما يليق بجلاله لينتشلهم من هوة التماذي في الغفلة ؛ فالقرآن الكريم في ذاته تذكرة لمن يريد أن يتذكر سواء تذكر أو لم يتذكر .

وقد سُمِّيَ القرآن بالذكر في آيات عديدة لأنه في ذاته مذكر ومبصر ، وهو تذكرة لمن يخشى .

وإنه لتذكرة للمتقين - وهم المؤمنون المتصفون بتقوى الله .

(٨٧٨) سورة الحاقة : ٤٨ - ٤٩ .

القرآن تذكرة لهم في كل الأحوال فقد كان هاديا إياهم للإيمان ، كما قال الله عز وجل : ﴿ هدى للمتقين ﴾ وكلما تلوا منه شيئا ذكّروهم بما علموا لئلا تعثرهم غفلة أو نسيان . فالقرآن تذكرة للمتقين في الماضي والحال والمستقبل ؛ فإن الإخبار عنه بالمصدر يتحمل الأزمنة الثلاثة ؛ إذ المصدر لا إشعار له بوقت بخلاف الفعل وما أشبهه .

وإنما كان تذكرة للمتقين لأنهم هم الذين أدركوا مزيته وسكنت نفوسهم لموعظته واهتدت بهدايته . وهذا حالهم عند سماعه أو تلاوته ﴿ نَفْسَعْرِضْهُمْ جُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ .

القرآن الكريم يذكر قلوب أهل التقى نتذكر ، وتُهدى بنور الله في كل شأن للتي هي أقوم ، ويجد أهل التقى في القرآن الحياة والنور والتبصرة والذكرى ، يجدون فيه ما يبصرهم بحكمه الحياة وغاية الوجود فلا تلبس عليهم السبل ولا يضلون السبيل . يجدون فيه بشراهم بحسن العاقبة في سرائهم وضرائهم ، وحياتهم وموتهم فلا تلهيهم الرغائب عن العواقب ، ولا تصرفهم الدنيا عن الإعداد للآخرة .

يذكرهم بما هم صائرون إليه ومنتھون عنده ، ويربهم نتائج أعمالهم حاضرة أمام أعينهم فلا تنعطف نفوسهم إلى شر ، ولا تتركز إلى ظلم . والقرآن يتلى عليهم ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا .

يُذكر بذلك وهم في دنياهم فلا يشغلهم عاجل عن أجل أو تصرفهم دنياهم وما فيها من زينة ومتاع عن أخراهم وما فيها من حساب وجزاء . القرآن يذكر أن عاقبة الظلم ظلمات ، وأن الموازين لن تدع مثقال حبة من خردل من عمل عمل أو فعل وقع .

القرآن يذكّر بكلّ ذلك وغيره، فينشد أهل التقى الحقّ في كل شيء،
ويقيمون العدل في كلّ شأن؛ لأنهم يوقنون أن موازين الحق لا تجامل أحداً
وأن الناس جميعاً مجزيون بأعمالهم مؤخذون بما قدمت أيديهم.

وأهل التقى والقرآن يذكّره لا تراهم يركنون إلى ظالم وقد عرفوا من هداية
القرآن أن من ركن إلى ظالم مُسّ بناره، وفقد العون الذي ينشده، ولم يجد من
دون الله ولياً ولا نصيراً ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فْتَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ
مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (٨٧٩).

القرآن تذكرة للمتقين ليكونوا حيث أمرهم الله ودعاهم إليه مستجيبين لأمره
مجتنبين نهيه، متبعين غير مبتدعين، قوامين بالقسط شهداء لله ولو على
أنفسهم أو الوالدين والأقربين.

القرآن تذكره للمتقين: يبصرهم بأنهم يمرون بديارهم ولا يقيمون، ويريههم
مثل الحياة الدنيا في آيات تجعلهم لا يُضيّعون أعمارهم فيما لا خير فيه، ولا
يتعلقون بسراب خادع يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.
والقرآن وهو يذكّر المتقين بمثل الحياة الدنيا لا يزهدهم فيها ولا يصرفهم عن
طيباتها، وإنما يجعلهم يزنون كل شيء في عدل واعتدال، وابتغون فيما
آتاهم الله الدار الآخرة ولا ينسون نصيبهم من الدنيا، وهذا العدل والاعتدال في
سلوك المتقين هو السبيل لتحقيق الأمن والسلام في حياة الناس. فإن السلم
في حقيقته يرتبط بصفات النفس، والأمن في جوهره يرتكن إلى القيم
والأخلاق. ولا يمكن أن يغني في الأمر شيء من زخرف مال أو متاع إذا لم تكن
من ورائه نفس قانعة وضمير متذكر يقظ.

إن العدل والحق، والبر والصدق، والأمانة والرحمة صفات لا بد منها
لتحقيق الأمن الصادق والسلم البار.

(٨٧٩) سورة هود: ١١٣.

والقرآن الكريم - وهو تذكرة للمتقين - يُعلّمهم ألا يفرقوا في إقامة العدل بين جنس وجنس ولون ولون، فهم لا يفرقون في إقامة العدل بين عدو وصديق وقريب وبعيد .

فالدنيا كلّها في حاجة إلى التقوى، في حاجة إلى دين يكون العالم كله أمام عدله سواء، في حاجة إلى دين يحترم قيمة الإنسان ويقدر كرامته، في حاجة إلى دين يبدد ظلام الخوف ويحقق أسباب السلم ويقيم دعائم الثقة . دين يقيم العدل في ذات الإنسان بين مطالب جسده وفضائل روحه ليتحقق العدل في الخارج، وتقوم عليه حراسة ذاتية من قلب الإنسان وضميره . دين يبقى على الإنسان مكرّماً في الأرض وأميناً على شرائع الحق والعدل . الإنسانية كلها في حاجة إلى هذا الدين الذي يصل الأرض بالسماء ويأخذ بيد الإنسان إلى مدارج الكمال ليحيا منفعلاً بحقائق الكون وحكمة الوجود . وقد أرسل الله الرسل جميعاً بهذا الدين وأنزل على خاتمهم كتاباً محفوظاً تبياناً لكل شيء، وجعله نوراً يهدي به من يشاء من عباده، ليبقى الدين ما بقيت الحياة فمن اهتدى به وتذكر اتقى ربه وبرّ بخلقه، ومن أعرض عنه ضل وأفسد وشقي وخسر وإنه لتذكرة للمتقين، وإنا لنعلم أن منكم مكذّبين .

١٧١

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة الحاقة ﴿وَإِنَّهُ لَتَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (١٨) ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ﴾ (١٩) ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٨٨٠) تحدثنا من قبل عن قوله تعالى ﴿وَإِنَّهُ لَتَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وقلنا إن الضمير في قوله ﴿وَإِنَّهُ لَتَذِكْرٌ﴾ عائد إلى القرآن الكريم، وإن الإخبار بأنه تذكرة للمتقين فيه بيان لما يحققه القرآن في حياة الناس من تذكرة وتبصرة .

(٨٨٠) سورة الحاقة : ٤٨ - ٥٠ .

والمتقون هم الذين أدركوا مزيتة ، وسكنت قلوبهم لموعظته واهتدت بهدأيته .

وأما الذين كفروا وكذبوا فقد جاء الحديث عنهم في قوله ﴿وإنا لنعلم أن منكم مكذبين﴾ * وإنه لحسرة على الكافرين .

والمعنى إنا بعثنا إليكم الرسول الكريم بهذا القرآن ، ونحن نعلم أن سيكون منكم مكذبون له ، وعلمنا ذلك لم يصرفنا عن توجيه التذكير إليكم وإعادته عليكم .

فمن انتفع به اتقى ربه وأخلص قصده وأحسن عمله . ومن كذب وأعرض عنه أضر نفسه وندم على ما فرط فيه وأعرض عنه .

وكان القرآن - بما آل إليه - حسرة عليه بما يجده من عذاب بسبب مخالفته ، وما يقف عليه من يقين بأن ما كان يدعو إليه القرآن الكريم هو الحق الذي ما كان يصح أن يخالف أو يعرض عنه . وتزداد الحسرة عندما يرى الكافرون حسن عاقبة من كانوا يسخرون منهم ويسئون إليهم لأنهم اتبعوه وآمنوا به ﴿وإنه لحسرة على الكافرين﴾ .

والحسرة : الندم الشديد المتكرر على شيء فائت مرغوب فيه .
مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْحَسَرِ وهو الكشف ؛ لأن سببها ينكشف لصاحبها بعد فوات إدراكه ولا يزال يعاوده ؛ فالقرآن حسرة على الكافرين وهم يرون النتائج والعواقب التي أخبر القرآن عنها ، وهم قد أهملوا خبره وأعرضوا عنه وصدوا عن سبيله .

القرآن حسرة عليهم أي حسرة .

وكم من قائل من هؤلاء يقول عندما يرى العواقب يحسرتني على ما فرطت في جنب الله . وقد ناداهم الله وأمر نبيه ﷺ أن يبلغهم ، وأن يتلو ما أنزل إليه قبل أن تقع الحسرة ويفوت الأوان .

وتلك دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم .

دعوة لهم إلى الإنابة والتوبة ، وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ورجع عنها وإن كانت مهما كانت .

﴿ قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ٢٢٠ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُصْرَفُونَ ٢٢١ وَأَتَّبِعُوا الْحَسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ٢٢٢ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ٢٢٣ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ٢٢٤ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ٢٢٥ بَلَى قَدْ جَاءَ تَكَرَّرَ بِكَ الْآيَاتُ فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ٢٢٦ ﴾ (٨٨١).

لا شيء يدمر صاحبه كالإصرار والاستكبار عن اتباع ما نزل من الحق والموت عليه ؛ فإن ذلك يودي بصاحبه ويوقعه في الحسرة والندامة عندما يرى العواقب والنتائج ، ومن ذكر ربه فاستغفر لذنبه غفر له وأنعم عليه .

والقرآن الكريم - وهو يذكر بالعواقب - يعين الناس على أن يتداركوا ما فات قبل أن يأتي الأجل ، والأجل إذا جاء لا يؤخر ، ومن مات لا يرجع ، والواجبات تقترن بالأوقات . فمن ضيع عملا في وقته ندم حيث لا ينفع الندم وتحسر على ما ضيع حيث لا تُفيد الحسرة .

ومن عمل السيئات وجدها في غده حسرات . ومن اتبع أحداً على ضلالة تبرأ منه حين يرى العذاب . ومن فرط في الإعداد للآخرة ، وغفل حتى جاء أجله تحسر حين يراها ، وندم على التفريط فيها والإعداد لها .

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَوْلِهِمْ أَنَّهُمْ لَنُحْيُوا أَمْواتًا مَّائِدَةً ۚ وَإِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَسَاءَ مَا يَرْزُقُونَ ﴾ (٢١) وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَقُولُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٨٢﴾

القرآن الكريم ينذر ويحذر قبل أن يأتي يوم الحسرة ويفوت وقت العمل ويقع الجزاء ، ولن يفلت أحدٌ من موت أو يفر من لقاء ﴿ وَأَنْذَرُهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٨٨٣﴾

ذاك حديث القرآن عمّن كذب به وأعرض عنه . فيه موعظة وذكرى لأهل الإيمان واليقين وإعذار للمكذبين الضالين .

إنه موعظة وذكرى للمتقين ليستمسكوا بالقرآن ويعملوا بمقتضاه ﴿ وَإِنَّهُ لَنَذِكُرُ الْمُتَّقِينَ ﴾ ولا يركنوا إلى من جعل القرآن حسرة عليهم بما فرطوا فيه وأعرضوا عنه . ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ومن ركن إلى ظالم مُسَّ بناره . والسعيد من كان القرآن تذكرة له ولم يكن حسرة عليه ﴿ وَإِنَّهُ لَنَذِكُرُ الْمُتَّقِينَ ﴾ (١٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٠﴾

١٧٢

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في ختام سورة الحاقة ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾ (١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٨٨٤﴾

وسواء كان الضمير في قوله ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾ عائداً إلى القرآن - لأن هذه من صفاته - أو كان مُراداً به ما ذكر من قبل وهو كون القرآن حسرة على الكافرين فإنه في الحالين حديث عن القرآن له دلالة في الدعوة إلى حسن تدبره والاعتصام به .

(٨٨٢) سورة الأنعام : ٣١ - ٣٢ .

(٨٨٣) سورة مريم : ٣٩ - ٤٠ .

(٨٨٤) سورة الحاقة : ٥١ - ٥٢ .

فالحق جدير بأن يُتبع وأن يستمسك به .

والقرآن كما وصف الله ﴿وإنه لحق اليقين﴾ أي إنه لليقين الحق ، أو للحق اليقين الذي لا شك أنه من عند الله فلا يشك في كونه حقاً إلا من غشي على بصيرته . فلا هو بقول شاعر ولا هو بقول كاهن ، ولا هو تقول على الله ، إنما هو التنزيل من رب العالمين ، وهو التذكرة للمتمقين ، وهو حق اليقين ﴿وإنه لحق اليقين﴾ .

إن الإخبار بذلك من الله فيه توجيه للناس وبيان لهم أن يتبعوا ما أنزل الله وأن يتحاكموا به ، وأن يحذروا الميل عنه .

﴿وَأَن أَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَخَذَ لَهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ (٨٨٥) .

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ (٨٨٦) إن الإيمان بالحق داع إلى الأخذ به والاستقامة معه على فهم وبصيرة ، وإدراك لإحاطة علم الله بما في النفوس .

فليحذر الإنسان نية السوء في مخالفته ، وليتعد عن القصد السيئ فضلاً عن عمله أو الأخذ بسببه ، وليتبع الحق من ربه ولا يتبع هوى نفسه ؛ فالقول ما قاله الله عز وجل وبينه رسوله ﷺ .

وبهذا تسلم عقيدة المؤمن من الإلحاد في أسماء الله وآياته . وتسلم شرعته ومنهاجه من الضرب في التيه المضل أو الهوى المتبع .

(٨٨٥) سورة المائدة : ٤٩ .

(٨٨٦) سورة النساء : ١٠٥ .

ويسلم قلبه من النفاق فلا يرى منه إلا التسليم للحق في ظاهره وباطنه
وسره وعلمه ، لا يُبدي شيئاً ويخفي غيره ، وهو يؤمن أن الله يعلم ما في نفسه ،
ولا يقول ما يقوله ناسٌ مرضت قلوبهم وارتابت نفوسهم ﴿۸۸۷﴾ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ
وَأَطَعْنَا ثُمَّ تَوَلَّى فِرْقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿۸۸﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى
اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فِرْقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿۸۹﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ
مُذْعِنِينَ ﴿۹۰﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ آرَأَيْتُمْ أَن يُخَافُوا أَنْ يَحْبِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ
أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿۸۸۷﴾ .

إن المؤمن لا يكون الحق عنده هو الذي يقبله هواه ، بل الحق عنده ما قاله
الله سواء كان له أو عليه .

ويكون قوله عندما يُدعى إلى الله ورسوله قول أهل الحق الذين يسمعون
ويطيعون ويخشون الله ويتقون ﴿۸۸۷﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ
أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿۸۸﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ
وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿۸۸۸﴾ والحق الذي أنزله الله منه فرائض تركي
النفس وتطهرها . ومنه شرائع تحدد ما يحل وما لا يحل ، ولا غنى بهذا عن
ذاك ، وتأتي الأحداث المتجددة لساحة الحياة . وفيها فرائض الحق وشرائعه
قد أنزلها الله ليقوم الناس بالقسط ، فلا يكون اجتهد الإنسان في تحري العدل
مطلقاً بلا ضوابط مُنسباً بلا حدود . بل هو محكوم بحدود لها منارات وبيانات
تمنع من التجاوز وتقي من العثرات ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ
الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ ومع البيّنات والكتاب والميزان
يجد الناس هدايتهم إلى إقامة العدل .

(۸۸۷) سورة النور: ۴۷ - ۵۰ .

(۸۸۸) سورة النور: ۵۱ - ۵۲ .

وإن هبطت بهم شهواتهم وإيثارهم العاجلة في فترة ما رفعتهم عقيدتهم ،
فخافوا مقام ربهم وسَعَوْا سعي الآخرة ؛ فطابت نفوسهم باتباع الحق ونعمت
بإقامة العدل .

وكان اجتهادهم محكوما بضوابط الشرع وقواعد الحق معصوما من اتباع
الهوى مأجورا وإن أخطأوا .

ومما يعين الناس على القيام بالحق وتحري العدل في معاملاتهم تطبيق ما
جاء من الحق في الاعتقاد ، والتربية والتعليم ، وإقامة الفرائض التعبدية
والفضائل والأخلاق ؛ فإن الإنسان هو محور الإصلاح ، وهو المخاطب
بتطبيق ما نزل من الحق فلا بد من صلاحه واستقامته .

وإذا كنا نملك من الأسس الثابتة والقواعد الكلية ما يغنينا عن القوانين
الوضعية ، فإن المسلمين مطالبون دائما أن يعالجوا الأحداث المتجددة بفطرة
الدين مستغنيين بقواعده وأصوله .

فإنه من الخطأ بل من الخطيئة أن تُثار قضايا الدين بعيداً عن الواقع أو
يعالج الواقع بغير فطرة الدين . إن الناس إذا لم تُسَعَفهم المؤسسات المنسوبة
إلى دين الحق بالبيان في الأحداث المتجددة والقضايا الملاحقة تخطفتهم
أندية الباطل وأبعدتهم عن أصول دينهم بتذليل شئون دنياهم ، ولأن يخطئ
المسلمون في الاجتهاد السليم الصحيح خير من التبعة والمطاوعة لغيرهم .

ولأن يعيشوا بأجر الخطأ في الاجتهاد خير لهم من العيش بوزر القصد في
اتباع من يردهم عن دينهم ويبعدهم عن أصوله .

تلك دلالة الحديث عن القرآن - وإنه الحق - أن يعمل الناس به وأن يهتدوا
بهده ، وبذلك تكون صلتهم بالحق الذي أنزله الله دائمة ومتجددة راشدة
ومثمرة ، وتكون نفوسهم مسبحة وحامدة .

ويستمد كل جديد في دنياهم أسباب حياته من شمس دينهم ونور كتابهم، فلا تنفصل قضايا عصرهم عن الحق الذي أنزله الله وأمر أن يحكم به، بل تتصل اتصال النبت المتجدد بأسباب الحياة، واتصال الحياة بمصدرها فلا تحكم إلا بما أراها الله .

وإنه لحق اليقين ، فسبح باسم ربك العظيم .

١٧٣

ومن حديث القرآن عن القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة الجن ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۚ ﴾ (٨٨٩).

إن حادث استماع نفر من الجن للقرآن قد ورد فيما رواه البخاري ومسلم، وذلك أن رسول الله ﷺ قد انطلق في طائفة من أصحابه إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، أرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم . فقالوا : ما لكم ؟

فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب .

قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث ؛ فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء ؛ فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها . يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء .

فانصرف أولئك نفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ وهو بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا

(٨٨٩) سورة الجن : ١ - ٢ .

القرآن استمعوا إليه ، فقالوا : هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء ؛ فهناك رجعوا إلى قومهم ، قالوا : «يا قومنا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا» ، وأنزل الله على نبيه ﷺ ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ .

فلنتدبر مقالة الجن ولنر أثر القرآن فيهم ، ودلالة هذا الأثر فيمن يقرأ القرآن أو يستمع إليه .

فمن البين الواضح أن معرفة الرسول ﷺ بأمر استماع الجن له ، وما كان منهم بعد أن سمعوا القرآن منه كانت بوحى من الله ، وإخباراً عن أمر وقع ولم يعلم به الرسول ﷺ ولكن الله أطلعه .

وقد تكون هذه هي المرة الأولى ، ثم كانت هناك مرة ومرات أخرى قرأ النبي ﷺ فيها على الجن عن علم وقصد .

فماذا كان موقفهم بعد أن سمعوا؟

لقد كان لذلك تأثيرٌ بالغ في نفوسهم ، وكان له أثره فيما خاطبوا به قومهم . لقد سمعوا القرآن فآمَنوا وبلَّغوا ما سمعوا .

فكانوا بما سمعوا معلِّمين راشدين ، وكان للحق تأثيره في جميع أمرهم . رجعوا إلى قومهم فبلَّغوا ما سمعوا دون تخاذل أو إبطاء ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ صدقوا في النصيح وخاطبوا قومهم بالقول الذي لا يجحد والحجة التي لا تنقض ، وذكرهم بالنتائج إن هم استجابوا أو أعرضوا .

﴿ يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ . يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ (٢) وَمَنْ لَا يُجِيبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ﴿

تلك هي النتائج لمن أجاب داعي الحق ومن لم يجب . ومن لا يجب داعي الحق فليس بمعجز في الأرض .

من ذا الذي يجادل في ذلك أو يكابر وهو يرى عجز المخلوق وقدره الخالق؟

وأنى له أن ينجو أو يفِر، ومن المقدور لا ينجو الحذر؟ ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نَّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نَّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾. ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾.

كم من جبار قصمه الله، ومفسد دمّر الله عليه، وباغ خسف به وظالم مستبد أخذه أخذ عزيز مقتدر؟

﴿وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً﴾ ومن فاتته نصره الله فليس له من أحد بعد الله يجيره وينصره، ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ أي لا يجيرهم منه أحد.

فالسبيل إلى النجاة إجابة داعي الله وإخلاص القصد له، وحسن التوجه إليه وذلك ما أمر الرسول ﷺ أن يبلغه ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَن أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحِذًا﴾ ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً﴾ وَمَن يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿٨٩٠﴾. هكذا يهدي القرآن إلى الرشد ويرشد إلى الخير.

﴿قُلْ أَوْحَىٰ إِلَىٰ أَنَّهُ أَسْمَعَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾. والرشد: خلاف الغي. والغي: جهل من اعتقاد فاسد.

وبالقرآن وبيانه قد تبين الرشد من الغي. والرشد يقال في الأمور الدنيوية والأخروية. والقرآن يهدي إلى الرشد فيهما، فمن اتبعه رشد ونجا، ومن أعرض عنه غوى وهلك، ودنيا الناس بلا رشد فساد وإفساد ودمار وهلاك. ومن لا رشد عنده يدمر نفسه قبل أن يسيء إلى غيره.

(٨٩٠) سورة العن: ٢٢ - ٢٣.

والأمة الراشدة هي التي تتخذ القرآن منهج حياة، وتلك أمة لا تضل ولا تشقى. والفائزون الراشدون هم أولئك الذين حَبَّبَ الله إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، أولئك هم الراشدون.

والقرآن - وهو يهدي إلى الرشد - نعمة محفوظة باقية تدعو الناس إلى أن يرشدوا وأن يتعلموا منه ما يحفظهم من الضلالة والغي.

القرآن الكريم يهدي إلى الرشد. وفي دنيا الناس دعاة لئام يدعون الناس إلى الغي، وهم مع من استجاب لهم في العذاب مشتركون. وهذا عمل الشيطان فيهم، وذاك مصيرهم ومصيرهم.

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣١﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَتَرِىَنَّكَ عَلَيْهِمْ سُلْطٰنًا إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغٰوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٩١﴾ ۞

فطوبى لمن هُدي بالقرآن إلى الرشد في جميع أمره، وويل لمن أعرض عنه فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين.

١٧٤

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة الجن ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدٰىءَ آمَنَّا بِهِۦ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَحْسَ ٱلَّذِينَ ٱلَّٰهَ ٱرْهَقَ ۖ﴾ (٨٩٢).

والهدى الذي سمعوه فآمنوا به هو القرآن الكريم، إذ هو المسموع لهم ووصفوه بالهدى للمبالغة في أنه هادٍ، وهو يهدي في كل شأن للتي هي أقوم،

(٨٩١) سورة الحجر: ٣٩-٤٣.

(٨٩٢) سورة الجن: ١٣.

وجملة ﴿فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ يجوز أن تكون من القول المحكي عن الجن، ويجوز أن تكون كلاماً من الله دعوةً إلى الخلق أن يؤمنوا كما آمن هؤلاء، وبياناً لنتائج الإيمان بما أنزل الله. فمن آمن بربه لا يخشى أن يُبَخَّسَ في الجزاء على إيمانه، ولا أن يُهَانَ. ويفهم منه أن من لا يؤمن يلق ما يلقاه من عذاب وهوان، والأمور بعواقبها.

فقد يصيب المؤمن من البلاء والأذى ما يصيبه، لكنه بلاءٌ يرفع الله به من قدره ويزيد في أجره، وهو ينظر إلى العاقبة في جميع أمره فيصبر بالله ويشكر، وهو في الحالين من السراء والضراء لم يَخَفْ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا. فالضراء عنده ابتلاء من الله يصبر له فيؤجر، والسراء بلاءٌ حسن يشكر معه ولا يكفر. فهو رابعٌ في الحالين، أمره كُلُّهُ خير، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له.

ولا يكون ذلك إلا لمن آمن بربه ﴿فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾. ومن تدبر أمر الإيمان في حياة الإنسان علم ما يؤديه من طمأنينة قلب وراحة نفس وما يحققه في معاملة الناس وروابطهم؛ فالمؤمن بربه يخشاه فيكف شره عن غيره ويقدم خيره، وهو رجلٌ يخشى الله ويرجو رحمته، وقد عبر نفر من الجن عن إيمانهم بكتاب الله بعد سماعه. وهكذا شأن القرآن لمن أقبل عليه وأحسن الاستماع إليه.

فكم من ناس حولهم من حال إلى حال، ونقلهم - بفضل الله - من سوء إلى أكرم حال، وهداهم - بإذن الله - إلى الحق وإلى صراط مستقيم، وأخرجهم من الظلمات إلى النور ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا آلْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ﴾.

لا يحتاج الأمر مع سماع القرآن إلى مزيد من حجة أو برهان فإن للقرآن حجته وبرهانه، وله نوره وسلطانه.

يُلْقَى لَهُ السَّمْعُ وَيَلِينُ الْقَلْبُ فَيَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَكَابِرَةِ أَوْ الْإِصْرَارِ عَلَى خَطَأٍ أَوْ إِثْمٍ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ؛ فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مَصُونٌ مِنْ أَنْ يَقْتَرِبَ الْبَاطِلُ مِنْ سَاحَتِهِ، وَيَصُونُ صَاحِبَهُ مِنَ الرِّضَا بِالْبَاطِلِ أَوْ الرُّكُونِ إِلَيْهِ، فَلَا غَرَابَةَ أَنْ يَسْمَعَهُ السَّامِعُ فَيُؤْمِنَ بِهِ، وَيَجِدَ نَفْسَهُ فِي سَاحَتِهِ عَزِيزًا كَرِيمًا لَا يَعْبُدُ حَجَرًا وَلَا بَشَرًا وَلَا شَمْسًا وَلَا قَمَرًا وَلَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ أَحَدًا. هَذِهِ النَتِيجَةُ فِي صَدَقِ الْإِيمَانِ بِأَنَّهُدِي تَلَفَتَ النَّظَرَ فِي الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ وَالْإِقْبَالَ عَلَيْهِ، وَحَسَنَ اتِّبَاعِهِ، وَعَدَمَ الْمِيلِ أَوْ الْإِعْرَاضِ عَنْهُ.

وَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِالْإِنْسَانِيَةِ جَمِيعًا أَنْ حَفِظَ لَهَا هُدَاها لِتَجِدَ دَائِمًا - إِنْ هِيَ رَغِبَتْ - مَا تَزِنُ بِهِ أَمْرَهَا وَتَصَحِّحَ خَطَأَهَا، وَتَعَالِجَ وَاقِعَهَا، مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ أَنْ حَفِظَ الذِّكْرَ وَالْهُدَى وَالنُّورَ لِتَعْرِفَ بِهِ الْقِيَمَ وَتَوَظَّنَ الْأَعْمَالَ، وَتُوَدِّدَ الْوَاجِبَاتِ وَتَصَانِ الْحَقُوقَ وَلَا يَتْرَكَ النَّاسَ لِحُكْمِ أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِ أَنْفُسِهِمْ.

مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِخَلْقِهِ أَنْ حَفِظَ الْهُدَى وَأَبْقَاهُ حُجَّةً لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَدَعَا إِلَيْهِ، وَحُجَّةً عَلَى مَنْ خَالَفَهُ وَأَعْرَضَ عَنْهُ.

وَمِنْ رَحْمَتِهِ أَنْ جَعَلَ الْإِيمَانَ بِهِ فِطْرِيًّا لَا عَسَرَ فِيهِ وَلَا حَرْجٌ ﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ﴾.

وَهَلْ يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا لِلْحَقِّ الَّذِي لَا يَلْتَبِسُ بِهِ بَاطِلٌ؟ وَهَلْ يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا لِلنُّورِ الَّذِي تَسْتَنِيرُ بِهِ النُّفُوسَ وَتَسْتَضِيءُ بِهِ الْبَصَائِرُ؟ آمَنَّا بِهِ لِأَنَّهُ الْحَقُّ، وَلِلْحَقِّ نُورٌ تَدْرِكُهُ الْبَصَائِرُ، وَتَشْهَدُ الْفِطْرَةُ الَّتِي فَطَرَ اللَّهُ النَّاسَ عَلَيْهَا.

وَكَمْ مِنْ نَاسٍ آمَنُوا بِهِ عِنْدَمَا سَمِعُوهُ، كَمَا آمَنَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ، وَقَالُوا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾.

لقد كان إيمانهم بالهدى مُبْصِراً راشداً يتحركون بمقتضاه ويعملون، عُرِف ذلك مما حكاه القرآن عنهم، وهم يعلنون اعتقادهم ويحددون موقفهم في قضايا ذات شأن، ويبلغون غيرهم في ثقة وثبات ويقين.

لم يَنْطَوُّوا بإيمانهم على أنفسهم، ولم يكونوا في معزل عن كل ما يتصل بهم.

فإن حديثهم عما كان واقعاً في قومهم وعن الجزاء في آخرتهم يعطي دلالة على أن إيمانهم بالهدى كان شاملاً للحياة كلّها، وكان الإيمان راشداً في القصد والعمل، يصلحون به في كل شأن من شؤون الحياة، ولا يفسدون، طهروا بإيمانهم دنياهم وأرادوا آخرتهم.

وكانوا بما عملوا أهلاً لأن يذكروا في الذكر المحفوظ، وأن يكونوا دعاة لغيرهم، وحديثاً يُتلى على الإنس والجن، ومثلاً لكل طالب علم لا يفوته أدب الطلب ولا يقعد عن تبليغ ما علم. فليتدبر دعاة الحق ما قالوه وهم يجيبون داعي الله.

وقد حكى القرآن ما قالوا وبين موقفهم، كما أثنى الرسول ﷺ عليهم وقد سمعوا من القرآن ما سمعوا، فقد أخرج الترمذي بإسناده عن جابر - رضي الله عنه - قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن إلى آخرها فسكتوا. فقال: لقد قرأتها على الجن فكانوا أحسن ردوداً منكم، كنت كلما أتيت على قوله ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد.

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة المزمل ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ ۝١ قُرْآنَ الْإِقْلِيلِ ۝٢ يَصْفُهِ ۝ أَوْانْقُضْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْزِدْ عَلَيْهِ ۝٤ وَرَبِّلْ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝٥﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا نَفِيلًا ۝٦ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا ۝٧ وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٨﴾ (٨٩٣).

افتتحت سورة المزمل بهذا النداء، وهو يشعر بملاطفة الله تعالى رسوله بوصفه بصفة تزمُّله، إذ الأصل في النداء أن يكون باسم المنادى العلم إذا كان معروفا عند المتكلم، فلا يعدل عن الاسم العلم إلى غيره إلا لغرض. فإذا نُودي المنادى بوصف هيئته من لبسة أو جلسة أو ضجعة كان المقصود في الغالب التلطف به والتحبب إليه.

ومنه قول النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب وقد وجده مضطجعا في المسجد وقد علق تراب المسجد بجنبه «قم أبا تراب». وقوله لحذيفة بن اليمان يوم الخندق «قم يا نومان»، وقوله لعبد الرحمن بن صخر وقد رآه حاملاً هرة صغيرة في كفه «يا أبا هريرة».

فنداء النبي ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ﴾ نداءً تلطف، ومثله قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾. والمزمل: اسم فاعل من تَزَمَّلَ إذا تَلَفَّفَ بثوبه، وأصل المزمل: المتزمل، وهذا التزمل الذي أشارت إليه الآية هو التزمل الذي جرى في قول النبي ﷺ «زملوني زملوني» حين نزل من غار حراء بعد أن نزل عليه ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ كما ذكر جمهور المفسرين؛ فنداء النبي ﷺ بوصف «المزمل» باعتبار حالته وقت ندائه. وقد أمر الله رسوله ﷺ بقيام الليل أمر إيجاب، وهو خاص به؛ لأن الخطاب موجه إليه وحده.

(٨٩٣) سورة المزمل: ١-٦.

وقد استمر وجوبُ قيام الليل على رسول الله ﷺ بعد فرض الصلوات الخمس ؛ تعظيماً لشأنه بكثرة الإقبال على مناجاة ربه في وقت فراغه من تبليغ الوحي وتدبير شئون المسلمين ، وهو وقت الليل كما يدل عليه قوله تعالى ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (٨٩٤) أي : زيادة قرب لك .

فكان هذا حكماً خاصاً بالنبي ﷺ ، ولم يكن واجباً على غيره . ولم تفرض على المسلمين صلاةً قبل الصلوات الخمس ، وإنما كان المسلمون يقتدون بفعل نبيهم وهو يُقرهم على ذلك فكانوا يرونه لازماً عليهم ، وقد أثنى الله عليهم بذلك في آيات كثيرة كقوله ﴿نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ .

وتخصيص الليل بالصلاة فيه ، لأنه وقت النوم عادة ، فأمر الرسول ﷺ بالقيام فيه زيادةً في إشغال أوقاته بالإقبال على مناجاة ربه ، ولأن الليل وقت سكون فتكون نفس القائم فيه أقوى استعداداً .

والرسول ﷺ يُعدُّ إعداداً إلهياً لتحمل عبء ثقيل ، فليقم ليله للصلاة وترتيل القرآن ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ أي : اقرأ على تمهل مع تبيين الحروف فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره .

وكذلك كان صلوات الله وسلامه عليه يقرأ . قالت عائشة رضي الله عنها : «كان يقرأ السورة فيرتلها حتى أطول من أطول منها» .

وفي صحيح البخاري عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال : كانت مداً . ثم قرأ : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يمد ﴿باسم الله﴾ ويمد ﴿الرحمن﴾ ويمد ﴿الرحيم﴾ .

(٨٩٤) سورة الإسراء : ٧٩ .

وقد وصفت عائشة - رضي الله عنها - الترتيل فقالت : « لو أراد السامع أن يعدَّ حروفه لعدّها ، لا كسر دكم هذا » .

وقد وردت أحاديث كثيرة تدل على استحباب الترتيل وتحسين الصوت بالقراءة ؛ فإن الترنم بالقرآن من شأنه أن يبعث على الاستماع والإصغاء ، وهو أوقع في النفس وأبلغ في التأثير ، على ألا يكون تكلفاً أو تصنعاً لا يؤدي إلى اتعاض القارىء أو تأثره بمعاني القرآن .

وحكمة تخصيص الليل بالقيام أن ناشئة الليل أشدُّ وطأً وأقوم قِيلاً ، ووصف الصلاة بالناشئة لأن المصلي أنشأها فنشأت بعده هداة الليل .

فإن صلاة الليل أعون على تذكر القرآن والسلامة من النسيان ، وأحفظ للقراءة وأقوم لأن للذكر فيها حلاوته ، وللصلاة فيها خشوعها وللمناجاة أثرها ، وإنها لتسكب في القلب أنساً ونوراً قد لا يجدها في صلاة النهار وذكره .

والله سبحانه وهو يعدُّ عبده ورسوله محمداً ﷺ ليتلقى القول الثقيل ، وينهض بالعبء الجسيم اختار له قيام الليل ؛ لأن ناشئة الليل هي أشدُّ وطأً وأقوم قِيلاً ، ولأن له في النهار مشاغله ونشاطه ﴿ إِنَّا سَلَفْنَا عَلَىٰ نَفْسِكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ . هو هذا القرآن العظيم وما وراءه من التكليف ، ثقيل في ميزان الحق ، عظيم الأثر والتأثير ﴿ لَوْ أَنزَلْنَاهُ الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ .

ومن تدبر كيف كان الرسول ﷺ يتلقى الوحي عرف دلالة هذا الوصف ﴿ إِنَّا سَلَفْنَا عَلَىٰ نَفْسِكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ ، وهو النبي الأمي الذي لم يكن من قبل يقرأ كتاباً ، ولا يخطه بيمينه . قال ابن عباس رضي الله عنهما : « كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي ثقل عليه وتربَّد له جلده . أي : تغير بمثل القشعريرة » . وقالت عائشة رضي الله عنها : « لقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقاً » .

ذاك حال رسول الله ﷺ وهو يُلقى عليه القرآن ، وهذا ما أمر به وحافظ عليه حتى استطاع أن يبلغ ما أمر به ﴿ يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ ۖ فُرَاتِلًا إِلَّا قَلِيلًا ۖ يَضْفَعُهُ ۖ أَوْانْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا ۖ أَوْزِدَ عَلَيْهِ وَرَتِّلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۖ ۝ إِنَّا سُلِّقَ عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۖ ۝ .

ومن تدبر سورة المزمّل عرف كيف كانت تهيئة الدعاة وإعدادهم للقيام بالدعوة إلى الله ، كانت كما أمر الرسول ﷺ بقيام الليل والصلاة ، وترتيل القرآن ، والذكر الخاشع ، والاتكال على الله وحده ، والصبر على الأذى ، والهجر الجميل للمكذّبين ، والتخلى بينهم وبين الجبار القهار .

أمور وأمور لا بد منها لإعداد دعاة صادقين مقتدين بالرسول ﷺ غير مبتدعين . ذاك هو السبيل الذي أعدّه به الرسول ﷺ ولا سبيل غيره لمن أراد أن يكون من الدعاة الصادقين .

﴿وَأَن هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ ۖ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝﴾

١٧٦

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة المزمّل ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكُمْ ۖ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۖ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۖ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۖ ۝ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ۖ ۝ إِن هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۖ ۝﴾ (٨٩٥) .

إن هذه الآيات التي ذكر الله فيها أمر القيامة وأهوالها وما هو فاعل فيها بأهل الكفر بذكره عبرة وعظة لمن اعتبر بها واتعظ . فمن شاء من الخلق اتخذ إلى ربه طريقا بالإيمان به والعمل بطاعته .

(٨٩٥) سورة المزمّل ١٥ - ١٩ .

ومن تدبر هذه الآيات علم أن القرآن - وهو يذكر ويُبصِّر - ليس أعزل من قوة
قادرة غالبية تحقق وعده ووعيده . والعبر والعظات قائمة أمام أعين الناس
تخاطب الناس وتحذرهم من سوء العاقبة والمصير .

إن القرآن الكريم تنزيل من رب العالمين نزل على عبده ورسوله محمد ﷺ
ليكون للعالمين نذيراً ، وهذه الحقيقة وحدها كافية في إدراك ما للقرآن من قدر
ومنزلة ، وما له من قوة قادرة تحقق ما بشر به وأنذر . ويا له من فضل ورحمة أن
ينذر من يُنذر لكي يستقيم ويرحم . والله غني عن العالمين .

ومن عرف ما للقرآن من أثر في تربية الفرد وروابط المجتمع حمد الله الذي
أنزل على عبده الكتاب ، ولم يجعل له عوجاً ، ولم يستهن بوعده ووعيده .

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا
مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا .
مَكَثَتِ فِيهِ أَبَدًا . وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا
لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ (٨٩٦) .

والقرآن الكريم عندما يذكر لنا ما وقع في الأمم الماضية إنما يقدم لنا تذكرة
وتبصرة بسنن الله الباقية ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
رُسُلًا فَجَعَلْنَاهُمْ فِرْعَوْنَ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً ﴾ فكيف تنفون إن كفرتم
يَوْمَ نَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴾ إِن هَذِهِ
تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا .

روى ابن جرير في تفسيره عن قتادة في قوله ﴿ إن هذه تذكرة ﴾ قال : «يعني
القرآن ، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً بطاعة الله» .

وما أشير إليه بقوله ﴿ إن هذه تذكرة ﴾ جدير أن يتدبر ، وأن يكون تبصرة
وتذكرة ، سواء ما أصاب فرعون وقومه أو ما يكون من أمر القيامة وأهوالها وما
يقع فيها .

(٨٩٦) سورة الكهف : ١ - ٥ .

فإن ما ذكر من هذا وذاك يَهْزُ النفس ويخلعها خلعا . ومن ذا الذي يجهل ما حل بفرعون وقومه وما وقع بهم؟ من ذا الذي يجادل في أن للحق قوةً غالبية أمرة وهو يقرأ ما آل إليه أمر فرعون في هذا الفرقان الذي نزل الله على عبده ليكون للعالمين نذيرا؟

لقد استبد فرعون وطغى ، وامتد طغيانه إلى اللحظة التي تم فيها هلاكه ، ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى . ﴿٢٦﴾

عبرة وأي عبرة ، وكم من عبر وعظات يخاطب بها القرآن الكريم ويذكر ويبصر . والأرض أمام أعين الناس تحكي لهم ما جرى عليها ، وتحدث بما وقع فيها ، وآثار المكذبين بالحق من قبل تخاطب الأجيال من بعد وهم يرونها أطلالا لا تُحسُّ فيها من أحد أو تسمع لهم ركزا .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحْسِنُ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ تحذير أي تحذير ، وإنذار أي إنذار لأولئك الذين يخاطبون بالذكر فيجحدون ويكذبون ويلهيمهم الأمل فيعرضون .

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۚ إِنَّ السَّمَاءَ مُنفِطِرَةٌ ۖ كَان وَعْدُهُ مَفْعُولًا ۚ ﴾ . ﴿٢٧﴾ كان وعده مفعولا ﴿ واقعا لا خلف فيه .

﴿ إِن هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ .

السبيل إلى الله ميسور ، فمن أباه واتبع السبيل فهو إلى هذا الهول العصيب .

﴿ وَمَن يُسَاقِ الرُّسُولَ مِن بَعْدِ مَا بُنِنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ ۚ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ ﴿٢٨﴾ (٨٩٧) .

إن المهلة لأهل الباطل قصيرة إلى أجل معلوم ، ثم يقضى الأمر حينما يجيء الأجل ، ويأخذ الله أعداءه بالنكال والجحيم والعذاب الأليم .

ولن يدع الله أوليائه لأعدائه، ولو أمهل أعداءه إلى حين .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثُمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْنَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ٨٩٨.﴾

ذاك حديث القرآن وتلك دلالاته للأجيال كلها، تذكرة للأجيال كلها وبلاغ وإنذار ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ .
﴿إِنْ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ .

تذكرة لمن يتذكر، فمن كان في غفلة استفاق وعمل على إنقاذ نفسه من سوء العواقب، ومن أراد أن يتخذ إلى ربه سبيلا فقد تهيأ له اتخاذ السبيل بهذه التذكرة، فلم تبق للمتغافل معذرة . فلا حائل يحول بين طالب الخير وبين سنوك هذا السبيل . فليبادر من شاء إلى صادق الإيمان وصالح العمل قبل أن يحول بينه وبين الإنقاذ حائل .

روى الترمذي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «بادروا بالأعمال سبعاً . هل تنتظرون إلا فقراً منسياً، أو غنى مطغياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرمًا مفنداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة فانساعة أدهى وأمر؟» .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة المزمل ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّنْ نَّحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ

أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ
يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاَقْرَأْ مَا تَسْرَمُنَّ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا
حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ
اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩٩﴾ .

واضح من صريح هذه الآية أن النبي ﷺ كان يقوم من الليل قبل نزول هذه
الآية، وأن طائفة من أصحابه كانوا يقومون مقتدين بفعل النبي ﷺ؛ فنزلت
هذه الآية للتخفيف عنهم لقوله تعالى في هذه الآية ﴿فَنَابَّ عَلَيْكُمْ فَأَقْرَأُوا مَا
تَسْرَمُونَ الْقُرْآنَ﴾ فهي ناسخة للأمر في أول السورة ﴿قم الليل إلا قليلا نصفه أو
انقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا﴾ .

وافتح الآية بقوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ يشعرُ بالثناء عليه لوفائه بحق
القيام الذي أمر به . وقد جاء في الحديث «أن النبي ﷺ كان يقوم من الليل
حتى تورمت قدماه» . وتأکید الخبر بـ«إِنَّ» في قوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾
للاهتمام به وأن النبي ﷺ قد أرضى ربه بذلك .

فإن صدر هذه الآية إيماءً إلى الثناء على النبي ﷺ في وفائه بقيام الليل حق
الوفاء وعلى الطائفة الذين تابَعوه في ذلك؛ فالخبر بأن الله يعلم أنك تقوم يُراد
به الكناية عن الرضا عنهم فيما فعلوا . وممن فعل ما أمر الرسول ﷺ به من قيام
الليل اقتداء به ﷺ: عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمرو وسلمان الفارسي
وأبو الدرداء وزينب بنت جحش، وعبد الله بن عمر، والحولاء بنت تُويب
الأسدية .

(٨٩٩) سورة المزمل : ٢٠ .

فهؤلاء ورد ذكرهم مفرقاً في أحاديث التهجد في صحيح البخاري رضي الله عنه .

ومعنى ﴿فأقروا ما تيسر من القرآن﴾ أي : صلوا ما تيسر لكم ، كقوله تعالى ﴿وقرآن الفجر﴾ أي : صلاة الفجر .

وفي الكناية عن الصلاة بالقرآن جمع بين الترغيب في القيام والترغيب في تلاوة القرآن بطريقة الإيجاز . وقوله ﴿ما تيسر من القرآن﴾ أي : ما تيسر لكم من الليل .

﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَقْرَأُوا مَا تَسَرَّمْتُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وتلك حكمة أخرى في التخفيف عنهم والتيسير لهم في أن يقوموا من الليل ما تيسر .

أي : علم أن سيكون من هذه الأمة ذوو أعذار في ترك قيام الليل ، من مرضى لا يستطيعون ذلك ، ومسافرين في الأرض يبتغون من فضل الله في المكاسب والمتاجر ، وآخرين مشغولين بما هو الأهم من حقهم من الغزو في سبيل الله .

وعلى القول بأن هذه السورة كلها مكية ، ولم يكن القتال قد شرع بعد تكون من أكبر دلائل النبوة ؛ لأنها من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلية ، وفيها بشارة بأن أمر المسلمين صائر إلى قوة ومنعة وهم يُقاتلون في سبيل الله . وقد كان بعض الصحابة يتأولون من هذه الآية فضيلة التجارة حيث سوى الله بين المجاهدين والمكتسبين المال الحلال .

روى عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : «أَيُّمَا رَجُلٍ جَلَبَ شَيْئًا إِلَى مَدِينَةٍ مِنْ مَدَائِنِ الْمُسْلِمِينَ مُحْتَسِبًا فَبَاعَهُ بِسَعْرِ يَوْمِهِ كَانَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةٌ الشُّهَدَاءِ» ، وقرأ ﴿وَأَخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما : « ما خلق الله مَوْتَةً بعد الموت في سبيل الله أحبَّ إليَّ من أن أموت بين شُعْبَتَي رحلي أبتغي من فضل الله ضارباً في الأرض » .

هكذا تكون حياة المسلم مقترنة بواجبات .

فقد جاء التخفيف والتيسير فيما فرض الله من قيام الليل ببيان الحكمة في ذلك ﴿عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرَضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ۚ وَآخَرُونَ يَقُولُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ﴾ .

قالت عائشة رضي الله عنها : « إن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولا حتى انتفخت أقدامهم ، وأمسك الله خاتمها في السماء اثني عشر شهراً ، ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فريضة » .

ومن البين الواضح أن هذه الأعمال التي من أجلها تمَّ التخفيف هي من الطاعات التي يتقرب بها إلى الله . والله عز وجل قد وسَّع أمر الطاعة ، وجعلها شاملة كاملة .

والحديث عن القرآن وترتيبه وقراءة ما تيسر منه في الصلاة أو غيرها يُرادُ به أن يكون القرآن رائداً للحياة كلها ليلاً ونهاراً ، موجّهاً للقيام بواجباتها ، يعمل في حياة الأمة عمل الروح في الجسد ، فمن يضرب في الأرض يبتغي من فضل الله يضرب بمقتضاه ويسعى بنوره وهداه ، ومن يجاهد في سبيل الله يجاهد به مؤتمراً بأمره ، مزدجراً بنهيه ، وفي خاطره أن كل آية في كتاب الله أمرة أو زاجرة ستسأله فريضتها . فهو يحقق فريضتها في دنياه قبل أن يصل إلى آخرها ، وعندئذ يكون جهاده في جميع شئون الحياة ليعطي كل ذي حق حقه .

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ۝﴾ .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة المدثر ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ ۖ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرَهُ ۖ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ النَّفْيِ وَأَهْلُ الْغَفْرِ﴾ (٩٠٠).

يعني جل ثناؤه بقوله ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ﴾ ليس الأمر كما يقول هؤلاء المشركون في هذا القرآن من أنه سحر يؤثر، وأنه قول البشر، ولكنه تذكرة من الله لخلقه ذكرهم به، فضمير (إنه) راجع للقرآن وهو معلوم من المقام.

وتنكير ﴿تذكرة﴾ للتعظيم ﴿فمن شاء ذكره﴾ أي: فمن شاء من عباد الله الذين ذكرهم الله بهذا القرآن ذكره، فاتعظ به وعمل بما فيه.

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي: وما يذكرون هذا القرآن فيتعظون به ويستعملون ما فيه إلا أن يشاء الله أن يذكره؛ لأنه لا أحد يقدر على شيء إلا بأن يشاء الله أن يقدره له ويعطيه القدرة عليه.

﴿هُوَ أَهْلُ النَّفْيِ وَأَهْلُ الْغَفْرِ﴾ أي: الله أهل أن يتقي عباده عقابه على معصيتهم إياه، فيجتنبوا معاصيه ويسارعوا إلى طاعته.

﴿وأهل المغفرة﴾ أي: هو أهل أن يغفر ذنوبهم إذا فعلوا ذلك، ولا يعاقبهم عليها مع توبتهم منها. هذا ما ذكره ابن جرير في تفسيره، واستشهد بما قاله أهل التأويل على طريقته. وجملة ﴿إنه تذكرة﴾ تعليل للردع عن سؤالهم أن تنزل عليهم صحف منشرة بأن هذا القرآن تذكرة عظيمة ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً﴾ (٩٠١).

وهذا كقوله تعالى في سورة العنكبوت ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتٌ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

(٩٠٠) سورة المدثر: ٥٤ - ٥٦.

(٩٠١) سورة المدثر: ٥٢.

وهو إنذار للناس بأن التذكر بالقرآن يحصل إذا شاءوا التذكر به .

والمشيئة تستدعي التأمل فيما يخلصهم من المؤاخذه على التقصير وهم لا عذر لهم في إهمال ذلك . فوقع التذكر بمشيئتهم ، ونفى أن يذكروا إلا أن يشاء الله حيث قال : ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ وذلك هو الحق المبين ، فإن القول بأن الخلق مجبورون ينافي الحساب والجزاء .

والقول بأن الخلق خالقون لأفعالهم خروج عن دائرة العدل في الاعتقاد ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ . فالله عز وجل لم يُكره العبد ، ولم يجبره ، ولم تكن للعبد مشيئة مطلقة وهو المخلوق الذي يحتاج دائما لمن يُيسر له جميع أمره؟

فكيف بنا في قضية كهذه نُطلق مشيئته وهو العاجز عن تحقيق أملٍ أو تأخير أجل ؟

وهذا نداء المهتدين بهدى الله وهم يأخذون بالأسباب ولا يقصرون ، وهم يقولون صادقين : « اللهم لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا فأنزلن سكينتنا علينا وثبت الأقدام إن لاقينا » .

إنهم يحاسبون أنفسهم إن هم قصروا أو أخطأوا ، ويسندون الفضل لربهم إن هم وفقوا وأحسنوا .

والتربية الإسلامية التي تُرجى ، والعبودية التي بها يشرف الإنسان ويحقق أبر الصفات وأكرم الخصال لا تتحقق إلا بهذا الاعتقاد ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۖ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٩٠٢﴾ .

لأن الإنسان بهذا الاعتقاد يدفع إلى العمل ويدعى إليه ويؤمر به .

(٩٠٢) سورة الإنسان : ٢٩ - ٣١ .

ثم تُعصمُ النتائج من الإحباط والإبطال الذي يأتي نتيجة ركون الإنسان لعمله ونسيان من تغمد به رحمته . والله عز وجل ينهى المؤمنين عن إبطال صدقاتهم بالمن والأذى أو إحباط أعمالهم بشرك ظاهر أو خفي . وهذا وذاك قد يقع إذا ركن الإنسان إلى عمله ونسي فضل ربه .

إن هذه العقيدة تجعل الإنسان دائماً في توسط واعتدال . إن أحسن أسند الفضل إلى ربه ، وإن أخطأ أو قصر حاسب نفسه وتاب واستغفر ولم يقنط من رحمة ربه ، فيبقى الإنسان مع هذا الاعتقاد بين دافع إلى العمل ومانع من الأسى والبطر وهو يؤمن بمشيئة ربه ويوقن بقدره . وبين الدافع الذي يدفعه وانمانع الذي يرده ويحفظه يبقى الإنسان مصوناً من الأسى المدمر لفوات ما يرغب ، والبطر المهلك بحصول ما يطلب ، والاعتدال المحقق للنجاة لا يتم إلا بهذا الاعتقاد .

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝ (٩٠٣) ۝ ﴾

بهذا نستطيع أن ندرك دلالة قوله تعالى ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ بعد قوله ﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ ﴾ ودلالة قوله ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ بعد قوله ﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرٌ ﴾ فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً .

ونعلم أن الله عز وجل لم يشأ أن يكره نفساً على الهدى أو يؤتيها من التقوى ما لا تستحق .

(٩٠٣) سورة الحديد : ٢٢ - ٢٣ .

وبذا نعرف قدر أنفسنا وأنا في حاجة دائمة إلى الاستعانة بخالقنا، ونصون أنفسنا من الإفراط والتفريط في جميع أمورنا، ونمسك بالعدل ونحذر الغلو الذي أهلك من كان قبلنا.

ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم.

١٧٩

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة القيامة ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) ﴿إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ﴾ (١٧) ﴿فَإِذَا قُرَأَتْهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (١٨) ﴿ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا بَيَانُهُ﴾ (١٩) (٩٠٤).

روى البخاري ومسلم عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه القرآن يحرك به لسانه يريد أن يحفظه مخافة أن يتفلت منه أو من شدة رغبته في حفظه فكان يلاقي من ذلك شدة. فأنزل الله تعالى ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) ﴿إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ﴾ (١٧) قال: جمعه في صدرك، ثم تقرأه ﴿فَإِذَا قُرَأَتْهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (١٨). قال: فاستمع له وأنصت، ثم إن علينا أن نبينه بلسانك، أي: تقرأه، فضمير به في قوله ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ (١٦) عائد إلى القرآن وقوله ﴿فَإِذَا قُرَأَتْهُ﴾ (١٨) أي: قرأه جبريل عنا. ومعنى ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (١٩) أي: أنصت إلى قراءتنا.

ولفظ علينا في قوله: ﴿إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ﴾ (١٧) وقوله ﴿ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا بَيَانُهُ﴾ (١٩) للتكفل والتعهد. وفيه من العناية والرعاية والدلالة على الرسالة ما لا يخفى. ذلك أن الله هو الذي تكفل بشأن هذا القرآن وحيًا وحفظًا وجمعًا وبيانًا. وليس للرسول ﷺ من أمره إلا حملة وتبليغه.

وتسجيل هذا الحادث في القرآن له قيمته في تعميق هذه الإحياءات.

(٩٠٤) سورة القيامة: ١٦ - ١٩.

فإن حفظ القرآن وجمعه وبيان مقاصده كل ذلك موكول إلى الله .

والرسول ﷺ يتلقى ويبلغ ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ ﴿ إِنَّا عَلَيْنَا جَمْعُهُ ﴾ وَفُرْأَنَّهُ ﴿ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنعِقْ فُرْأَنَّهُ ﴾ ﴿ ثُمَّ إِنَّا عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ .

تعليم من الله عز وجل لرسوله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي ؛ فإنه ﷺ كان يبادر إلى أخذه ويسابق الملك في قراءته ، فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له ، وتكفل الله أن يجمعه في صدره وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه ، وأن يبينه له ويُفسِّره ويوضحه ، فالحالة الأولى : جمعه في صدره .

والثانية : تلاوته .

والثالثة : تفسيره وإيضاح معناه .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ ﴿ أَي : بالقرآن ، كما قال الله تعالى في سورة طه : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (٩٠) . ثم قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا عَلَيْنَا جَمْعُهُ ﴾ ﴿ أَي : في صدرك ﴾ ﴿ وَقَرَأَنَّهُ ﴾ ﴿ أَي : أن تقرأه .

﴿ فَإِذَا قَرَأَهُ ﴾ ﴿ أَي : إذا تلاه عليك الملك عن الله تعالى ﴿ فَأَنعِقْ فُرْأَنَّهُ ﴾ ﴿ أَي : فاستمع له ، ثم اقرأ كما أقرأك .

﴿ ثُمَّ إِنَّا عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ ﴿ أَي : بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحه ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا .

ومن تدبر الأمر من بدايته أيقن يقينا لا شك فيه أن هذا الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير .

(٩٠) سورة طه : ١١٤ .

وأن الرسول ﷺ الذي أوحى إليه لم يكن يتلو من قبله من كتاب ولا يخطه بيمينه . فالأمر كله لله ومن الله . والرسول ﷺ متبع ما أوحى إليه من ربه .

ومن تدبر ذلك أيقن يقينا لا شك فيه - وهو يرى كيف كان يأتي الوحي ، والرسول ﷺ يتلو ما يوحى إليه دون إبطاء أو إرجاء لمعاودة وحفظ ما يلقي عليه - من تدبر أيقن أن الأمر خارج عن مألوف البشر ، وأن محمداً ﷺ رسول الله لا يرتاب في ذلك إلا جاحد أو كفور .

لقد أمر الله نبيه ﷺ إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له ، وتكفل الله له أن يجمعه في صدره . فكان الرسول ﷺ إذا أتاه جبريل أطرق ، فإذا ذهب قرأه كما وعد الله عز وجل .

إن حديث القرآن وهو يخبر عن حال الرسول ﷺ وهو يتلقى القرآن له دلالة في تبصرة الناس ودعوتهم إلى أن يؤمنوا جميعاً بالرسول النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته .

والدلالة هنا لا تخفى على من شرح الله صدره ووفقه وهداه لمعرفة الحق والعمل به . إن الذي نزل الفرقان على عبده هو وحده الذي يقدر على جمعه في صدره دون حاجة منه ﷺ إلى تكراره في صحف أو قراءته في كتاب .

إعجازٌ يلفت النظر في شخص الرسول ﷺ وما جاء به . ولكي تبقى صورة التلقي وما صاحبه حية في نفس المتدبر أنزل الله هذه الآيات : ﴿ لَا تُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۚ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۚ ﴾ .

وبقيت الآيات في الذكر الحكيم محفوظة للأجيال ليستحضر من شاء أن يستحضر هذه الصورة المعبرة أكمل تعبير عن الرسالة والرسول ، ويتعظ من يتعظ ويوقن أن الأمر كله لله ، والرسول ﷺ مبلغ عن ربه يبلغ ما يوحى إليه ويصدق بما يؤمر به .

والله الذي أرسله هو الذي عصمه من كل مكر وكيد كما حفظ ما أنزل عليه وأبقاه ذكراً ونذيراً للعالمين ، فما أخبر به ودعا إليه كله صدق وحق . فطوبى لمن صدق به وأيقن ، وويل لمن كذب به وأعرض .

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنته هذه الآيات من سورة الإنسان ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ٢٣ ۖ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطَّعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا ۖ أَوْ كَفُورًا ٢٤ ۖ وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ٢٥ ۚ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ٢٦ ۚ إِنَّكَ هَؤُلَاءِ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا قَلِيلًا ٢٧ ۚ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ۖ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ٢٨ ۚ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ٢٩ ۚ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ٣٠ ۖ ﴾ (٩٠٦).

حديث القرآن عن القرآن هنا مقترن بما يجب أن يكون عليه الدعاء وهم يقتدون بمن كان خلقه القرآن ﷺ .

يقول الله تعالى ممثنا على رسوله ﷺ بما أنزل عليه من القرآن العظيم تنزيلاً . ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ أي : كما أكرمك بما أنزل عليك فاصبر على قضائه وقدره ، واعلم أنه سيدبرك بحسن تدييره ، ﴿ وَلَا تَطَّعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا ۖ أَوْ كَفُورًا ﴾ أي : لا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صدك عما أنزل إليك بل بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وتوكل على الله والله يعصمك من الناس .

﴿ وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أي : أول النهار وآخره . ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ .

هكذا أمر الرسول ﷺ ليلبلغ ما أنزل إليه من ربه .

أمر بالصبر على ما كُلف به ، وما يقتضيه من جهد وبلاء ، وما يُلَاقيه في سبيل ذلك من فتنه وأذى وصدّ وكيد . ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي : اصبر ولو طال الأمد ، واشتدت الفتنه وقوي الإغراء ، اصبر على ما أوتيته من الحق الذي نزل به القرآن عليك ، ولا تستمع لما يعرضونه عليك ، فهم لا يدعونك إلى طاعة ولا إلى خير ، إنهم آثمون كفار؛ فهم لا يدعونك إلا إلى شيء من الإثم والكفر .

أمر الرسول ﷺ بالصبر كما أمر بالذكر ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ، وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا .

اذكر اسم ربك في الصباح وفي المساء ، واسجد له بالليل وسبحه طويلاً . ذاك هو الزاد الذي يتزوّد به الدعاة إلى الله . وذاك ما خطب به الرسول ﷺ واستعان به على القيام بما يكلف به ، والسبيل هو السبيل ، والقُدوة به ﷺ في الوسائل والغايات : طُهر في الوسائل ، وصدق في الغايات .

إن القُدوة به ﷺ هي التي تحقق للدعاة ما يرجونه من تأييد الله ونصره . والقرآن الكريم — بما اشتمل عليه — فيه البيان لما يجب أن يكونوا عليه . والرسول ﷺ قد كان خلقه القرآن ، وهو القُدوة والأسوة في التخلق بخلق القرآن ، وقد بيّن ما نزل إليه بقوله وفعله وإقراره خير بيان .

ومن بيان القرآن فيما نحن بصدده — وهو ما تمسك به الرسول ﷺ وداوم عليه — ما دعت هذه الآيات إليه : ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطْعَمْ مِنْهُمْ، إِنَّمَا أَزْكَوٰرًا﴾ وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٤﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ، وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا .

صبر وذكر وتسبيح وحمد وعبادة وسجود لله تعين على تحمل الأعباء الجسام وتحفظ الدعاة إلى الله من أن يُسْتَخَفُّوا أو يستدرجوا من آثم أو كفور . تلك هي الحقيقة التي ينبغي أن يدركها الدعاة إلى الله ، وهي أن الحق الذي نزل به القرآن لا يمكن مزجه بالباطل الذي يدعو إليه الآثمون .

وموقف الباطل هو هو، ووسائل الباطل في كل زمان ومكان ومع كل نبي ورسول ومع من اتبع سبيلهم هي هي . إغراء واستدراج وصد وكيد بل وقتل وتشريد وسجن ونفي . وما قيل للأنبياء من قبل كرهه الذين جاءوا من بعد .

وكأنما قد اجتمعوا عليه وتواصوا به ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴾ أَتَوَاصَوُا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿ .

وما انتصر به الحق من قبل هو ما ينتصر به من بعد، والحق منتصر لا محالة ، ومن تدبر العواقب أيقن بذلك ولم يَرْتَبْ فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لَهُ دُونَ سَوَاهِ .

والذين يريدون أن ينعموا بنصرة الحق عليهم أن يعرفوا السبيل ولا يحدوا عنه ، وأن يدركوا أنهم ما لم ينتصروا بفضلهم لن يغلبوا بقوتهم . فمن أراد أن ينصر الله في أمر ما عليه أن ينصره أولاً في نفسه قبل أن يطلب نصره عند غيره «إنك لن تنصر الله في معركة حتى تنصره في نفسك بتغليب أمره على هواك» .

والحق الذي يطلب نصره في النفس أولاً لا بُدَّ فيه من معرفة وصبر وذكر وتسبيح وحمد وطهر وعبادة وسجود تظفر معها النفس برضا ربها، وتنعم بفضلها ورحمته ؛ فالنصر من عند الله وما عند الله لا يطلب إلا بطاعته .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْفُرْقَانَ تَنْزِيلًا • فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطِعْ مِنْهُمْ ءِثْمًا أَوْ كُفُورًا • وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا • وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا • ﴾ .

زاد لطلب النصر أي زاد وإعداداً لتحمل الأعباء الجسام أي إعداد، ومن ابتغى ردع الباطل ودحضه بغير التمسك بالحق والأخذ بأسبابه فسيجد نفسه موزعاً في سبل الباطل مأخوذاً بشبهاته وشهواته .

أما التمسك بالحق والثبات عليه حتى الممات فإنه يقتضي من الصفات ما يعين على الثبات . ومن هذه الصفات ما توحى به هذه الآيات من سورة الإنسان ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطِعْ مِنْهُمْ ءِثْمًا أَوْ كُفُورًا ﴾ ﴿ .

صفات وأخلاق تنتصر في واقع الحياة يكون الإعداد بها قبل أن يكون بالعدد والعدد.

لقد وصف سعد بن أبي وقاص لعمر بن الخطاب حال من كانوا معه في الجهاد، وحقق الله لهم النصر فقال فيما قال: «مات فلان وفلان ممن لا تعلمهم والله بهم عالم كانوا يدؤون بالقرآن إذا جن الليل كدوي النحل، لا يفضل من ذهب منهم من بقي إلا بفضل الشهادة».

ذاك حالهم مع كتاب ربهم، وذاك من إعدادهم عند مواجهة عدوهم، إعداد إيمان وأخلاق وصفات ينتصرون بها على أنفسهم قبل أن يطلبوا النصر على أعدائهم.

وهم يسألون الله العون على أنفسهم قبل أن يسألوه النصر على عدوهم، وهم يعلمون أن ذنوبهم أخوف عليهم من عدوهم، وما لم ينتصروا بتقواهم وفضلهم لم يغلبوا بقوتهم. وكم من ناس أقبلوا على دين الله لما رأوه من صفات العاملين به، والداعين إليه. ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالاحترام من معلم الناس ومؤدبهم.

﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين﴾.

١٨١

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنته هذه الآيات من سورة التكويد ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالْخُنُفِ ۖ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنُفِ ۖ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۖ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۖ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۖ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۖ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۖ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ۖ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ ۖ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۖ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ۖ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۖ (٢٦) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۖ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۖ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۖ (٢٩)﴾ (٩٠٧).

(٩٠٧) سورة التكويد: ١٥ - ٢٩.

يقسم الله سبحانه بمشاهد كونية على طبيعة الوحي وصفة الرسول الذي اختير لحمل هذا القول وإبلاغه . والرسول الذي يتلقاه وموقف الناس حياله . ﴿ فَلَا أَقْسِمُ بِالْخُنُفِ ۖ إِنَّ الْجَوَارِ الْكُنَّسَ ﴾ وهي النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل .

﴿ والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس ﴾ أقسم بالليل وظلامه إذا أقبل ، وبالفجر وضياءه إذا أشرق . كما قال الله عز وجل : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ۖ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ۖ ﴾ وقال : ﴿ وَالضُّحَى ۖ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ۖ ﴾ .

والقسم بهذه المشاهد له دلالة وله إيحاءة في تدبر المقسم به والمقسم عليه ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ .

أي إن هذا القرآن لقول رسول كريم — وهو جبريل عليه السلام الذي حمل هذا القول وأبلغه ، فصار قوله باعتبار تبليغه — وهذا الرسول الذي اختير لحمل هذا القول وإبلاغه كريم عند ربه .

وفي التعبير عن جبريل عليه السلام بوصف «رسول» إيماء إلى أن القول الذي يبلغه هو رسالة من الله مأمور بإبلاغها . وفي الثناء على الملك المرسل تنويه بالقرآن وتعظيم لشأنه .

وقد وصف الملك المرسل بخمسة أوصاف :

الأول : كريم : وهو النفيس في نوعه .

والثاني والثالث : ذي قوة عند ذي العرش مكين : أي : هو ذو قوة عند الله ، أي : جعل الله مقدرة جبريل تخوله أن يقوم بعظيم ما يوكله الله به مما يحتاج إلى قوة القدرة وقوة التدبير ، وهو ذو مكانة عند الله وزُلْفَى .

الوصف الرابع : مطاع : أي : يطيعه من معه من الملائكة كما يطيع الجيش قائده ، مطاعٍ ثَمَّ : أي : في الملأ الأعلى فيما يأمر به الملائكة .

والوصف الخامس : أمين ، والأمين هو الذي يحفظ ما عهد إليه حتى يؤدّيه دون نقص ولا تغيير . وهذه الصفات التي وُصِفَ بها الملك والمرسل في مجموعها تُوحى بكرامة ما أرسل به ، وسموّه وارتفاعه ، كما توحى بعناية الله بالموحى به والموحى إليه ﷺ . فهذه صفات الرسول الذي حمل القول وأدّاه وهو جبريل عليه السلام .

وأما الرسول الذي اختاره الله وأوحى إليه فهو (صاحبكم) الذي عرفتموه حق المعرفة عمراً طويلاً . فما لكم حين جاءكم بالحق تقولون فيه ما تقولون ، وهو صاحبكم الذي لا تجهلون ، وهو الأمين على الغيب الذي يحدثكم عنه عن يقين ؟ ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ۖ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئِ الْيَمِينِ ۖ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۚ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ۖ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۚ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۚ ﴾

ولا يخفى أن العدول عن اسم النبي العلم إلى ﴿صاحبكم﴾ في قوله ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾ لما يؤذنُ به صاحبكم من كونهم على علم بأحواله يعرفونه حق المعرفة ، ويعرفون رجاحة عقله ، كما يعلمون صدقه وأمانته ، يرضونه حكماً فيما بينهم ، ويأتمنونه على ما لا يأتمنون عليه أنفسهم . فكيف يقولون ﴿إنه لمجنون﴾ وإن شيطانا يتنزل عليه بما يقول ؟

إنه لمؤتمن في الغيب ، لا تُظَنُّ به الظنون ، فما عرفوا عنه ﷺ إلا الصدق واليقين . وما هو على الغيب بضنين ، وهو يبلغكم ما يُوحى إليه لا يضمن به عليكم ، بل ينشره ويبلغه ، ويبدله لكل من أَرَادَهُ ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ أي : وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم أي : لا يقدر على حمله ولا يريده ولا ينبغي له كما قال الله عز وجل : ﴿ وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ۚ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۚ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴾ ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ أي : فأين تذهب

عقولكم في تكذيبكم بهذا القرآن مع ظهوره ووضوحه ، وبيان كونه حقاً من عند الله عز وجل ؟ أو ﴿فأين تذهبون﴾ في حكمكم وقولكم ؟ أو ﴿فأين تذهبون﴾ منصرفين عن الحق وهو يواجهكم أينما ذهبتم ؟

وليس الحق الذي تنكرونه بأعزل من القدرة على عقابكم إن أنتم كرهتموه وأعرضتم عنه ، وما أنتم بمعجزين فإن أبيتم النور الذي جاءكم فالنار موعدكم ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ، مِنَ الْأَحْزَابِ، فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ .

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي : ما القرآن إلا تذكير لجميع الناس ينتفعون به في صلاح عقائدهم ، وطاعة ربهم ، وتهذيب أخلاقهم ، وآداب بعضهم مع بعض ، والمحافظة على حقوقهم ، ودوام انتظام جماعتهم ، وكيف يعاملون غيرهم من الأمم الذين لم يتبعوه . ﴿ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ . و«العالمين» يعم كل البشر لأنهم مدعوون للاهتداء به ومستفيدون مما جاء فيه ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ أي : من أراد الهداية فعليه بهذا القرآن فإنه منجاة له وهداية . ولا هداية فيما سواه ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ .

فلتلقأوا إليه ولتؤمنوا به ولتطلبوا منه العون والتوفيق ؛ فإن لأهل الاستقامة شرفهم ، ولهم من الله العون والتوفيق .

إن حديث القرآن عن القرآن هنا له دلالة في الاعتصام به والعمل بمقتضاه ؛ لأنه الحق ، ومن كره الحق أو عاداه لقي ما يلقيه أعداء الله .

﴿فأين تذهبون إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ . أين يذهب المعرضون عنه والكارهون له ؟

أين يذهب هؤلاء وأولئك وهم في قبضة الله حيث كانوا ولن يفلت أحدٌ أو يفر ؟ ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ

لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ
فَوْقَ عِبَادِهِ يُورِثُ سُلْطَانَكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا
يُفِرُّونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَمْرٌ
الْحَسِينُ ﴿٩٠﴾

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنته هذه الآيات من سورة الانشقاق ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ (١١) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨) لَتَرْكُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (١٩) فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ (٢٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٩٠٩).

حديث القرآن عن القرآن هنا فيه بيان لموقف أولئك الذين لا يخضعون للقرآن، ولا يخشعون إذا قرئ عليهم قراءة دعوة وتبليغ. وقد كان النبي ﷺ يعرض عليهم القرآن جماعات وأفراداً.

وقد قال له عبد الله بن أبي بن سلول رأس النفاق: «لا تغشنا في مجالسنا». لقد كان الرسول ﷺ يعرض عليهم القرآن كما أمره الله ويقرأه عليهم، وكانوا لا يستجيبون إلى ما دعاهم إليه ولا يصدقون.

﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدَىٰ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩١٠).

هكذا أمر الرسول ﷺ أن يتلو القرآن وأن يبلغ ما أنزل إليه من ربه. ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (٢١).

(٩٠٨) سورة الأنعام: ٦٠ - ٦٢.

(٩٠٩) سورة الانشقاق: ١٦ - ٢٥.

(٩١٠) سورة النمل: ٩١ - ٩٢.

إذا قرأ عليهم القرآن لا يخضعون لله ، ولمعاني القرآن وحجته ، ولا يؤمنون بحقيقة ما أخبر به ودعا إليه ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكْذِبُونَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾^(٩١١) الله أعلم بما يضمرون في قلوبهم من العناد مع علمهم بأن ما جاء به القرآن حق .

﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾^(٩١٢) إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿ فلا سبيل لإنقاذ من عاند وكابر إلا بحسن الاستجابة لما دُعي إليه من الإيمان والعمل الصالح .

أما من كفر بالحق ومات على كفره فذاك عقابه عند ربه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾^(٩١٣) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿^(٩١٤)

فليس القرآن - وهو يتلى على الناس بلاغا من الله - أعزل من قوة تحقق وعده ووعيده ، إنه الحق من ربك ، ولالحق نور ونار . فمن آمن به اهتدى بنوره ، ومن كذب وأعرض اصطلى بناره ﴿ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾^(٩١٥)

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ ﴾^(٩١٦) لَا يُفْتَرَعْنَهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾^(٩١٧) وَنَادُوا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِينُونَ ﴿ لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَٰكِن أَكْثَرُكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴾^(٩١٨)

إن الذين يأتون الحق ويعرضون عنه يظلمون أنفسهم ويخسرون ؛ لأن القرآن بلاغ من الله للناس وإنذار لهم ، ولا حجة بعد بلاغ ، ولا عذر بعد إنذار وإنذار ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ ﴾^(٩١٩) إن الاستجابة للقرآن فيها حياة أي حياة . إنه الحق لصلاح

(٩١١) سورة البقرة : ١٦١ - ١٦٢ .

(٩١٢) سورة الزخرف : ٧٤ - ٧٨ .

(٩١٣) سورة إبراهيم : ٥٢ .

أمرهم في دنياهم وفلاحهم في آخرهم ، وهو يهديهم في كل شأن للتي هي أقوم . إنه رحمة بهم وتكريم من الله لهم حتى لا تذل نفوسهم بعبادة ما لا يُعبد من حجر أو شجر أو بشر ، أو شمس أو قمر .

إعذار أيُّ إعدار ، وتكريم أي تكريم ، وهو يدعوهم إلى عبادة الله الرحمن الرحيم ، ويأمرهم باستغفاره والاستقامة إليه ، ويعدّهم بالأمن في دنياهم والنعيم في آخرهم ، والقرآن تنزيل من الرحمن الرحيم . فمن أبى الرحمة فقد رضي العذاب ، ومن رغب عن التكريم لقي العذاب المهين ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ﴾ .

﴿ حَمْدُ ١ تَنْزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٢ ﴾ كَتَبْتُ فَصَّلْتُ آيَتَهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿ ٣ ﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿ ٤ ﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَكَ إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا عَمَلُونا ﴿ ٥ ﴾ أَقُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُ الْكَوْكِبِ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ ﴿ ٩١٤ ﴾ .

وهم إذا آمنوا واستقاموا فذاك وعد الله لهم والله لا يخلف وعده ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ ﴿ ١ ﴾ نَحْنُ أَوْلَىٰ بِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُنَّ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿ ٢ ﴾ تَرَىٰ مِنْ عَفْوَهِمْ رَحِيمَ ﴿ ٩١٥ ﴾ .

أما من أصر وأعرض وكفر بآيات الله وألحد فذاك وعيده ، ولا يخفى على الله أمره ، ولن يفلت من حساب وجزاء ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَنُبَلِّغُ فِي النَّارِ خَيْرًا أَمْ مَن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا

(٩١٤) سورة فصلت : ١ - ٦ .

(٩١٥) سورة فصلت : ٣٠ - ٣٢ .

تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩١٦﴾ وَلَا يَسْتَوِي عِنْدَ اللَّهِ مُحْسِنٌ وَمُسِيءٌ ، لَا يَسْتَوِي مُؤْمِنٌ وَكَافِرٌ ، لَا يَسْتَوِي مُتَّقٍ وَفَاجِرٌ . وفي بيان القرآن ما يغني ، ولا عذر بعد بيان ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَتُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (٩١٧) .

ذاك هو القرآن الذي يأبى الجاحدون الإيمان به والخضوع لما يدعو إليه ، ذاك هو الذكر الذي حفظه الله رحمةً بخلقه وهدى لعباده . به تعرف القيم وتوزن الأعمال ويرفع الله به أقواما ويضع آخرين .

ذاك هو القرآن وهذا حديثه وقسمه فليتدبر من شاء أن يتدبر ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۚ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۚ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۚ﴾ (١٨) ﴿الَّتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۚ﴾ (١٩) ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۚ﴾ (٢٠) ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ .

آيات وآيات لله في الأنفس والآفاق يخاطب بها الإنسان لبيان الحق والدعوة إليه ، والمقسم به يلفت النظر ، ويوقظ الحس ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۚ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۚ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۚ﴾ . والمقسم عليه حق واقع يبرهن عليه المقسم به . فَمَنْ هَذِهِ آيَاتِهِ هُوَ الَّذِي يَبْدُلُ أَمْرَ النَّاسِ مِنْ طَوْرِ إِلَى طَوْرٍ كَمَا تَبْدُلُ أَمَامَ أَعْيُنِهِمْ صَفْحَةَ الْكُونِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ .

خضوع خاشع لله الواحد القهار ، أفلا يخضع الإنسان ويخضع لما نزل من الحق وهو يرى أمام نظره خضوع كل شيء لخالقه ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ ؟

فهل يتدبر الإنسان ما يتلى عليه ، ويرى في آيات الله في نفسه وفي الآفاق ما تدعو إليه ، ويعلم أن ما أقسم القرآن به دليل على ما أقسم عليه ودعا إليه ، وما الإنسان في خلقه ونشأته وحياته وموته وجميع أمره إلا كائن بأمر ربه؟

(٩١٦) سورة فصلت : ٤٠ .

(٩١٧) سورة النساء : ١١٥ .

الآيات التي يخاطب الإنسان بها ليست بعيدة عنه أو منفصلة عن معاشه ومتاعه ، من ليل ونهار وشمس وقمر وأرض وسماء وزرع وماء . آيات وآيات يقسم الله بها ليعرف الإنسان دلالتها في الدعوة إلى الإيمان ، ويخبره الله بشأنها لتكون زاداً لا ينقطع في تبصرته وتذكرته وهي ملازمة له حيث كان ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْبَيْتَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَّهَارِ بِبَصِيرَاتِكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿١١﴾ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا تَوْفِيقَهُ﴾ ﴿١٢﴾ كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا يَتَابِعُونَ اللَّهَ بِجَحَدُونَ﴾ ﴿١٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَكْرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُم فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٩١٨﴾ .

١٨٣

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنته هذه الآيات من سورة البروج ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ ﴿١١﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ ﴿١٢﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ ﴿١٣﴾ فِي لُوحٍ مَحْفُوظٍ﴾ ﴿٩١٩﴾ .

هذه الآيات من سورة البروج جاءت بعد قوله سبحانه ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَيَعِيدُ﴾ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ ﴿١٥﴾ فَقَالَ لَمَّا يُرِيدُ﴾ ﴿١٦﴾ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ الْجَنُودِ﴾ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ ﴿٩٢٠﴾ .

والتناسب بين الآيات بين واضح . فإن الله سننا لا تتبدل ولا تتحول ، فمن كَذَبَ من بعد كمن كَذَبَ من قبل مأخوذ بذنبه مدمر بمعصيته ، ولن يفلت ظالم من عقاب ولن يُضَيَّعَ مظلوم أمهل ظالمه ليوم تشخص فيه الأبصار .

(٩١٨) سورة غافر: ٦١ - ٦٥ .

(٩١٩) سورة البروج: ١٩ - ٢٢ .

(٩٢٠) سورة البروج: ١٢ - ١٨ .

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (٩٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِبِينَ رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِيبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْلَمَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ (٩٣) وَسَكَنتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَنَبَّيْتَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (٩٤) وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِيَرْزُؤَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٩٥) فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفًا وَعِذِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٩٦) يَوْمَ يُبَدِّلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٩٧) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٩٨) سَرَابِلُهُمْ مِّنْ فَطْرَانٍ وَتَعَثَّى وُجُوهُهُمْ النَّارُ (٩٩) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٠٠) هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ الْوَحْدُ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٠١) ﴿٩٢﴾ (٩٢١).

ذاك حديث القرآن عمن ظلم فأشرك بربه وأعرض عن ذكره .

فما يخاطب الناس به من وحي الله رآياته قوله فصل وما هو بالهزل .

﴿إِنْ بَطَشَ رَبِّكَ لِشَدِيدٍ﴾ .

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ (٩٢) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (٩٣) بَلْ هُوَ قَوْلٌ مَّجِيدٌ (٩٤) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٩٥) فمن كذب بالنبي وبالقرآن لقي ما يلقاه من بطش وعذاب . وسنن الله في المكذبين ماضية في الأولين والآخرين ﴿فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ .

﴿والله من ورائهم محيط﴾ (٩٣) فلن يفلتوا من عقاب والله من ورائهم محيط .

وذاك وصف اقتدار الله عليهم وأنهم في قبضته وحصره ، كالمحاط به إذا أحيط من ورائه يتسدد مسلكه فلا يجد مهرباً .

يقول الله : فهم في قبضتي ، وأنا قادر على إهلاكهم ومُعَاجلتهم بالعذاب على تكذيبهم فليسوا يفوتونني إذا أردت الانتقام منهم .
وقد يراد بهذه الإحاطة قرب إهلاكهم كقوله ﴿وَضَنَّا أَنَّهُمْ أَحِيطَ بِهِمْ﴾ فهو عبارة عن مشاركة العذاب .

وإذا كان التكذيب بالحق قد أحاط بهم إحاطة الظرف بالمظروف ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ بحيث لم يترك لتذكر ما حلَّ بأمثالهم من الأمم مسلكاً لعقولهم فهم منغمسون فيه انغماس الظرف في المظروف .
فقد جاء العقاب جزاءً وفاقاً لموقفهم فقبول جزاء إحاطة التكذيب بهم بإحاطة العذاب ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ .

والقرآن الكريم لا يضره تكذيب هؤلاء ﴿بَلِ هُوَ قُرْآنٌ نَجِيدٌ ﴿١١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ لا ينقص منه ولا يُزاد عليه ، فهو مصون في لوح محفوظ عزيز لا يقترب من ساحته باطل . ﴿بَلِ هُوَ قُرْآنٌ نَجِيدٌ﴾ ذو قدر ومنزلة عظيم شريف وحيد في النظم والمعنى .

فتكذيب من كذب به ناشئ من علة في نفوسهم ومن خضوعهم لأهوائهم لا من اختلاف أو نقص فيه . فالتنويه بالقرآن هنا جاء في موضعه لإبطال تكذيبهم ؛ لأن القرآن قد جاءهم بدلائل بينة فاستمرارهم في التكذيب ناشئ لا من علة فيه بل من علل في نفوسهم ؛ إذ وصفوه بصفات النقص في قولهم أساطير الأولين ، إفك مفترى ، قول كاهن ، قول شاعر . فجاء قوله ﴿بَلِ هُوَ قُرْآنٌ نَجِيدٌ ﴿١١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ إثباتاً لحقيقته ومكانته وإبطالاً لتقولهم وتكذيبهم ، وتنويهاً بمنزلته وعلو شأنه .

إن حديث القرآن عن القرآن بهذا الوصف له دلالة في مخاطبة الناس وتنبيههم إلى ما يجب عليهم من الاستمساك به والاعتصام ، والحذر من مخالفته أو الإعراض عنه فلن يكون مخالفه بمعزل عن حساب وعقاب .

بل إن جزاء الناس جميعا سيحدد بناء على موقفهم من الحق الذي أنزل به ، ولن يستوي في النتائج متبع له ومعرض عنه . فالذين تشغلهم الزينة عن القيمة ، وتصرفهم العاجلة عن العاقبة .

فيعرضون عنه غير مكثرين بما يحذرهم منه سيندمون حيث لا ينفع الندم ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ (٩٢٢) .

١٨٤

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنه قوله تعالى في سورة العلق ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (١) ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (٢) ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (٣) ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (٤) ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (٥) (٩٢٣) .

أول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقه ، وأن من كرمه سبحانه أن علّم الإنسان ما لم يعلم . فشرفه وكرمه بالعلم وهو القدر الذي امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة .

ومن عرف كيف بدأ الوحي أدرك ما في هذه الآيات من دلالة على نبوة محمد ﷺ وأن ما جاء به تنزيل من رب العالمين ، وما كلن ﷺ يتلو من قبله من كتاب ولا يخطه بيمينه .

فلنستمع ولنتدبر ما جاء في السنة الصحيحة من بيان فيما رواه الشيخان : عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : « أول ما بدأ به رسول الله ﷺ من الوحي

(٩٢٢) سورة الأنعام : ١٥٨ .

(٩٢٣) سورة العلق : ١ - ٥ .

الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبَّبَ إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء فيتحنَّثُ فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجعُ إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحقُّ وهو في غار حراء.

فجاءه الملك فقال: اقرأ.

قال: ما أنا بقارىء.

قال: فأخذني فغطَّنِي حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني.

فقال: اقرأ. قلت ما أنا بقارىء.

فأخذني فغطَّنِي الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني.

فقال: اقرأ. فقلت ما أنا بقارىء.

فأخذني فغطَّنِي الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني.

فقال: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾.

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة، فقال: زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع.

فقال لخديجة - وأخبرها الخبر - : لقد خشيت على نفسي.

قالت خديجة: كلاً، والله لا يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن قصي - وهو ابن عم خديجة - رضي الله عنها - وكان امرأً قد تنصَّرَ في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله له أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي - فقالت له خديجة: يا ابن عمِّ اسمع من ابن أخيك ما يقول.

فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟

فأخبره الرسول ﷺ خبر ما رأى .

فقال له ورقة : هذا الناموس الذي أنزله الله على موسى .

يا ليتني فيها جزعاً ، يا ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك .

فقال ﷺ : أوأمُخرجي هم ؟

قال : نعم . لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي .

وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا .

ثم لم يلبث ورقة أن توفي ، وفتر الوحي .

ذاك أول ما بدى به الوحي . وهي بداية تنبى عن الحق وتدعو إليه ، وتُري الناس في حدث ضخم صلة الخالق بالمخلوق وهو يختار من بين خلقه من يُرسله إليهم بما أوحى إليه .

وما كان الرسول ﷺ يدري من قبل ما يُعدُّ له وما يُتلى عليه .

ما كان يدري أنه الناموس الذي أنزله الله على موسى وأنه الوحي . لقد كان الأمر بالنسبة له غريباً ورهيباً خشي منه على نفسه . لقد فوجئ بالوحي دون أن يتوقعه ، واقتضت حكمة الله أن يكون كذلك ، ليكون إعلماً على مر الزمان أن ليس الإعجاز في ذات القرآن فحسب ، بل هو معجز في تلقيه وجعله مسطوراً في قلب النبي ، مجموعاً في فؤاده يرى الناس فيه دلالة قوله ﴿ لَا تَحْرُكَ بِهِ ۚ لِسَانُكَ لَئِعْجَلٌ بِهِ ۚ ﴾ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنعَقَ قُرْآنُهُ ﴿١٨﴾ .

هكذا بنون العظمة : إن علينا أن نجمله في صدرك ثم تقرأه ، علينا لا على غيرنا . فكان إذا أتاه جبريل أطرق فإذا ذهب عنه قرأه كما وعده الله عز وجل

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝۱ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝۲ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝۳ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝۴ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝۵ ﴾
 اقرأ يا محمد وتعلم .

فذلك الرب الكريم الذي خلق الإنسان وصوره وعدله وركبه في أحسن صورة زاد في إكرامه إياه إذ علمه بالقلم ، علّمه ما لم يعلم . فكيف لا يعلمك أنت ما لم تكن تعلم وهو الكريم الأكرم القادر على التعليم بغير القلم كما علّم بالقلم ؟

تلك آياته وذاك فضله ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ۝۹۲۴ ﴾ .

إن حديث القرآن عن قراءة الرسول ﷺ أو إقرائه — وهو النبي الأمي — يقدم للناس الحقيقة مقترنة بعبرتها ، والعبرة هنا لا تقف عند جيل بعينه ، بل تصاحب الأجيال كلّها ، وقد حفظ الله لها الذكر الذي نُزل عليه معجزة للرسول النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته ليؤمنوا به ويتبعوه على بصيرة راشدين مهتدين .

وهم يعرفون منة الله عليهم إذ بعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وما كان يتلو من قبله من كتاب ولا يخطه بيمينه ، فهو النبي الأمي الذي لم يقرأ من قبل كتابا ، ولم يجلس إلى مُعلّم . وقد اقترن ذلك بدعوة الناس جميعا إلى الإيمان به وحسن اتباعه ليكون الإعجاز الدالُّ على الحقِّ معينا للناس على الإيمان بالحق .

(٩٢٤) سورة النساء : ١١٣ .

﴿ قُلْ يَتَايَهُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَتَمَنُّوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .

١٨٥

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنته سورة القدر ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ ﴿ نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرِ ﴾ ﴿ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ (٩٢٥) .

في هذه السورة - سورة القدر - تنويه بفضل القرآن وعظمته بإسناد إنزاله إلى الله تعالى ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ ﴾ هكذا بنون العظمة التي تستعمل كثيرا عند الحديث عن إنزال القرآن كما قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ وفيها رفع شأن الوقت الذي أنزل فيه ، ونزول الملائكة في ليلة إنزاله إنها ليلة القدر ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾ . كما قال الله عز وجل ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴾ .

وفي ضمير العظمة وإسناد الإنزال إليه سبحانه تشريف للقرآن أي تشريف ، وليلة القدر : اسم جعله الله لليلة التي أنزل فيها القرآن .

والقدر الذي عُرِّفَت الليلة بالإضافة إليه هو بمعنى الشرف والفضل أي : ليلة القدر والشرف عند الله عز وجل .

والمقصود من تشريف الليلة التي كان ابتداء إنزال القرآن فيها تشريف القرآن بتشريف زمان نزوله تنبيها على أن الله تعالى قد اختار لابتداء إنزاله وقتا شريفا مباركا ؛ لأن عظم القدر يقتضي أن يُختار له أفضل الأوقات .

(٩٢٥) سورة القدر .

فاختيار أفضل الأوقات لابتداء إنزاله ينبي كذاك عن علو قدره عند الله سبحانه .

والليلة التي تتحدث عن السورة هي الليلة التي جاء ذكرها في سورة الدخان ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٩٢٦).

والمعروف أنها ليلة من ليالي رمضان كما ورد ذلك في سورة البقرة ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ (٩٢٧).

ومن تدبر حقيقة ما تم وتدبر آثاره على مر الزمان أدرك شيئا من دلالة في قوله ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ وقد جعلها الله موصولة الذكر على مر الزمان وذلك فيما حثنا عليه رسول الله ﷺ من قيام هذه الليلة من كل عام، ومن تحريها والتطلع إليها في العشر الأواخر من رمضان، ومن عظيم الأجر المترتب على قيامها «من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه». كل ذلك له ما له من الدلالة على قدر القرآن وعظم شأنه، فهو عظيم في ذاته، وفي الزمن الذي أنزل فيه، وفيمن نزل به أو أنزل عليه ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ أنزل الله فيها كتابا ذا شأن وقدر.

وإنما أضمر القرآن وإن لم يتقدم له ذكر لإسناد إنزاله إليه تعالى دون غيره . وجاء بضميره دون اسمه الظاهر شهادة له بالشرف والاستغناء عن التصريح باسمه لشهرته . أنزله في شهر رمضان، وفي ليلة القدر، وفي ليلة مباركة جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفصلا بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ .

(٩٢٦) سورة الدخان: ٣ - ٦ .

(٩٢٧) سورة البقرة: ١٨٥ .

وفي حديث القرآن عن القرآن نرى القسم به على أنه أنزل في ليلة مباركة، ففي سورة الدخان قد أقسم الله بالقرآن أنه أنزل القرآن في ليلة مباركة ﴿حَمَّ وَالْحَبْتِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَرَّكَةٍ﴾. وهذا النوع من القسم يدل على غاية تعظيم القرآن وعلو قدره ومنزلته.

إن حديث القرآن عن القرآن على هذا النحو يدعو إلى الاستمسك به وحسن مصاحبته واتباعه، ومن أجل ذلك أنزل، ومن أجل ذلك حفظ. والأمة التي تعي ذلك تقيم عليه روابطها، وتُنشئ على مآدبه أبناءها وتحسن اتباعه في كل شأن من شئونها. فتعصم به ولا تتفرق، وتحتكم إليه وتحذر كلَّ الحذر أن تُفتن عنه، فإن من فتن عنه حوسب عليه ﴿وَأِنْ أَحْكَمُ بَيْنَهُمْ يَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ (٩٢٨).

إن كل آية من هذا القرآن العظيم ستأتي يوم القيامة لتسأل عن فريضتها وتحتاج من خالفها أو أعرض عنها، كما قال أبو الدرداء - رضي الله عنه -: «أخاف أن يقال لي يوم القيامة أعلمت أم جهلت؟ فأقول علمت، فلا تبقى آية في كتاب الله أمرة أو زاجرة إلا وتسألني فريضتها، تسألني الأمرة: هل ائتمرت؟ وتسألني الزاجرة: هل ازدجرت؟ فأعوذ بالله من علم لا ينفع ومن دعاء لا يسمع».

إنه حجة لك أو عليك.

فهل يعي المسلمون حديث القرآن عن إنزاله في ليلة القدر. وما يعنيه من حرص عليه وتمسك به، وألا يشغلوا عنه بأي شاغل من حظوظ أنفسهم وزينة

حياتهم؟ ذاك ما يجب أن يكون، ولا يصح أن يشغلوا عنه بما يجمعون ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٩٢٩) ذاك هو القرآن فضل من الله ورحمة.

فهل يشغل المسلمون بما يجمعون أو يشرفون بفضل الله ورحمته فيستمسكون بالقرآن ويعتصمون؟ ﴿وَلَا تَنْفِرُوا فِي الْحَنَاءِ وَلَا تَقُولُوا لِقَوْلِهِمْ وَتَقُولُوا تَقُولُوا﴾ (٩٣٠).

ومن حديث القرآن عن القرآن ما تضمنته الآيات من سورة البينة ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ (٩٣١) ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ (٩٣٢) ﴿فِيهَا كُتِبَ الْقِيمَةُ﴾ (٩٣٣) ﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ (٩٣٤) ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ﴾ (٩٣٥).

من المعلوم أن الدين في أصله واحد، فما بعث به الأنبياء من قبل هو ما بعث به خاتمهم ﷺ.

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٩٣٦) دين واحد شرعه الله ووصى به جميع رسله وأنبيائه، وأمرهم أن يقيموه ولا يفرقوا فيه ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (٩٣٧) وقد جاء القرآن بالقول الفصل في شأن الرسل وما أرسلوا به.

(٩٢٩) سورة يونس: ٥٨.

(٩٣٠) سورة الزخرف: ٤٤.

(٩٣١) سورة البينة: ١ - ٥.

(٩٣٢) سورة الشورى: ١٣.

وقد حفظ هذا الذكر لتبقى الحقيقة للأجيال كلها محفوظة بحفظ الله .
الحقيقة كما جاءت من عند الله ، جاءتهم بيّنة واضحة في كتاب عزيز لا يأتيه
الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وخوَّطَ بها الناس
جميعاً ومنهم أهل الكتاب ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ
بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٩٣٣) .

﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ .

الناس جميعاً في حاجة إلى هذه الرسالة سواء أهل الكتاب الذين عرفوا من
قبل ثم حَرَفُوا ما عَرَفُوا أو المشركون في جزيرة العرب وغيرهم .
وما كانوا جميعاً لينفكوا عن الكفر الذي صاروا إليه إلا بهذه الرسالة على يد
رسول يتلو صحفاً مطهرة هي هذا القرآن وما فيه من حقائق وموضوعات قيمة .
جاء هذا الرسول بالبيّنة في وقت كان الإنسان فيه قد نسي خالقه فنسي نفسه
ومصيره وفقد رُشدَه وأشرك بربه .

وقد أشار القرآن الكريم إلى مظاهر الكفر الذي شمل أهل الكتاب
والمشركين في مواضع شتى . من ذلك قوله عن اليهود والنصارى وهم أهل
الكتاب :

﴿قَالَتِ الْيَهُودُ عِزُّنَا ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ
بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَسَتْ لَهُمُ اللَّهُ أَنْ يُوَفَّقُوا﴾ (٩٣٤) .

وقوله عن اليهود ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلِعِنُوا بِمَا
قَالُوا﴾ (٩٣٥) .

(٩٣٣) سورة الأنفال : ٤٢ .

(٩٣٤) سورة التوبة : ٣٠ .

(٩٣٥) سورة المائدة : ٦٤ .

وقوله عن المشركين ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۖ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۚ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۚ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۚ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۚ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينٌ﴾ (٩٣٦).

إن الرسل جميعا قد دَعَوْا إلى هذا الأصل الخالد، عبادة الله وحده وعدم الإشراك به، لذا فإن القرآن الكريم قد أنكر على الذين انحرفوا بهذا الأصل ونسبوا انحرافهم إلى الدين ظلما وزورا.

والقرآن الكريم في إنكاره هذا الانحراف في الدين الذي أرسل به الرسل جميعا إنما يرد الناس جميعا إلى وحدة صادقة في ظل توحيد خالص لا يتخذ الناس فيه بعضهم بعضا أربابا من دون الله.

وسيطل هذا النداء الذي يُتلى على الناس بلا انقطاع حُجَّةً بَيِّنَةً على من أبى أو خالف وأعرض ﴿قُلْ يَأَيُّهَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٩٣٧) نداء بارٌّ منصفٌ عادل يسوي بين العباد ولا يفرق، ويدعوهم جميعا إلى الإنصاف والعدل في أمر يتوقف عليه العدل فيما بينهم. فلا ينبغي بعضهم على بعض وربُّهم واحد، ومصيرهم واحد. كلكم لأدم وآدم من تراب.

نداء القرآن المتكرر بذلك ودعوته للناس جميعا أن يستجيبوا لنداء ربهم وأن يتراحموا فيما بينهم وأن يعدلوا في قولهم وفعلهم، كل ذلك وغيره قد جاءت به بيِّنة هذا الكتاب، فقد تبين بذلك الطريق المستقيم واستبان مصير الذين يؤمنون والذين لا يؤمنون.

(٩٣٦) سورة الكافرون.

(٩٣٧) سورة آل عمران: ٦٤.

ولهم أن يختاروا لأنفسهم على علم وبينة .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ ٦ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ ٧ ﴿جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ ٨ ﴿ (٩٣٨)

تلك بيعة هذا الكتاب وهذا بيانه ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ خُفَاءً وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ وبه قامت الحجة على أهل الكتاب والمشركين .

فماذا ينقم هؤلاء وأولئك على المسلمين ؟

﴿قُلْ يَتَّهِلُ الْكِتَابُ هَلْ تَنْقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ ٩ ﴿ (٩٣٩)

ماذا ينقم هؤلاء على المسلمين ؟ وماذا ينكرون ؟

أيُنكرون عليهم أنهم يؤمنون بالكتاب كله ويدعون كما أمرهم الله إلى كلمة سواء ؟ ﴿أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وما يؤمنون به وما يدعون إليه قد أرسل به الرسل جميعا ودَعَوْا إليه وهم جميعا يبرءون من كل من خالف ذلك وأشرك بالله .

إن ما يدعون إليه ويؤمنون به هو سبيل الأمن والسلام للخلق جميعا . الأمن والسلام الذي تنتفي معه عصبية الدم واللون والجنس ، وتقوى أخوة الإيمان والإيثار والحب .

إن هذه العقيدة البارة التي ينادي بها هذا الكتاب تحتضن الوجود كله . والكون كله يُرْحَب ويشهد بجلالها ، ويشاركه في الترحيب بها الفكر المتأمل والقلب المبصر والفترة الهادية .

(٩٣٨) سورة البينة : ٦ - ٨ .

(٩٣٩) سورة المائدة : ٥٩ .

فماذا ييغون إذا لم يستجيبوا لنداء الإنصاف والعدل؟ إذا لم يستجيبوا لنداء رب العالمين فماذا ييغون؟

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٩٤٠).

اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه .
واهدنا في جميع أمورنا إلى صراطك المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم
غير المغضوب عليهم ولا الضالين . آمين . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب
العالمين . وصلى الله وسلم وبارك على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد
ﷺ .

(٩٤٠) سورة آل عمران : ٨٣ .

الفهرس

الصفحة

٥

المقدمة

- ١٩ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة البقرة
- ٤٩ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة آل عمران
- ٧٨ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة النساء
- ٩٨ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة المائدة
- ١١٢ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة الأنعام
- ١٣١ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة الأعراف
- ١٤٦ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة الأنفال
- ١٤٩ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة يونس
- ١٦٤ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة هود
- ١٧٠ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة يوسف
- ١٧٣ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة الرعد
- ١٧٨ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة إبراهيم
- ١٨١ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة الحجر
- ١٨٤ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة النحل
- ١٩٠ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة الإسراء
- ٢٠٨ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة الكهف
- ٢٢٧ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة طه
- ٢٤١ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة الأنبياء
- ٢٤٩ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة الحج
- ٢٥١ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة المؤمنون

- ٢٥٤ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة النور
- ٢٥٧ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة الفرقان
- ٢٦٨ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة الشعراء
- ٢٧٥ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة النمل
- ٢٨٢ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة القصص
- ٢٩١ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة العنكبوت
- ٢٩٨ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة الروم
- ٣٠١ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة لقمان
- ٣٠٤ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة السجدة
- ٣٠٩ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة سبأ
- ٣١٦ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة فاطر
- ٣٢٥ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة يس
- ٣٣٠ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة ص
- ٣٣٩ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة الزمر
- ٣٥٤ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة غافر
- ٣٥٧ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة فصلت
- ٣٧٣ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة الشورى
- ٣٩٠ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة الزخرف
- ٤٠٢ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة الدخان
- ٤٠٨ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة الجاثية
- ٤١٩ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة الأحقاف
- ٤٣٢ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة محمد
- ٤٤٢ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة ق

- ٤٤٧ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة الطور
- ٤٥٠ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة القمر
- ٤٦١ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة الرحمن
- ٤٦٣ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة الواقعة
- ٤٦٦ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة الحديد
- ٤٧٩ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة الحشر
- ٤٨٢ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة الصف
- ٤٨٥ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة الجمعة
- ٤٨٨ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة التغابن
- ٤٩١ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة الطلاق
- ٤٩٣ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة الملك
- ٤٩٧ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة القلم
- ٥٠٦ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة الحاقة
- ٥٢١ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة الجن
- ٥٢٨ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة المزمل
- ٥٣٨ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة المدثر
- ٥٤١ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة القيامة
- ٥٤٤ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة الإنسان
- ٥٤٧ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة التكويد
- ٥٥١ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة الانشقاق
- ٥٥٥ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة البروج
- ٥٥٨ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة العلق
- ٥٦٢ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة القدر
- ٥٦٥ حديث القرآن عن القرآن في آيات من سورة البينة